

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الموصل

العراق في التاريخ القديم

I

موجز التاريخ السياسي

دكتور
عامر سليمان

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الموصل



I

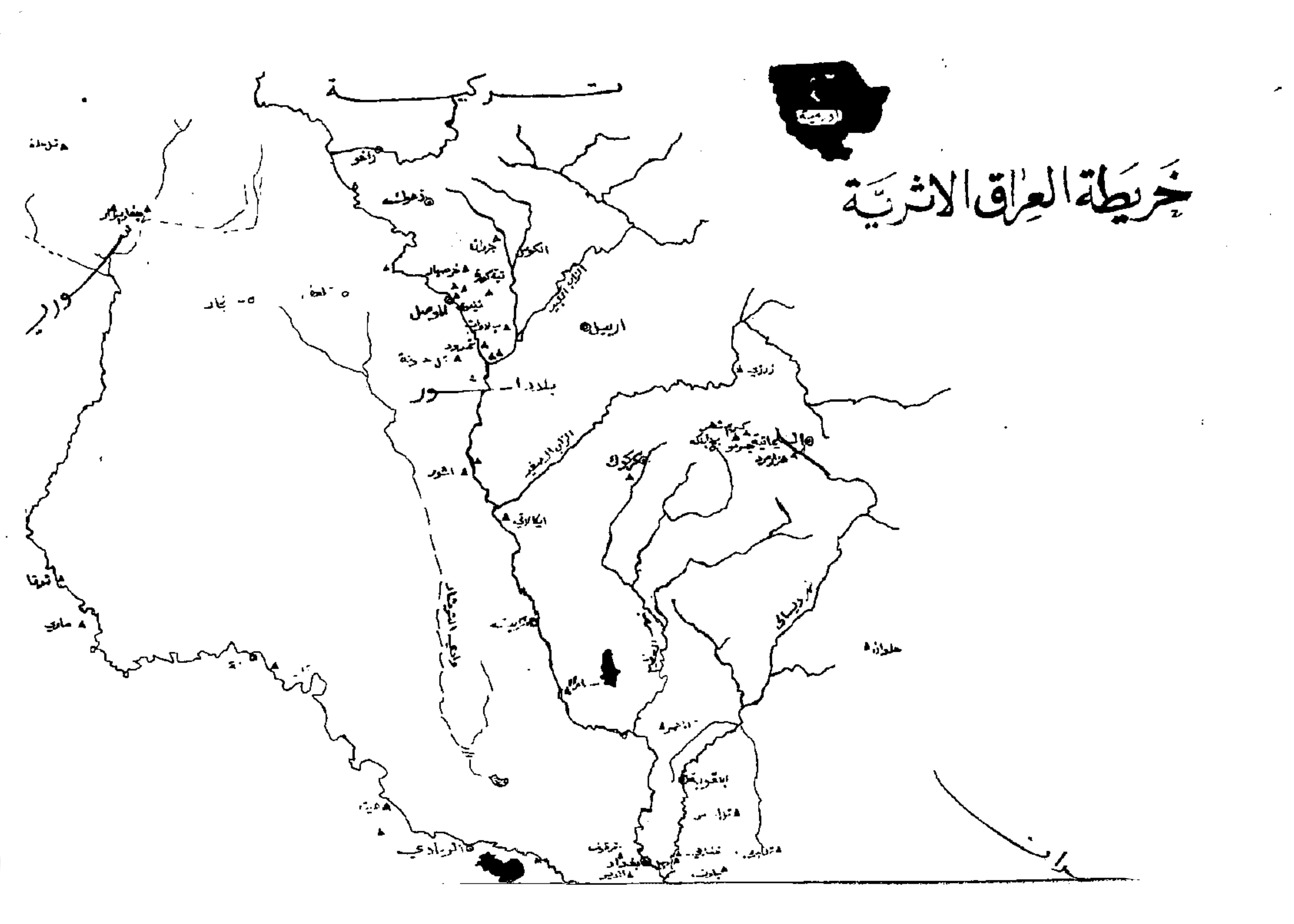
موجز التاريخ السياسي

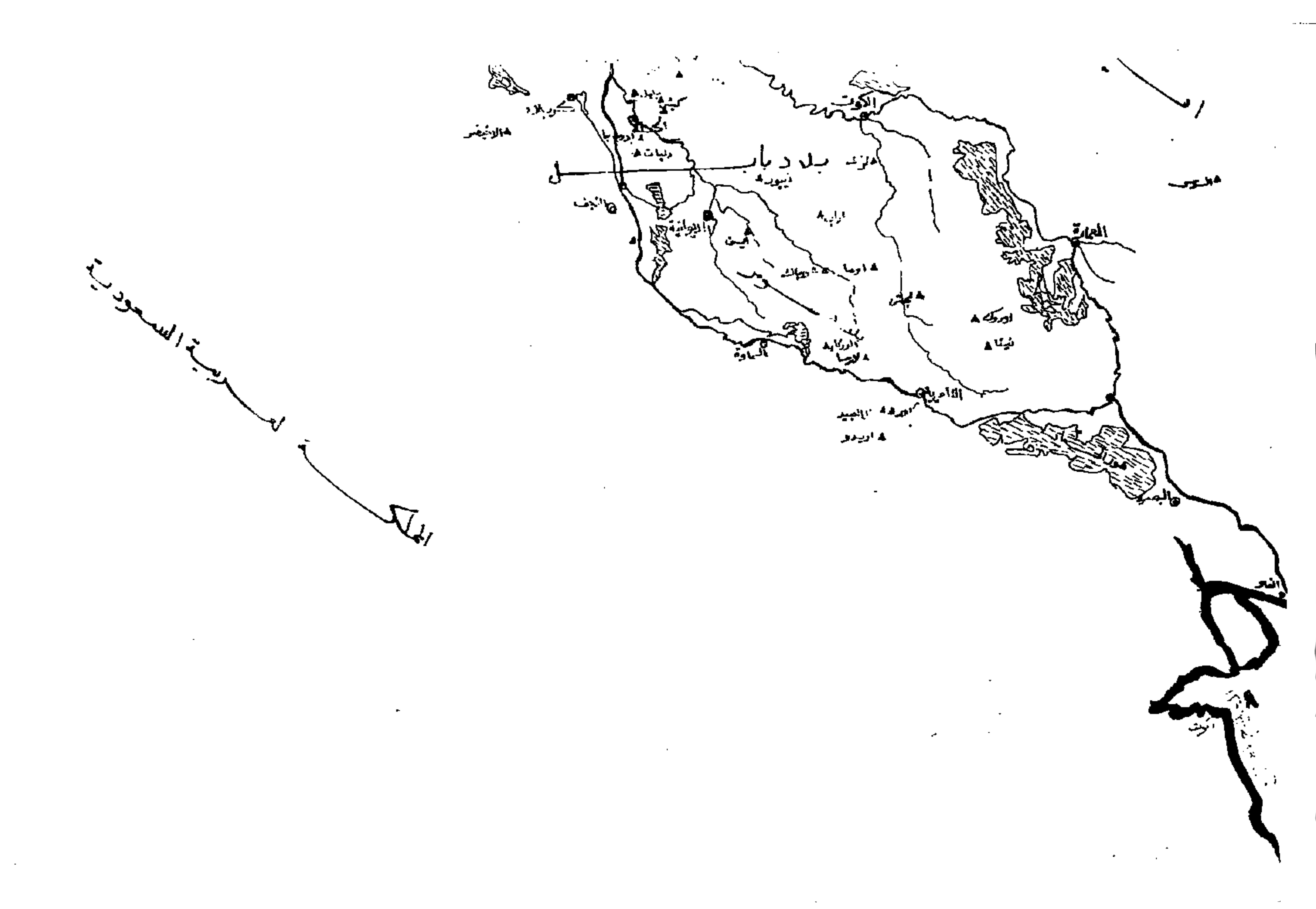
تأليف

دكتور عامر سليمان

أستاذ التاريخ القديم - قسم التاريخ
كلية الآداب - جامعة الموصل

خَريطة العِراق الاثريَة





المملكة العربية السعودية
بلاد بابل
الكوت
العمارة
البصرة
الناصرية
السماوة
الديوانية
النجف
كربلاء
الأخيضر
نيبور
الوركاء
أريدو

نشر وطبع وتوزيع
دار ابن الأثير للطباعة والنشر- الموصل
شارع ابن الأثير- الموصل


بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

تمهيد

المقدمة

للعراق في مسيرة الانسانية مكان بارز منذ عشرات الألوف من السنين، ففي هذا الجزء المهم من العالم القديم نشأت أول حضارة اصيلة تمتد بجذورها الى عمق عصور ماقبل التأريخ، فجاز لنا أن نقول إن وادي الرافدين قد شهد حقاً مولد الحضارة الانسانية. وتؤكد الادلّة الآثارية المكتشفة أن حضارة العراق الاصيلة كانت من القوة والرسوخ بحيث ظّلت حيّة نشيطة عبر العصور، صامدة أمام التحديات صابرة على المحن والشدائد وإذا كان قد اصابها الركود احياناً بسبب الغزو والاحتلال فأن ذلك لم يؤثر على مسيرتها ولم يغير من سماتها الجوهرية الاصيلة ولم يقو على طمس معالمها أو تشويه شخصيتها المميزة بل على العكس من ذلك كلّه فقد ظلت تؤثر فيمن غزوها، وتغير من اساليب حياتهم العامة والخاصة وتطبعها بطابعها العراقي الخاص كما سيظهر لنا ذلك جلياً من متابعة فصول هذا الكتاب، بل ان من تأثيراتها ماظل يعيش مع الانسان في العراق وخارجه، تراثاً حضارياً عراقياً اصيلاً اثبتت نسبه الدراسات الآثارية الحديثة المعززة بالنصوص المسمارية السومرية والاكدية.

ولقد بدأ الاهتمام بتأريخ العراق وتأريخ نشأة حضارته وتطورها منذ اواسط القرن الماضي عندما بدأت التنقيبات الأثرية وحلت رموز الكتابة المسمارية، الّفت الدراسات والبحوث الكثيرة عن ذلك، بمختلف اللغات العالمية، ومع هذا فأن الاهتمام بذلك التأريخ في العراق وفي غيره من الاقطار العربية لم يبدأ الا منذ اواسط القرن الحاضر، ثم زاد زيادة مطردة في السنين الاخيرة، فظهر العديد من الكتب العامة التي تناولت مختلف جوانب الحضارة العراقية القديمة وترجم الكثير من الكتب الاجنبية المهمة مما سنذكره في نهاية الكتاب كما بدأت ترجمة بعض النصوص المسمارية فكانت عوناً كبيراً للدارسين والباحثين، وحرصاً من كلية الآداب في جامعة الموصل على توفير دراسة موجزة وشاملة عن

تاريخ العراق القديم وعن تطور حضارته تنسجم والمناهج الجديدة لطلبة قسم التأريخ في مراحلهم الدراسية الاولى، جاءت هذه الدراسة في جزءين تناول الاول منها موجز التأريخ السياسي الذي شهده العراق القديم وسيتناول الثاني موجزاً لاهم جوانب الحضارة العراقية القديمة.

آملين أن نكون قد وفقنا في تقديم هذه الدراسة بأسلوب مقبول وصيغة مناسبة ومن الله العلي القدير السداد والتوفيق.

عامر سليمان

حزيران ١٩٩٢

تمهيد المكان والزمان

إن «التأريخ القديم» الذي يبدأ منذ ظهور اقدم انسان على سطح الارض ويمتد، بالنسبة الى العراق وبقية أجزاء الوطن العربي، حتى ظهور الاسلام في القرن السابع الميلادي، لايعترف بالتقسيمات السياسية الحاضرة التي جزأت المنطقة الى عدد من الأقطار والبلدان المستقلة عن بعضها وأثبتت حدودها واطلقت عليها تسميات معينة قد يكون بعضها قديماً، فهذه التقسيمات والحدود حديثة نسبياً وغالباً ماتكون اعتباطية املتها الظروف السياسية، ولاسيما تلك التي اعقبت الحرب العالمية الاولى، فهي لاتنطبق على ما كانت عليه المنطقة في العصور القديمة. لذلك، فإن حدود العراق الحاضرة لاتوازي او تطابق حدود الدول والممالك القديمة التي تأسست فيما عرف بالعراق في العصور التالية، بل كانت حدود تلك الدول والممالك تتسع وتتقلص تبعاً لقوة تلك الدول أو ضعفها وغالباً ما ضمت، في حالات قوتها، جميع اراضي وادي الرافدين، أي أراضي العراق الحاضرة مضافاً اليها الاراضي الواقعة في اعالي مابين النهرين دجلة والفرات، طالما كانت هذه المنطقة تؤلف وحدة جغرافية محورها الاساس وديان هذين النهرين العظيمين. ومع ذلك، فسيقتصر حديثنا على تأريخ العراق القديم بحدود العراق الحاضرة كلما كان ذلك ممكناً.

يمثل العراق جزءاً مهماً مما اصطلح على تسميته بالشرق الادنى الذي يمتد من سواحل البحر الابيض المتوسط حتى هضبة ايران، وقد كان له دور بارز وفاعل في تأريخ المنطقة كلها وفي حضارتها. ففي هذا الجزء المهم من العالم القديم الذي عرف فيما بعد بالعراق، وبصورة خاصة في قسمة الجنوبي، كان مولد حضارة اصيلة تمتد بجذورها الى عمق عصور ماقبل التأريخ، بل لانتجاوز الحقيقة إن قلنا ان هذا الجزء من العالم القديم مع وادي النيل قد شهد حقاً مولد الحضارة الانسانية.[1]

(١) انظر فرانكفورت، هـ، فجر الحضارة في الشرق الادنى، بيروت، ١٩٥٩، ص ١٣.

وقد نمت هذه الحضارة ببطء وتوءدة عبر العصور المتالية ونضجت لتبزغ مع بداية العصور التأريخية في الألف الثالث قبل الميلاد ، واستمرت تنبض بالحياة لعدة آلاف من السنين محافظة طوال الوقت على وحدتها الحضارية على الرغم من التجزئة السياسية احياناً ومن كل الهزّات التي تعرضت لها بسبب الاضطرابات السياسية والغزو الاجنبي والتحركات العرقية في المنطقة. وظلت المراكز الحضارية الرئيسة التي قامت وازدهرت في بلاد بابل وآشور تشع بحضارتها على الشرق الادنى القديم برمته من مواقعها على ضفاف دجلة والفرات او بالقرب منها ، بل امتدت تأثيراتها الى الاقطار البعيدة ايضاً فأخذ عنها الفرس الاخمينيون الشيء الكثير وخاصة عند احتلالهم بلاد بابل وآشور، وفي عصر السيطرة المقدونية ، تأثر الاغريق تأثراً واضحاً بما كان لدى العراقيين القدماء من علوم ومعارف فنقلوا عنهم عناصر حضارية مختلفة ولاسيما في علوم الطب والفلك والرياضيات والتأريخ وغيرها ثم طبعوها بطابعهم الخاص حتى نسبت خطأً اليهم وغدت جزءاً من حضارتهم التي كانت الأساس الذي قامت عليه الحضارةالغربية الراهنة.

وقبل الحديث عن الحضارة العراقية الاصيلة التي أثرّت في الحضارات البشرية كلها ، لابد من توضيح ما يقصد بعنوان الكتاب"العراق في التأريخ القديم"بشكل علمي دقيق، ذلك أن المقصود بمصطلح «العراق» جميع الأراضي التي تضمها حدود جمهورية العراق الحديثة. ويرقى تأريخ أول استخدام لهذا المصطلح الى مدة الاحتلال الساساني (٢٢٦ — ٦٣٧ م) وتكرر استخدامه في الشعر الجاهلي ، ولكنه لم يكن يحمل المعنى نفسه ، فقد اطلق اسم العراق على الاقسام الوسطى والجنوبية فقط مما يعرف بالعراق الآن ؛ وكان البلدانيون العرب ينعتونه احياناً بالعراق العربي تمييزاً له عن «عراق العجم» الذي كان يقصد به الجزء الجنوبي من ايران. أما القسم الشمالي من العراق الحاضر فكان يسمى «الجزيرة» وكان الحد الفاصل بين الجزيرة والعراق حسبما جاء في كتابات البلدانيين العرب الخط الوهمي المار من الفلوجة على نهر الفرات غرباً الى تكريت على نهر دجلة شرقاً ، والفلوجة وتكريت يقعان ضمن حدود العراق. ثم اتسع مدلول التسمية تدريجياً وامتدت حدود العراق شمالاً فأصبح يشمل الجزيرة ايضاً ودخلت ضمن أراضيه جميع الأراضي الواقعة بين الموصل شمالاً ومدينة عبادان جنوباً ومن عذيب القادسية غرباً الى حلوان ، قرب قصر شيرين شرقاً ، أي مايوازي حدود العراق الحاضرة تقريباً. وفي العصر السلجوقي ، في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين امتدت حدود العراق لتشمل

الاقسام الجبلية من ايران الىٰ همدان ، وفي القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين تبلورت حدود العراق الحاضرة.[1]

أما اصل كلمة (عراق) ، فقد اختلفت آراء الباحثين بشأنه ، فهناك من يرىٰ أن أصل الكلمة عربي بمعنىٰ (الشاطئ) او (الجرف)[2] في حين يرىٰ آخرون أن الكلمة من أصل فارسي وأنه من أيراه التي عربت الىٰ ايراق ثم عراق ، أو أن التسميتين ايران وعراق من الكلمة ايراك ، بالكاف الثقيلة ، التي تعني البلاد السفلى . أما استاذنا المرحوم طه باقر فقد رأى احتمال أن يكون اصل كلمة (عراق) من التراث اللغوي العراقي القديم وانه ربما اشتق من كلمة (اوروك) التي تعني المُسْتَوْطَن وهي نفس الكلمة المستخدمة في تسمية مدينة الوركاء والداخلة في تركيب اسماء جملة مدن قديمة مثل اور ولارسا ، الا أن التسمية اوروك لم تستخدم لدى العراقيين القدماء للدلالة على القطر كله بل على مدينة واحدة[3] وقد رأى اولمستد أن التسمية ربما كانت مشتقة من الاسم اريقا الذي ورد في احدىٰ الوثائق التأريخية الراجعة الى القرن الثاني عشر قبل الميلاد للدلالة على اقليم معين[4] .

وقد شاع استخدام تسمية (العراق) منذ القرنين الخامس والسادس الميلاديين ومهما كان اصل اشتقاق كلمة (عراق) ، وماكانت تعنيه عبر العصور الا انها حديثة نسبياً مقارنة مع تأريخ العراق الطويل الذي يمتد الىٰ عشرات الألوف من السنين. ومن الواضح أنه لاسبيل الىٰ معرفة ماكان يطلق علىٰ العراق ، أو علىٰ اجزاء العراق المختلفة، من تسميات قبل أن تبتدع الكتابة. وبعد ان استخدمت الكتابة ذكرت لنا النصوص المسمارية التسميات المختلفة التي اطلقت علىٰ اجزاء العراق خلال العصور القديمة.

---

(١) انظر طه باقر، مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة ، بغداد ، ط ٣ ، ج ١ ، ١٩٧٣ ، ص ١٢– ١٥.

(٢) انظر ابن منظور، لسان العرب ، ج ١ مادة عرق : «العراق شاطئ الماء وخص بعضهم شاطئ البحر، وقيل سمي عراقاً لقربه من البحر وأهل الحجاز يسمّون ماكان قريباً من البحر عراقاً. وقيل سمي عراقاً لانه استكنف ارض العرب. وقيل سمي به لتواشج عروق الشجر والنخل به كأنه اراد عرقا ثم جمع علىٰ عراق..... وقيل العراق شاطئ النهر او البحر علىٰ طوله. وقيل لبلد العراق عراق لانه علىٰ شاطئ دجلة والفرات عداء حتىٰ يتصل بالبحر».

انظر كذلك ، سامي سعيد الاحمد ، المدخل الىٰ تأريخ العالم القديم ، القسم الاول ، العراق القديم ، الجزء الاول ، بغداد ، ١٩٧٨ ، ص ١٣٧ و ص ١٦٦ – ١٦٧.

(٣) طه باقر، المقدمة ، ص ٨٧

(٤) Olmstead, E.T: History of Assyria, Chicago, 1923, p. 60

ويبدو أن (بلاد سومر) أقدم التسميات المعروفة التي اطلقت على المنطقة الواقعة في أقصى جنوب العراق (وقد وردت هذه التسمية باللغة السومرية على هيئة ki.en.gi وهي تعني حرفياً (ارض سيد القصب) وكتبت باللغة الاكدية على هيئة (مَت شومبرم matŠumērim (بلاد السومريين)، ومن أهم مدن بلاد سومر نفرواوروك ولارسا وايسن وادب وشروپاك ولجش واوما واور واريدو، ومنذ اواسط الالف الثالث قبل الميلاد، وعندما تأسست مدينة اكد عاصمة للدولة الاكدية الجديدة، اطلق على القسم الوسطي من العراق، من شمال بغداد قليلاً الى جنوب مدينة بابل،اسم (بلاد أكد) الذي دون بالسومرية ki.uri. وورد بالاكدية بصيغة (مَت اكّديم mat Akkadim) أي (بلاد الاكديين) نسبة الى مدينة أكد، العاصمة. ومن أهم مدن بلاد اكد اضافة الى العاصمة التي لم يكشف عنها بعد، مدينة سپار وكوثا وبابل وكيش وبورسبا ودلبات ومَرَد.

ومنذ مطلع الالف الثاني قبل الميلاد، استخدم مصطلح (بلاد بابل)، نسبة الى مدينة بابل، للدلالة على بلاد سومر واكد وغدت التسمية تضم الاقسام الوسطى والجنوبية من العراق، وعند سيطرة الكشيين على بلاد بابل في حدود ١٦٠٠ ق. م، اطلقوا على بلاد بابل الاسم الكشي كارد نياش اي (بلاد دنياش) وهو احد الآلهة الكشية.

اما القسم الشمالي من العراق فقد عرف باسم (بلاد آشور) مت آشور mat Assur، نسبة الى مدينة آشور أول عاصمة آشورية. وقد وردت تسمية اخرى، ربما كانت تطلق على منطقة الجزيرة العليا شرقي دجلة، على هيئة بلاد سوبارتوم[1]، واستخدمت في بعض النصوص البابلية مرادفة لبلاد آشور احياناً الا أن الآشوريين انفسهم لم يستخدموا هذه التسمية الا استثناءً. واستعمل عدد من الكتاب الكلاسيكيين مصطلح بلاد بابل (بابلونيا Babylonia) و بلاد آشور (أشيريا Assyria) للدلالة على القطر كله، كما استعملوا اسم (كلدية Chaldea) اي بلاد الكلديين للدلالة على بلاد بابل فقط.

كما استخدم الكتاب الكلاسيكيون مصطلح ميزوپوتاميا Mesopotamia للدلالة على المنطقة الواقعة بين دجلة والفرات من الشمال الى حدود بغداد تقريباً، أي ما يقابل مصطلح (الجزيرة) عند البلدانيين العرب، ثم شاع استخدام المصطلح للدلالة على

---

(١) انظر تفصيل ذلك، طه باقر، المقدمة، ص ٧٧. جمال رشيد أحمد، دراسات كردية في بلاد سوبارتو، بغداد، ١٩٨٤، ص ٢٦ وما بعدها.

العراق بصورة عامة. أما الاوربيون فقد استخدموا المصطلح المذكور على نحو خاص بعد ترجمة التوراة الى اللغة اليونانية واللغات الاوربية الاخرى بالمعنى نفسه.

ويبدو أن المصطلح جاء اصلاً من تسمية وردت في التوراة وهي (ارام نهريم)[1] التي تعني (ارام النهرين) أي (بلاد مابين النهرين)، التي ترجمت الى اليونانية على هيئة ميزوبوتاميا، غير أن المقصود بهذا المصطلح في التوراة هو الاشارة الى الاقليم الذي يقع بين نهري الفرات والخابور، أو بين نهر الخابور والبليخ، ومع ذلك فقد استخدم المصطلح خطأً للدلالة على الأراضي الواقعة بين دجلة والفرات[2].

ومن التسميات الحديثة المقبولة التي اطلقت على العراق وبصورة خاصة عند الحديث عن تأريخه القديم تسمية (وادي الرافدين) اشارة الى وادي النهرين الرئيسين اللذين يشقان العراق من اقصى الشمال الى اقصى الجنوب وهما دجلة والفرات، وهي تسمية تؤكد وحدة المنطقة الجغرافية التي غالباً ما كانت تؤلف وحدة حضارية متماسكة، ومع ذلك، فإن أكثر التسميات ملاءمة للاشارة الى تأريخ هذا الجزء المهم من العالم القديم هي (العراق) لانها تسمية تعني بمدلولها الحاضر جميع الاراضي التي سنتكلم عليها المتمثلة ببلاد سومر وأكد (بلاد بابل) وبلاد آشور، كما أنها تسمية تؤكد ارتباط ماضي العراق العريق وتأريخه الطويل بحاضره المزدهر، لان الحضارة الاصيلة التي قامت في العراق منذ اقدم العصور ونمت وازدهرت، ليست حضارة ميتة، كما يحلو للبعض أن يصفوها[3]، بل أنها حضارة اثرت ومازالت تؤثر في الحضارات المعاصرة والتالية لها الى الوقت الحاضر من اليسير على الباحث أن يتلمس تأثيراتها الواضحة في حياتنا الحاضرة. كما ان مصطلح (وادي الرافدين) مصطلح مناسب للحديث عن تأريخ العراق القديم. وهو يشير بصورة خاصة الى الجانب الحضاري من تأريخ المنطقة الذي لايتحدد بحدود سياسية معينة.

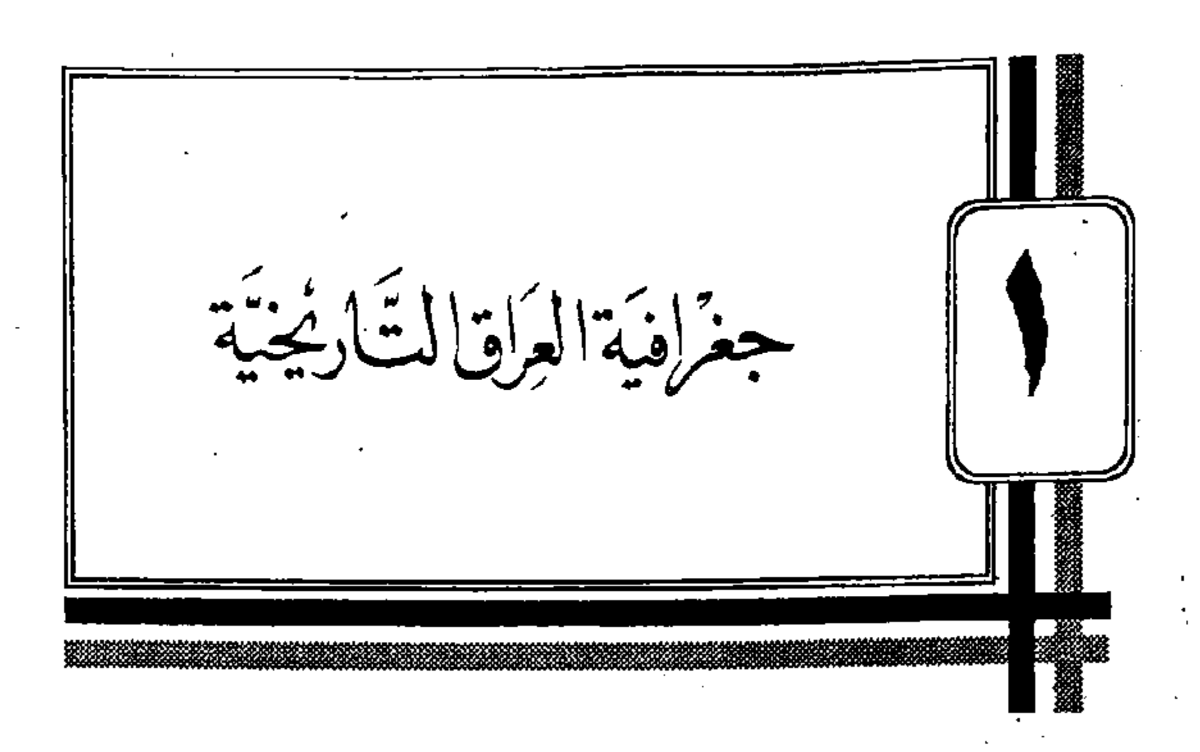
---

(١) سفر التكوين، ٢٤ : ١٠

(٢) ويشير فلكنشتاين الى أن مصطلح ميزوبوتاميا قد يكون ترجمة لتسميات عراقية قديمة بالمعنى نفسه وردت على هيئة (بيريت ناريم) او (مَت بيريتم) او (بيريتم) يعني كل منها (بلاد مابين النهرين). انظر:
— Finkelstein, JJ., Mesopotamia, Journal of Near Eastern Studies, 21 (1962) p. 73 ff.

(٣) انظر مثلاً عنوان كتاب L.Oppenheim، الالماني اليهودي، الذي عاش في امريكا واختص بتأريخ العراق القديم وكتب عنه بحوثاً ودراسات كثيرة مهمة، فقد عنون كتابه بالانكليزية Ancient Mesopotamia, Portrait of a Dead Civilization أي (ميزوبوتاميا، وجه حضارة ميتة، شيكاغو ١٩٦٤. وقد ترجمه سعدي فيضي الى العربية بعنوان (بلاد مابين النهرين).

أما المقصود بالتأريخ القديم هنا ، فهو تأريخ العراق منذ أقدم استيطان الانسان فيه في العصور الحجرية القديمة حتىٰ تحرير العراق من الاحتلال الاجنبي ودخوله دائرة الاسلام بعد معركة القادسية عام ٦٣٧ م ، وهو الحدث الاهم في تأريخ المنطقة بحيث عدّه الباحثون الحد الفاصل الذي يؤشر نهاية التأريخ القديم وبداية التأريخ الجديد.



من المؤكد ان للعوامل الجغرافية في اي بلد من البلدان اثرها الكبير والواضح في نشوء ونمو وازدهار الحضارة. ومع ذلك، يبقى دور الانسان العامل الحاسم والفاعل فيها، فالحضارة هي نتاج تفاعل الانسان مع بيئته الطبيعية وتحديه لها وتسخيرها لخدمته، وان كيفية التفاعل واسلوب التحدي وطرق تسخير الطبيعة لخدمة الانسان هي التي تكسب الحضارة طابعها الخاص. وما ينطبق على الحضارات المعاصرة يصدق على الحضارات القديمة، ومنها حضارة العراق، بل إن تأثير البيئة الطبيعية بعواملها الجغرافية المختلفة على سير الحضارة واتجاهاتها كان اكثر وضوحاً وأعمق اثراً في العصور القديمة نظراً لأن الانسان تمكن خلال العصور التأريخية المتتابعة حتى الوقت الحاضر من اختراع واكتشاف طرق ووسائل السيطرة على العوامل الجغرافية المختلفة والحد من تأثيراتها على حياته ومعرفة أسلوب تسخيرها لخدمته دون عناء كبير.

العوامل الجغرافية المؤثرة في تأريخ وحضارة العراق القديم :

عند دراسة تأريخ العراق القديم لابد من إلمامة سريعة بالعوامل الجغرافية المختلفة التي كان لها تأثير واضح على تأريخ الانسان وتأريخ حضارته. فالعراق، وبقية اجزاء الشرق الأدنى القديم، من أماكن العالم القليلة التي يظهر فيها تأثير الجغرافية على التأريخ واضحاً، فقد كانت نشاطات الانسان في هذه المنطقة، كما نرى، مشروطة ومحدودة الى درجة كبيرة بما كانت تمليه عليه طبيعة الأرض وطبيعة تربتها وكمية الأمطار ومناطق توزيعها وخطوط توزيع الينابيع والآبار ومسارات الانهار وفيضاناتها وملاءمة المناخ وتقلباته ومدى تأثير ذلك على الزراعة الى غير ذلك من العوامل الجغرافية والطبيعية المؤثرة.[1] وفيما يأتي نبذة عن أهم هذه العوامل التي اثرت في تأريخ وحضارة العراق القديم :

١ – الموقع :

يقع العراق في الجزء الجنوبي الغربي من قارة آسيا، وقد كانت لهذا الموقع اهمية استراتيجية وتجارية كبيرة لأنه يقع على الجسر الأرضي الذي تلتقي فيه القارات الثلاث اوربا وآسيا وافريقيا، كما انه يقع عند ملتقى طرق القوافل التجارية القادمة من المحيط الهندي والشرق الأقصى باتجاه البحر الأبيض المتوسط من خلال الخليج العربي، وكان لهذا الموقع اهميته في اتصال أبناء العراق بغيرهم من الأقوام عن طريق التجارة، فكان ان انتقل العديد من العناصر الحضارية من والى العراق، نتيجة احتكاك العراقيين القدماء واتصالهم بالأقوام الأخرى. كما أن وقوع العراق الغني بموارده الزراعية والمائية، ولاسيما سهله الرسوبي الممتد بين منطقتين تفتقران لهذه الموارد الطبيعية، هما المنطقة الجبلية في الشمال والشمال الشرقي والمنطقة الصحراوية في الغرب والشمال الغربي، قد اثّر في تتابع الهجرات والغزوات عليه وكانت ردود فعل الملوك والحكام سريعة فقد قاموا بحملاتهم العسكرية المستمرة لصد الغزو والحد من الهجرة ونجحوا احياناً وفشلوا أحياناً أخرى.

---

(١) أنظر: جورج رو، العراق القديم، ١٩٦٣، ترجمة حسين علوان حسين، بغداد، ١٩٨٤ ص١٩.

٢- التضاريس :

للتضاريس كما للموقع أثر كبير وواضح في سير حياة الانسان وتأريخ حضارته ، فقد تجعل تضاريس معينة هذا البلد مثلاً إقليماً مفتوحاً تسهل الهجرة اليه كما تسهل عملية غزوه إن لم يوفر الانسان الحماية اللازمة لحدوده ، وقد تجعله اقليماً مقفلاً أو معزولاً ، كما كانت عليه الحال في وادي النيل ، فقد كانت تضاريسه سداً منيعاً ضد الأقوام والقبائل المهاجرة او الغازية . كما ان تأريخ تكوين هذه التضاريس يحدد تأريخ استيطان الانسان بشكل تقريبي .

أ- التكوين الجيولوجي لأرض العراق :

لقد تمت دراسات عديدة حول تكوين ارض العراق ، وبصورة خاصة فيما يتعلق بتكوين السهل الرسوبي ، الا ان نتائجها كانت متضاربة وآراءها مختلفة مما يشير الى ضرورة القيام بدراسات اخرى وصولاً الى نتائج مقبولة - وتتفق جميع الدراسات على أن أرض العراق لم تكن في الدهور والعصور القديمة كما هي عليه الآن ، فقد شهدت أيامئذ تغيرات جيولوجية واضحة حتى استقرت على ماهي عليه الآن منذ بداية العصور التأريخية .

وتدل الدراسات الجيولوجية على أن ارض العراق بأكملها كانت في وقت ما مغمورة بالمياه حتى أواخر الدهر الجيولوجي الأول ، ثم بدأت مياه البحر بالانحسار منذ حوالي ٦٠ مليون سنة ، فظهرت الأجزاء الشمالية والشمالية الشرقية من العراق متمثلة بالمنطقة الجبلية وذلك في أواخر الدهر الجيولوجي الثاني وأوائل الدهر الجيولوجي الثالث .

وتكاملت عملية ظهور المنطقة الجبلية في الدهر الجيولوجي الرابع في دوره الأخير المسمى بلايستوسين ، وهو الدهر الذي تقع فيه العصور الجليدية والعصور الحجرية القديمة .

أما المنطقة الوسطى والجنوبية أومايعرف عادة بالسهل الرسوبي ، فقد أشارت النظرية السائدة حتى عام ١٩٥٠ ، إلى أنه منخفض حوض كانت تغمره مياه البحر في العصور الحجرية القديمة وكان ساحل البحر يمتد الى الخط الوهمي الذي يصل مابين هيت وسامراء وبلد وذلك قبل نصف مليون سنة . وخلال العصور الحجرية القديمة والحديثة ، ونتيجة تراكم الترسبات الغرينية التي يحملها باستمرار النهران الرئيسان دجلة والفرات تكوّن

السهل الرسوبي تدريجياً ، فزادت مساحة اليابسة وانحسر ساحل الخليج نحو الجنوب حتى أصبح في العصر الحجري المعدني يتمثل بالخط الوهمي المار بين مدينتي أور والعمارة او الكوت. اي ان ارض القسم الجنوبي من العراق لم تكن صالحة للاستيطان قبل الألف الخامس قبل الميلاد نظراً لأنها كانت مغمورة بالمياه وهي في تزايد مستمر طالما استمرت الترسبات الغرينية تتراكم في مصبات الأنهار. (١)

وفي عام ١٩٥٢ تقدم العالمان الجيولوجيان ليس وفالكون بنظرية جديدة عن تكوين السهل الرسوبي تناقض النظرية السابقة تماماً وملخص النظرية الجديدة. أن حدود ساحل الخليج العربي لم تكن في أي وقت مضى أبعد شمالاً مما هي عليه الآن بل إن ساحل الخليج كان على العكس من ذلك يقع الى جنوب حدوده الحاضرة ، وان اليابسة كانت في تناقص مستمر نتيجة التعرية المستمرة والتآكل الذي تحدثه المياه في مصبات الأنهار.

أما ما يقال عن المواد الغرينية التي ترسبها مياه دجلة والفرات سنوياً ، فالمعروف أن السهل الرسوبي هو في هبوط او انخساف مستمر. الا أن التوازن بين هذا الهبوط المستمر وبين تراكم الترسبات الغرينية قد تم بشكل حافظ على مستوى السهل الرسوبي ، واذا كانت الحال كذلك ، وهذا ما يؤيده معظم الباحثين في الوقت الحاضر ، فمن المحتمل جداً أن مياه الخليج بوضعه الحاضر كانت تغطي بعض معالم استيطان الانسان القديمة ، وان التنقيبات المقبلة في قاع الخليج ستكشف لنا عن تلك الآثار التي تسبق أقدم ماهو معروف لدينا حتى الآن. (٢)

وهنالك نظرية ثالثة بشأن مياه الخليج ترى أن مياه البحار نتيجة انخفاض درجات الحرارة الكبيرة في العصر الجليدي الرابع (١٤٠٠٠ — ١٣٠٠٠ سنة ق . م) ، وانجماد المياه أصبحت دون مستوياتها الحاضرة بأكثر من مائة متر ، وحيث ان الخليج العربي لايزيد عمقه في الوقت الحاضر عن مئة متر ، فقد كان في ذلك الوقت منخفضاً جافاً ، وفي نهاية العصر الجليدي ساد الدفء وذابت الثلوج وعادت المياه الى ما كانت عليه وارتفعت

---

(١) طه باقر ، المقدمة ، ص١٦ — ١٧.

(٢) حول رأي هذين العالمين Lees and Falcon, The Geographical History of the Mesopota mian Plains, Geogra phical Journal, 1962,pp. 24—29 وأنظر كذلك : احمد سوسة ، فيضانات بغداد ، ١٩٦٣ ، ص١٣٢ — ١٣٩.

مستوياتها وأخذ منخفض الخليج العربي يمتلئ تدريجياً الى ان وصل الى مستواه الحاضر بحدود عام ٥٠٠٠ ق.م.[1]

وكيفما تكوّن السهل الرسوبي فإنه قد يسّر سبل الاتصال البحري باقطار الخليج العربي والأجزاء الجنوبية من شبه الجزيرة والهند. وتدل نتائج التنقيبات التي اجريت في السنوات الأخيرة في بعض جهات المملكة العربية السعودية ولا سيما في الأجزاء الساحلية من الخليج على وجود آثار عراقية من الألف الخامس قبل الميلاد (عصر العبيد) في عدة مواقع كما وجدت آثار عراقية من عصور لاحقة في واحة البريمي في الامارات العربية وفي البحرين في حين تشير النصوص المسمارية الى اتصال العراق بعدد من الأقاليم الواقعة في ما وراء الخليج منها مگان ودلمون اللذان يتفق الباحثون على انها عمان والبحرين في الوقت الحاضر، فضلاً عن ميلوخا التي يظن انها وادي السند او بلاد الحبشة.

ب- أجزاء العراق الطبيعية:

تضم أراضي العراق تضاريس متباينة في أجزائها المختلفة وهي ثلاثة أنواع طبيعية من التضاريس التي يتكون منها سطح الأرض. في الشمال والشمال الشرقي تمتد الجبال الالتوائية، وفي الغرب يوجد الامتداد الشمالي لهضبة شبه الجزيرة العربية وبين المنطقة الجبلية والهضبة الصحراوية تمتد السهول، أي بين وادي دجلة والفرات، وفيما يأتي وصف موجز لكل من هذه الأقسام الطبيعية:

١- المنطقة الجبلية وشبه الجبلية:

وتشمل هذه المنطقة الجبال العالية والمرتفعات شبه الجبلية الممتدة في الأقسام الشمالية والشمالية الشرقية من العراق، وتؤلف بمجموعها ٢٠٪ من مساحة العراق الكلية، وتتصل بحدود العراق مع كل من سوريا وتركيا وايران وتمتد جنوباً وغرباً الى حدود السهل الرسوبي والهضبة الصحراوية، وتتألف حدودها الجنوبية من سلاسل جبلية واطئة مثل سلسلة جبال حمرين وجبال مكحول والعطشان وتلعفر وسنجار. وكلما اتجهنا نحو الشمال والشمال الشرقي زاد ارتفاع الجبال التي يتراوح ارتفاعها بين ١٠٠٠ - ٣٦٠٠٠ متراً. وتكسو قمم الجبال المرتفعة الثلوج طيلة ايام السنة وتغطيها الغابات والحشائش. وتخترق هذه المنطقة روافد دجلة كلها وهي الخابور والزاب الأعلى والزاب الاسفل والعظيم وديالى.

---

(١) انظر: تقي الدباغ، البيئة الطبيعية والانسان في حضارة العراق، بغداد، ١٩٨٥، ج١، ص٣٩- ٤٠.

وتتخلل المنطقة الجبلية وشبه الجبلية سهول خصبة مثل سهل شهرزور وسهل رانية وسهل كركوك وأربيل ومخمور، وهي تتمتع بمعدلات جيدة من مياه الأمطار مما يساعد على نمو كثير من النباتات والأشجار وزراعة الحبوب على اختلافها ، كما كانت المنطقة ملائمة جداً لعيش وتكاثر الحيوانات التي عاش انسان العصر الحجري القديم على صيدها . وتنتشر في المنطقة الجبلية الكهوف والمغاور التي التجأ اليها انسان العصر الحجري القديم ، وعلى اطراف هذه المنطقة عند سفوح الجبال وبالقرب من السهول الخصبة قامت أولى مستوطناته الزراعية في العصر الحجري الحديث.

٢- الهضبة الصحراوية :

وهي أوسع المناطق الطبيعية في العراق ، وتبلغ مساحتها اكثر من نصف مساحة العراق ، وهي جزء متمم لبادية الشام التي تمتد في اراضي الأقطار العربية المجاورة.وأراضي الهضبة الصحراوية متموجة تقطعها مجموعة من الوديان الطولية وتظهر فيها بعض التلول الصغيرة والكثبان الرملية ، ويتراوح ارتفاعها عن سطح البحر بين ١٠٠- ١٠٠٠ متراً .

وينحدر سطح الهضبة بصورة عامة من الغرب الى الشرق وينتهي بالسهل الرسوبي . وأمطار هذه المنطقة قليلة نسبياً تسقط بعنف في فترات قصيرة وهي في الشمال اكثر منها في الجنوب ، ويخترق المنطقة نهر الفرات من الشمال الغربي باتجاه الجنوب الشرقي ، ولا تساعد تربة المنطقة الرملية او الكلسية على نمو النباتات الا في بعض الواحات. وتنتهي المنطقة بمنخفضات واسعة كمنخفض الحبانية وهور ابي دبس ومنخفض الثرثار.

وكانت هذه الهضبة الصحراوية مسرحاً شهد هجرة الاقوام الجزرية (العربية القديمة) من شبه الجزيرة العربية إلى أرض العراق فقامت على الطريق الذي سلكته مراكز حضارية مهمة كمدينة ماري مثلاً على نهر الفرات.

٣- السهل الرسوبي :

يحتل السهل الرسوبي وسط وجنوبي العراق وتبلغ مساحته خمس مساحة العراق ، ويمتد من الخط الوهمي الذي يصل بين هيت وسامراء شمالاً حتى ساحل الخليج العربي جنوباً. ويبلغ طوله زهاء ٦٥٠ كيلومتراً بينما يتراوح عرضه بين ٤٥- ١٤٠ كيلومتراً. ويخترقه النهران دجلة والفرات ويجريان في أرض منخفضة لايتجاوز ارتفاعها ٣٢ متراً عن سطح البحر بينما لايزيد ارتفاع اي جزء من السهل عن مائة متر فوق مستوى سطح البحر.

وإذ يرتفع وادي نهر الفرات في القسم الشمالي من السهل على وادي دجلة ، فقد افاد العراقيّون القدماء من هذه الظاهرة وقاموا بشق الجداول والأنهار من نهر الفرات باتجاه نهر دجلة ، وفي الأجزاء الجنوبية من السهل تنقلب الصورة حيث يصبح وادي دجلة اكثر ارتفاعاً من وادي الفرات ، ولهذا شقت القنوات والجداول من دجلة باتجاه الفرات.

وفي القسم الجنوبي من السهل الرسوبي توجد منطقة الأهوار والمستنقعات التي تشغل مساحة كبيرة من السهل وتعيش فيها انواع معينة من النباتات والحيوانات ويكثر فيها البردي والقصب بالدرجة الاولى ويعيش فيها الجاموس فضلاً عن الحيوانات المائية كالاسماك والطيور وغيرها ، وقد طوّر سكان المنطقة منذ اقدم العصور حياتهم البدائية بصورة عجيبة لتلائم طبيعة المنطقة القريبة.

تتميز تربة السهل الرسوبي الغرينية بخصوبتها المتناهية المتجددة سنوياً حتى سميت بأرض السواد لكثرة نباتاتها ، وقد ساعد ذلك على نشوء اولى القرى الزراعية في العصر الحجري المعدني . وشهد السهل الرسوبي نمو وازدهار اقدم حضارة اصيلة معروفة فقد قامت فيه اولى المدن المتقدمة التي كانت نواة دول المدن السومرية كما سيأتي ذكر ذلك بالتفصيل .

جـ – أنهار العراق :

يخترق ارض العراق النهران الرئيسان دجلة والفرات ، وتصب فيها داخل الأراضي العراقية عدة فروع رئيسة . ولهذه الأنهار أهمية كبرى في تاريخ الحضارات التي نشأت في وديانها الى درجة سمى الاغريق بلاد بابل وآشور ببلاد (مابين النهرين) ، كما سميت (وادي الرافدين) . وترجع اسماء معظم الانهار وروافدها الى العصور القديمة وربما يرجع بعضها الى عصور ماقبل التأريخ ، فقد ورد اسم نهر الفرات في النصوص المسمارية على صيغة بُرانُن Buranun أو بُرانُنّا Buranunna وبالصيغة الأكدية پُراتِ Purati او پُراتُم Puràtum . اما دجلة ، فقد ورد اسمه على هيئة إدجنَ Idigna .[1] كما وردت اسماء الزابين في النصوص الأكدية .

ينبع نهر دجلة من المرتفعات الواقعة جنوبي شرقي تركيا وتصب فيه فروع عدة تغذيه بالمياه قبل ان يدخل الأراضي العراقية فيتكون مجراه الرئيس الذي ينحدر باتجاه الجنوب الشرقي ويدخل الحدود العراقية قرب بلدة فيشخابور. ويبلغ طول دجلة الكلي ١٧١٨

---

(١) انظر طه باقر، المقدمة ، ص ٧٤ – ٧٦.

كيلومتراً منها ١٤١٨ كيلومتراً داخل الحدود العراقية والباقي في الأراضي التركية والسورية. ويصب في دجلة بعد دخوله الأراضي العراقية نهر الخابور ثم الزابان الاعلى، او الكبير، عند الموضع المسمى بالمخلط جنوبي مدينة نمرود، والأسفل، أو الاصغر، جنوبي الشرقاط. اما نهر العظيم فيصب في دجلة بين بلد وبغداد ويلتقي نهر ديالى بنهر دجلة جنوبي مدينة طيسفون بقليل. وكان مجرى دجلة في منطقة الكوت هو المجرى الشرقي الذي يمر الآن بمدينتي الكوت والعمارة غير انه غيّر مجراه في اواخر العهد الساساني الى المجرى الغربي المسمى الآن الدجيلة ثم عاد ثانية في القرن السادس عشر الميلادي الى مجراه الأول. وينتهي دجلة عند القرنة فيصب بشط العرب.

وتنبع جميع روافد دجلة، باستثناء العظيم، من المناطق الجبلية الشرقية الواقعة خارج الحدود العراقية، وتروي مساحات واسعة من الأراضي المحيطة بها.

أما نهر الفرات، فينبع من الأجزاء الشمالية الشرقية من بلاد الأناضول ويتألف في منابعه العليا من فرعين رئيسين هما فرات صو ومراد صو اللذين يكونان مجراه الرئيس. ويبلغ طول نهر الفرات ٢٣٢٠ كيلومتراً منها ٤٥٥ كيلومتراً داخل الأراضي التركية و ٦٧٥ كيلومتراً داخل الاراضي السورية و ١٢٠٠ كيلومتراً داخل الأراضي العراقية. وتصب في الفرات عدة فروع خارج الحدود العراقية أهمها الباليخ والخابور. ويجري الفرات من بعد اتحاد فرعيه الرئيسين باتجاه الجنوب الغربي ثم يغير اتجاهه الى الجنوب الشرقي ويكون كثير التعرج والالتواء وهو يقطع الحدود التركية – السورية عند مدينة جرابلس (كركميش) ومن هناك يتجه نحو الغرب ثم الى الشرق ويستمر باتجاهه هذا حتى يخترق سهل سوريا واقليم مابين النهرين (الجزيرة) ثم يتجه نحو الأراضي العراقية فيأخذ مجراه باتجاه الجنوب الشرقي، وكان الفرات قد غيّر مجراه في السهل الرسوبي عدة مرات، والمنطقة المحصورة بين الفرات ورافده الباليخ والخابور ذات اهمية خاصة فقد قامت فيها مراكز حضارية مهمة اثّرت في سياسة الدولة الآشورية تأثيراً واضحاً.

وقد كان النهران الرئيسان دجلة والفرات يصبّان بشكل منفصل في الخليج ولا يعرف متى كان التقاؤهما وتكوينهما شط العرب. عند القرنة ويمتد شط العرب حوالي ٢٠٤ كيلومترات ويصب فيه نهر السويب والكارون الذي يصب فيه عند المحمرة ويتراوح عرض الشط بين ٤٠٠ متر عند مدينة العشار الى ١٥٠٠ متر عند مصبه في الخليج.

٣- المناخ :

تؤكد الأبحاث الآثارية والجغرافية الخاصة بالمنطقة أن مناخ العراق لم يتغير تغييراً جوهرياً منذ العصر الحجري الحديث غير أن المناخ في العصور السابقة كان يختلف تمام الاختلاف نتيجة الزحوف الجليدية في النصف الشمالي من الكرة الأرضية والتي حدثت في مدة العصور الحجرية القديمة. فقد بينت الأبحاث الجيولوجية انه كان قد حدثت أربعة عصور، او زحوف جليدية متتابعة ، وكانت تفصل كل عصرين من العصور الجليدية مدة يحل فيها دفء نسبي. وكان يقابل كل عصر جليدي في الأجزاء الشمالية من اوروبا وامريكا عصر ممطر ورطب في الشرق الأدنى ، بما فيه العراق ، بينما كان الجفاف يحل في الشرق الأدنى في مدد الدفء التي تفصل كل عصرين جليديين وقد حلت مدة الجفاف الأخيرة في الشرق الادنى منذ الألف العاشر قبل الميلاد ، اي قبيل بداية العصر الحجري الحديث وهكذا كان تأثير الزحوف الجليدية واضحاً على مناخ العراق وعلى حياة الانسان والحيوان والنبات فيه أيضاً.

فبعد ان كانت المنطقة تنعم بالأمطار الغزيرة والنباتات الكثيفة التي عاشت عليها الحيوانات المختلفة واعتمدت عليها وعلى الحيوانات حياة الانسان ، حلّ الجفاف في بعض مناطق الشرق الأدنى القديم فاضطر الانسان الى ايجاد وسائل جديدة لتوفير القوت ، فكان أن اهتدى الى الزراعة والتدجين.

ويتباين مناخ العراق من منطقة الى اخرى ويمكن وصفه بصورة عامة بأنه مناخ قاري شبه مداري ، تشبه امطاره في نظامها مناخ البحر المتوسط ، ومناخ المنطقة الجبلية شبيه بمناخ البحر الأبيض المتوسط حيث الشتاء بارد والثلوج كثيرة والصيف معتدل والأمطار غزيرة. اما منطقة السهوب فتتمتع بمناخ انتقالي بين مناخ البحر المتوسط والمناخ الصحراوي الحار وتقل فيها الأمطار قياساً مع المنطقة الجبلية. أما المنطقة الصحراوية والسهل الرسوبي فتتمتع بحرارة شديدة وتقل فيها الامطار وتزداد الرطوبة النسبية.

أثر الخلفية الجغرافية في نشوء وتطور الحضارة العراقية القديمة

يؤكد هذا الاستعراض الموجز لأهم العوامل الجغرافية في العراق مدى تأثير هذه العوامل في نشوء وتطور الحضارة العراقية القديمة وطبعها بطابع خاص مميز، غير ان ذلك لايعني أن الخلفية الجغرافية كان لها الدور الأول والأساس في نشوء وتطور الحضارة بل لابد من التأكيد ثانية أن العامل الفاعل والأساس في نشوء الحضارات بصورة عامة وتطورها كان ومازال هو الانسان. ولعل دور الانسان العراقي القديم في وضع الأسس التي قامت عليها حضارته الاصيلة كان اكبر واعمق اثراً من غيره في المناطق الاخرى نظراً لما امتازت به طبيعة ارض الرافدين الجغرافية، لاسيما قسمها الجنوبي، من عنف وقسوة وتباين في التضاريس والمناخ من منطقة الى اخرى حتى يصعب استغلالها وتسخيرها لخدمة الانسان مما دفع الى بذل المزيد من الجهود والعمل المثابر الدؤوب، بل ان حياة الانسان في العراق القديم كانت صراعاً طويلاً وعنيفاً مع الطبيعة، كما تعكس ذلك قصصه واساطيره، وكانت الغلبة في النهاية للانسان، وكان من نتائج ذلك الصراع والتفاعل مع الطبيعة حضارة العراق الاصيلة.

ومن الممكن للباحث ان يتلمس مواطن تأثير العوامل الجغرافية والبيئة الطبيعية في حضارة العراق القديمة في الجوانب الآتية:

١- في التركيب السكاني:

يقع العراق الغني بموارده الزراعية والمائية، ولا سيما سهله الرسوبي، بين منطقتين متشابهتين من حيث افتقارهما للموارد الطبيعية نسبياً على الرغم من اختلافهما البيّن في المناخ والتضاريس، الاولى هي المنطقة الجبلية في أطراف العراق الشمالية والشمالية الشرقية والثانية البوادي الصحراوية في الأطراف الغربية والجنوبية الغربية، وبين هاتين المنطقتين يمتد السهل الرسوبي اقليماً مفتوحاً لايفصله عنها أي حاجز طبيعي، باستثناء نهر دجلة بالنسبة للمنطقة الجبلية ونهر الفرات بالنسبة للمنطقة الصحراوية، وهكذا تتابعت هجرة الاقوام الجزرية القادمة من الغرب والشمال الغربي والاقوام الهندية- الاوربية القادمة من الشرق والشمال الشرقي على مر العصور، وكانت الهجرات الجزرية على نطاق واسع الى درجة انها كوّنت في نهاية الأمر الجزء الأعظم من سكان العراق في حين تغلغلت بعض

الاقوام الهندية – الاوربية واستقرت بين السكان في اثناء الغزو الذي تعرض له العراق من الجهات الشرقية والشمالية الشرقية وكان لذلك اثر كبير وواضح في التركيب السكاني في العراق.

٢– في تشوء أول انظمة الحكم :

يعد العراق من البلدان الغنية جداً بمياهها العذبة وتربتها الخصبة مما ساعد على توجه سكانه منذ اقدم العصور نحو الزراعة في اراضي العراق التي تشقها انهار عدة ، ففضلاً عن النهرين الرئيسين دجلة والفرات اللذين يمتدان على طول اراضي القطر ويجريان من الشمال الى الجنوب هنالك روافد دجلة الرئيسة التي تحمل كميات هائلة من المياه لتصبها في نهر دجلة . كما أن معدلات سقوط الامطار في القسم الشمالي باكمله كافية لنمو الحبوب والبقول والبساتين على اختلافها مما دفع السكان الى الاعتماد على الزراعة الديمية خاصة وان الأراضي الزراعية المحيطة بشواطئ الانهار مرتفعة نسبياً عن مستوى المياه ومن ثم يصعب سقيها سيحاً بوساطة القنوات والجداول . وقد كان من نتائج ذلك ان ظلت القرى الزراعية المنتشرة في القسم الشمالي من العراق صغيرة ومعتمدة كلياً على مياه الامطار ومكتفية ذاتياً ، وما تصرفه من جهود لايعدو حراثة وزراعة الأرض والانتظار حتى يحين موعد الحصاد ، لذلك لم تكن حاجة السكان ماسة لايجاد طرق ووسائل لادارة شؤون المجتمع تشمل عدداً كبيراً من القرى ، بل اكتفت كل قرية اومدينة صغيرة بما لديها وعاشت بهدوء واطمئنان ، اما في القسم الوسطي والجنوبي من العراق ، فإن معدل سقوط الأمطار كان ومازال غير كاف لأي نوع من انواع الزراعة لذا كان لابد للانسان بعد ان استقر في هذا الجزء من العراق منذ الألف الخامس قبل الميلاد ان يعمل على ري الأراضي الزراعية بالطرق الاصطناعية فيشق الترع والجداول ويقيم الأسداد لتوجيه مياه الأنهار الى الأراضي المزروعة ، وقد ساعده في ذلك طبيعة الأراضي المحيطة بنهري دجلة والفرات حيث كانت منخفضة بالنسبة لمستوى المياه فكان بالامكان شق القنوات والجداول من النهر وري الأراضي سيحاً دون الحاجة الى وسائل اخرى لرفع منسوب المياه. وفضلاً عن ذلك ، فقد كانت المنطقة باكملها مهددة بأخطار الفيضانات المدمّرة والمفاجئة وكان على الانسان اتخاذ الاحتياطات اللازمة لتصريف المياه الفائضة واقامة السدود ودرء اخطار الفيضانات وكان القيام بأي مشروع من مشاريع الري يتطلب جهوداً كبيرة تفوق جهود الأفراد والجماعات الصغيرة ، وكان لزاماً على الافراد والجماعات الصغيرة ان تتكاتف وتتعاون وتعمل سوية

لتنفيذ مثل هذه المشاريع فظهرت الحاجة الى نوع من الادارات المركزية للاشراف على تنظيم تلك الجهود وتوجيهها بما يخدم مصلحة الجماعة فعمدوا الى انتخاب واحد او اكثر من بينهم للقيام بهذه المهمة وكان ذلك النواة التي نما منها أول انظمة الحكم.

ولما كان السكان موزعين على المناطق المختلفة وكان توزيعهم يحدد بالدرجة الرئيسة وجود مصادر المياه الكافية لري الأراضي ، ونظراً لتعدد الأنهار وكثرة الاهوار والمستنقعات ، فقد نمت اكثر من ادارة مركزية واحدة في المنطقة ، كانت كل منها نواة لقيام دولة مدينة صغيرة تتمركز حول احدى المدن الرئيسة. وهكذا كان لطبيعة ارض العراق وانهارها ومناخها الاثر الكبير في نشوء أول انظمة الحكم في القسم الجنوبي من العراق منذ مطلع الالف الثالث قبل الميلاد على اقل تقدير في حين تأخر ظهور هذه الأنظمة في القسم الشمالي من العراق عدة قرون.

٣- كثافة السكان :

تعتمد الحياة في وادي الرافدين بالدرجة الاولى والأساس على خصوبة التربة ووفرة المياه ، وحيث ان التربة متوفرة في معظم انحاء العراق ، ولا سيا في سهله الرسوبي ، فقد كانت مصادر المياه ، اي الانهار، هي التي تحدد توزيع السكان على المناطق المختلفة ، ولهذا توزعت القرى والمدن على شواطئ الانهار. وقد كان من مميزات انهار العراق انها تنقل كميات هائلة من الطمي والغرين سنوياً يترسب بعضها في قيعانها فتسبب بذلك مشاكل كثيرة منها ارتفاع قيعان النهرين دجلة والفرات عن السهل الرسوبي مما يزيد في خطورة الفيضانات وقد يؤدي ذلك الى تدمير القرى والمدن ومنها تكوين الجزر الرملية في مجاري النهرين. كما كان من النتائج الخطيرة للرواسب تبديل الانهار لمجاريها في مدد زمنية مختلفة الأمر الذي يدعو الى هجرة السكان للمدن والبحث عن مستوطنات جديدة تقام على شواطئ مجاري الأنهار الجديدة.

وقد بدل نهر دجلة مجراه بين المجرى الرئيسي ومجرى الدجيلة ثم عاد الى مجراه القديم وبدل الفرات مجراه اكثر من مرة في ازمان مختلفة ومن الممكن تتبع مواقع المدن القديمة المهجورة والواقعة الآن وسط ارض جرداء في حين كانت فيما مضى تقع على ضفاف النهر مثل مدن نفر والوركاء وايسن وغيرها.

كما ادرك العراقيون القدماء منذ فترة مبكرة من العصور التاريخية خصائص النهرين الرئيسين دجلة والفرات الطبيعية وارتفاع وادي الفرات عن وادي دجلة في السهل الرسوبي ابتداء من منطقة الفلوجة– بغداد فاستغلوا هذه الظاهرة وشقوا الكثير من الانهار والجداول من نهر الفرات باتجاه دجلة لري اراضي شاسعة تقع بين النهرين ويمكن مشاهدة آثار تلك الانهار والجداول واطلال المدن والقرى التي كانت قائمة على شواطئها. كما افاد العراقيون القدماء من بعض المنخفضات الطبيعية القريبة مثل منخفض الحبانية وهور ابي دبس. وفضلاً عن ذلك، فقد تركزت مواقع استيطان الانسان، ولاسيما في المدد المبكرة، على ضفاف نهر الفرات، الذي كان اقل انحداراً من نهر دجلة فكانت فيضاناته اقل عنفاً وتقلباً.

كما كان لمشكلة ملوحة التربة اثرها في توزيع السكان وانتقالهم من منطقة الى اخرى. فالمعروف أن زيادة نسبة الملوحة في التربة عن حد معين يجعلها غير صالحة للزراعة مما كان يضطر السكان الى هجر المدن والقرى الانتقال الى مناطق اخرى اقل ملوحة وكانت نسبة الملوحة تزداد سنة بعد اخرى وتهدد السكان بقلة خصوبة الأرض وكان من اسبابها حرارة الجو وزيادة تبخر الماء وعدم معرفة القوم بوسائل التصريف، اي البزل، الذي ينبغي ان يكون ملازماً لمشاريع الري. وان هذه المشكلة كانت ومازال الى الآن تزداد بجسامتها وزيادة اخطارها، وقد عدّها العراقيون القدماء من علامات غضب الآلهة عليهم، كما ذهب بعض الباحثين الى الاعتقاد بأنها كانت السبب في انتقال المراكز الحضارية في عصور فجر السلالات من الجنوب الى الشمال تدريجياً.[١]

٤– التأثير النفسي :

اتصفت البيئة الطبيعية في العراق، ولاسيما في قسمه الجنوبي، بالقسوة والعنف. فضلاً عن تباين مناخ المواسم المختلفة والتفاوت الشديد بين درجات الحرارة صيفاً وشتاءً ونهاراً وليلاً ، وتباين المناطق المختلفة التي يتكون منها العراق، فقد اتسمت فيضانات انهاره بالعنف والقوة وعدم الانتظام في المواعيد وعدم ملاءمة مواعيد الفيضانات لمواسم الدورة الزراعية خلافاً لما كانت عليه الحال في مصر المعتمدة على نهر النيل في حياتها. فالمعروف ان نهر النيل يتصف باطراد فيضانه وانتظامه وبأنه يحدث في وقت يلائم الدورة الزراعية، وكان من نتائج هذا العنف والقسوة في طبيعة وادي الرافدين، ان اتصفت

---

(١) انظر طه باقر، المقدمة، ص٣٨– ٣٩.

الحضارة التي قامت في السهل الرسوبي بالعنف والتشاؤم والتوتر والتأزم وتوقع المفاجآت وطغت عليها الناحية العملية في الحياة ، وقد انعكس ذلك على نفسية الفرد العراقي ، في حين ان حضارة مصر قد اتسمت بالهدوء والطمأنينة والسيطرة على البيئة والتفكير بالخلود فيما بعد الموت.

٥ - المعتقدات الدينية :

اثرت طبيعة ارض الرافدين وقسوتها وصعوبة السيطرة عليها في معتقدات القوم الدينية وتصوراتهم واتجاهات تفكيرهم ، فجاءت القصص والاساطير الدينية مليئة بالصراع والاحتراب من اجل البقاء. كما شغلت العراقيين القدماء الحياة وقسوتها فلم يفكروا الا بها وبما تتطلبه من صراع وكفاح فلم يبلوروا فكرة واضحة عن الحياة الثانية بعد الموت بل ظنوا ان العقاب والثواب سيكونان في هذه الدنيا فقط خلافاً لما كانت عليه الحال عند المصريين القدماء الذين اهتموا اهتماماً بالغاً بالحياة الثانية وعدّوها اكثر اهمية من الحياة الاولى ، وما تشييدهم الاهرامات الضخمة والمدافن الكبيرة واستخدامهم التحنيط للمحافظة على جثث الموتى الا أمثلة على هذا الاهتمام.

٦ - الحياة الاقتصادية :

على الرغم مما امتاز به العراق من خصوبة تربته ووفرة مياهه ، الا أنه ، ولاسيما قسمه الجنوبي يفتقر الى المواد الأولية الضرورية لقيام ونمو الحضارة كالمعادن والأخشاب والاحجار على اختلافها. وكان على العراقيين القدماء ان يستوردوا هذه المواد من البلدان والأقاليم المجاورة ، فنشطت التجارة الخارجية ونظمت القوافل التجارية ووضعت القواعد الرصينة لمثل هذه التجارة. وقد أدى افتقار العراق للمواد المذكورة الى سعي الحكام والملوك على السيطرة على طرق المواصلات المؤدية الى مصادر هذه المواد ، فقامت الحروب والمنازعات بين الدول والممالك الصغيرة المتجاورة ، وكان ذلك من اسباب توحيد الدول الصغيرة في دولة واحدة مالبثت ان غدت امبراطورية واسعة تسيطر على جميع الطرق التجارية التي تصل بين البحر الاعلى (الأبيض المتوسط) والبحر الاسفل (الخليج العربي) ، وهذا هو ماحدث في عهد الدولة الأكدية وعهد سلالة اور الثالثة وسلالة حمورابي وغيرها. بل ان العراقيين القدماء ، ولنقص المواد الاولية عندهم قد اقاموا لهم مراكز تجارية خارج العراق ،

فقد اثبتت التنقيبات الاثرية وجود اكثر من عشرة مراكز تجارية آشورية من العصر الآشوري القديم (حدود ٢٠٠٠- ١٨٠٠ق.م) في اقليم كبدوكيا جنوب شرقي الاناضول، كما كانت علاقات بلاد سومر واكد ببلدان الخليج وما وراء الخليج قوية جداً، مثل علاقاتهم مع دلمون (البحرين) ومگان (عمان) وميلوخا (وادي السند او الحبشة).

أما في داخل العراق، فلقد كانت خصوبة التربة ووفرة المياه وملاءمة المناخ حوافز وعوامل وجهت السكان بصورة عامة الى الزراعة وانتاج الحبوب وزراعة البساتين. ولموقع العراق التجاري المهم اهتم سكان بلاد بابل بالتجارة، وبغية تنشيط التجارة وتنظيمها، صدرت القوانين والمراسيم الملكية لوضع الضوابط الخاصة بالتجارة باشكالها المختلفة حتى غدت النظم التجارية العراقية القديمة مثلاً اقتبست منه الأمم الاخرى، بل ان بعض الباحثين المحدثين اطلقوا اسم مجتمع التجار على المجتمع العراقي في العصر البابلي القديم (٢٠٠٠- ١٦٠٠ق.م).

٧- طرق المواصلات:

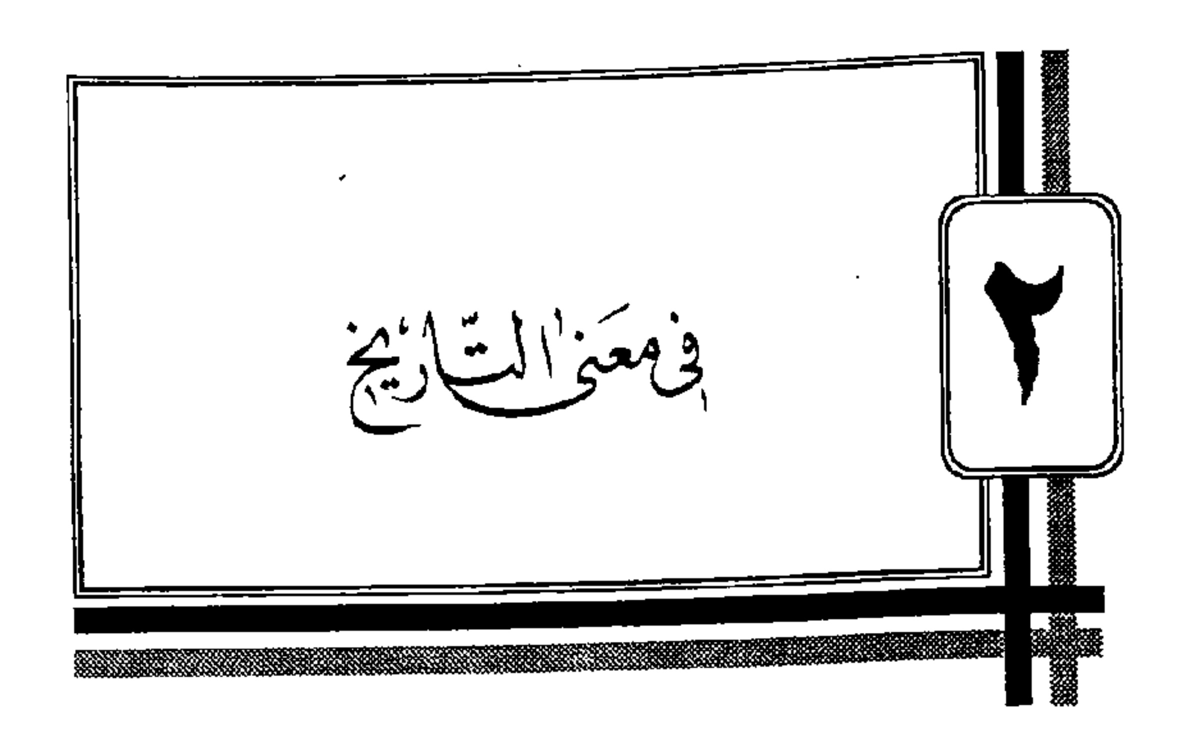
وفّرت انهار العراق الرئيسة دجلة والفرات، والفرعية طرقاً مائية جيدة قليلة التكاليف لنقل السلع والبضائع التجارية والمسافرين كما استخدمت لأغراض الصيد والحرب. ومما زاد من اهمية المواصلات النهرية ان معظم مدن العراق القديم كانت تقع على شواطئ الانهار او قريباً منها. ولقد طوّر العراقيون القدماء وسائط النقل النهرية منذ مدد مبكرة فصنعوا القارب الشراعي منذ الألف الرابع قبل الميلاد، كما صنعوا قوارب مختلفة الاشكال والأحجام لنقل البضائع والافراد واستخدموا السفن الشراعية والاكلاك والعوامات والقفف والقرب المنفوخة. وقد نظمت القوانين البابلية القديمة اسلوب استخدام السفن والقوارب واجور ملاّحيها وصانعيها مما يشير الى اهمية وسائط النقل النهرية قياساً لغيرها في المجتمع العراقي القديم.

ولم يقتصر استخدام وسائط النقل النهرية على داخل القطر بل ان السفن والقوارب استخدمت للاتصال بالبلدان والاقاليم المجاورة ولاسيما في الخليج العربي وبلاد الشام، وقد تفاخر سرجون الأكدي بأن سفن دلمون ومگان وميلوخا كانت ترسو في ميناء اكد.

٨- الآثار الباقية :

من المؤكد لطبيعة مناخ العراق ونوعية تربته وافتقار أرضه الى الأحجار والمعادن اكبر الاثر في الآثار التي خلفها لنا العراقيون القدماء. فرطوبة الجو والتربة تسببت في تلف جميع المواد العضوية التي خلفها الانسان. وندرة الاحجار ادّت الى توجه العراقيين القدماء لاستخدام الطين المجفف بالشمس مادة اساسية للبناء ، والمعروف ان الطين الذي يعرف عادة باللبن لايقاوم عوامل التعرية الطبيعية الا مدة محدودة من الزمن ، فكان ان تهدمت جميع الأبنية التي خلفها الانسان ولاسيما في القسم الجنوبي من العراق. اما في القسم الشمالي منه ، فقد استخدمت الحجارة للبناء ، ولكن على نطاق ضيق .

كما يلاحظ قلة المسلات والتماثيل والنصب المصنوعة من الحجر في بلاد بابل وكثرتها في بلاد آشور للسبب نفسه ، ولهذا اكتشفت المئات من المنحوتات الجدارية والنصب والتماثيل والمسلات في بلاد آشور وهي تزين الآن قاعات اشهر المتاحف العالمية. من جانب آخر فقد كان لاستخدام الطين مادة اساسية للكتابة عليها أثره في بقاء معظم الالواح الطينية المدونة بالكتابة المسمارية الى الوقت الحاضر، ولو ان العراقيين القدماء قد استخدموا ورق البردي او الجلود او غيرها من المواد العضوية السريعة التلف بالتربة الرطبة ، لفقدنا معلومات غزيرة وهائلة من التي حصلنا عليها مدونة على الواح الطين والحجارة.



٢ في معنى التاريخ

التأريخ:

التأريخ لغة (تعريف الوقت) أي تحديد الزمن، والتوريخ مثله، فيقال: أرّخ الكتاب ليوم كذا أي وقّته[١]. وكلمة تأريخ، بالالف اللينة اوبالهمزة، مشتقة اصلاً من أرّخ يؤرّخ فهو مؤرِّخ، التي ترجع باصولها القديمة الى الاسم (أرخُ) او (ورخُ) الذي يعني في اللغات الجزرية، ومنها اللغة الاكدية: (شهر) لذا سمي القمر في بعض تلك اللغات، كالعربية الجنوبية (ورخُ)، ومن هنا جاء في معنى التأريخ انه (سجل لاحداث الماضي وتحديد ازمنتها).

وكان مفهوم التأريخ يقتصر على تدوين الاخبار والحوادث السياسية والعسكرية كاخبار الحكام والملوك وتوليهم الحكم وقيادتهم الحملات العسكرية وتعاقب السلالات الحاكمة، ثم اتسع المدلول ليشمل دراسة وتحليل احوال المجتمعات البشرية الماضية من جوانبها المختلفة وما انجزته من حضارات وخلّفته من آثار وتراث وماتركته من تأثيرات في حياة المجتمعات الاخرى بشكل مباشر أو غير مباشر.

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، ج٣، ص ٤٨١.

وكان من نتائج زيادة معلوماتنا عن التأريخ بصورة عامة، والتأريخ القديم بشكل خاص، نتيجة التنقيبات الاثرية وماسفرت عنه من نتائج باهرة، وفك رموز الكتابات القديمة وقراءة النصوص المسمارية وغيرها، وتزايد اهتمام الباحثين بدراسة التأريخ، واتساع مفهوم التأريخ واحتوائه مساحة اكبر، ان بدأ البحث والتدقيق في عوامل نشوء الحضارات واسباب ازدهارها ومن ثم عوامل توقفها وركودها وأخيراً انحلالها، فعقدت المقارنات بين الحضارات المختلفة من اجل استنباط مايمكن استنباطه من قوانين وقواعد عامة لتفسير الحوادث التأريخية وفهم اسبابها ونتائجها، ولكن لما تبلغ هذه القواعد مرتبة قوانين العلوم الطبيعية من الدقة والاطراد [1]. ومع ذلك، وطالما كانت النفس البشرية وطبيعتها واحدة في مختلف الازمنة والعصور واستجابتها وانعكاساتها لظروف معينة متشابهة غالباً ماتكون متشابهة، فان التعرف على كيفية استجابة الانسان للظروف المختلفة التي مرّت عليه وماتوصل اليه من خلال التجارب وتراكم الخبرات لديه يصبح ضرورياً لفهم حاضر الانسان وبناء المستقبل من خلال الافادة من تلك التجارب والخبرات وتجنب الوقوع في الاخطاء التي وقع فيها الاسلاف.

عصور ماقبل التأريخ والعصور التأريخية:

يعني التأريخ بدراسة وتتبع حياة الانسان منذ اقدم وجوده حتى الآن. وكان الانسان قد خلق ووجد على سطح الارض في مدة لايمكننا تحديدها ولكنها تمتد دون شك الى ملايين السنين، الا ان اقدم مخلفاته التي تركها وتم اكتشافها حتى الآن ترقى بتأريخها الى حدود ١٧٥٠٠٠٠ سنة مضت [2]، وقد تكشف لنا التنقيبات المقبلة على بقايا أقدم عهداً ترجع بمعرفتنا لعمر الانسان على الارض مدة اخرى. ونظراً لطول الازمنة التي عاشها الانسان على الارض وكثرة مخلفاته وتنوعها، وتيسيراً للباحث لمتابعة تطور حياته وحضارته، فقد تعارف الباحثون في التأريخ القديم على تقسيم تلك الازمنة الى عدة اقسام واطوار مستندين في ذلك على الاختلافات الجوهرية التي طرأت على حياة الانسان وعلى التمييز بين مخلفاته الكثيرة من حيث الشكل والنوع والطراز والزخرفة والصناعة والى غير ذلك مما يميز هذا الأثر عن غيره من الآثار، وعلى ظهور او ابتداع بعض العناصر والمظاهر

---

(١) انظر تفصيل ذلك: طه باقر، المقدمة، ص ١٠٤ – ١٠٦.

(٢) تقي الدباغ، الوطن العربي في العصور الحجرية، بغداد، ١٩٨٨، ص٧.

الحضارية المهمة التي غيّرت من الحياة جذرياً وذلك قياساً بالأزمنة القديمة الاولى. اما العصور التالية، وهي العصور التي نعرف عنها اشياء كثيرة بفضل اختراع الكتابة، فقد اعتمد الباحثون على بعض الاحداث الفاصلة للتمييز بين عصر وآخر منها.

إن ظهور بعض المظاهر الحضارية اوالاختراعات المهمة التي غيرت من حياة الانسان، كالزراعة والكتابة مثلاً، ووقوع بعض الاحداث المهمة التي عدّت حدوداً فاصلة بين العصور، لم يكن في وقت واحد في جميع انحاء العالم ولهذا فأن تأثيرها لم يكن على جميع انحاء العالم، لذا كان لكل منطقة من مناطق العالم الرئيسة، كمنطقة الشرق الادنى ومنطقة اوربا ومنطقة امريكا، تقسيمات خاصة لتأريخ الانسان تعكس تطور حياته وتطور حضارته. ولكن ذلك لايعني بالطبع ان التأريخ القديم يعترف بالحدود السياسية الضيقة للبلدان والاقطار المختلفة في دراسته لحضارة الانسان وتطورها عبر العصور، بل الامر على العكس من ذلك تماماً اذ لايمكن للباحث في تأريخ العراق القديم مثلاً الفصل بين تأريخ العراق وتأريخ الاقطار المجاورة، مثل بلاد الشام وشبه الجزيرة العربية التي تؤلف جميعها منطقة واحدة كانت في احيان كثيرة، وخاصة وادي الرافدين وبلاد الشام، تحت سلطة مركزية واحدة بوصفها اجزاء من دولة واحدة. واستناداً الى ذلك، كان من التقسيمات الرئيسة للازمنة والعصور التي عاش فيها الانسان على الارض هو التقسيم الى عصور ماقبل التأريخ Pre–historic periods ، وعصور تأريخية Historic Periods، اما عصور ماقبل التأريخ فهي العصور التي لم يكن قد دوّن فيها التأريخ بعد، وحيث ان الكتابة هي وسيلة لتدوين التأريخ لذا جعل الباحثون تأريخ ابتداعها وسيلة للتدوين وكتابة التأريخ الحد الفاصل بين عصور ماقبل التأريخ والعصور التأريخية، وكما هو معروف فأن تأريخ اختراع الكتابة لم يكن واحداً في جميع انحاء العالم، لذا اختلفت العصور التأريخية التي تتزامن بدايتها مع بداية اختراع الكتابة في الأقطار والبلدان المختلفة. ومن المعروف ايضاً والمتفق عليه بين الباحثين، ان القسم الجنوبي من العراق، وهو ما كان يعرف ببلاد سومر، كان قد شهد اختراع اول نوع من انواع الكتابة المعروفة في العالم قاطبة، تلك الكتابة التي تطورت وعرفت فيما بعد بالكتابة المسمارية، وذلك في اواسط الالف الرابع قبل الميلاد (حدود ٣٥٠٠ ق.م). لذلك فأن العصور التأريخية تبدأ في بلاد سومر، استناداً الى ذلك، من أواسط الألف الرابع قبل الميلاد. وقد بينت الدراسات الحديثة أن الكتابة في مراحلها الاولى لم تكن تستخدم لتدوين التأريخ كما انها كانت غير متطورة ومحدودة الاستخدام لذا لايمكن عدّ المدة الاولى من بعد اختراعها عصراً من العصور التأريخية، بل يفضل ان تسمى تلك المدة بالعصر الشبيه بالكتابي Protoliterate period او الشبيه بالتأريخي

proto – history period، طالما لم تكن تدون فيها الاحداث التأريخية، وقد حدد الباحثون هذا العصر بالمدة الواقعة من اول اختراع الكتابة في حدود ٣٥٠٠ ق.م وحتى نهاية الالف الرابع قبل الميلاد (حدود ٣٠٠٠ ق.م).

أما بقية الاقطار والبلدان، فقد اخترعت الكتابة فيها، او اقتبست، في مدة لاحقة. ففي مصر كان اختراع الكتابة في أواخر الألف الرابع قبل الميلاد، اي من بعد اختراعها في بلاد سومر ببضع قرون، الا انها كانت اختراعاً مستقلاً وليس اقتباساً، ثم تتابع اختراع، او اقتباس ، الكتابة واستخدامها للتدوين من بعد ذلك في كل من بلاد عيلام وجزيرة كريت واسيا الصغرى وبلاد الشام وبلاد اليونان واوربا وغيرها. ومن الجدير بالاشارة اليه ان بلاد اليونان المتحضرة العريقة التي يعّدها الاوربيون الموطن الاول للحضارات الغربية، لم تستخدم فيها الكتابة للتدوين الا في القرن التاسع قبل الميلاد، اي من بعد استخدامها في كل من العراق ومصر بما يزيد عن ألفي سنة، في حين لم تعرف الاجزاء الشمالية الغربية من اوربا، وهي الدول الاسكندنافية، الكتابة الا في القرن الاول الميلادي اي ان بداية العصور التأريخية في بلاد اليونان قد تأخرت الى القرن التاسع قبل الميلاد في حين لم تبدأ العصور التأريخية في شمال غرب اوروبا الا في القرن الاول الميلادي[1] ، بل ان هناك بعض المناطق في العالم الآن، ولاسيما في اواسط افريقيا وبعض اجزاء استراليا، ماتزال لاتعرف الكتابة، اي انها ماتزال تعيش في عصور ماقبل التأريخ.

ان هذا التقسيم للأزمنة الطويلة التي مرت على الانسان لايساعد كثيراً في دراسة وتتبع المراحل التي مرّت على الانسان في حياته عبر هذه الازمنة ، وحيث ان آثار ومخلفات الانسان من عصور ماقبل التأريخ كثيرة ومتنوعة، فقد حاول الباحثون تصنيف تلك الآثار والبقايا استناداً الى اشكالها وانواعها وطريقة صنعها واستناداً الى امكنة وازمنة صنعها، وقسموا عصور ماقبل التأريخ في ضوء ذلك. فسميت العصور الاولى التي استخدم فيها الانسان الحجارة مادة اساسية لصنع الآلات والادوات بالعصور الحجرية، وعندما

---

(١) حول تاريخ ظهور الكتابات واستخدامها في العالم انظر:

Gelb, J., Astudy of Writing,Chicago, 1944; Driver, D., Semitic Writing, Chicago, 1976; Diringir, D., Writing, London, 1962;

ل كيلهامر، الكتابة المسمارية، سومر ١٢ (١٩٥٦) ص ٩٠-١٠٠. ترجمة محمود الأمين.

عامر سليمان، اللغة الأكدية، موصل ، ١٩٩١.

اكتشف المعدن واستخدمه وصنع منه بعض الآلات والأدوات، سمي ذلك العصر بالعصر الحجري المعدني، لأن الأنسان استخدم الحجارة الى جانب المعدن، وتختلف المدة الزمنية التي استخدمت فيها المعادن من منطقة الى اخرى، شأنها في ذلك شأن اختراع الكتابة، لذلك اختلفت بداية العصر الحجري المعدني بحسب المناطق والبلدان وينطبق الشيء نفسه على معظم العصور الاخرى كما سيأتي ذكر ذلك.

تؤلف عصور ماقبل التأريخ الجزء الأعظم من حياة الانسان على الارض وقد تصل الى اكثر من ٩٨٪ من عمره على الأرض شغل معظمها مايعرف بالعصور الحجرية.

أما التاريخ القديم Ancient History فأن بدايته ترجع الى اقدم الأزمنة التي عاش فيها الانسان على وجه الأرض، بيد ان نهايته تختلف من منطقة الى اخرى حسب اهمية وجسامة الاحداث التي وقعت في كل منطقة ومدى ماغيرته من حياة الانسان فيها بما يؤهلها لأن تكون حدّاً فاصلاً في التأريخ ونهاية للتأريخ القديم. وأما في العراق، وهو جزء من الوطن العربي الكبير فقد كان ظهور الاسلام ودخول الاراضي العربية تباعاً تحت لوائه أهم حدث شهدته المنطقة عبر العصور الطويلة التي مرت بها حتى مجيْ هذا الدين، لذلك عدّ الباحثون هذا الحدث العظيم نهاية للتأريخ القديم [1]، وبداية لتأريخ جديد، في حين عدّ تأريخ روما وسقوطها عام ٤٧٦ ميلادية نهاية للتأريخ القديم في اوربا لأثر ذلك الكبير في تأريخ الأقطار الأوربية المختلفة.

واستناداً الى هذا التقسيم، فأن المقصود بتأريخ العراق القديم، او العراق في التأريخ القديم، الأزمنة والعصور الطويلة التي مرّت على الانسان منذ اقدم الأزمنة التي عاش فيها على هذه الارض حتى دخول العراق تحت لواء الاسلام بعد معركة القادسية عام ٦٣٧ ميلادية التي حررت العراق من السيطرة والاحتلال الساساني.

تدوين التأريخ:

كان الأعتقاد السائد حتى اواسط القرن الماضي ان كتاب العهد القديم (التوراة) هو اقدم المدونات التأريخية المعروفة ويليه مادوّنه الكتبة الكلاسيكيون من يونان ورومان، وفي مقدمتهم هيرودوتس الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد وكان اول من استخدم كلمة تأريخ History، الا ان التنقيبات الاثرية وماكشفت عنه من نصوص، وفك رموز الكتابة المسمارية وقراءة نصوصها المكتشفة بينت بكل وضوح ان العراقيين القدماء كانوا

(١) طه باقر، المقدمة، ط٢، ١٩٥٥، ج١، ص١٣

أول من دوّن التأريخ بأسلوبهم الخاص وان بعض مدوناتهم التأريخية، على الرغم مما فيها من سلبيات، ترقى بتأريخها الى أواسط الألف الثالث قبل الميلاد، أي الى مدة تسبق تأريخ كتابات هيرودوتس بما يقرب من ألفي سنة وربما اكثر من ذلك.

وبديهي أن الأهتمام بأحداث الماضي لم يكن مقصوراً على العصور التأريخية التي اعقبت ابتداع الكتابة واستخدامها وسيلة لتدوين التأريخ بل لابد من أن القوم كانوا يتناقلون الأخبار والحوادث التأريخية على شكل قصص وحكايات تخص بطولات وملاحم وأساطير تتحدث عن الماضي وتحاول تفسير أو تسويغ ماوقع فيه من احداث وتفترض أصولاً للأشياء والمخلوقات، وهذه ظاهرة عامة تنطبق على العراقيين القدماء كما تنطبق على غيرهم من الاقوام في مختلف العصور حتى الوقت الحاضر، ولنا في الألياذة والأوديسا عند اليونانيين وايام العرب عند العرب قبل الاسلام وبطولات عنترة بن شداد وأبي زيد الهلالي أمثلة منتخبة على ذلك. وعندما اخترعت الكتابة وشاع استخدامها للتدوين وجدت تلك القصص والملاحم والاساطير طريقها الى التدوين وهي محمّلة بما علق بها من اضافات ومبالغات وحذف وتحوير وبما اكتنفها من خيال خصب ابعدها عن الحقائق التي لابد من كونها قد بدأت منها، فجاء بعضها ابعد مايكون عن المدونات التأريخية بالمفهوم الحديث لهذه المدونات. وهذا أمر طبيعي جداً فنحن لانتوقع ان يجد المرء في المدونات الاولى التي ترقى بتأريخها الى آلاف السنين المفهوم العلمي الحديث للتأريخ ولمدوناته التي تميزت بطرق النقد والتحقيق والتمحيص التي لم تتوطد قواعده وتتبع في تدوين التأريخ الا منذ منتصف القرن الماضي. وعلى الرغم من عدم انطباق مفهوم التدوين التأريخي على المدونات المسمارية التأريخية فبأمكاننا القول إن التدوين التأريخي في العراق القديم قد قام على اسس مهمة منها مايمكن تسميته بالحس التأريخي الذي يظهر جلياً في اهتمام العراقيين القدماء بأحداث الماضي وتدوينها وتفسيرها وتسويغ اسباب وقوعها والمحافظة عليها الى الأجيال التالية. وقد حاول بعض الكتبة القدماء تتبع اصول الأنظمة الاجتماعية والسياسية ومعرفة اصل الحياة والأنسان وحضارته بوجه عام بيد انهم عبّروا عن مثل هذه الاهتمامات بلغة الاساطير ورموزها[1]، ومن امثلة ذلك ماورد في قصة الخليقة واصل نظام الكون بحسب نظرتهم الخاصة وفي ملحمة جلجامش وغيرهما. وكان الكتبة القدماء ينظرون الى تأريخهم البعيد بأنه قد كان عصر نعيم وهناء ورفاهية وعصر بطولات ومعجزات وخوارق، فاهتموا بذلك التأريخ وكتبوا عنه باسلوبهم الاسطوري الخاص ومما كتبه احد السومريين الذين عاشوا في الألف الثالث قبل الميلاد نقتطف الأسطر الآتية:

---

(١) انظر طه باقر، طرق البحث العلمي في التأريخ والآثار، بغداد، ١٩٨٠، ص ١٥.

«في تلك الايام كانت أرض الشرق، موضع الخير العميم وموضع الاحكام العادلة»..... «وكانت بلاد سومر ذات اللسان الواحد المنسجم، هي البلاد العظيمة التي نبعت منها احكام الامارة».... «وكان الشمال الارض المحتوية على كل مايحتاج اليه وكانت بلاد الغرب آمنة مطمئنة»(١)

أما ملحمة جلجامش فمن أجل بيان المكانة الرفيعة المقدسة التي احتلها البطل جلجامش في اذهانهم، فقد وصفته بأنه كان عارفاً بالتأريخ ومهتماً به مما زاد في مرتبته علوّاً ورفعة ومما ورد فيها من وصف جلجامش:

«هو الذي رأى كل شيء، فغني بذكره يابلادي وهو الذي عرف جميع الاشياء، وافاد من غيرها وهو الحكيم العارف بكل شيء
لقد أبصر الاسرار وكشف عن الخفايا المكتوية وجاء بانباء ماقبل الطوفان.........»(٢)

والى جانب الكتبة الذين قاموا بتدوين أخبار الماضي بطريقتهم الخاصة وخلّفوا لنا نصوصاً على درجة كبيرة من الاهمية، كان للملوك والحكام دورهم في تدوين التأريخ، بل انهم كانوا وراء معظم الكتابات التأريخية فهم أول من شجّع على كتابة التأريخ وسرد الاحداث التي وقعت فيه، وربما كان ذلك لأسباب اعلامية خالصة في بداية الأمر ثم اصبح اهتمامهم بالتأريخ وبأحداثه نوعاً من حب الاستطلاع والتعرف على ماضي البلاد، فعندما كان الملك يرغب مثلاً بتعمير معبد أو تجديد قصر سبق ان شيّد في عهد من سبقه من الملوك والحكام، فغالباً ما كان يوجز تأريخ ذلك المعبد او القصر ويبين تأريخه ويذكر اسم من قام بتشييده أول مرة ومن ثم تعميره وترميمه عبر العصور بل وكان بعضهم يبحث عن النصوص التذكارية القديمة التي كانت توضع عادة في اسس الابنية المهمة للاطلاع عليها وربما القيام ببعض الطقوس الدينية ومن ثم اعادتها الى اماكنها الى جانب النص الجديد

---

(١) فاروق الراوي، العلوم والمعارف في حضارة العراق، ج٢، ص ٢٧١.

(٢) طه باقر، ملحمة كلكامش وقصص اخرى عن كلكامش والطوفان، بغداد، ١٩٨٠، ص٧٣.

الذي يكتبه اخر الملوك الذين كانوا يقومون بترميم البناء[1]. وقد تضم النصوص التذكارية التي كان الملك يضعها في اساس البناء موجزاً باعماله العمرانية والعسكرية، وقد تم الكشف فعلاً عن مثل هذه النصوص وفي حالات قليلة كشف عن النص الذي دونه الملك الذي قام بالترميم والى جانبه النص الذي كان الملك السابق قد تركه عندما شيد البناء أول مرة[2].

وقد قام بعض الملوك بجمع النصوص المسمارية القديمة والمتضمنة تأريخ الاحداث الماضية وغيرها، وانشأوا من اجل ذلك مكتبات خاصة وبعثوا برسلهم ومبعوثيهم الى المدن المختلفة لجمع تلك النصوص او استنساخها، وهكذا أصدر اشور بانيبال (٦٦٨-٦٢٦ ق.م) أمراً ملكياً يطلب فيه جلب او استنساخ أي نص مفيد يمكن العثور عليه في المدن المهمة الرئيسة في جنوبي العراق[3].

المدونات التأريخية:

يقصد بالمدونات التأريخية النصوص المسمارية المكتشفة التي كان من اهداف تدوينها الرئيسة كتابة بعض الاحداث الماضية ومحاولة تفسيرها أحياناً أو تبرير اسباب حدوثها. وقد أمدتنا التنقيبات الاثرية بصنوف عدة من هذه النصوص وكلها يشير كما ألمحنا سابقاً، إلى الحس التاريخي الذي امتلكه العراقيون القدماء والى الرغبة والاهتمام بتدوين الاحداث الماضية بالاسلوب الذي كان شائعاً لديهم. ولاهمية هذه المدونات ولاعطاء فكرة واضحة عن طبيعة كتابتها واسلوب صياغتها وعن مدى امكانية الافادة منها في دراسة تأريخ العراق القديم، نقدم فيما يأتي نبذة مختصرة عن كل صنف منها.

١- نصوص التقاويم — Date Formulae

لم يعرف العراقيون القدماء طريقة تأريخ السنين ومعرفة تسلسلها نسبة الى نقطة ثابتة معينة على غرار ماهو متبع في التقويمين الميلادي والهجري، بل كانوا في العصور المبكرة يؤرخون السنة بأهم حادثة وقعت فيها او في السنة السابقة، ثم اتبعوا طريقة تأريخ السنين

---

(١) انظر فاروق الراوي، العلوم والمعارف، ص ٢٧٩ -٢٧٤.

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٧٥.

(٣) عامر سليمان، اللغة الاكدية، الموصل ١٩٩١، ص ١٧٤.

نسبة الى تسلسل سنوات حكم الملك في حين اتبع الاشوريون مايعرف بطريقة اللمّو في تأريخ السنين، فقد كانوا يسمّون كل سنة باسم احد كبار موظفي الدولة الذين كانوا يتعاقبون دورياً على اشغال وظيفة اللمّو الخاصة بالاشراف على احتفالات رأس السنة. ومهما كانت الطريقة المتبعة في تأريخ السنين، فقد نظم لنا الكتبة القدماء قوائم باسماء السنين الخاصة بعهد ملك معين او سلالة معينة مسلسلة حسب تتابعها التأريخي كما سيأتي تفصيل ذلك. ومع ان تقاويم السنين كانت مقتضبة في عباراتها الا انها تتضمن اخباراً وأحداثاً تأريخية لذلك يمكن عدّها من النصوص التأريخية.

٢ - جداول الملوك King Lists

تعد جداول الملوك من النصوص التأريخية المهمة التي تم الكشف عنها حتى الآن لأنها تعكس رغبة واهتمام الكتبة القدماء في تدوين التأريخ، ربما بأمر أو توجيه من الملك الحاكم، وان لم يخضعوا مدوناتهم للنقد والتحليل ويدققوا فيما ورد فيها من اخبار تأريخية وجداول الملوك لاتعدو أن تكون قائمة بأسماء الملوك والسلالات الذين تعاقبوا على الحكم في منطقة معينة مع مدد حكم كل ملك أو سلالة. وقد تذكر بعض الجداول اشارات يسيرة الى احداث معينة وقعت في هذه السنة او تلك ولاسيما الاحداث ذات العلاقة بالحروب والانتصارات.

وتأتي جداول الملوك السومريون Sumerian King Lists في مقدمة الجداول المكتشفة من حيث تأريخ التدوين ذلك أن تأريخ تدوينها يرقى الى نهاية الالف الثالث وبداية الالف الثاني قبل الميلاد (حدود ٢١٠٠ - ٢٠٠٠ ق.م). وقد دونت جداول الملوك السومريين باللغة السومرية وبالخط المسماري على الواح من الطين وثبتت اسماء جميع الملوك والسلالات التي تعاقبت على حكم بلاد سومر، حسب تصور ومعرفة الكتبة آنذاك، منذ اقدم العهود حتى تأريخ كتابة الجداول، اي انها شملت تأريخ بلاد سومر باكمله لدى الكتبة. ومن الجدير بالملاحظة في هذه الجداول ان الكتبة السومريين قد اتبعوا الاسلوب الذي يتبعه المؤرخون المحدثون في تقسيم التأريخ الى عصور او عهود مختلفة يفصل بين كل عصر وآخر حدث او اختراع مهم، فكما اننا قسّمنا التأريخ الى عصور تأريخية وعصور ماقبل التأريخ ووضعنا اختراع الكتابة حداً فاصلاً بينها، فقد قسّم السومريون تأريخهم الطويل ايضاً الى قسمين رئيسين تفصل بينها حادثة الطوفان المعروفة، وحادثة الطوفان المشار اليها في جداول الملوك هي الحادثة التي اشارت اليها الكتب

المقدسة والتي كانت قد حدثت في عصور قديمة لايمكن تحديدها الا ان اخبارها انتقلت بوساطة الرواية الشفوية عبر العصور المتتابعة على شكل قصص واساطير محملة بالتفاصيل المضافة والمبالغات الواضحة التي ابعدتها عن صيغتها الحقيقية[1].

وكيفما كانت الحال، فقد ذكر الكتبة السومريون اسماء الملوك، الذين حكموا قبل الطوفان ومدنهم، وبالغوا كثيراً في مدد حكم اولئك الملوك لاسباب نجهلها، ومن ثم جاء الطوفان وغمر كل شيء، فعادت الملكية ثانية الى السماء، وقد تصور السومريون الملكية وكأنها شيء مادي ورمزوا لها بالتاج والصولجان وشريط القياس، وهي شارات الملكية، التي ظنوا بأنها كانت امام الاله انو في السماء، وعندما منح البشر نظام الملكية، نزلت هذه الشارات أي الملكية، واستقرت في احدى المدن. وهكذا عادت الملكية الى السماء عند الطوفان والقضاء على الملكية، ولكنها هبطت ثانية من بعد الطوفان واستقرت هذه المرة في مدينة كيش وفيما يأتي الاسطر الاولى من جداول الملوك الخاصة بملوك قبل الطوفان:

---

(١) من المؤكد ان حادثة الطوفان المذكورة في جداول الملوك السومريين تشير الى الحادثة التي ذكرتها الكتب المقدسة، التوراة والقرآن الكريم إذ لابد وان طوفاناً كبيراً كان قد حدث في طيات الماضي البعيد، وكان من جسامة التأثير وفداحته انه ترك اثراً بليغاً في عقول الاجيال المختلفة فتناقلته الروايات الشفوية وشوهت تفاصيله الواقعية. وبالنظر الى اوجه الشبه الكثيرة بين رواية الطوفان في ملحمة جلجامش وملحمة «اتراحاسس» وبين رواية التوراة، فاننا نعتقد ان الروايتين ترجعان الى نفس الحادثة، وان هذه الحادثة وقعت في العراق القديم، ولاسيما في القسم الجنوبي منه، اي في السهل الرسوبي، وان زمنها يرجع على اغلب الاحتمالات الى اواخر مايسمى في تأريخ حضارة وادي الرافدين بمصطلح العصر الحجري المعدني Chalco lithic اي قبل بداية الحضارة السومرية في اوائل العصر المسمى بعصر فجر السلالات (أواخر الألف الرابع ق.م). هذا ماذكره الاستاذ طه باقر، في كتابه ملحمة كلكامش، المصدر السابق، ص ٤٦ ، وهو تأكيد على ان حادثة الطوفان هي حدث حقيقي وانها وقعت في العراق ولكن في عصور سحيقة في القدم وقد قدمت في هذه القضية آراء ونظريات اخرى كثيرة تجعل وقوع الحادثة في عصور اقدم مما ذكره طه باقر (انظر جورج رو، العراق القديم، ترجمة حسين علوان حسين، بغداد ، ١٩٨٤ ، ص ١٦١–١٦٣)، كما يشير المنقب الانكليزي وولي الى انه كشف عن آثار وبقايا هذا الطوفان في مدينة اور وبعض المدن المجاورة وهي تعود الى دور العبيد (انظر جورج رو، المصدر السابق، ١٦٢).

«هبطت الملوكية من السماء فكانت اريدو مركز الملوكية
وحكم في اريدو ألولم ملكاً (مدة) ٢٨٠٠٠ عاماً وحكم
آلكار ٣٦٠٠٠ عاماً، المجموع ملكان حكما ٦٤٠٠٠ عاماً.
تركت اريدو وانتقلت ملوكيتها الى باد-تبيرا. في باد- تبيرا حكم اينمنلو- أنّا ٤٣٠٠٠ عاماً، ثم حكم اينمنگال - أنّا ٢٨٠٠٠ عاماً وحكم دموزي الراعي ٣٦٠٠٠ عاماً.
(المجموع) ثلاثة ملوك حكموا ١٨٠٠٠٠ عاماً.
تركت باد- تبيرا وانتقلت ملوكيتها الى لرك....
[تستمر الجداول في ذكر انتقال الملوكية الى سپار وشروباك وذكر اسماء الملوك ومدد حكمهم] ونختتم هذه الفقرة بالقول:
(المجموع) خمس مدن وثمانية ملوك حكموا ٢٤١٠٠٠ عاماً.
ثم جاء الطوفان (وجرف البلاد)....[1]

وتستمر جداول الملوك في ذكر اسماء الملوك الذين حكموا من بعد حادثة الطوفان والمدن التي حكموا فيها، وقد عبّرت الجداول عن انتقال الملكية من مدينة الى اخرى بالقول: إن المدينة (الاولى) ضُربت بالسلاح فانتقلت الملكية بالضرورة الى المدينة الثانية، وهي اشارة واضحة الى الحروب والمنازعات التي كانت قائمة بين المدن المختلفة.

وبعد الطوفان تذكر الجداول:
«هبطت الملكية (مرة ثانية) وحلّت في كيش. وصارت كيش مركز الملوكية».
وحكم في كيش
گارو ١٢٠٠ عاماً
گلا - ندابا - أنّاپاد ٩٦٠ عاماً
.....»
وتعدد الجدوال اسماء ٢٣ ملكاً ومدة حكم كل منهم ثم تقول:
«المجموع ٢٣ ملكاً حكموا ٢٤٠ ٥١٠ سنة و ٣ اشهر و ٣ ايام ونصف اليوم».
دحرت كيش (في الحرب) ونقلت ملوكيتها الى اي- أنّا وحكم في أي- أنّا:

وتذكر الجداول اسماء ١٢ ملكاً حكموا ٢٣١٠ أعوام ثم تستمر الجداول في ذكر دحر المدينة وانتقال الملكية الى المدينة التالية وهكذا، وكلما اقتربنا من العصر الذي دونت فيه

---

(١) انظر تفصيل ذلك في طه باقر، المقدمة، ٢٨٨.

الجداول (حدود ٢٠٠٠ ق.م) كانت السنوات المعطاة لحكم الملوك اكثر منطقية حتى تصبح مقبولة بل ودقيقة وذلك في مدة العصر الاكدي ومابعدها.

وواضح من هذه المقتطفات من جداول الملوك السومريين ان هناك بعض المآخذ او السلبيات التي تؤشر عليها وبصورة خاصة مايتعلق بالمبالغة الواضحة في سنوات حكم الملوك الاوائل فقد خصصت الجداول الاف السنين لحكم كل منهم، ولايمكن تفسير ذلك على ان طول السنة المقصودة هو غير ما هو معروف من طول السنة الاعتيادية طالما كانت الجداول في تصنيفها الثاني تخصص سنوات حكم دقيقة وصحيحة للملوك المتأخرين كما لايمكن ان تفسر بان المقصود من حكم كل ملك السلالة التي كان الملك مؤسسها لأن الكتبة السومريين انفسهم لايستخدمون هذا الاسلوب في ذكرهم للملوك المتأخرين في الجداول ويبقى تفسير هذه المبالغة بانها ناتجة عن بعد المدة الزمنية وجهل الكتبة فعلاً بمدد حكم الملوك الاوائل ، ولاسيما ملوك ماقبل الطوفان ورغبتهم في اضفاء القدسية والبطولة على أولئك الملوك ووصفهم بصفات خارقة، كطول العمر والحكم. كما ان الجداول ذكرت اسماء الملوك الذين حكموا والمدن التي انتقلت اليها الملكية بشكل متعاقب وكأن البلاد كانت تحكم في جميع العصور من قبل سلالة واحدة لاينافسها منافس في حكم اي جزء من اجزاء البلاد في حين ان الدراسات الاثارية والنصوص المسمارية الاخرى المكتشفة قد بينت بما لايقبل الشك بأن بلاد سومر واكد لم تكن موحدة ولم تحكم من قبل سلطة او سلالة واحدة الا في مدد محدودة من بعد قيام الدولة الاكدية في حدود عام ٢٣٧١ ق.م. وان الغالب على بلاد سومر واكد انها كانت مجزأة الى عدة مناطق تتمركز كل منطقة منها حول مدينة رئيسة فيها سلالة حاكمة، وبعبارة اخرى: انه كان هناك اكثر من سلالة حاكمة واحدة تحكم كلاً منها جزءاً من بلاد سومر واكد يعاصر بعضها البعض الآخر.

ولابد من الاشارة هنا ايضاً الى ان جداول الملوك السومريين اغفلت ذكر بعض السلالات الملكية التي اثبتت التنقيبات الاثرية أنها كانت قد حكمت في بعض مدن بلاد سومر في مدة معينة، مثل سلالة لجش وسلالة اومّا المنافسة المعاصرة لها وغيرهما. وربما كان هذا الاغفال نتيجة جهل الكتبة بتاريخ تلك السلالات وعدم معرفتهم اصلاً بانها كانت قد حكمت هذه المدن او بسبب تحيزهم ضدها وتعمدهم اغفال ذكرها لاسباب دينية او سياسية غير معروفة لدينا.

ومع هذه السلبيات الواضحة تظل جداول الملوك مصدراً مهماً من مصادر معلوماتنا عن تاريخ بلاد سومر واكد ونموذجاً للمدونات التاريخية التي سبقت المدونات اليونانية وغيرها بقرون عدة.

وقد نظم البابليون في عهدهم القديم والوسيط قوائم اوجداول ملوك مماثلة جمعوا فيها اسماء ملوك بلاد بابل. وقد كشف عن عدد من هذه الجداول غطت بحكم ملوكها مدة زمنية طويلة تبدأ من بداية حكم سلالة بابل الاولى (١٨٩٤ ق.م) حتى العصر الكلدي في القرن السادس قبل الميلاد (٦٢٦–٥٣٩ ق.م). كما ان هناك جداول خاصة بسلالات معينة اخرى.

اما في بلاد اشور، فقد خلّف لنا الكتبة الاشوريون عدداً من جداول الملوك ضمت اسماء معظم الملوك الاشوريين ومدد حكمهم بدءاً من بداية اول سلالة حاكمة في بلاد اشور (وكان ذلك في مطلع الالف الثاني قبل الميلاد)، حتى اواسط القرن الثامن قبل الميلاد، وهو تأريخ كتابة الجداول نفسها وفيما يأتي مقتطفات من جداول الملوك الاشوريين:

اشور اوبالّط (الاول) بن اَريا – اَدد، حكم مدة ٣٦ سنة
إنليل – نراري بن اشور – اوبالّط ، عشر سنوات كذلك
اَريك –دِن– اِلِ بن اِنليل – نراري، ١٢ سنة كذلك
اَدد – نراري (الاول) أخو اريك – دِن–اِلِ حكم ملكاً ٣٢ سنة[1]

ومما يلاحظ على جداول الملوك البابليين والاشوريين بأنها قد تجاوزت السلبيات الموجودة في تجداول الملوك السومريين، فليست هناك مبالغة في ذكر سنوات حكم الملوك كما انها لم تذكر غير تعاقب الملوك الاشوريين ولم تغفل ذكر اي منهم الا خطأً كما انها مدونة باللغة الأكدية وفي المدد المتأخرة من تأريخ العراق القديم، قام الفلكي اليوناني بطليموس بتنظيم قائمة باسماء الملوك البابليين والمحتلين الفرس ومدة حكم كل منهم من عهد نبوناصر (٧٤٦–٧٣٤ ق.م) الى زمن الامبراطور الروماني انطونيوس بايوس (١٣٨–١٦١ م) ودونها باللغة الاغريقية فأفادت كثيراً في ملء الفراغات الموجودة لدينا في تسلسل حكم الملوك ومدد حكم كل منهم.

---

(١) انظر تفصيل الترجمة

Pritchard, R., Ancient Near Eastern Texts Relating to The Old Testament, New Gersy, 1969 (ANET)

٣- جداول التأريخ التعاصري Synchronistic History

من بين جداول الملوك المهمة التي خلّفها لنا الكتبة الاشوريون مايعرف عادة بقائمة الملوك المتعاصرين، او التأريخ التعاصري. وقد دونت هذه القائمة باللغة الاكدية (اللهجة الاشورية الحديثة) وبالخط المسماري على لوح من الطين بعمودين من الكتابة احدهما بجانب الاخر. يذكر العمود الاول اسماء ٨٢ ملكاً اشورياً بدءاً من اول ملك كان معروفاً لديهم، وهو ايريشم، وانتهاء بالملك اشوربانيبال (٦٦٨-٦٢٦ ق.م). في حين ضم العمود المقابل اسماء ٩٨ ملكاً من الملوك البابليين الذين عاصروا الملوك الاشوريين المذكورين في العمود الأول من عهد الملك الثاني من سلالة بابل الاولى (١٨٨٠- ١٨٤٥ ق.م) وحتى عهد اخر ملوك بلاد بابل وقت الكتابة، وهو الملك قندلانُ (٦٤٧-٦٢٦ ق.م) وقد امكن بوساطة هذه الجداول تثبيت حكم عدد من الملوك الاشوريين ومعاصريهم في بلاد بابل[1].

٤- الحوليات وكتب الاخبار او التواريخ Annals and Chronicles

اعتاد الملوك الاشوريون تخليد اعمالهم العمرانية ومنجزاتهم العسكرية ونشاطاتهم المختلفة من خلال تدوينها على نصب ومسلات والواح مختلفة الاشكال والاحجام عاماً بعد عام. وكانت طبيعة هذه المدونات تأريخية بصورة عامة وغاياتها اعلامية، بل كانت هذه النصب والمسلات والمنحوتات من اهم وسائل الاعلام المعروفة انذاك. كما انهم اعتادوا تدوين اعمالهم ومنجزاتهم العسكرية وتخليد نشاطاتهم العمرانية على الواح من الطين مختلفة الاشكال كانت توضع عادة في اسس الابنية المهمة المزمع انشاؤها او ترميمها او توسيعها، كالمعابد والقصور والاسوار وبواباتها، في مكان خفي تحت مستوى الارضية، ويمكن تسميتها باحجار الاسس لشبهها الكبير باحجار الاسس المستخدمة حتى الوقت الحاضر.

وكانت النصوص المدونة على أحجار الاسس المذكورة تضم جميع اعمال الملك الحربية السابقة ومن ثم الاعمال العمرانية المزمع القيام بها والتي وضع النص لتخليدها. ويبدو ان الهدف الاساس من مثل هذه النصوص كان يختلف عن هدف الكتابة على النصب والتماثيل والمنحوتات طالما كانت هذه النصوص توضع في اماكن مخفية من الاساس

(1) Oppenheim L. ANET, pp. 272 – 274

لايمكن مشاهدتها الا اذا ماهدم البناء، لذا فان الهدف منها كان تخليد اعمال الملك ومنجزاته واطلاع الالهة التي تصوروا وجودها وكذلك اطلاع الملوك والامراء اللاحقين على تلك الاعمال والمنجزات وحثهم على الاقتداء بها واعادة ترميم البناء ووضع اسمائهم الى جانب اسماء اسلافهم في لوح او مسلة خاصة وعدم نسب ما قام به اسلافهم من اعمال لانفسهم وكانت هذه النصوص، التي تسمى عادة بالحوليات ، تكتب على مايشبه المسامير الفخارية الكبيرة الحجم ، وفي العهود الاشورية والبابلية اخذت شكل الاسطوانة المنفوخة من الوسط او الموشور- ذي العدة اضلاع ، وهي تختلف باحجامهانسبة الى طول النص المراد تدوينه عليها[1] . وفيما يلي مقتطفات من احد النصوص المدونة على اسطوانة فخارية وجدت نسختان منها في زوايا القاعة الرئيسة في معبد نرجال في مدينة تربيص الاشورية وبعد قراءة النص وترجمته تبين انه يعود الى الملك سنحاريب (٧٠٥-٦٨١ق.م) وانه يضم، بعد القاب الملك الملكية، تفصيلاً لاخبار حملة سنحاريب الاولى على بلاد بابل والانتصار الذي حققه على مردوك - ابلا- ادينّا زعيم قبيلة كلدو ومن ثم ذكر سنحاريب في الاسطر الاخيرة من النص اخبار ترميمه المعبد الذي كان اجداده، كما يقول، قد شيدّوا اسسه وجدّدوا بناءه، فهو يقول:

سطر ٦٢ : «في ذلك الوقت ، كان ايكَال. لام. ميس، معبد الاله نرجال
الذي في مدينة تربيص الذي بناه شيلمنصر بن اشور -
ناصربال
ابن توكلتي ننورتا الذي سبقني، قد أصبح متهدماً.
وهدمت ذلك المعبد ووصلت (الى) اسسه وملأت قطعة
من الارض (مساحتها)....

٦٣ -٦٧- اخبار توسيع المعبد وتقديم القرابين
٦٨ - ودونت الانتصار، نتاج يدي الذي حققته بمساعدته ضد جميع الاعداء في
نصّي، وتركت للملوك ابنائي في المستقبل.

٦٩-في الايام المقبلة عندما يتهدم ويتساقط ذلك المعبد، دع الامير المقبل ينظر الى نصي
ويصب الزيت عليه...دعه يقدم قرباناً ودعه يثبت كتابة
اسمه مع نصي (حتى) يسمع الاله نرجال صلواته

(١) انظر عامر سليمان، الكتابة المسمارية والحرف العربي، موصل ، ١٩٨٢، ص٦٧-٩٠.

اما الكتبة البابليون، فقد خلّفوا لنا نوعاً آخر من المدونات التأريخية التي عرفت بكتب او نصوص الاخبار او بالتواريخ chronicles. وكان الاسلوب المتبع في سرد الاخبار في هذه النصوص يشابه الى درجة كبيرة الاسلوب الذي اتبعه الكتبة اليونان والرومان وبعض الكتبة والمؤرخين العرب من بعد، فقد نظمت الاخبار متسلسلة بحسب تاريخ حدوثها عاماً بعد عام وضمت اخبار بلاد بابل واشور واحداثها منذ القرن الثامن قبل الميلاد حتى حكم الملك السلوقي سلوقس الثالث ٢٢٥-٢٢٣ ق.م. وفيما يأتي مقتطف من احد هذه النصوص:

«السنة الثامنة: في اليوم السادس من شهر اَدّار، توفيت زوجة الملك. في اليوم الثامن عشر من شهر ادّار اخذ جيش اشور شُبريَ وسلبها. السنة العاشرة في شهر نيسانُ زحف جيش اشور الى مصر. في اليوم الثالث من شهر تشريتُ كانت مذبحة في مصر.

السنة الحادية عشرة: قتل الملك بالسيف في بلاد اشور الكثير من موظيفه

السنة الثانية عشرة: زحف ملك بلاد اشور الى مصر (ولكنه) مرضٍ في الطريق ومات في اليوم (العاشر) من شهر ارخَسَمنُ حكم اسرحدون بلاد اشور (مدة) اثنتي عشرة سنة وقد ظل بعل في بال.تل (اشور) مدة ثمان سنوات (من عهد) سنحاريب واثنتي عشرة سنة (من عهد) اسرحدون. (مجموع) عشرين سنة وبطل (احتفال) اكيتو»[1].

٥- نصوص تأريخية أخرى:

وفضلاً عما ذكرناه من أصناف من النصوص المسمارية التأريخية، هناك نصوص أخرى ذات طابع تأريخي منها مادون منذ اواسط الالف الثالث قبل الميلاد، كنص حاكم لجش انتمينا (حدود ٢٤٠٠ ق.م) الذي حدثنا فيه عن تأريخ الصراع الذي خاضته مدينة

(١) حول تفصيل ذلك

Grayson, A.K., Assyrian and Babylonian Chronicles Texts From Cuneiform Sources, Vol. V, New York, 1975.

لجش في عهد سلالتها الاولى مع المدينة المجاورة اوما ونزاعهما على الحدود لمدة اربعة اجيال متتالية حتى تم التوصل الى عقد معاهدة بين المدينتين بوساطة من حاكم دولة اخرى وهو ميسيلم ، وكانت تلك المعاهدة أقدم معاهدة دولية معروفة حتى الآن . كما أن هناك الرسائل الملكية ولاسيما الرسائل التي وجهها بعض الملوك الى الآلهة ، كالملك سرجون الآشوري ، الذي تصور ان من واجبه كتابة تقرير عن اعماله العسكرية وارساله على هيئة رسالة — موجهة الى الآله آشور كما تتضمن نصوص المعاهدات وبعض القصص والأساطير والملاحم الدينية والمراثي الخاصة ببعض المدن والممالك كمرثية أور ومرثية اكد وغيرها اخباراً تأريخية يمكن الافادة منها في دراسة تأريخ العراق القديم .

واخيراً لابد من الاشارة الى ماكتبه المؤرخ البابلي بيروسس (الذي ربما كان اسمه بالبابلية برعوشا او برخوشا ثم حوّر باليونانية الى بيروسس) فقد كتب تأريخ بلاد بابل منذ الخليقة والطوفان الى غزو الاسكندر المقدوني لبلاد بابل عام ٣٣١ق.م ، وكان هذا التأريخ مكتوباً باللغة اليونانية الا أن مايؤسف عليه انه قد فقد وان مايعرف عنه هو ما اقتبسه منه الكتاب الكلاسيكيون ودونوه في مؤلفاتهم .

وهكذا يجد المؤرخ الحديث عند كتابته تأريخ العراق القديم ، وبفضل ماتم انجازه في حقل الدراسات المسمارية وقراءة النصوص السومرية والاكدية ، مجموعة كبيرة من المدونات التأريخية القت الضوء على جوانب كثيرة من تأريخ العراق القديم لم تكن معروفة فيما سبق واضاءت لنا الطريق لتتبع تاريخ الاقوام التي عاشت في هذه المنطقة ومتابعة تطور حضارتها الى جانب الآثار المادية الأخرى المكتشفة فغدت لدى المؤرخ معلومات غزيرة جداً . ومع ذلك ، فإن هناك بعض الجوانب الحضارية وبعض المدد التي مرت على العراق ماتزال غامضة ، معلوماتنا عنها قليلة وربما ستكشف لنا التنقيبات المقبلة عن المزيد من النصوص المسمارية والآثار المادية التي تقدم لنا المزيد من المعلومات .

التأريخ علم من العلوم الانسانية :

التأريخ بمفهومه الواسع وبأسلوب كتابته العلمية الحديثة يعد علماً من العلوم الا أنه ليس من صنوف العلوم التي تعتمد على الملاحظة المباشرة ، كعلم الفلك ، او على التجربة والمختبر ، كالكيمياء والفيزياء ، وانما هو علم بحث ونقد ونظر ، وهو اقرب الى علوم الارض (الجيولوجيا) من غيره . فكما ان الجيولوجي يبحث في أحوال الارض فيعرف تأريخها وكيف وصلت الى ماهي عليه الآن ، كذلك المؤرخ يبحث في بقايا الماضي وآثاره ويستعين بها على

معرفة الحاضر[1] ، فهو اذن بحث وتحقيق وتمحيص وتدقيق في كل بقايا الماضي وآثاره وصولاً الى رسم صورة تقريبية اقرب ماتكون الى واقع حياة المجتمعات الماضية وما انجزته من حضارات وما وقع فيها من احداث.

وللتأريخ باعتباره علماً من العلوم الانسانية منهج او طريقة للبحث تعتمد اساساً على ثلاث خطوات رئيسة ، تتضمن الاولى جمع المصادر والاصول المتعلقة بالبحث اوما يسمى عادة بـ (جمع الاصول) ، اما الخطوة الثانية فهي مرحلة النقد الداخلي والخارجي لكل ما جمع من مصادر واصول وتدقيقها وتمحيصها والتحقق من مدى اصالتها وصحتها ودقتها. وتتضمن الخطوة الثالثة عملية التأليف بين الحقائق التي توصل اليها الباحث او المؤرخ وتركيبها وتصنيفها وتبويبها فضلاً عن تدوينها باسلوب ادبي مستساغ لينطبق على مايكتبه المؤرخ بعد ذلك القول أن أحسن تأريخ يكتب للناس هو ذلك التأريخ الذي اعتمد على الطرق العلمية في البحث التأريخي في جمع مادته وعلى الأدب والفن في عرض تلك المادة.[2]

وفضلاً عن ذلك ، فقد استخدم مصطلح التأريخ للدلالة على معانٍ اخرى محددّة الى جانب المعنى الاساس السالف الذكر ، فأستخدم للدلالة على احداث قطر معين او حياة شخصية معينة أو تأريخ شيء من الاشياء او المخلوقات كتأريخ النخيل او النفط وتأريخ الجهل وغيرها كما استخدمنا كلمة تأريخ للاشارة الى التقويم كقولنا التأريخ الميلادي والتأريخ الهجري.

التقويم وتأريخ الاحداث

من الامور البديهية التي لاتستوقف المرء تتابع الايام والشهور والسنون وحسابها على وفق التقاويم المعروفة والشائعة ، الا ان تحديد الوقت وقياس الزمن يعد من المنجزات الحضارية المهمة التي توصل اليها الانسان من خلال محاولات عدة عبر العصور.

إنه من المعروف الآن أن اليوم هو الفترة الزمنية التي تُتمُّ فيها الارض دورة واحدة حول محورها ، وتتكرر دورات الارض حول محورها وتمر الأيام تبعاً لذلك ، وقد اصطلح على تقسيم اليوم الواحد الذي يتلاحق فيه الليل والنهار، الى اربع وعشرين ساعة ، كما

---

(١) طه باقر، المقدمة ، ٩٥

(٢) ذات المصدر، ص ١٠٣

اصطلح على تقسيم الساعة الى ٦٠ دقيقة والدقيقة الى ٦٠ ثانية. وليس هناك اتفاق على بداية اليوم ونهايته فعند العرب المسلمين يبدأ اليوم من غروب الشمس ويمتد الى غروبها التالي، وبذلك يمكن معرفة بداية اليوم ونهايته دون استخدام آلة لقياس الوقت، أي ساعة، كما قسمّوا اليوم الى فترات تحددها حركة الشمس، فهناك الفجر الذي يحدد بداية النهار والزوال انتصاف النهار وبين الزوال والمغيب يحدد العصر بوساطة ظل الشيء. فمتى اصبح طول ظل الشيء بطوله الحقيقي دخل العصر وعندما شاع استخدام الساعة وقّتت الساعة استثماراً الى ذلك حيث يبدأ اليوم مع مغيب الشمس، فالساعة الواحدة تعني ساعة واحدة بعد المغيب وهكذا، وهذا مايعرف عادة بالساعة العربية.

أما اليوم عند الغربيين وكثير غيرهم فيبدأ من منتصف الليل ويمتد الى منتصف الليل التالي أي ان النهار يقع استناداً الى ذلك بين نصفي الليل، وطبيعي ان هذا الاسلوب في حساب اليوم بحاجة الى قياس الزمن ومعرفة بداية اليوم ونهايته.

ومن الظواهر الطبيعية الاخرى التي لا دخل للانسان في تحديد مواعيدها وتقسيم فترتها الزمنية مايعرف بالشهر القمري، وهو الفترةالتي يُتمُّ فيها القمر دورة كاملة حول الارض وتقاس عادة من مولد القمر الى مولده التالي ويبلغ متوسط طولها ٢٩,٥٣ يوماً. وخلال هذه الدورة تتم دورة اوجه القمر ويظهر القمر هلالاً ثم ينتصف وبدراً وينتصف ثانية الى ان ينتهي هلالاً.

وتتألف السنة القمرية من اثني عشر شهراً قمرياً يبلغ متوسط عدد ايامها ٣٥٤,٣٧ يوماً إذ تقرب عادة بحذف كسور اليوم وكبسه الى أن يصبح يوماً كاملاً يضاف الى السنة الكبيسة فيصبح عدد ايامها ٣٥٥ يوماً ويضاف اليوم عادة الى شهر ذي الحجة الذي يصبح ٣٠ يوماً بدلاً من ٢٩ يوماً وهناك ١١ سنة كبيسة في كل ٣٠ سنة حسب التقويم الهجري[1].

وحيث أن متوسط طول الشهر القمري هو ٢٩,٥٣ يوماً وأنه لايصح بداية الشهر بجزء من اليوم، لذلك اصطلح على اضافة اجزاء اليوم الى الشهر السابق او اللاحق فأصبح عدد ايام الشهر القمري اما ٢٩ يوماً أو ٣٠ يوماً ويحدد ذلك رؤية الهلال الجديد، وتتألف عادة السنة من ستة أشهر عدد ايام كل منها ٢٩ يوماً وستة أخرى عدد ايام كل منها ثلاثون يوماً.

---

(١) انظر: محمد محمد فياض، التقاويم، القاهرة، ١٩٥٨، ص ٦٦.

وقد اعتمدت الاشهر القمرية والسنة القمرية في حساب التقويم الهجري.

اما السنة الشمسية فهي المدة التي تدور فيها الارض دورة كاملة حول الشمس مبتدئة من نقطة معينة في مدارها الى ان تعود اليها. وفي اثناء دوران الارض حول الشمس تظهر لنا الشمس وكأنها تدور حول الارض في مدار لها يسمى مدار البروج. وتتلاحق الفصول الاربعة خلال دورة الارض حول الشمس. ويبلغ متوسط طول الفترة الزمنية التي تتم خلالها الارض دورتها حول الشمس ٣٦٥ يوماً و٦ ساعات و٩ دقيقة و٩,٥ ثانية التي تقرب عادة الى ١/ ٤ ٣٦٥ يوماً وعدد الشهور في السنة الشمسية اثناعشر شهراً ايضاً، تتراوح اطوالها بين ٢٨ يوما و ٣١ يوماً. فكما اشرنا أن السنة الشمسية تتألف من ١/ ٤ ٣٦٥يوماً وتجنباً لاستخدام اجزاء اليوم في حساب السنين، فقد اصطلح على اعتبار السنة البسيطة مؤلفة من ٣٦٥ يوماً وجمع اجزاء اليوم كل اربع سنوات لتؤلف يوماً كاملاً يضاف الى السنة الرابعة فيكون عدد ايامها ٣٦٦ يوماً وتسمى سنة كبيسة وتتكرر كل اربع سنوات. أما عدد ايام الشهور، وحيث ان عدد أيام السنة لايقبل القسمة على عدد الشهور وهو اثنا عشر شهراً، فقد اصطلح على جعل عدد ايام بعض الشهور ثلاثين يوماً، وعددها اربعة، وسبعة شهور عدد ايامها ٣١ يوماً. اما شهر شباط، فيكون عدد ايامه ٢٨ يوماً في السنة البسيطة و٢٩ يوماً في السنة الكبيسة. وقد اصطلح على تسمية هذا التوفيق وكبس اجزاء اليوم وجعله يوماً كاملاً كل اربع سنوات تقويماً.

وكما هو واضح فإن اشهر السنة الشمسية تتتابع حسبما اصطلح على ترتيبها وتتفق والفصول الاربعة المعتمدة اساساً على دورة الارض حول الشمس ومدى قرب المكان او بعده عن الشمس، فشهر تموز يبقى دائماً في وسط فصل الصيف عندما يكون النصف الشمالي من الكرة الارضية اقرب مايكون من الشمس في حين يكون كانون الثاني في وسط الشتاء لان نصف الكرة الشمالي يكون في هذا الشهر ابعد مايكون عن الشمس وهكذا بقية الاشهر، اما السنة القمرية واشهرها الاثنا عشر فإنه لاعلاقة لها بالشمس، وان عدد ايامها أقل من عدد ايام السنة الشمسية احد عشر يوماً لذلك فإن اشهرها لاتتفق وتتابع الفصول الاربعة بل ان شهر رمضان مثلاً، قد يكون في الصيف وقد يكون في الربيع او الشتاء وهكذا حيث تتقدم السنة القمرية ١١ يوماً عن السنة الشمسية سنوياً لانها اقصر منها ١١ يوماً وبذلك شهر رمضان يدور على جميع فصول السنة مرة كل ٣٣ سنة.

وبغية ضبط التواريخ ومعرفة تسلسل الشهور والسنون وتثبيت وضبط ازمنه وقوع الاحداث بالنسبة الى وقتنا الحاضر، فقد استخدمت تقاويم مختلفة عند امم مختلفة اذ اعتمدت اما السنة الشمسية او السنة القمرية لحساب السنين فيها. ومن ابرز التقاويم

المعروفة. حسب تسلسل تأريخ استخدامها، التقويم المصري والتقويم الروماني والتقويم البولياني والتقويم الجرجواري والتقويم القبطي. وهناك تقويم العرب قبل الاسلام والتقويم الهجري والتقويم الميلادي ومن التقاويم الاخرى الاقل اهمية وانتشاراً التقويم العبري والسرياني والفارسي والجلالي والاغريقي القديم.

وقد اعتمدت جميع هذه التقاويم نقطة ثابتة معينة في تأريخ من وضعها من الشعوب والامم وحسبت استناداً الى ذلك السنون، وسنوجز فيما يأتي اسس التقويمين الرئيسين الهجري والميلادي فقط.

فأما التقويم الهجري فقد وضع اول مرة في عهد خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد سبع عشرة سنة قمرية من هجرة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة. وقد اتفق المسلمون في عهد عمر على وضع تقويم اسلامي جديد لهم واتفقوا على أن تكون الهجرة بداية هذا التقويم، لأن موعد الهجرة معروف وثابت ولا يختلف فيه اثنان، وقد اعتمدت السنة القمرية واشهرها الاثنتا عشر اساساً لحساب هذا التقويم وعدُّ اليوم الاول من شهر محرم بداية للسنة الهجرية، وإن كانت الهجرة الفعلية في شهر صفر عندما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم مكة المكرّمة ووصل المدينة يوم ١٢ ربيع الاول.[1]

واحتفظت الأشهر العربية بأسمائها القديمة التي كانت شائعة في جزيرة العرب قبل الاسلام وهي:

محرم، صفر، ربيع الاول، ربيع الثاني، جمادى الاول، جمادى الثاني، رجب، شعبان، رمضان، شوّال، ذي القعدة، ذي الحجة.

اما التقويم الميلادي، فقد أتخذ من تأريخ ميلاد السيد المسيح بداية له، وعدت سنة الميلاد السنة الاولى من التقويم ويعتمد التقويم الميلادي على السنة الشمسية وشهورها الاثنتا عشرة وكان اول من وضع التقويم الميلادي ودعا الى اتباعه هو الراهب ديوليس الروسي الذي كان يعيش في روما وكان ذلك عام ٥٣٢ م حين قام هذا الراهب بحساب الشهر والسنة التي ولد فيها السيد المسيح استناداً الى ماهو متوافر من معلومات تذكر أنه ولد في السنة الثامنة والعشرين من حكم القيصر اوغسطس، وبحساب الفترة الزمنية التي مضت على ميلاد السيد المسيح مستعيناً بالتقويم الروماني الذي كان مستخدماً آنذاك،

---

(١) انظر، محمد محمد فياض، التقاويم، ص ٦٣.

تبين للراهب أنه كان قد مضى على ميلاد السيد المسيح ٥٣٢ سنة شمسية ، وهكذا بدأ بحساب التقويم الميلادي متخذاً يوم ١ /كانون الثاني بداية للسنة الجديدة ، وأن كان ميلاد المسيح هو، كما يرى الباحثون ، يوم ٢٥ كانون الاول .

وقد ظل استخدام أسماء الاشهر الرومانية واليوليانية كما هي، والمؤلفة من :
يناير، فبراير، مارس ، أبريل ، مايو، يونيو، يوليو، اغسطس ، سبتمبر، اكتوبر، نوفمبر وديسمبر.

وكما هو واضح فقد سميت هذه الأشهر. أما بالنسبة لأسماء بعض الآلهة اليونانية والرومانية او أسماء بعض القادة والابطال .

التقويم في العراق القديم

لايعرف بالضبط متى بدأ الانسان قياس الزمن ومراقبة تكرر الفصول ، وربما كانت ممارسة الأنسان الزراعة في العصر الحجري الحديث حافزاً دفع الانسان الى مراقبة مواعيد البذار والحصاد ، كما ان استقراره وتشييده القرى على شواطئ الانهار دفعه الى مراقبة مواعيد الفيضانات لأتخاذ الاحتياطات اللازمة لدرء اخطارها، كما ان مراقبته القمر ودورته الشهرية من ولادته ثم اكتماله حتى اختفائه وتكرر ذلك كل فترة زمنية محددة ، وهي فترة الشهر القمري ، لابد ان علمت الانسان كيفية قياس الوقت . ومنذ بداية العصور التأريخية وتدوين النصوص هناك اشارات واضحة تشير الى معرفة الانسان الشهر القمري وعدد ايامه ومعرفته السنة القمرية والسنة الشمسية ، وفي العصر البابلي القديم (حدود ٢٠٠٠—١٦٠٠ ق.م) وصل العراقيون القدماء الى مرحلة متقدمة في علم الفلك ورصد حركة النجوم والكواكب لاغراض دينية ودنيوية وقد استخدموا السنة القمرية وحاولوا التوفيق بينها وبين السنة الشمسية ، فاستخدموا السنة القمرية ، وعدد ايامها ٣٥٤ يوماً ، الا انهم اضافوا شهراً اضافياً كل ثلاث سنوات للتوفيق بين السنة القمرية والسنة الشمسية والمحافظة على مواعيد الاحتفالات الدينية في مواسمها من السنة ولاسيما عيد رأس السنة الذي يقع عادة في بداية الربيع (الايام الاولى من شهر نيسان) . ونظموا جداول تبين السنوات التي يحق اضافة شهر اضافي فيها وكان عدد اشهر السنة الاعتيادية ١٢ شهراً اضافوا اليها شهراً اضافياً بعد الشهر السادس او بعد الشهر الثاني عشر كل ثلاث سنوات اما اسماء الشهور العراقية القديمة ، فكانت تختلف من فترة الى اخرى وحسب المناطق الا ان الشائع منها هي الاسماء الاتية :

الاسماء العربية (العراقية)	الاسماء الاكدية
نيسان	نيسانُ
ايار	ايار
حزيران	سيمانُ
تموز	تموزُ
آب	آبُ
ايلول	ايلولُ
تشرين اول	تشرتُ
تشرين ثاني	ارخسمنا اوكين- ٢ -كَم
كانون اول	كسليمُ او كين- ١
كانون ثاني	طيبتُ
شباط	شباطُ
آذار	أدّار

وكما هو واضح فان اسماء معظم الاشهر ظلت مستخدمة في العراق الى الوقت الحاضر وانتقل بعضها الى اللغة العبرية والآرامية والسريانية مما دفع البعض الى الظن خطأً ان الاسماء دخلت العربية من العبرية او السريانية في حين انها اسماء من التراث العراقي القديم اينما وجدت.

اما بالنسبة للاسبوع، فربما قسم العراقيون القدماء الشهر الى اربع اسابيع حيث كانوا يقيمون احتفالات معينة في بداية كل شهر وفي اليوم السابع منه وفي منتصفه وفي اليوم الاخير منه، الا انهم كانوا يعودون الى اليوم الاول من الاسبوع عند بداية كل شهر جديد[1]. ولانعرف فيما اذا كان لكل يوم اسم معين ام انهم اعطوا تسلسلاً للايام: اليوم الاول والثاني والثالث... الى نهاية الاسبوع اي كما نفعل حتى الآن، وهو الاحتمال الاقرب حيث لم يرد في الوثائق ذكر اسم اليوم بل يكتب عادة اليوم الخامس من شهر كذا او اليوم العاشر وهكذا.

كما قسموا اليوم الى عدة اقسام، فقسموا الليل من غروب الشمس حتى شروقها الى ثلاث حراسات يضم كل منها، ٢ بيرو، وهي كلمة تترجم عادة ساعة مضاعفة، الا ان طول الحراسات الليلية كان يختلف حسب الفصول فقد يطول او يقصر. وقد فعل الشيء

(١) فاروق الراوي العلوم والمعارف، ص ٣٢٤.

نفسه المصريون القدماء بالنسبة للنهار. اما الفلكيين، فقد قسموا اليوم بكامله، الليل والنهار، الى ستة اقسام ذات اطوال متساوية وثابتة كل قسم يساوي ٢ بيرو، واقتبس هذه الطريقة السلوفيون حيث قسموا اليوم الى اربعة وعشرين قسماً، ومن هنا جاء تقسيم اليوم الى ٢٤ ساعة[١].

وعلى الرغم من التقدم العلمي الذي حققه العراقيون القدماء في مجال الفلك والرياضيات وغيرها من العلوم، واهتمامهم الكبير برصد حركة النجوم والكواكب، ومعرفتهم الدقيقة بالسنة الشمسية والسنة القمرية وابتداعهم اساليب ثابتة للتوفيق بينها عن طريق كبس شهر اضافي كل ثلاث سنوات، فأنهم لم يستخدموا اسلوباً موحداً لتأريخ السنين ومعرفة تسلسلها اي انهم لم يتخذوا من تاريخهم الطويل نقطة ثابتة يحسبون منها عدد السنين كما فعل من جاء بعدهم من الاقوام ولم يفطنوا الى هذه الطريقة في حساب السنين الا في اواخر القرن الرابع قبل الميلاد (وذلك عندما بدأ التقويم السلوقي عام ٣١١ ق.م). اما في العصور السابقة لذلك فقد اتبعوا اساليب مختلفة لتأريخ السنين في الفترات المختلفة التي مرت عليهم وهي:

١ – تأريخ السنين حسب الحوادث

كانت السنون تؤرخ في الفترات المبكرة، بدءاً من اقدم العصور التأريخية التي استخدمت فيها طريقة التأريخ وحتى نهاية العصر البابلي القديم في حدود ١٦٠٠ ق.م. بأهم الحوادث. فتسمى كل سنة من السنين باهم حادثة وقعت فيها، كاعتلاء الملك العرش او القيام بهجوم عسكري او بناء معبد او قصر او فتح قنال والى غير ذلك من الحوادث المهمة انذاك. وكانت العادة ان يعلن عن اسم السنة الرسمي بموجب امر ملكي يصدر عن القصر الملكي في مطلع العام لكي تستخدم الصيغة الجديدة لتأريخ السنة في العقود والوثائق الرسمية والشخصية، وغالباً كانت السنة تسمى باللغة السومرية وتكون عادة قصيرة نحو:

"السنة التي اصبح فيها المقدس شوسين ملكاً"
"السنة التي شيد فيها السور العظيم"

---

(١) انظر، هاري ساكز، عظمة بابل، لندن، ١٩٦٢، ترجمة عامر سليمان، موصل ١٩٨٢، ص٥٦٣.

وحيث انه من الصعب ان تعرف الاحداث المهمة التي ستقع في خلال السنة ، وقد لايحدث حادثة مهمة في بداية السنة ، وهو وقت تسميتها ، لذلك فقد جرت العادة على تسمية السنة بالنسبة الى السنة السابقة لها نحو:

"السنة التي تلي السنة التي شيد فيها السور العظيم"

"السنة التالية للسنة التي اعتلى فيها حمورابي العرش".

وقد تتكرر هذه الصيغة لاكثر من سنة واحدة اذا كان هناك حادثة مهمة جداً ، كالقضاء على ملك ايسن المسمى أبي - سين، حيث سميت عدة سنوات تالية باسم هذه الحادثة المهمة ، فاذا سميت السنة باسم حادثة سابقة ، ثم وقع حادث مهم في خلال تلك السنة ، صدر امر ملكي جديد بتعديل اسم السنة نسبة الى الحادثة المهمة الجديدة.

وكان هذا الاسلوب دقيقاً بالنسبة لمنطقة معينة وفترة زمنية محددة ، الا انه لايفيد في حساب فترة زمنية طويلة لمعرفة المدة التي مضت على تدوين وثيقة ما مثلاً لذا قام الكتبة السومريون منهم والبابليون بتنظيم قوائم جمعوا فيها اسماء السنين المستخدمة للتأريخ مرتبة حسب تسلسلها الزمني لكي يمكن معرفة موقع كل سنة من السنين الاخرى ثم معرفة المدة التي مضت على تحرير الوثيقة مثلاً. وقد نظمت قوائم باسماء سنوات حكم كل ملك من الملوك وفي نهاية القائمة يذكر عادة عدد سنوات حكمه: "٥٣ سنة (هي) سنوات حمورابي" مثلاً ، تليها اسماء سنوات حكم الملك التالي التي تنتهي هي الاخرى بعدد السنوات حتى نهاية السلالة الحاكمة. ثم اصبح الكتبة يكتبون اسماء الملوك والى جانبهم عدد سنوات حكم كل منهم "خمسة ملوك كانت سنواتهم ١٦٣ سنة" ، وكان ذلك الاساس الذي نظمت بموجبه جداول الملوك البابليين. وقد افادت هذه القوائم الباحثين في الوقت الحاضر فائدة جمة لانها اعطت فكرة عن اهم الاحداث التي وقعت في فترة محددة وتسلسل وقوعها واسم الملك والسلالة الذي وقعت الحوادث في عهده.

٢- تأريخ السنين حسب حكم الملوك :

ومنذ بداية العصر البابلي الوسيط ، اي بداية حكم الكشيين في بلاد بابل ، في حدود ١٦٠٠ ق. م. استخدمت طريقة جديدة لتأريخ السنين وذلك بالنسبة لحكم الملوك ، فعندما يبدأ حكم ملك معين عند اعتلائه العرش ، تسمى تلك السنة باسم السنة التي اعتلى فيها الملك... العرش ، اما السنة الثانية فتسمى بالسنة الثانية لاعتلاء الملك... العرش ، والسنة الثالثة لاعتلاء الملك... العرش ، وهكذا حتى ينتهي حكم الملك بوفاته ، ثم يبدأوا من جديد بتسمية السنين نسبة الى الملك الجديد وهكذا. وقد ظلت

هذه الطريقة مستخدمة في بلاد بابل لسهولتها وذلك حتى اواخر القرن الرابع قبل الميلاد ، عندما وضع تقويم جديد يعتمد نقطة ثابتة لحساب السنين التالية لها.

٣- تأريخ السنين باسم الليمو limu

اما الآشوريون فقد استخدموا طريقة اخرى في تأريخ السنين وان كانت تعتمد على المبدأ نفسه الذي ارخت به السنون في العصر البابلي الوسيط ، فقد كانت السنة تسمى باسم الموظف الذي يرعى الاحتفالات الدينية الرسمية في مدينة آشور وكانت الوظيفة تسمى لمو limu ، وهي وظيفة دورية يتناوب عليها كبار موظفي الدولة من قادة وحكام مقاطعات وكبار موظفي القصر حسب تسلسلهم الوظيفي ، وكان الملك يشغل شخصياً هذه الوظيفة ويرعى الاحتفال وذلك في السنة الاولى من حكمه اي عند اعتلائه العرش ثم يتابع كبار موظفي الدولة اشغال الوظيفة حسب التسلسل ويحمل كل من يشغل تلك الوظيفة لقب لمو لتلك السنة ، وكانت السنة لذلك تسمى باسم من يشغل تلك الوظيفة . وقد ثبت الاشوريون قائمة باسماء جميع كبار موظفي الدولة الذين يمكن ان يشغلوا هذه الوظيفة مرتبة حسب التسلسل فما ان يحل رأس السنة حتى يعلن عن اسم الموظف الجديد وتسمى السنة باسمه دون اي تأخير او انتظار. وقد يحمل موظف معين هذا اللقب ويشغل الوظيفة اكثر من مرة حسب رغبة الملك ، كما قد يشغل الوظيفة مرة ثانية الملك نفسه ربما لكي يبدأ بدورة جديدة من الموظفين.

وكما فعل السومريون والبابليون من قبل ، فقد نظم الكتبة الآشوريون قوائم مطولة باسماء من حمل لقب لمو مسلسلة زمنياً ، اي اشبه بقوائم او جداول الملوك ، بعضها اقتصر على ذكر اسماء الموظفين (لمو) فقط في حين ضم بعضها الآخر فضلاً عن اسماء الموظفين الذي شغلوا هذه الوظيفة اشارات لاحداث مهمة وقعت في عهد اولئك الموظفين.

وقد جرى العرف في بلاد آشور على اقامة مسلة خاصة بالموظف الذي تسمى السنة باسمه كانت ، كما يبدو، توضع في الميدان الكبير في مدينة آشور-مرتبة حسب تسلسلها الزمني او قد يدون ذلك على الواح من الطين.

ومما افاد المؤرخين المحدثين ان احدى السنوات المذكورة في قوائم الليمو، وهي السنة التاسعة من حكم اشوردان (الثالث)، قد ذكرت الى جانب اسم الموظف الذي شغل وظيفة لمو تلك السنة اشارة الى حدوث كسوف للشمس . وقد امكن ، كما سبق والمحنا ، تحديد موعد هذا الكسوف من قبل الفلكيين على نحو دقيق وحدد موعد حدوث الكسوف

المذكور في قوائم الليمو بيوم ١٥ حزيران من سنة ٧٦٣ ق. م. وبالاستعانة بهذه النقطة الثابتة بالنسبة للتأريخ الميلادي امكن تعيين حكم الملك آشوردان الثالث والملوك الاخرين الذي سبقوه اوجاءوا بعده بطرح او اضافة عدد سنوات حكم كل منهم وحسبما هو مثبت في جداول الملوك الاشوريين وقائمة الليمو، وامكن ضبط ازمنة حكم الملوك الآشوريين الى حدود سنة ١٧٠٠ ق. م.

وفيما يأتي مقتطفات من قوائم الليمو الاشورية المكتشفة :

في لمو	آشور دان	ملك بلاد اشور	على (مدينة) گنانانى
في لمو	شمشي – إلي	قائد القوات (تورتان)	على (مدينة) مرد
في لمو	بيل – الاي	حاكم ارابخا	على (مدينة) اتوأ
في لمو	أيلاي	حاكم نزاموا	في البلاد
في لمو	بور – ساگالي	حاكم گوزانا	في شهر سيمان حدث
في لمو	طاب – بيل	حاكم أميدي	ثورة في آشور
في لمو	تابو – موكني راضي	حاكم نينوى	ثورة في ارابخا..[1]

ونستمر القائمة في ذكر اسماء الموظفين الذي شغلوا وظيفة لمو الى السنة التي توفي فيها الملك اشور دان (الثالث) والذي استمر حكمه من عام ٧٧١ ق.م وحتى عام ٧٥٣ ق.م. وفي السنة التالية، اي في عام ٧٥٣ ق. م، اعتلى العرش اشور–نراري (الخامس) وقد ارّخت سنة حكمه الاولى باسمه لانه شغل وظيفة لمو في تلك السنة. وهكذا ظل العراقيون القدماء يستخدمون اساليب شتى للتأريخ ولم يتخذوا نقطة ثابتة في حساب التأريخ ومعرفة تسلسل السنين. وقد افاد الباحثون المحدثون من القوائم التي خلفها لنا العراقيون القدماء سواء قوائم اسماء السنين اوقوائم الليمو او غيرها في تحديد وضبط سنوات حكم الملوك وعاونهم في ذلك، ان السلوقيين اتخذوا من عام ٣١١ (نيسـان) بداية تأريخ جديد ارّخوا به السنين وعدوا تلك السنة، اي سنة ٣١١ ق. م، السنة الاولى من التأريخ السلوقي، كما افاد الباحثون المحدثون مما يعرف عادة بثبت بطليموس، وهو رياضي وفلكي وجغرافي اغريقي عاش في الاسكندرية في الفترة ١٢٧ – ١٥١ ق. م، الذي ضمن احد كتبه قائمة باسماء كل الملوك البابليين والفرس وسني حكمهم من عهد الملك البابلي بنوناصر (٧٤٦ – ٧٣٤ ق. م) وشمل كذلك اسماء الاباطرة الرومان. كما ذكر بطليموس جملة من

---

(1) Ebeling and Meissner, Rellexikon der Assyriologie. 2, QB, 30, pp. 412 – 457. Grayson, op. cit., pp. 196 ff

الظواهر الفلكية المهمة . وقد تمكن الباحثون بالمقارنة مع ماورد في هذا الثبت مع قوائم الليمو الاشورية من تحديد ازمان حكم الملوك الاشوريين خلال الالف الاول قبل الميلاد .[1]

ومن الجدير بالاشارة هنا ان الاغريق اتخذوا من عام ٧٧٦ ق . م . بداية لتقويم خاص بهم ، وهو تأريخ ابتداء العاب الاولمپياد ، كما استخدم الرومان تقويماً عد سنة ٧٥٣ ق . م . بداية له وهو تأريخ تأسيس مدينة روما ، وبطبيعة الحال ان هذين التقويمين استخدما في فترة متأخرة من تأريخ اليونان والرومان وليس من السنوات التي بداءا بها .

---

(١) انظر: جورج رو، العراق القديم ، ص ٥٢.
طه باقر، المقدمة ، ص ١٤٧.



- مصادر معلوماتنا عن تأريخ العراق القديم قبل بدء التنقيبات الأثرية :

ان مصادر معلوماتنا عن التأريخ القديم بصورة عامة تتمثل بجميع ماخلفه الانسان من بقايا مادية ، كالمباني والآلات والادوات والدمى والتماثيل والمسلات وبقايا الهياكل العظمية والنصوص المدونة على اختلاف اشكالها . الا ان معظم تلك البقايا والاثار كانت ، ولم يزل قسم كبير منها حتى الان ، مطمورة في بطون التلول الاثرية التي تكونت بفعل العوامل الطبيعية عبر العصور المتتالية على مواقع ومواطن سكنى الانسان المهجورة ، فغابت تلك البقايا عن الانظار وانقطعت اخبارها واخبار من خلّفها لنا ولم يعد يعرف عنها شيء يعتد به سوى ما تناقلته الاجيال من قصص وحكايات خاصة بالاقوام التي كانت تعيش في المنطقة في غابر الايام والتي تركت كنوزاً وآثاراً مهمة مطمورة تحت التلول الاثرية المنتشرة في كل مكان . وظلت البقايا والآثار كذلك حتى آن لها ان ترى النور ثانية في العصر الحديث عندما بدأت عمليات التنقيب والحفر للكشف عن الآثار، فعادت تحكي لنا من جديد وبعيداً عن القصص الخيالية والمبالغات قصة الانسان الذي عاش في المنطقة في العصور الغابرة وما خلّفه من بقايا تعكس منجزاته الحضارية.

لذا ، فان ما كان يعرف عن تأريخ العراق القديم قبل بدء التنقيبات الاثرية في العصر الحديث يقتصر على بعض الاخبار والروايات والقصص التي ورد ذكرها في بعض اسفار العهد القديم (التوراة) وفي مؤلفات الكتاب الكلاسيكيين من يونان ورومان وما ذكره الرحالة والسوّاح الاوربيون الذين زاروا العراق ووصفوا احواله واثاره الشاخصة ونقلوا عن سكانه ماسمعوه من حكايات واخبار عن تاريخه . ولمعرفة مدى دقة مايمكن استنباطه من هذه المصادر نورد فيما يأتي نبذة موجزة عن كل منها :-

فأما كتاب العهد القديم The Old Testament ، وهو كتاب اليهود المقدس الذي يسمى جوازاً بالتوراة ، فيتألف من تسعة وثلاثين سفراً[1] سمي كل سفر منها باسم معين ينم عن مضمونه مثل سفر التكوين وسفرالخروج وسفر الملوك... الخ . وتؤلف الاسفار الخمسة الاولى منه فقط بقايا التوراة التي نزلت على موسى عليه السلام ، اما الاسفار الأخرى فتتناول تأريخ بني اسرائيل من بعد موسىٰ ، كما تضم الكتابات والأشعار والمزامير الخاصة بهم . وعلى الرغم من المكانة المقدسة التي يحتلها العهد القديم عند معظم الباحثين ، ولاسيما الاوربيين منهم ، فان هناك ملاحظتين مهمتين يجب الانتباه اليها عند اعتماده مصدراً للمعلومات عن تأريخ العراق القديم هما :

ا- تؤكد الدراسات التأريخية الحديثة المعتمدة على نتائج التنقيبات الاثرية وعلى ماورد في النصوص المسمارية من معلومات ان معظم اسفار العهد القديم كانت قد دونت بشكلها النهائي من قبل الاحبار اليهود خلال القرنين السادس والخامس قبل الميلاد ، اي في الفترة التي كان يعيش فيها اولئك الاحبار في بلاد بابل إثر الترحيل البابلي لهم ، اي بعد نزول التوراة الاصلية على النبي موسى عليه السلام في القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، كما هو متفق عليه بين الباحثين ، باكثر من سبعة قرون قاست خلالها التوراة ، وهي الاسفار الخمسة الاولى من العهد القديم ، من الحذف والاضافة والتحريف والتحوير بما ينسجم واهواء الاحبار اليهود الشيء الكثير[2] ، وهذا ماأكّد عليه القرآن الكريم في اكثر من موضع[3] .

(١) استناداً الى الاسفار التي تعتمدها الكنيسة البروتستانتية . اما الكنيسة الكاثوليكية فتضيف سبعة اسفار اخرى ليصبح عدد اسفار العهد القديم ست و ىعون سفراً (انظر تفصيل ذلك : احمد سوسة ، مفصل العرب واليهود في التأريخ ، بغداد ، ١٩٨١ ، ص ٣٢١ ، هامش ٣٥٢ ، محمد سيد طنطاوي ، بنواسرائيل في القرآن والسنة ، القاهرة ، ١٩٦٨ ص ٨٥ ، هامش ١ .

(٢) انظر : احمد سوسة ، المفصل ، ص ٣٣٠-٣٤٨ .

(٣) القرآن الكريم ، سورة البقرة : ٧٥ ، النساء : ٤٥ ، المائدة : ١٤ ، ٤٤ ، الانعام : ٩١ .

ب- انه من البديهي ان الاخبار الخاصة بتأريخ اليهود وتأريخ انبيائهم من بعد موسى وتأريخ علاقات اليهود مع الاقوام الاخرى المعاصرة لهم ، ولاسيما البابليين والاشوريين ، مما ورد ذكره في بعض اسفار العهد القديم ، لاعلاقة له اصلاً بالتوراة التي نزلت على موسى عليه السلام بل انها اخبار تخص فترة لاحقة وانها تعكس وجهة نظر الاحبار اليهود الدينية والسياسية وتعصبهم القومي وحقدهم الدفين ضد جميع الاقوام الاخرى من غير اليهود وفي مقدمتهم البابليون والاشوريون الذين كانت تربطهم بهم علاقات عدائية مستمرة من قبل ان تدون اسفار العهد القديم بقرون عدة ، وهذا مايعترف به جميع الباحثين عرباً كانوا ام اجانب .

ومع هاتين الملاحظتين المهمتين عن كتاب العهد القديم اللتين تقللان بالتأكيد من قيمة ماورد فيه من اخبار تأريخية ، فان ذلك لايعني رفض جميع ماورد فيه من اخبار، فالاخبار الواردة فيه قد دونت في فترة قريبة من فترة حدوثها وهي بذلك مصدر مهم في دراسة التاريخ ولكن بعد ان يدقق الباحث فيها ويخضعها للنقد التأريخي الموضوعي مستفيداً من المعلومات المستمدة من الآثار الاكثر قدماً ، ولاسيما ماورد في النصوص المسمارية من اخبار ذات علاقة ، وصولاً الى الحقائق التأريخية .

اما الاخبار والمعلومات التي اوردها الكتاب الكلاسيكيون من يونان ورومان عن العراق وعن احواله فهي الاخرى اخبار مشوشة مليئة بالحكايات والروايات والاساطير التي سمعها اولئك الكتاب ونقلوها دون تدقيق واحياناً دون تصديق ويقف هيرودوتس (٤٨٠ - ٤٢٥ ق . م) على رأس اولئك الكتاب الذين كتبوا عن بلاد بابل وآشور في فترة الاحتلال الاخميني (٥٣٩ - ٣٣١ ق . م) و زعم انه زار بلاد بابل وآشور وشاهد آثارها الشاخصة وسمع من اهلها القصص والروايات واطلع بنفسه على طائفة من عادات القوم وتقاليدهم وقصصهم وحكاياتهم عن ملوكهم وابطالهم السابقين. وكان زينفون (٤٣٠ - ٣٥٥ ق . م) قائداً عسكرياً لفلول حملة عسكرية كان معظمها من المرتزقة الاغريق في تقهقرها من بلاد بابل الى اسيا الصغرى عرفت بحملة العشرة آلاف جندي، وقد دون لنا زينفون وصفاً ممتعاً للمدن والمواقع التي مر بها في طريق عودته الى بلاد الاناضول ، وربما كانت اخباره ادق من اخبار غيره من الكتاب باعتباره شاهد عيان فعلاً . الى جانب ذلك ، فقد وردت اخبار بلاد بابل واشور في مؤلفات العديد من الكتاب الاخرين مثل بوبيوس (٢٠٢ - ١٢٠ ق . م) وسترابون (حدود ٦٤ ق . م - ١٩ م) وديودورس الصقلي (٤٠ ق . م) والمؤرخ اليهودي جوزيفوس (٣٧ - ١٠٠ م) .

ومن الكتاب الكلاسيكيين الذي كتبوا بالاغريقية الكاهن البابلي بيروسس من القرن الثالث قبل الميلاد ، الا ان كتاباته لم تصل الينا الا من خلال مقتبسات ضمنها كتب اخرى لاحقة. وفضلاً عن هؤلاء فان هنالك عدداً من الكتاب الرومان الذين ذكروا طائفة من اخبار بلاد بابل وآشور مثل الكاتب اريان (٩٥-١٧٥ م) والفلكي بطليموس من القرن الثاني الميلادي وغيرهما[1].

وكان لاخبار الرحالة والسواح الاجانب الذين زاروا بلدان واقاليم الشرق الادنى ، ومنها العراق ، اهميتها الخاصة فهي فضلاً عن كونها وصفت لنا الآثار التي كانت شاخصة وقت زيارتهم للعراق ونقلت بعض الاخبار والروايات التي كانت متداولة في حينه ، فقد كان لها اثرها في اطلاع الغرب على سحر الشرق واثار ماضيه مما له علاقة مباشرة بما ورد ذكره في اسفار العهد القديم مما اثار الرغبة لدى بعض الاوربيين لزيارة الشرق مدفوعين بدوافع واطماع سياسية واقتصادية ودينية.

ويأتي في مقدمة الرحالة والسواح بنيامين التطيلي الاسباني اليهودي الذي زار العراق في زمن الخليفة العباسي المقتفي بالله (١١٦٠-١١١٠ م) ووصف خرائب عدد من المدن العراقية القديمة مثل نينوى وبابل ، وكان هدفه الاساس من زيارته الاطلاع على اوضاع اليهود في العراق والكتابة عنها. ومن الرحالة الالمان راوولف الذي زار العراق في الفترة (١٥٧٣-١٥٧٦) والايطالي بترو ديلافالة (١٦١٦-١٦٢٥ م) وغيرهما.

وخلال القرن الثاني عشر والنصف الاول من القرن التاسع عشر، زادت الرغبة في زيارة العراق والاطلاع على آثاره ، وعمدت بعض المؤسسات العلمية الى ارسال مبعوثيها الى الشرق لجمع المعلومات والتقاط بعض نماذج الاثار المكتشفة وارسالها الى اوروبا ، وكان من بين المبعوثين الاوائل الدنماركي كارستن- نيبور (١٧٦١-١٧٦٧ م). كما نشطت الشركات الاجنبية العاملة في الشرق في هذا المجال مدفوعة باهداف سياسية وتجارية ، فاهتمت بالبحث عن الاثار وزيارة مواقعها ووصفها واخذ مخططات بعضها واقام بعض الموفدين الى بغداد فترة طويلة نسبياً. ومن المبعوثين المبعوث البابوي بوشام (١٧٨٥-١٧٩٠ م) وكلوديوس رج ، القنصل البريطاني في بغداد (١٨٠٧-١٨٢١ م) وغيرهما[2].

---

(١) انظر تفصيل ذلك : طه باقر، المقدمة ، ص ١٠٨-١١٢ وكذلك سامي سعيد الاحمد ، المفصل الى تأريخ العالم القديم ، القسم الاول ، العراق القديم ، الجزء الاول ، بغداد ، ١٩٧٨ ص ٣٨-٤٤

(٢) انظر تفصيل ذلك : طه باقر، المقدمة ، ١١٢-١١٤.

من هذا الاستعراض المقتضب لمصادر معلوماتنا عن تأريخ العراق القديم من قبل ان نبدأ العمليات المنظمة للتنقيب عن الآثار يتبين ان مايمكن استنتاجه من معلومات تأريخية دقيقة قليل جداً لاتتناسب واهمية وطول الفترة الزمنية التي احتلها وشغلها تأريخ العراق القديم، واهمية الحضارة التي ازدهرت فيه لاكثر من الفين من السنين، كما بينت ذلك المكتشفات الاثرية فيما بعد. وفضلاً عن ذلك، فان المعلومات المستخدمة جاءت غير دقيقة في غالب الاحيان ويطغى عليها الخيال وتتخللها الاساطير والحكايات وينقصها النقد، فكان ماكتب عن تأريخ العراق القديم في القرون السالفة أشبه بالحكايات والروايات منه الى التأريخ.

التنقيبات الأثرية:

يقصد بالتنقيبات الاثرية عمليات الحفر المنظمة للكشف عن آثار الماضي ومخلفاته المطمورة في بطون التلول والمواقع الاثرية المختلفة ودراستها واستنتاج مايمكن استنتاجه منها عن حياة الانسان وعن حضارته في العصور التي تعود اليها الاثار المكتشفة.

بدأت عمليات البحث عن الاثار والكنوز المطمورة في التلول الاثرية منذ بداية القرن الثامن عشر، وكان للنتائج التي توصل اليها بعض المبعوثين الاجانب الى العراق، وما اثارته كتاباتهم ومذكراتهم عن زياراتهم للعراق وتعرفهم على مواقعه الاثرية من حماس لدى المتطلعين للشهرة والراغبين في المغامرة، ان زادت الرغبة في زيارة العراق والبحث عن كنوزه والكشف عن مدنه القديمة ولاسيما تلك التي ورد ذكرها في العهد القديم. وزاد في الحماس والرغبة وصول نماذج من الكتابات المسمارية التي كانت قد ارسلت الى اوروبا، فعكف على دراستها وتحليلها عدد من الباحثين الاوربيين من مختلف الاقطار حتى تم لهم قراءتها وفك رموزها وذلك في اواسط القرن الماضي.

وقد شجعت الدول الاوربية بصورة عامة الافراد والمؤسسات العلمية لزيارة العراق والبحث عن آثاره تحقيقاً لاطماعها المتزايدة في المنطقة واغناءاً لمتاحفها بالاثار الثمينة، وكان الصراع بينها، ولاسيما بين بريطانيا وفرنسا، في هذا المجال على اشده. وقد اختارت كل من هاتين الدولتين عدداً من قناصلها ومبعوثيها الى الشرق العربي لهذه المهمة، لذلك لم يكن المنقبون الاوائل عن الآثار من العلماء او الباحثين بل يصح ان نسميهم بالمنقبين الهواة. وكان من بينهم الانكليزي كلوديوس ريج والقنصل الفرنسي بوتا ومساعده پلاس والانكليزيين ليرد ورولنصون اضافة الى هرمز رسّام الذي قام بمعاونتها. وفي بلاد بابل عمل

القنصل الفرنسي دي سارزاك ايضا[1] . اما الولايات المتحدة الامريكية ، فقد ارسلت بعثتها الاولى من جامعة بنسلفانيا الى مدينة نفر السومرية وذلك عام ١٨٧٧ .

استمرت تنقيبات الهواة مدة نصف قرن تقريباً ، من عام ١٨٤٢ ولغاية عام ١٨٩٩ ، وكانت ابعد ماتكون عن التنقيبات العلمية ، بل كانت اقرب للنبش العشوائي بحثاً عن الكنوز الاثرية والقطع المتحفية ، كالمنحوتات الجدارية والتماثيل والمسلات والثيران المجنحة . دون الالتفات الى اللقى الاثرية الصغيرة ، ولاسيما تلك المصنوعة من الطين والفخار ، كما لم يلتفت المنقبون الاوائل الهواة الى مايعرف الان بالطبقات الاثرية والأدوار الحضارية ولم يميزوا في أحيان كثيرة بين جدران القصر ، او المعبد المشيدة باللبن عن الانقاض والتربة الطينية المحيطة بها فازيلت جدران كثيرة دون معرفة وضاعت مخططات الابنية كما ضاعت بين الانقاض مئات الالواح الطينية المدونة بالكتابة المسمارية لصعوبة تمييزها ، وخاصة غير المفخور منها ، عن كتل الطين الاخرى. ولم يهتم المنقبون بتسجيل معاثر الآثار المكتشفة ورسم مخططات الابنية وتصوير الطبقات الاثرية طالما كان الهدف الاساس من كل اعمال التنقيب هو جمع اكبر مايمكن جمعه من الآثار المتحفية ونقلها باسرع وقت الى متاحف اوروبا ، لذا تركزت اعمالهم في المدن الكبيرة والعواصم المعروفة مثل خرصباد ونمرود ونينوى ولم يُعر اي اهتمام للمواقع الصغيرة وخاصة مواقع عصور قبل التاريخ التي لايتوقع العثور فيها على آثار متحفية . وكان من نتائج تنقيبات الهواة هذه ان تم الكشف عن مجموعة كبيرة جداً من الآثار الآشورية والسومرية المهمة ارسلت جميعها الى متاحف اوروبا وهي تزين الآن متحف اللوفر بباريس والمتحف البريطاني في لندن اضافة الى متحف بنسلفانيا في امريكا ، وفقدت بعض الآثار المكتشفة في قاع الخليج في اثناء نقلها بوساطة الاكلاك في طريقها الى السفن البحرية المبحرة الى اوروبا . ومع اهمية الآثار المكتشفة الكبيرة ، حيث انها ضمت اروع المنحوتات الجدارية والثيران المجنحة والتماثيل والمسلات الاشورية ، وقبل كل شيء ، الاف الرقم الطينية ومنها رقم مكتبة اشوربانيبال الشهيرة ، وهي اقدم واغنى مكتبة مكتشفة حتى الان ، فلقد اضرت تنقيبات الهواة كثيراً بالمواقع الاثرية وضيعت معلومات كان من الممكن التعرف عليها لو كانت التنقيبات علمية ودقيقة كما انها فسحت المجال للافراد والهيئات الاجنبية نهب ماشاءت من الاثار وارسالها الى متاحفها دون مسوغ قانوني او وازع وطني وشجعت في الوقت نفسه السكان المحليين من غير المتعلمين على

---

(١) انظر تفصيل ذلك : بهنام ابو الصوف ، دور التنقيبات الاثرية في الكشف عن حضارة العراق القديمة في حضارة العراق بغداد ، ١٩٨٥ ، ج١ ، ص ٥٩-٦٥ وكذلك جابر خليل ، الانشطة الاثارية ، في موسوعة الموصل الحضارية ، موصل ١٩٩١ ، ص ٤٩٠-٤٩٢ .

البحث عن الاثار بهدف المتاجرة بها وبيعها الى الاجانب فاصاب المواقع الاثرية التخريب والتدمير الى درجة ان سراق الآثار شوّهوا بعض الآثار المكتشفة ، كالمنحوتات الكبيرة ، فاقتطعوا الاجزاء المهمة منها في نظرهم ، وغالباً الجزء العلوي الذي يظهر فيه رأس الملك او الاله ، وتركوا الاجزاء السفلي المليئة بالكتابات المسمارية غالباً لم تزل حتى الآن تشهد على تخريبهم ونهبهم للآثار.

وقد احست الدولة العثمانية بالاضرار الفادحة التي اصابت المواقع الاثرية وبنهب الاجانب لتلك الآثار فقامت باصدار تشريع خاص بالآثار يوجب قسمة الآثار المكتشفة بينها وبين المنقبين.

ومنذ اواخر القرن الماضي وعندما بدأت البعثة الالمانية بالتنقيب في مدينة بابل ثم في مدينة آشور، دخلت التنقيبات طوراً جديداً يمكن ان يسمى بطور التنقيبات العلمية حيث اتبعت البعثة الالمانية اساليب دقيقة وعلمية في الكشف عن الاثار غدت فيما بعد مثلاً يحتذى به من قبل البعثات الاجنبية الاخرى ، وقد عرف عن الالمان انهم اتبعوا اسلوب التنقيب الافقي وضبط معاثر الاثار المكتشفة ورسم المخططات واخذ الصور الفوتوغرافية وتسجيل الاثار كما قاموا بتدريب عمال القرى المجاورة على اعمال الحفر الفني ومع ذلك ، فقد ظلت البعثات الأجنبية تأخذ الآثار المكتشفة وتبعث بها الى متاحفها خارج العراق ، وقد زادت هذه الظاهرة في اعقاب الحرب العالمية الاولى بعد زوال السلطة العثمانية ووقوع العراق تحت الانتداب البريطاني حيث لم يكن هناك قانون يلزم بعثات التنقيب على قسمة الآثار او الالتزام بضوابط معينة خاصة وكانت قد انيطت ادارة شؤون الاثار في العراق بالسلطات الادارية الاجنبية[1] .

ثم تتابعت بعثات التنقيب الاجنبية للعمل في المواقع العراقية المختلفة وبدأ نشاط الجمعيات والمعاهد والمتاحف الاوربية والامريكية يزداد وشهدت الفترة بين الحربين نشاطاً واضحاً في مجال التنقيب عن الاثار ولم يعد الاهتمام بالتنقيب في المدن الكبيرة والعواصم فقط بل بدأ العمل في مواقع العصور الحجرية في الكهوف والمغاور فضلاً عن مواقع العصر الحجري الحديث والعصر الحجري المعدني وهي مواقع لايتوقع الكشف فيها عن اثار متحفية مهمة . كما افاد المنقبون في السنوات الاخيرة من معطيات بعض العلوم الطبيعية كالكيمياء والفيزياء الذرية لتحديد ازمنة بعض الآثار المكتشفة :

---

(١) جابر خليل ، الانشطة الاثارية ، ص ٤٩٥–٤٩٦.

وكان تأسيس اول دائرة وطنية للاثار في العراق عام ١٩٢٠ ، وكانت مرتبطة انذاك بوزارة المعارف وقد شرع اول قانون يحمي الاثار العراقية عام ١٩٢٤ اي بعد تأسيس المتحف العراقي مباشرة ، وكان دور دائرة الاثار الاشراف على اعمال هيئات وبعثات التنقيب الاجنبية وتطبيق قانون الآثار وحماية المواقع الاثرية من العبث الا ان نشاط الدائرة كان واضحاً في الفترة مابين الحربين خاصة بعد ان تخصص عدد من العراقيين في دراسة الآثار، وكان في مقدمتهم الاستاذان الفاضلان طه باقر وفؤاد سفر اللذان قادا بنجاح اعمال التنقيب في عدد من المواقع الاثرية مثل مدينة واسط وعقرقوف والدير وحرمل والضباعي وحسونة واريدو والحضر وسامراء وتكريت والكوفة واسوار نينوى وخرصباد.

وفي عام ١٩٣٦ صدر قانون جديد للآثار نص على حماية المواقع الأثرية من عبث العابثين من البعثات الاجنبية والسكان المحليين ومنع المتاجرة بالآثار وحدد حصة البعثات الاجنبية من الآثار المكتشفة وحقوقها في النشرر والتزاماتها تجاه دائرة الآثار، وفي عام ١٩٧١ صدر تعديل جديد لقانون الآثار منع بموجبه اخراج اي مكتشف الى خارج حدود العراق الا من اجل الدراسة وعلى سبيل الاعارة ونص على ضرورة صيانة المواقع الاثرية كما حددت بموجبه مواصفات هيئة التنقيب العلمية وواجباتها والتزاماتها تجاه دائرة الآثار.

وفي عام ١٩٥١ كان تأسيس قسم الآثار بكلية الآداب بجامعة بغداد ، فكان ذلك فاتحة عهد جديد في حقل التنقيب ودراسة الآثار حيث عمل القسم على تخريج ملاكات علمية متخصصة للعمل في حقل الآثار وتخصص عدد لابأس به من خريجي القسم في الجامعات الاجنبية وعادوا الى الوطن لتحمل المسؤولية في الكشف عن الآثار والاشراف العلمي والفني على اعمال الهيئات الاجنبية والمساهمة الجادة في اعمال تلك الهيئات ومن ثم دراسة وتحليل الاثار المكتشفة. الى جانب ذلك ، كان تدريب عدد من العمال الفنيين على اعمال الحفر الفني والذي بدأ منذ مطلع القرن الحالي في اشور، قد افاد كثيراً هيئات التنقيب حيث اصبح بامكان العمال المتدربين التعرف على جدران اللبن والواح الطين وتمييز الطبقات الاثرية والعناية بالتحف الاثرية حتى غدت مهمتهم ودورهم في اعمال التنقيب يوازي مهمة المنقّب العلمي المختص واصبح اشتراكهم في اعمال التنقيب في مختلف المواقع الاثرية من الامور الطبيعية ، وقد سموا بالشرقاطيين لانهم جاءوا من القرى المحيطة بالشرقاط وقد انتقلت خبرتهم الى ابنائهم واحفادهم ومازالوا يؤدون مهامهم على الوجه الاكمل الى الان.

فضلاً عن ذلك فقد ساهمت الجامعات العراقية في السنوات الاخيرة في اعمال التنقيب والصيانة الاثرية ، وكانت جامعة الموصل السباقة في هذا المجال حيث باشرت اعمالها بالتعاون مع دائرة الاثار عام ١٩٦٨ في الكشف عن بوابة ادد في سور نينوى الشمالي كما اكتشفت هيئتها مدينة تربيص الاشورية الواقعة على بعد بضعة كيلومترات من ابنية الجامعة الحالية اضافة الى مساهمتها الفاعلة في انقاذ عدد من المواقع الاثرية قبل ان تغمرها مياه سد صدام (الموصل) ، وهي موقع تل ابو ظاهر وتل مصيفنة وتل سلال وتل زمار في حين قامت جامعة بغداد بالتنقيب في موقع تل اسود وبقايا مدينة سبار؟ كما ساهمت جامعة البصرة في العمل في احد المواقع الاسلامية القريبة. وبادرت جامعة القادسية الى التنقيب عن الاثار في احد المواقع القريبة منها كذلك في السنة الاخيرة.

وحيث ان مياه السدود الخاصة بمشاريع الري الكبرى التي تنفذ في العراق حالياً ستغمر اعداداً كبيرة من المواقع الاثرية ، فقد بادرت دائرة الاثار والتراث بمسح المناطق التي ستغمرها المياه والاعلان عن الحملات الوطنية لانقاذ آثار المواقع الاثرية المهددة بالغمر وابدت استعدادها للاتفاق على هيئات التنقيب العالمية والعربية والمحلية ، فتوافدت البعثات الاجنبية من مختلف اقطار العالم للمساهمة في حملات الانقاذ هذه ، وكانت بعثة كلية الاداب في جامعة الموصل اول بعثة لبت هذا النداء.

التنقيب والتلول الاثرية

كان من نتائج التنقيبات الكثيرة التي اجريت في المواقع المختلفة في العراق انه تم الكشف عن آثار كثيرة متنوعة بعضها غاية في الاهمية امدتنا بمعلومات غزيرة عن تاريخ الانسان وتاريخ تطور منجزاته الحضارية عبر العصور الطويلة التي عاشها في هذا الجزء المهم من العالم القديم بدءاً من العصور الحجرية فصاعداً. وهنا لابد من التوقف قليلاً للتعرف على طبيعة اعمال التنقيبات الأثرية والمواقع او التلول التي تجري فيها وكيفية الافادة من الآثار المكتشفة وتحديد ازمنتها.

فالتنقيبات الأثرية هي عبارة عن عملية حفر منظم تقوم بها جهات علمية متخصصة بهدف الكشف عن جميع مخلفات الانسان المطمورة في بطون التلول والمواقع الأثرية او تحت مستوى ارضيات الكهوف والمغاور، ودراستها وتحليلها بشتى الوسائل الحديثة واستنتاج ما يمكن استنتاجه منها من معلومات عن حياة الانسان الذي خلف تلك البقايا. والسؤال الذي يتبادر الى الذهن هو كيف غابت تلك الآثار والمخلفات عن الانظار وانطمرت

تحت اكداس من الاتربة، او تحت مستوى ارضية المواقع الأثرية، مكونة مايعرف عادة بالتلول الأثرية المتناثرة هنا وهناك في مختلف انحاء العراق من اقصاه الى اقصاه ولاسيما في المناطق السهلية الخصبة وفيرة المياه او على شواطئ الأنهار. وللاجابة عن مثل هذا التساؤل لابد من التعرف على كيفية استقرار الانسان في القرى والمستوطنات الزراعية وتشييده المدن. فالمعروف ان الانسان قديماً وحديثاً يختار المواقع المناسبة لاقامة مستوطناته الزراعية، قريباً من منابع المياه وفي وسط ارض خصبة او على احد الطرق التجارية او في سفح جبل يحميه من الاعداء ويوفر له مصّداً طبيعياً ضد الرياح العاصفة وغيرها، وغالباً ماتشيد البيوت على موضع مرتفع نسبياً عن مستوى الارض المجاورة لتكون اكثر اشرافاً على الارض ومنعاً لتجمع مياه الامطار بالقرب من اماكن السكن. وحيث ان جدران البيوت كانت، ولم تزل حتى الان، تشيد غالباً من الطين المجفف بالشمس، اي اللبن، وتسقف بجذوع الاشجار واغصانها تعلوها طبقة من الطين، تماماً كما يفعل الآن سكان القرى عند بناء البيوت التي تعرف محلياً بالدوم، لذا فان مثل هذه البيوت سرعان ماتتهدم وتتداعى جدرانها فيسارع اصحابها الى ترميمها سنة بعد اخرى الى ان تتهدم كلياً ولايمكن اصلاحها او ترميمها فيضطر اصحابها الى هدمها وتسوية انقاضها وتعديل الارض بها لتكون اساساً للبيوت الجديدة التي تشيد عادة فوق انقاض البيوت القديمة وترتفع نتيجة ذلك ارضية البيوت الجديدة عن ارضية البيوت القديمة بسبب تراكم الانقاض وتسويتها، وبتكرر عملية الهدم والتسوية والبناء في المكان الواحد بتعاقب الاجيال، ترتفع ارضية اماكن السكن تدريجياً حتى تصبح آخر مجموعة من البيوت الجديدة وكأنها مشيّدة على تل او مرتفع اصطناعي يتألف من عدة طبقات يفصل بين طبقة واخرى ارضية ترابية او طينية مدكوكة تكونت نتيجة الدوس والمشي والسكن عليها. وتسمى كل طبقة من هذه الطبقات بالطبقة الأثرية او السكنية لان كلاً منها يمثل بقايا مجموعة من البيوت السكنية. وتمثل آخر مجموعة من البيوت، وهي الواقعة في اعلى موقع السكن، الطبقة الاخيرة من حيث الفترة الزمنية. فاذا ماهجرت تلك البيوت ايضاً وهجرت معها القرية او المدينة كلياً لاي سبب كان، سواء بسبب ارتفاع الموقع ارتفاعاً كبيراً نتيجة استمرار الاستيطان فيه أم بسبب انقطاع موارد المياه او تغير مجرى النهر او تغير الطريق التجارية او نتيجة حدوث بعض الكوارث كالحرائق والفيضانات او غزو الاعداء او لمجرد قلّة خصوبة الارض لزيادة نسبة الملوحة فيها، وتركت المدينة او القرية لعوامل التعرية الطبيعية، فبعد سنوات قليلة تتداعى الجدران وتتساقط السقوف وتتجمع الاتربة والانقاض وتؤلف الابنية مصداً للرياح المحملة بالاتربة، فتتراكم فوقها الاتربة سنة بعد أخرى حتى تغطيها وتبدو وكأنها تل طبيعي

في حين انها تمثل تلاً اصطناعياً في داخله آثار وبقايا قرية او مدينة كانت في وقت ما آهلة بالسكان. وهناك من المواقع التي استمر السكن فيها منذ اقدم العصور ولم تزل مسكونة حتى الان مثل قلعة كركوك وقلعة اربيل وتل النبي يونس في الموصل وغيرها ويمثل كل من هذه المواقع تلاً اصطناعياً تكون من تراكم وتتابع الطبقات السكنية المتعاقبة.

وقد يسكن الانسان في الكهوف والمغاور، ولاسيما في العصور الحجرية القديمة في وقت لم يكن يعرف تشييد البيوت واقامة القرى، الا انه ترك مخلفاته البسيطة على ارضية الكهف او المغارة المدكوكة، وتمثل كل ارضية دوراً سكنياً معيناً وقد يعثر على بعض الادوات الحجرية الصغيرة اوبقايا الهياكل العظمية او غيرها بين ارضيات السكن مما يلقي بعض الضوء على حياة الانسان في تلك العصور السحيقة في القدم.

الطبقة الأثرية والدور الحضاري:

ويسمى المختصون بالتنقيب والآثار انقاض وبقايا كل مجموعة من البيوت المتهدمة والتي تعود عادة لفترة زمنية واحدة تقريباً بالطبقة الأثرية او السكنية، ويفصل بين طبقة سكنية واخرى ارضية البيوت الاحدث عهداً المكونة نتيجة الدوس والمشي. ومن الطبيعي ان انقاض كل طبقة اثرية تضم فضلاً عن جدران اللبن المتداعية والسقوف المتهدمة- بعض المخلفات الاخرى التي ردمها الانسان مع الانقاض اما لعدم فائدتها ككسر الاواني الفخارية والحجرية وبعض الرقم الطينية وكسر التماثيل والمسلات والآجر وغيرها، او انها ذات فائدة وقيمة مادية الا انها انطمرت مع الانقاض عن غير قصد. وتضم الطبقات الأثرية المكونة نتيجة الحرائق والفيضانات وغيرها من الكوارث والتي اضطرت الانسان الى ترك موقع سكناه بعجالة، اثاراً اكثر اهمية وغالباً ماتضم المنحوتات والمسلات والقطع المعدنية وغيرها.

وقد تتشابه عدة طبقات اثرية، او سكنية، من حيث نوعية آثارها وطرز ابنيتها ونقوش والوان اوانيها الفخارية، فيقال ان تلك الطبقات المتشابهة تمثل دوراً حضارياً معيناً وقد تمثل فترة زمنية تدوم لعشرات السنين او بضعة قرون. ويختلف الدور الحضاري المؤلف من مجموعة من الطبقات الأثرية عن غيره من الادوار الحضارية باختلاف ظاهر في الطرز المعمارية والفخارية وبتبدلات ثقافية واختراعات جديدة تعكس تغييرات سياسية واقتصادية واجتماعية. وكمثال على ذلك نشير الى مدينة الوركاء في القسم الجنوبي من

العراق، وهي من المدن المهمة التي نشأت مع بداية الاستيطان في القسم الجنوبي من العراق وشهدت عبر العصور التي استوطن فيها الانسان عدداً من التغييرات الحضارية الجذرية، حيث كشف المنقبون فيها عن ثماني عشرة طبقة أثرية او سكنية تمثل اربعة ادوار حضارية فقط وهي دور العبيد ودور الوركاء ودور جمدة نصر ودور عصر فجر السلالات مما سيأتي الكلام عنها فيما بعد.

وبوسع المنقّب او المختص بدراسة الآثار ان يميز التل الاثري الذي يبطن داخله آثار ومخلفات الانسان من شكل التل الظاهري وموقعه وسط الاراضي السهلة بصورة عامة الا ان تمييزه للتل الأثري على نحو دقيق يتم من خلال دراسته للملتقطات الأثرية الموجودة على سطح وسفوح التل ولاسيما كسر الاواني الفخارية وقطع الاحجار وكسر اللبن وغيرها من المواد التي لاتتأثر بالعوامل الطبيعية وتكثر عادة في جميع المواقع التي شهدت سكنى الانسان في العصور القديمة.

عملية التنقيب عن الآثار:

واذا اراد المنقب ان يحفر في احد التلول الأثرية، كان عليه اولاً ان يختار التل الاثري من خلال دراسته للملتقطات الأثرية الموجودة على سطح وسفوح التل والتي تنم عادة عما يبطن التل في داخله من آثار. فاذا كانت الملتقطات السطحية عبارة عن كسر وشظايا من الحجر، ولاسيما حجر الصوان، وبعض الادوات الحجرية الاخرى، فان الاحتمال الاكثر ان التل يضم بقايا انسان العصور الحجرية، اما اذا كانت الملتقطات تضم اضافة الى ذلك كسراً من الاواني الفخارية المزخرفة والملونة، فهذا دليل على ان التل يضم اثاراً من العصر الحجري المعدني والعصور التالية ايضاً اما اذا ضمت الملتقطات الأثرية السطحية بعض الكتابات المسمارية على الطين او الآجر او الحجر فهذا يعني بالتأكيد ان التل يضم آثاراً من العصور التأريخية التي اعقبت اختراع الكتابة وهكذا.

وبعد التأكد من ان التل الاثري يضم اثاراً من الادوار الحضارية التي يريد المنقب الكشف عنها، تبدأ هيئة التنقيب[1]، المؤلفة عادة من عدد من المختصين بالحفر والرسم والتصوير وقراءة الخطوط القديمة ومعالجة الآثار ودراسة بقايا النباتات والحيوانات، بالعمل

---

(١) هيئة التنقيب هي الهيئة العلمية والفنية المشرفة على اعمال التنقيب في الموقع الأثري وقد حدد قانون الآثار العراقي لعام ١٩٧١ مواصفات هيئات التنقيب وضرورة احتوائها على عدد من المتخصصين وبصورة هيئة او مؤسسة علمية تابعة لها....

الفعلي فتقوم بأخذ الصور الفوتوغرافية للموقع والمنطقة التي يقع فيها وترسم الخرائط الكنتورية ويقسم التل الاثري الى مربعات منتظمة يعطى لكل مربع رقم معين وتؤشر على الخارطة حسب الطرق العلمية المتبعة في التنقيب. تبدأ عملية الحفر بأزالة الاتربة المتراكمة على سطح التل في المنطقة او المربع المحدد، ثم يبدأ الحفّارون بمساعدة العمال الفنيين من الشرقاطيين المتدربين على اعمال التنقيب الفني، بالكشف عن بقايا أبنية الطبقة السكنية (الأثرية) الاولى الواقعة اعلى التل واستظهار ارضية تلك الابنية وجمع الملتقطات الأثرية الموجودة بين الانقاض المتراكمة على الارضية. ثم ترسم بقايا الابنية المستظهرة وتعلّم على الخارطة الخاصة وتسجل الملتقطات الأثرية وترقّم وتوصف وصفاً دقيقاً مع بيان مواقع العثور عليها وتصور الطبقة الاولى كاملة ثم يبدأ المنقب بازالتها لاستظهار الطبقة الثانية، وتتكرر العملية في الطبقة الثانية والثالثة وهكذا الى ان يصل الى الطبقة السفلى التي شيدت على الارض الطبيعية والتي يسميها المنقبون عادة بالارض البكر. وبعد الانتهاء من عملية التنقيب والكشف عن الآثار يكون لدى الهيئة سجل كامل ودقيق بجميع الملتقطات الأثرية والطبقات السكنية وتسلسلها ومجموعة كاملة من الصور الفوتوغرافية يمكن بالاعتماد عليها كتابة تقرير مفصل عن اعمال التنقيب ومن ثم الكشف عنه خلال ذلك.

تسمية الادوار الحضارية:

دأب المنقبون والباحثون في عصور قبل التاريخ بنحو خاص على تسمية الادوار الحضارية التي تتابعت في عصور قبل التاريخ تسميات حديثة مثل الدور الاورغنيشي والدور الاشولي والدور المكدليني،وهي ادوار في العصر الحجري القديم،ودور حسّونة، ودور سامراء ودور الوركاء وغيرها، وهي ادوار حضارية من العصر الحجري - المعدني، كما سميت انواع الانسان الذي عاش في العصور الحجرية القديمة بالاسلوب نفسه مثل انسان پكين وانسان جاوة وانسان النياندرتال. وكما هو واضح فان جميع هذه التسميات هي تسميات حديثة لمواقع جغرافية معينة لاتزال تعرف بها حتى الان الا انها تشير الى ادوار حضارية في ازمنة قديمة جداً، فلقد اعتاد المنقبون ان يطلقوا على الآثار والبقايا التي تحمل صفات اوطرزاً معينة لم تكن معروفة سابقاً اسم الموقع الذي اكتشفت فيه لاول مرة. فمثلاً، اذا ما اكتشف المنقب انواعاً معينة من الاواني الفخارية الملونة والمزخرفة بزخارف هندسية ونباتية وحيوانية. لم يسبق ان اكتشف مايشابهها في أي موقع اخر، عندها يسمي الدور الذي تعود اليه تلك الاواني الفخارية باسم الموقع الذي كان ينقب فيه، وليكن موقع تل حلف، وهو موقع اثري يقع الان في الحدود السورية، فتسمى الفخاريات بفخار دور

حلف، فاذا عثر فيما بعد على فخار مشابه من حيث الزخرفة والشكل والالوان في اي موقع آخر في نينوى او الاربجية، سمي الفخار المكتشف بفخار دور حلف ايضاً. وكذلك بالنسبة لانسان النياندرتال حيث عثر لاول مرة على هيكل عظمي لانسان بمواصفات معينة في وادي النياندرتال في المانيا فاذا ما عثر على هياكل عظمية مشابهة في اي جزء من العالم، كما عثر فعلاً على بعض تلك الهياكل في كهف شانيدار في شمال العراق، سميت تلك الهياكل بانها تعود الى انسان النياندرتال ايضاً وهكذا. وباتباع الاساليب العلمية المتيسرة يمكن تحديد ازمنة تلك الادوار الحضارية، او الازمنة التي عاش فيها هذا النوع من الانسان، بشكل تقريبي حتى يصبح اسم الدرو الحضاري او نوع الانسان مرتبطاً بفترة زمنية معينة، فاذا قيل ان هذه فخاريات من دور حلف عرف ان المقصود هو الدور الحضاري الذي تميز بصفات معينة والذي يرقى زمنه الى حدود ٤٥٠٠ ق.م. وكذلك بالنسبة للادوار الاخرى وانواع الانسان وغيرها.

تأريخ الآثار المكتشفة وتحديد أزمنة وتسلسل الأدوار الحضارية

تختلف التلول والمواقع الاثرية في العراق من حيث نوع الآثار التي تضمها في داخلها، فقد تضم بعض المواقع، كالكهوف والمغادر وغيرها من مواقع العصور الحجرية. اثاراً هي عبارة عن بعض الادوات المصنوعة من الحجر او العظم او بقايا بعض الهياكل العظمية وربما قليل من المواد المتفحمة او المتحجرة، في حين تضم مواقع اخرى، ولاسيما مواقع العصر الحجري المعدني، بقايا ابنية واواني وكسر فخارية متنوعة وبعض الدمى والتماثيل والالات والادوات المصنوعة من الحجر او المعدن، وقد يضم غيرها من المواقع الواحاً من الحجر او الطين مدون عليها بالكتابة المسمارية مواضيع متنوعة، او تماثيل او مسلات او منحوتات وعليها كتابات مسمارية تذكر اسم الملك او الحاكم الذي صنعت في عهده تلك المسلة او المنحوتة. وهناك مواقع اثرية تضم جميع انواع هذه الاثار، باستثناء الكهوف والمغاور التي تقتصر آثارها على العصور الحجرية القديمة. وقد تكون الآثار المكتشفة على درجة كبيرة من الاهمية من حيث اسلوب صنعها او بنائها وما عليها من زخرفة وما تعكسه من معلومات عن حياة الانسان وعن منجزاته الحضارية اوماتضمه من معلومات تاريخية أو أقتصادية أو اجتماعية مدونة على الواح الحجر أو الطين. الا أن اهمية جميع هذه الآثار وغيرها مما قد تكشف عنه التنقيبات الآثرية تتوقف على معرفة تأريخ الفترة الزمنية التي تعود اليها وموقعها بالنسبة لتسلسل الفترات الزمنية والادوار الحضارية التي مرت على

المنطقة وكذلك معرفة تأريخها بالنسبة الىٰ الوقت الحاضر وبشكل دقيق. فاذا ماعثر المنقب مثلاً علىٰ مسلة مدون عليها اسم الملك آشور ناصر بال فكيف يمكنه معرفة الفترة الزمنية والدور الحضاري الذي تعود اليه تلك المسلة وما الطريقة التي يمكن بها تحديد فترة حكم الملك آشور ناصر بال الى الوقت الحاضر؟ لذا، كانت مهمة تحديد الدور الحضاري والفترة الزمنية التي تعود اليها الآثار المكتشفة وتحديد فترتها بالنسبة الىٰ الوقت الحاضر بشكل دقيق من اولىٰ المهام الملقاة علىٰ عاتق المنقب واعضاء هيئته من المختصين بالعلوم المختلفة. وقد اتبع المنقبون واعضاء هيئاتهم طرقاً ووسائل عدة لتحقيق ذلك منها:

اولاً: تسلسل الطبقات الأثرية:

المحنا فيما سبق الىٰ أن كل موقع أو تل اثري يضم عدداً من الطبقات الأثرية أو السكنية يمثل كل منها بقايا ومخلفات استيطان الانسان في فترة معينة، وقد تؤلف كل مجموعة من تلك الطبقات دوراً حضارياً معيناً يختلف عن الدور الحضاري السابق او اللاحق له بنوعية الآثار وطرزها الفنية ومادة صنعها الىٰ غير ذلك من الصفات التي يتميز بها كل دور حضاري عن غيره من الادوار. ومن الطبيعي أن تسلسل تلك الطبقات الأثرية والادوار الحضارية يمثل تسلسلها الزمني ايضاً. فالطبقة الاولى من الاعلىٰ تمثل احدث الطبقات الأثرية عهداً وتليها الطبقة الثانية والثالثة وهكذا حتى نصل الىٰ الطبقة السفلىٰ التي تضم بقايا أول استيطان للانسان في الموقع ويقع تحتها مباشرة الارض البكر التي لاتضم تحتها بقايا سكن الانسان. وينطبق الشيء نفسه علىٰ تسلسل الادوار الحضارية التي تمثلها تلك الطبقات الأثرية (السكنية) فالطبقات الثلاث العليا، مثلاً، تمثل آخر الادوار الحضارية التي مرت علىٰ الموقع التي قد ترجع الىٰ العصر الاسلامي ويليها عدد من الطبقات التي قد تعود الىٰ فترات الاحتلال الاجنبي في العراق الساسانية والفرثية والسلوقية والاخمينية، تليها مجموعة ثالثة من الطبقات تمثل الدور الحضاري الآشوري المتأخر وتمثل المجموعة الرابعة من الطبقات العصر الآشوري الوسيط أو القديم وهكذا حتى نصل الىٰ اسفل الموقع، وقد يهجر الموقع في فترة معينة، كان يهجر في فترة الاحتلال الاجنبي للعراق عندها لانجد طبقات أثرية تمثل تلك الفترة بل نجد الآثار الآشورية مثلاً تحت الآثار الاسلامية مباشرة وهكذا. وقد تمكن المنقبون من تقدير عمر كل طبقة من الطبقات السكنية استناداً الىٰ سمك انقاضها ونوعية الآثار والابنية التي كانت تضمها الا أنه يتعذر وضع قواعد ثابتة لذلك. وبصورة عامة فإن الطبقات التي تضم بقايا أبنية كانت مشيدة بالحجر مثلاً هي اطول عمراً من الطبقات التي كانت ابنيتها مشيدة بالآجر،

والمشيدة بالآجر هي اطول عمراً من الابنية المشيدة باللبن (الطين) وهكذا. الا أن تقدير عمر الآثار المكتشفة استناداً الىٰ ذلك يكون تقديراً نسبياً ويعطي فكرة عامة فقط.

ثانياً: دراسة الطرز الفنية:

من المعروف أن لكل دور حضاري من أقدم الأدوار الحضارية وحتىٰ الآن، سماته العامة المختلفة عن سمات الادوار الاخرى السابقة واللاحقة فله طرزه المعمارية والفنية وفخاره الخاص واختامه الاسطوانية ونقوشه وزخارفه الىٰ غير ذلك مما يميز الطرز الفنية بعضها عن البعض الآخر. ومن خلال المكتشفات الأثرية في المواقع المختلفة والإفادة من تسلسل الطبقات والادوار الحضارية امكن تثبيت تسلسل الادوار الحضارية زمنياً استناداً الىٰ طرزها الفنية واصبح بامكان المنقب أن ينسب الآثار البنايات المكتشفة الىٰ أحد الادوار الحضارية المعروفة استناداً الىٰ التشابه الموجود بين الطرز الفنية، فإن لم يكن هناك بين الادوار الحضارية المعروفة طراز فني يشابه طراز الآثار المكتشفة من قبله، عندها تنسب هذه الآثار الىٰ دور حضاري جديد وغالباً ما يسمى بأسم الموقع الذي اكتشفت فيه لاول مرة.

وفي المواقع الأثرية العراقية يعتمد المنقبون بالدرجة الاولىٰ في تحديد الطراز الفني لاي دور حضاري، ولاسيما الادوار الحضارية لعصور قبل التأريخ، علىٰ الفخار والاختام المنبسطة والاسطوانية لاختلاف اشكالها وألوانها وزخرفتها ومادة صنعها من دور الىٰ آخر ومن مكان الىٰ آخر.

ثالثاً: النظائر المشعة

يستعين المنقبون في الوقت الحاضر ببعض العلوم الطبيعية الأخرى لتحديد أزمنة الآثار المكتشفة من ذلك استخدامهم لجهاز كهربائي حديث لفحص المواد العضوية المكتشفة، كالهياكل العظمية وبقايا الاخشاب والنباتات، ومعرفة ماتبقى فيها من العناصر المشعة المعروفة علمياً بكاربون ١٤. فالمعروف علمياً ان جسم الكائن الحي يحتوي علىٰ كمية معينة ثابتة من هذه العناصر المشعة ومتى مات الكائن الحي، تبدأ هذه العناصر بالتناقص عن طريق الاشعاع وقد أمكن احتساب كمية التناقص والفترة الزمنية التي تستغرقها فوجد أن عناصر كاربون ١٤ تتناقص بنسبة ثابتة فتفقد نصف كميتها الموجودة في المادة العضوية، أي بقايا الكائن الحي، كل ٥٦٠٠ سنة تقريباً، وهذا مايسمى عادة بدورة

نصف العمر Half Life cycle ، وبعد مرور ٥٦٠٠ سنة اخرى تفقد المواد العضوية نصف كمية العناصر المشعة المتبقية وهكذا الىٰ أن تتلاشى من الوجود في المادة العضوية. لذلك فعند قياس مايتبقىٰ من هذه المادة المشعة في المواد العضوية المكتشفة، يمكن احتساب الفترة الزمنية التي مضت علىٰ تلك المادة منذ أن فقدت الحياة. الا أن من عيوب هذه الطريقة انها تعطي الفترة الزمنية بشكل تقريبي حيث هناك هامش في الزيادة والنقصان يقدر بمائتي سنة كما أنها تحتاج الىٰ كمية كبيرة نسبياً من المادة العضوية وتتلف تلك المادة بعد فحصها وأخيراً فإن هذه الطريقة غير مفيدة في قياس عمر المواد العضوية التي يزيد عمرها علىٰ ٥٠ – ٦٠ الف سنة كما أنها قليلة الفائدة، نظراً لعدم دقتها، بالنسبة للمواد من العصر الحجري المعدني (حدود ٥٦٠٠ – ٣٥٠٠ق.م) وما بعده.[١]

رابعاً: النصوص المسمارية:

تعد بعض أنواع النصوص المسمارية المكتشفة ذات فائدة قصوى في تحديد تسلسل حكم السلالات والملوك ومعرفة الادوار التأريخية وذلك بالنسبة الىٰ الفترات التي اعقبت اختراع الكتابة في اواسط الألف الرابع قبل الميلاد بالدرجة الاولىٰ. كما أن هناك بعض النصوص المسمارية ذات المضمون التأريخي التي امدتنا بمعلومات مفيدة، وإن لم تكن دقيقة، عن الفترات السابقة لاختراع الكتابة ويأتي في مقدمة هذه النصوص ما يعرف عادة بجداول أو اثبات الملوك، وهي جداول مطولة بأسماء السلالات الحاكمة وترتيب تسلسلها الزمني، وهناك جداول بأسماء الملوك السومريين وأخرى باسماء الملوك البابليين والآشوريين. وقد ذكرت بعض هذه الجداول اسماء الملوك والسلالات منذ بدء الخليقة وحتى تأريخ تدوين الجداول في مطلع الالف الثاني قبل الميلاد، كما سبق وأن اشير الى ذلك. كما ان هناك جداول التأريخ التعاصري التي تضم اسماء الملوك في بلاد بابل وما يقابلها من الملوك الآشوريين. اضافة الى ذلك، تم الكشف عن قوائم مهمة بتسلسل السنين التي كانت تؤرخ بأهم الحوادث أو باسم الملك او الليمو مما سبقت الاشارة اليه مما افاد كثيراً في ضبط الادوار التأريخية وتحديد تسلسل حكم الملوك والسلالات. الى جانب

---

(١) حول تفاصيل هذه الطريقة وطرق اخرى مشابهة انظر: طه باقر، المقدمة، ص ١٣٨ – ١٤١.
كذلك Braidwood, R., Sumer, 13 (1967), pp. 39 ff

ذلك، افاد الباحثون من بعض النصوص التي عثر عليها خارج حدود بلاد بابل وآشور كرسائل العمارنة المكتشفة في مصر[١] وبعض النصوص الحثية والعيلامية وغيرها.

خامساً: الأرصاد الفلكية:

ومع أهمية الوسائل التي سبق ذكرها في تحديد تسلسل الادوار الحضارية والتأريخية وضبط ازمنتها بالنسبة لبعضها البعض فانها تبقى قاصرة عن تحديد ازمنة تلك الادوار وضبط حكم الملوك والسلالات بالنسبة الى الوقت الحاضر. فاذا ما عثرنا على تمثال لملك معين في مدينة نمرود، مثلاً، وعرفنا من خلال قراءة ماهو مدون عليه انه يعود الى الملك آشورناصربال. وبالاستعانة بجداول الملوك وقوائم تأريخ السنين، أمكن معرفة أن آشورناصربال جاء بعد ابيه توكلتي ننورتا الثاني وخلفه في الحكم ابنه شيلمنصر الثالث وانه حكم مدة اربع وعشرين سنة. لكننا لانعرف متى كان حكم هذا الملك بالنسبة الى الوقت الحاضر. فكما هو معروف إننا نتبع الآن اما التقويم الميلادي الذي وضع نقطة ثابتة هي ميلاد السيد المسيح وبدأ بحساب السنين الشمسية استناداً الى ذلك أو التقويم الهجري الذي اتخذ من هجرة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم نقطة ثابتة وحسبت السنين القمرية استناداً الى ذلك. أما في التأريخ القديم فلم يفطنوا الى اتخاذ نقطة ثابتة لحساب السنين استناداً اليها بل انهم اتبعوا وسائل عدّة لحساب السنين كما سبق واشير الى ذلك في مكان آخر، وكل تلك الوسائل كانت لفترات زمنية محددّة وغير مترابطة احياناً. وعليه كان على الباحثين المحدثين ان يجدوا نقطة ثابتة معينة في التأريخ القديم يمكن تحديدها بالنسبة الى التقويم الميلادي مثلاً، وحيث أنه كان من عادة الكتبة الآشوريين عند ذكر أسماء السنين المتعاقبة استناداً الى طريقة الليمو أن يذكروا احياناً اهم حدث وقع في كل سنة من السنين، فقد ذكر في تسمية السنة الثالثة من حكم الملك الآشوري آشوردان (الثالث) حادثة كسوف الشمس. وقد عكف علماء الفلك في الوقت الحاضر على معرفة وقت حدوث هذا الكسوف بصورة دقيقة واستناداً الى حساباتهم الفلكية امكن تحديد ذلك باليوم الخامس عشر من شهر حزيران من عام ٧٦٣ق.م. وبعبارة اخرى ان السنة الثالثة من حكم الملك آشوردان الثالث تساوي بالنسبة لوقتنا الحاضر وتقويمنا الميلادي سنة

---

(١) موقع العمارنة بقايا عاصمة الفرعون المصري اخناتون، وقد ضمت هذه الرسائل المراسلات التي استلمها اخناتون من الملوك الحثيين والحوريين والكشيين وقد كتبت جميعها بالخط المسماري واللغة الاكدية مما يشير الى انتشار الخط المسماري واللغة الاكادية واستخدامها كخط ولغة دبلوماسية بين ملوك وحكام الشرق الادنى القديم في اواسط الالف الثاني قبل الميلاد.

٧٦٣ق.م. ومن هذه النقطة الثابتة وبالاستعانة بقوائم جداول الملوك الآشوريين وجداول الملوك المتعاصرين وقوائم اللمو وباضافة أو طرح سنوات حكم كل ملك حسب الجداول واستناداً الى النقطة الثابتة هذه امكن تثبيت حكم معظم الملوك الآشوريين والبابليين الى حدود سنة ١٧٠٠ قبل الميلاد وبشكل دقيق. وحيث ان آشور ناصر بال صاحب التمثال المكتشف وابن توكلتي نفورتا كان قد توفي قبل بداية حكم آشوردان الثالث الذي حدث في سنته حادث الكسوف بأربع وتسعين سنة وانه حكم اربع وعشرين سنة، كما تشير الى ذلك جداول الملوك، فهذا يعني ان بداية حكمه كان في سنة ٨٨٣ق.م وانه استمر في الحكم الى عام ٨٥٩ق.م. وقد امكن التوصل الى ذلك حسبما يأتي:

السنة الثالثة من حكم آشوردان (الثالث) = ٧٦٣ ق.م

السنة الاولى من حكم آشوردان (الثالث) = ٧٦٥ ق.م

توفي آشور ناصر بال قبل بداية حكم آشوردان بأربع وتسعين سنة = ٨٥٩=٩٤+٧٦٥

حكم آشور ناصر بال اربعاً وعشرين سنة = ٨٥٩ + ٢٤ = ٨٨٢ ق.م

كما افاد الباحثون من الارصادات الفلكية الاخرى، كارصاد كوكب الزهرة في العهد البابلي القديم، وذلك بتثبيت حكم بعض ملوك سلالة بابل الاولى وبالطريقة المستخدمة في تحديد كسوف الشمس نفسها[1].

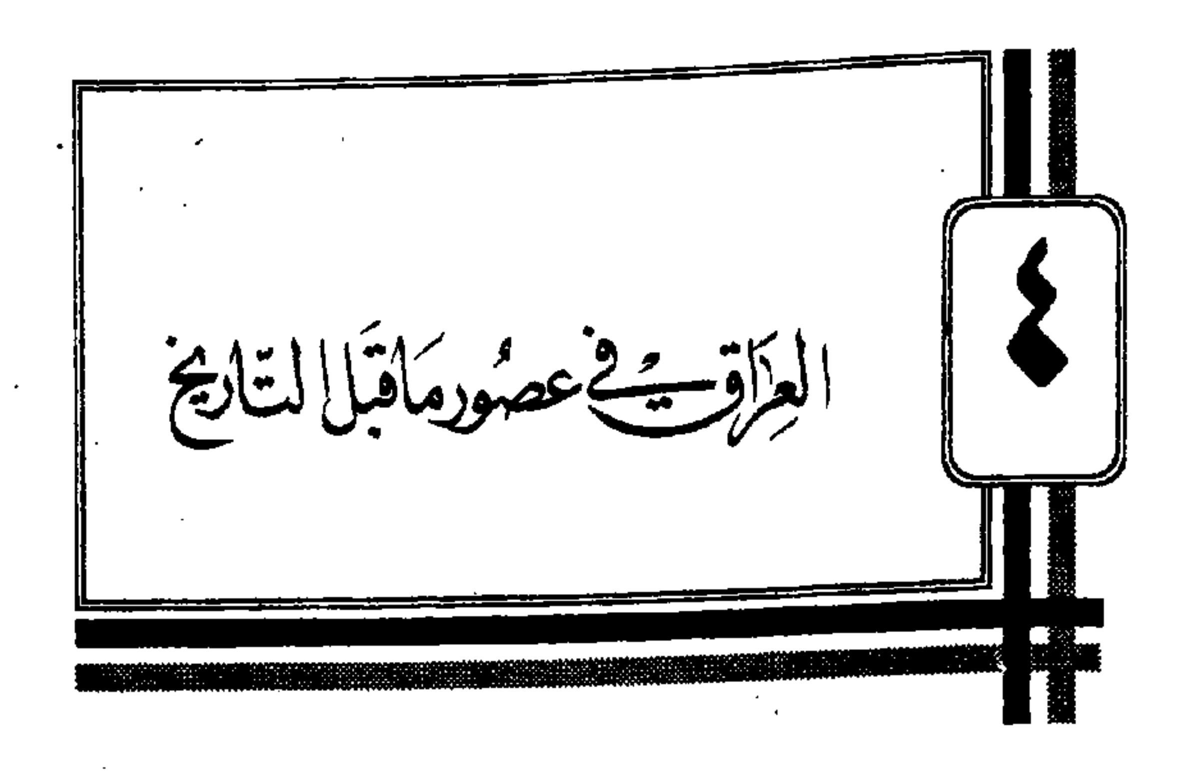
فضلاً عن ذلك، فقد افاد الباحثون من ثبت بطلموس، وهو فلكي وجغرافي عاش في القرن الثاني الميلادي وكتب جدولاً باسماء الملوك البابليين والفرس وسني حكمهم من عهد نبوناصر (٧٤٦– ٧٣٤ ق.م) وشمل اسماء الاباطرة الرومان الى زمن الامبراطور انطونيوس (١٣٨ – ١٦١ م) في تثبيت تسلسل حكم ملوك هذه الفترة.

(١) تشير النصوص المسمارية الى أن البابليين قاموا برصد بعض النجوم والكواكب منذ الالف الثالث قبل الميلاد غير ان اقدم الامثلة المعروفة لدينا عن مثل هذه الارصادات هي من الالف الثاني قبل الميلاد من عهد الملك البابلي امي–صدوقا أحد ملوك سلالة بابل الاولى (١٦٤٦– ١٦٢٦ق.م) وقد ثبت في هذا الرصد مواعيد ظهور واختفاء كوكب الزهرة في الالف الثاني قبل الميلاد، وقد اتخذ ذلك اساساً لاحتساب سنوات حكم الملك امي صدوقا وبعض الملوك البابليين الاخرين بالنسبة للوقت الحاضر بالطريقة نفسها التي استخدمت في الافادة من حادث الكسوف عام ٧٦٣ق.م. الا ان المشكلة الاساسية ان كوكب الزهرة تعاود دورتها بعد سنوات معينة لذا فان الارصادات نفسها قد تكون خاصة باكثر من دورة واحدة من دوراتها. انظر:
ساكز، عظمة بابل ص ٥٢٥

ومع دقة السنوات المحددة لحكم الملوك الآشوريين والكلديين، ولاسيما في العصر الآشوري الحديث وما بعده، فإن هناك أكثر من مدرسة واحدة في تحديد سنوات وتسلسل حكم الملوك في العراق القديم يختلف بعضها عن بعض آخر بعدد لابأس به من السنوات ويزداد هذا الاختلاف كلما رجعنا بالزمن الى الألف الثاني والثالث قبل الميلاد.

وقد اتبعنا في هذا الكتاب المدرسة المتبعة في كتاب ساكز، عظمة بابل، وهي وسط بين المدرستين الأخريين من حيث تحديد حكم الملوك والسلالات.

ومما تجدر الاشارة اليه هنا ان الادوار الحضارية والمظاهر الحضارية بصورة عامة لاتحدد بالسنوات على نحو دقيق وإنما يعطي التأريخ التقديري لظهور مظهر حضاري معين أو لبداية دور حضاري معين وكذلك بالنسبة الى نهاية استخدام ذلك المظهر او نهاية الدور الحضاري، فلا يقال ان الكتابة ابتدعت عام ٣٥٠٠ ق.م، بل يقال ان الكتابة ابتدعت في حدود عام ٣٥٠٠ ق.م او انها ابتدعت في اواسط الألف الرابع قبل الميلاد. وكذلك بالنسبة الى العصر الشبيه بالكتابي الذي يحدد عادة بالفترة من حدود اواسط الالف الرابع قبل الميلاد الى مطلع الالف الثالث قبل الميلاد (حدود ٣٥٠٠- حدود ٢٩٠٠ ق.م) وهكذا بالنسبة لبقية الادوار الحضارية وبيان فترة ظهور بعض المظاهر الحضارية. وينطبق ذلك على المظاهر الحضارية في العصور القديمة والحديثة على حد سواء حيث لايمكن ان تحدد بالسنة مثلاً تاريخ اول استخدام السمنت في البناء في الموصل مثلاً لكن يمكن القول انه استخدم في الخمسينات من هذا القرن وهكذا بالنسبة للمظاهر الحضارية الاخرى.



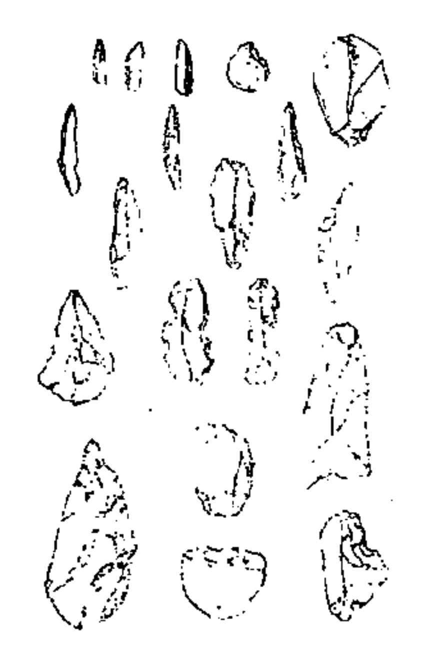
١ — عصور ما قبل التأريخ والعصر الشبيه بالكتابي

يقصد بعصور ما قبل التأريخ ، كما سبق أن أشرنا ، تلك العصور المتطاولة في القدم والتي سبقت ابتداع الكتابة وسيلة للتدوين . وتتباين نهاية هذه العصور في البلدان المختلفة نسبة الى تاريخ ابتداع الكتابة . ففي العراق ، كان ابتداع الكتابة في حدود ٣٥٠٠ قبل الميلاد ، وهي أقدم كتابة معروفة في العالم حتى الآن . وحيث ان الكتابة في مراحلها الاولى لم تكن معروفة على نطاق واسع ، كما لم تكن تستخدم لتدوين جميع الشؤون ، لذلك عدّ الباحثون المحدثون الفترة بين تأريخ اقدم الألواح الطينية التي تحمل علامات صورية كتابية والمؤرخة في حدود ٣٥٠٠ ق.م وحتى شيوع استخدام الكتابة في حدود ٢٩٠٠ ق.م ، فترة انتقال من عصور قبل التاريخ الى العصور التأريخية وسمّوها أستناداً الى ذلك بالعصر الشبيه بالكتابي Proto-literate او الشبيه بالتأريخي Proto-history .

تشمل عصور ما قبل التأريخ العصور الحجرية القديمة والوسيطة والحديثة والعصر الحجري المعدني وقد الحقنا بها في هذا الفصل العصر الشبيه بالكتابي ايضا .

آ- العصور الحجرية

تعارف الباحثون على تسمية الأزمنة الاولى من حياة الانسان على الارض والتي استخدم خلالها الحجارة مادة أساسية لصنع آلاته وأدواته البسيطة بالعصور الحجرية. وتمتد هذه من تأريخ أقدم الآثار والمخلفات المكتشفة التي تركها الانسان، والتي ترجع كما سبق أن الحنا الى حدود ١٧٥٠٠٠٠ سنة مضت، وتنتهي باكتشاف الانسان المعادن واستخدامه لها في صنع بعض الالات والأدوات. وبعبارة اخرى فان العصور الحجرية تشغل الجزء الأكبر من عصور قبل التأريخ والتي تمثل بدورها القسم الأعظم من حياة الانسان على الأرض. وقد أبانت التنقيبات الأثرية ان هناك اختلافات بين الآثار والبقايا المكتشفة في المواقع القديمة المختلفة والتي ترقى بتاريخها الى العصور الحجرية، على الرغم من أن غالبية تلك البقايا مصنوعة من الحجارة؛ سواء من حيث الشكل او النوعية او طريقة الصنع. وأستناداً الى هذه الأختلافات فقد درج الباحثون على تقسيم العصور الحجرية بصورة عامة الى ثلاثة عصور رئيسة هي : العصر الحجري القديم والعصر الحجري



آلات حجرية عراقية تعود للعصر الحجري القديم والعصر الحجري الوسيط

الوسيط والعصر الحجري الحديث. ومن الباحثين من يضع عصراً مستقلاً في بداية العصر الحجري القديم يطلق عليه اسم العصر الحجري السحيق.

ان معلوماتنا عن هذه العصور، التي شغلت حقبة طويلة جداً من تاريخ الانسان لاتتناسب وطولها واهميتها بالنسبة لحياة الانسان، فهي مقصورة على مايمكن استنتاجه من مخلفات الانسان المادية البسيطة من آلات وادوات مصنوعة من الحجر او العظم او الخشب ومن بقايا بعض الهياكل العظمية البشرية وعظام الحيوانات وبعض القبور وقليل من الرسوم التي نفذها الانسان على جدران الكهوف وبقايا سكنى الانسان في الكهوف والمغارات وبعض البيوت البسيطة التي بناها في اواخر العصور الحجرية. ومع قلة مالدينا من معلومات عن هذه العصور فأنها افضل بكثير واكثر مما كنا نعرفه عنها حتى بداية القرن الحالي، حيث لم يبدأ الاهتمام بالكشف عن مواقع العصور الحجرية ودراسة مايمكن الكشف عنه فيها الا منذ مطلع القرن الحالي. ومن هذا يتبين ان مالدينا من معلومات عن العصور الحجرية هي معلومات عامة وتقديرية وتخمينية في غالب الاحيان وتتعلق بحياة الانسان المادية، سواء من حيث اسلوب عيشه وسكنه ومأكله وصيده وبعض جوانب حياته الاخرى، في حين تبقى معلوماتنا محدودة جداً عن افكاره ومعتقداته ومعارفه ولغته وغير ذلك من الجوانب غير المادية. وفيما يأتي استعراض موجز لأهم سمات تلك العصور مع الاشارة الى اهم المواقع التي تمثلها في العراق:

العصر الحجري القديم Palaeolithic

يبدأ هذا العصر حسب المعلومات المتيسرة لدينا الان، من تاريخ اقدم مخلفات الانسان بحدود ١٧٥٠٠٠٠ سنة مضت وينتهي بحدود الالف العاشر قبل الميلاد. وهناك من يميز الطور الاول من هذا العصر، كما سبق أن المحنا، ويعده عصراً مستقلاً اطلق عليه اسم العصر الحجري السحيق، تميز باستخدام الانسان للادوات الحصوية غير المصنعة، اي من قبل ان يبدأ بمعالجة الحجارة وتشظيتها. وتنسب الآثار المكتشفة في شمال افريقيا الى هذا الطور السحيق في القدم، اما في العراق فلم يعثر حتى الآن على مثل تلك الآثار الحصوية.

يستنتج من الآثار والبقايا المكتشفة أن حياة الانسان في العصر الحجري القديم كانت بسيطة جداً وبدائية وتشابه من اوجه كثيرة حياة بعض الحيوانات، الا ان الانسان امتاز عن ارقى الحيوانات بعقله وقدرته على الكلام والتفاهم وانتصاب قامته وقابليته على صناعة

بعض الالات والادوات بيديه الماهرتين التي يسرت له سُبل الحياة ومكنته من تسخير البيئة لخدمته. وكان انسان هذا العصر يعتمد في حياته كلياً على جمع القوت، لذا سمي العصر بعصر جمع القوت Foodgathering Age، فكان يصطاد الحيوانات ويجمع الثمار والنباتات البرية ليوفر مأكله وملبسهُ، وكانت الادوات الحجرية التي صنعها بطبيعة الحال بسيطة جداً. وفي الطور الثاني من هذا العصر ربما اهتدى الى طريقة توليد النار وسبل استخدامها. وكان انسان هذا العصر يعيش في الكهوف والمغارات في المناطق الجبلية البعيدة عن وديان الانهار وينتقل من مكان الى اخر بحثاً عن الطرائد من الحيوانات بعيداً عن مخاطر الانهار وفيضاناتها. وقد قسم الباحثون هذا العصر الى طورين رئيسين هما الاعلى والادنى وقسموا كلاً من هذين الطورين الى ثلاثة ادوار ثانوية تميز كلٌ منها بشكل الادوات الحجرية ونوعيتها وطريقة صنعها كما اعتمدوا في هذا التقسيم على الهياكل العظمية المكتشفة وخصائصها المميزة. وقد سميت هذه الادوار بأسماء اوربية حديثة نسبة الى اسماء المواقع التي أكتشفت فيها لأول مرة آثارتلك الادوار مثل الدور المستيري والدور المكدليني والدور الأورغنيشي، وهي اسماء ثلاثة مواقع اوربية حديثة أكتشفت في كل منها لأول مرة الآثار التي سميت باسم الموقع.

وفي الطور الاول من العصر الحجري القديم عاش الانسان الذي عرف لدى الباحثين بالانسان البائد، وقد تميز حسبما يرى هؤلاء الباحثون بخصائص وصفات جسمية خاصة، كالجمجمة الصغيرة والثخينة وقصر القامة. وقد تم الكشف عن بقايا هذا الانسان في اماكن عدة من العالم شرقاً وغرباً، وعرف باسماء الاماكن التي اكتشفت فيها هياكله العظمية لاول مرة مثل انسان جاوة وانسان پكين وانسان نياندرتال. اما انسان الطور الثاني من العصر الحجري القديم، وهو مايعرف عادة بالانسان العاقل او الحديث فلا يختلف في سماته العامة عن الانسان الحالي.

ويقع العصر الحجري القديم بطوريه الاعلى والادنى في الفترة التي حدثت فيها العصور الجليدية في النصف الشمالي من الكرة الارضية حتى خط عرض ٤٥ جنوباً حيث انتشر الجليد في قارة اوربا وامريكيا الشمالية. وقد تمكن الباحثون من تمييز اربعة عصور جليدية تتابعت على هذه المنطقة، وكان يفصل بين عصر جليدي واخر فترة دفئ نسبية. ومن البديهي ان المناخ في اثناء تلك العصوركان بارداً جداً في المناطق التي غطاها الجليد مما اثر

على حياة الانسان والحيوان والنبات. اما في منطقة الشرق الادنى القديم[1]، ومنها العراق، الواقعة جنوبي هذه المناطق، فكان يقابل كل عصر جليدي في اوربا وامريكيا عصر تميز بمناخ ملائم وامطار غزيرة ساعدت على نمّو النباتات والاشجار وكثرة الحيوانات فتوفر بذلك القوت اللازم لادامة حياة الانسان. اما في فترات الدفء التي كانت تفصل بين عصر جليدي وآخر فقد كان يقابلها بالشرق الادنى القديم فترات جفاف نسبية، ونحن نعيش الان في الفترة التي اعقبت اخر عصر جليدي في اوربا والتي يقابلها فترة جفاف نسبي عندنا، وقد بدأت هذه الفترة كما يرى الباحثون منذ الألف العاشر قبل الميلاد تقريباً، فقلت الامطار وجفت بعض الانهار والينابيع وغدت بعض المناطق التي كانت وفيرة المياه صحارى قاحلة، كالصحراء الكبرى في افريقيا وصحراء شبه الجزيرة العربية، فقلت نتيجة ذلك موارد العيش واضطر الانسان احياناً الى الهجرة الى مناطق اخرى بحثاً عن الطرائد الحيوانية والنباتات والثمار البرية كما دفعته هذه الظروف الجديدة والصعبة الى البحث عن وسائل اخرى لتوفير القوت فكان ان اهتدى الى الزراعة وتدجين الحيوان.

وقد أظهرت التنقيبات الأثرية التي اجريت في العراق أن انسان العصر الحجري القديم كان قد عاش في كهوف المنطقة الجبلية وبالقرب من العيون وينابيع المياه وفي المناطق العليا والقريبة من وادي دجلة والفرات، وجاب بادية الرطبة والاقسام الغربية من وسط العراق وجنوبه، وترك في جميع هذه المناطق الات وادوات مصنوعة من الحجر وهيا كل عظمية وبقايا عظام الحيوانات التي اصطادها[2]. ومن الملاحظ ان التنقيبات في العراق لم تكشف لنا بعد عن بقايا وادوات انسان المراحل المبكرة من العصر الحجري القديم وان اقدم الآثار المكتشفة حتى الان هي تلك التي وجدت في موقع بردة بلكا قرب جمجمال في محافظة السليمانية والتي يقدر تاريخها بحدود ١٠٠–٦٠ الف سنة مضت، كما عثر على بعض الآلات والادوات الحجرية من العصر نفسه في مواقع كثيرة امكن التعرف عليها في

(١) ان مصطلح الشرق الادنى القديم من المصطلحات الحديثة والغامضة وقد استخدم هنا، وفي البحوث الخاصة بالتاريخ القديم بصورة عامة، للدلالة على منطقة واسعة تضم اجزاءاً من كل من اسيا وافريقيا. ففي آسيا تضم وادي الرافدين وسوريا الطبيعية (سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الاردن) وشبه الجزيرة العربية اضافة الى بلاد الاناضول وايران. وفي افريقيا تعد مصر جزءاً من الشرق الادنى القديم. (انظر تفصيل ذلك في : جون بوترو وآخرين :الشرق الادنى، الحضارات المبكرة، ١٩٦٧ ترجمة عامر سليمان، موصل، ١٩٨٦،ص ٢٥–٢٨).

(٢) تقي الدباغ، الوطن العربي في العصور الحجرية، بغداد ١٩٨٨، ص ٧٧.

السنوات الاخيرة في منطقة حوض سد صدام (سد الموصل) وعلى جانبي نهر دجلة حيث تم تحديد اربعين موقعاً غربي نهر دجلة وعشرين موقعاً آخر على الجانب الشرقي من نهر دجلة شمال الموصل. كما كشف عن الات وادوات حجرية اخرى مشابهة في الاجزاء الغربية من العراق والتي تشابه ما كشف عنه في مواقع في شبه الجزيرة العربية[1].

اما بالنسبة الى الطور الثاني من العصر الحجري القديم، فقد تم الكشف عن بقاياه في كهف هزاومرد قرب مدينة السليمانية وفي كهف شانيدار في محافظة اربيل وفي منخفض الرزازة وهور ابي دبس وبحر النجف وفي كهف زرزي وموقع بالي كورا في السليمانية وقد تكشف لنا التنقيبات المقبلة تضم بقايا انسان العصر الحجري القديم.

العصر الحجري الوسيط Mesolithic

كان من نتائج تغير المناخ في اواخر العصر الحجري القديم إثر ذوبان الجليد في القسم الشمالي من الكرة الارضية أن بدأ الانسان، وخاصة في منطقة الشرق الادنى القديم عصراً جديداً في حياته اصطلح على تسميته بالعصر الحجري الوسيط لانه يفصل بين عصر الصيد وجمع النباتات والثمار البرية وعصر الزراعة وتربية وتدجين الحيوان. ومع ان الانسان في هذا العصر ظل يعتمد اساساً على الصيد والجمع فأنه بدا محاولاته الاولى في زراعة النباتات البرية وترويض الحيوانات، كما حصل على تقدم ملحوظ في صناعة الآلات والادوات الحجرية حيث بدأ يصنعها من الشظايا والحجارة الصغيرة، وغالباً ما كانت تثبت بواسطة القير على مقابض من الخشب او العظم لتشكل مايشبه رأس السهم او الرمح او المنجل او غيرها من الادوات. الى جانب ذلك تم العثور على الات وادوات زراعية، كالمناجل والمطاحن والهواوين والمدقات، مما يشير الى احتمال قيام الانسان بزراعة تجريبية محدودة او انه استخدم تلك الادوات لحصد وطحن الحبوب البرية، ويمثل ذلك بداية الانتقال من حياة جمع القوت الى حياة انتاج القوت التي ظهرت واضحة في العصر التالي، الا ان الانتقال كان بطيئاً وتدريجياً. وقد رافق المحاولات الاولى في الزراعة والتدجين انتقال الانسان من الكهوف والملاجئ الجبلية الى مواقع مكشوفة على شواطئ الانهار ومصباتها وعند ينابيع المياه[2].

---

(١) نفس المصدر، ص ٧٤-٧٥.

(٢) تقي الدباغ، المصدر السابق، ص ٨١-٨٣.

وفي العراق، امكن الكشف عن عدد من الكهوف والمواقع الاثرية، ومعظمها مواقع مكشوفة ، تدل الآثار المكتشفة فيها على انها تعود الى العصر الحجري الوسيط، كما تشير الفحوصات العلمية التي اجريت على المواد العضوية المكتشفة والتي تمت بواسطة استخدام جهاز كاربون ١٤، الى انها تعود الى الالف الحادي عشر والالف العاشر قبل الميلاد. واهم هذه الكهوف واولها هو كهف زرزي في محافظة السليمانية وكهف بالي كورا في محافظة اربيل ، كما وجدت بقايا هذا العصر في احدى طبقات كهف شانيدار. اما المواقع المكشوفة، فمنها موقع كريم شهر بالقرب من جمجمال، وموقع ملفعات على نهر الخازر بين الموصل واربيل ، وقد وجد فيه بيوت محفورة في الارض ذات جدران مشيدة بالحجر. اما قرية زاوي جمي القريبة من كهف شانيدار، فقد كشف فيها عن بقايا بيوت كانت جدرانها مشيدة بالطين على اسس من الحجارة، وتعد هذه البيوت اقدم بيوت شيدها الانسان، كما عدّت زاوي جمي اقدم مستوطن قروي في العراق واول قرية من نوعها في العالم[1] ويستدل من عظام الحيوانات المكتشفة في هذه القرية الى تدجين الاغنام في حين تشير الالات والادوات الحجرية الى ان القرية كانت قد شهدت بوادر الانقلاب الزراعي. ويمكن تحديد زمن القرية التقريبي بحدود الالف العاشر قبل الميلاد، وربما كانت المستوطن الصيفي للانسان الذي عاش في كهف شانيدار القريب منها في موسم الشتاء. وقد اظهرت التنقيبات التي اجريت في المواقع وجود بعض الادوات في قبور الموتى مما يشير الى نوع من الطقوس والمعتقدات الخاصة بما بعد الموت، الا انه ليس هناك معلومات، وادلة كافية لمعرفة تلك المعتقدات[2].

العصر الحجري الحديث Neolithic

يضع الباحثون بداية العصر الحجري في الالف الثامن[3] او السابع[4] قبل الميلاد، ففي هذه الفترة كان قد حلّ في منطقة الشرق الادنى القديم فترة جفاف نسبي وقلّة في الامطار وبشكل خاص في شبه الجزيرة العربية، بعد ان انتهى آخر عصر جليدي في القسم الشمالي من الكرة الارضية. وقد تبع ذلك نقص في موارد العيش التي كان يعتمد عليها

(١) طه باقر، المقدمة ، ص ١٨٤-١٨٥

(٢) انظر: نائل حنون ، عقائد مابعد الموت، بغداد ١٩٨٦ ، ط٢، ص٢٤٦

(٣) تقي الدباغ، العصور الحجرية، ص ١١٦

(٤) ساكز، عظمة بابل، ص ٢٩

الانسان، فقلّت النباتات وقلت معها الطرائد الحيوانية، مما دفع الانسان الى ايجاد طرق ووسائل اخرى للحصول على قوته، فكان ان هاجر الى مناطق اخرى اقل جفافاً وتتوفر فيها المياه وتعيش الحيوانات والنباتات البرية. ومن جانب آخر فقد حفّز نقص موارد العيش الانسان الى تعلّم الزراعة واستئناس بعض الحيوانات وهكذا كانت المحاولات الاولى في تدجين الحيوان والنبات منذ العصر الحجري الوسيط، الا ان العصر الحجري الحديث شهد اكتمال عملية تحول الانسان من عصر جمع القوت الى عصر انتاج القوت عن طريق الزراعة والتدجين. ونظراً لأهمية هذا التغيير الجذري في حياة الانسان وفي اسلوب حصوله على الغذاء، فقد قارن بعض الباحثين اهمية ذلك مع اهمية الثورة الصناعية في اوربا في القرن الثامن عشر الميلادي.

ومن خلال دراسة ما اكتشف من آثار وبقايا من العصر الحجري الوسيط والعصر الحجري الحديث في منطقة الشرق الادنى، يظهر ان القسم الشمالي من العراق كان من المناطق القليلة في العالم التي شهدت بداية تحول الانسان من حياة جمع القوت الى حياة انتاج القوت، خلافاً لما كانت عليه الحال بالنسبة الى كل من وادي النيل وبوادي الشام ومناطق الجزيرة العربية وسهول وادي الرافدين الجنوبية وغيرها من المناطق التي ظهر فيها التحول في فترات تالية. وقد تأكد للباحثين ذلك من وجود الاصول البرية للحيوانات والنباتات التي دجّنها الانسان في العصر الحجري الحديث وذلك في الفترات السابقة وفي عدد محدود من مناطق الشرق الادنى القديم، ومنها شمالي العراق، فقط، وامكن فعلاً العثور على بقايا وآثار هذا التحول في عدد من المواقع في شمال العراق وفي بعض المناطق الجبلية في الاقاليم والبلدان المجاورة، كمنطقة فلسطين، حيث كانت الظروف البيئية ملائمة لهذا التحول في حياة الانسان. ويرى الباحثون ان الانسان العراقي القديم كان قد اهتدى للزراعة في الفترة الواقعة بين الالف العاشر ونهاية الالف التاسع قبل الميلاد. اما في بقية انحاء العالم القديم، فقد اقتبس انسان البلقان وبلاد اليونان الزراعة بعد عدة آلاف من السنين ثم انتقلت تلك المعرفة من بلاد اليونان الى الجهات الاوربية الاخرى. اما في الشرق الاقصى وامريكا الشمالية، فقد تعرّف فيها الانسان على الزراعة بشكل مستقل وظهر التحول فيها الى حياة انتاج القوت في حدود ٣٠٠٠ ق.م في حين لم يعرف انسان امريكا الوسطى الزراعة الا في حدود ١٠٠٠ ق.م[1].

---

(١) طه باقر، المقدمة، ص ٢٠٠.

ويميز الباحثون بين طورين رئيسين في العصر الحجري الحديث ، عرف الاول منها بطور او عصر ماقبل الفخار pre– pottery Neolithic ، وعرف الثاني بعصر الفخار. ومن البديهي ان تعلم الزراعة وتدجين الحيوان كان ذا تأثير كبير وواضح على حياة الانسان ، لذا فقد رافق هذا التحول تغييرات وتطورات جذرية لعل من ابرزها :

١ – تغير كبير في الآلات والأدوات التي صنعها الانسان في هذا العصر بما يتلائم وحياة انتاج القوت الجديدة وان ظل معظمها يصنع من الحجارة. فقد صنعت آلات خاصة لاعداد الارض للزراعة كالفؤوس والمعازق والمحاريث ، واخرى لحصد الحبوب ، كالمناجل المسننة ، ولفصل الحبوبُ عن قشورها بعد حصدها ، كأطباق الجرش الفخارية وادوات طحن الحبوب كالرحىٰ وغيرها. هذا فضلاً عن تطور الآلات والأدوات الحجرية الاخرى التي كانت تصنع منذ العصور الحجرية السابقة ولاسيما الاسلحة ، كالسهام والرماح.

٢ – يرجح ان الانسان تعلم في هذه المرحلة من حياته طريقة الغزل والحياكة بدلالة ماوجد من اقراص المغازل ، واستخدم لذلك اصواف الاغنام وشعر الماعز. كما تعلم عمل الخبز المخمر وبناء البيوت من الطين والبردي وغير ذلك من المواد المتوفرة في المنطقة.

٣ – تعلم الانسان في الطور الثاني من هذا العصر طريقة صنع الفخار، وكان الفخار في بداياته بدائياً وسمجاً وربما لم تتعّد صناعته في بداية الامر تغليف جدران الحفر بالطين ومن ثم فخرها بالنار، ثم بدأ بعد ذلك بصناعة الاواني البسيطة الخالية من الزخرفة او الالوان. وكانت الاواني تصنع وتشكّل باليد ولم يكن الانسان قد اخترع دولاب الفخّار بعد.

٤ – كانت الزراعة في بداياتها محدودة وتتصف بالاكتفاء الذاتي ، فكان الانسان يزرع مساحة صغيرة من الارض يكفي انتاجها لمعيشته وافراد اسرته الصغيرة ، كما كانت الزراعة حقلية ، أي لم يكن يزرع الاشجار المثمرة التي تحتاج الى انتظار عدة سنوات ريثما تحمل وينضج ثمرها ، وكانت الزراعة موسمية شبه متنقلة ، حيث لم يكن الانسان يعرف طريقة ترك الارض بوراً بين سنة وأخرى لاستعادة خصوبتها ، كما لم يعرف طريقة التسميد فكان يترك الأرض متىٰ وجدها قليلة الانتاج ، وانتقل الى غيرها. كما اتصفت الزراعة في هذا العصر بأنها كانت ديمية تعتمد على الامطار الموسمية فقط.

٥- مارس انسان هذا العصر تدجين الحيوان ، ويظن ان عملية التدجين قد حدثت بصورة تدريجية حيث يصعب تتبعها ولا يعرف فيما اذا كانت الزراعة قد سبقت التدجين ام العكس ، وربما حدثت كلتا العمليتين في فترة واحدة . وكانت الاغنام والماعز والخنازير والابقار من الحيوانات الاولى التي دجنها الانسان فضلاً عن الكلاب .

٦- تبع الانتقال الى حياة انتاج القوت تطورات اجتماعية مهمة حيث ارتبط الانسان بالارض وكان عليه ان يعيش في جماعات صغيرة قريباً من ارضه الزراعية لحماية مزروعاته ، فكان أن نشأت اولى المستوطنات والقرى الزراعية ، ورافق ذلك تطور في العلاقات الاجتماعية وظهور العادات والتقاليد التي نظمت حياة المجتمعات الصغيرة الاولى .

٧- كان من نتائج اعتماد الانسان على الارض وقيامه بتدجين الحيوانات أن نشأت فكرة الملكية الفردية للارض وللادوات الزراعية وللحيوانات المدّجنة وللبيت وآثاثه ، وكانت الرغبة في حماية الملكية الفردية وزيادتها سبباً في نشوء أولى الصراعات وربما الحروب بين الافراد اولاً ثم بين الجماعات والقرى .

٨ تشير بعض الآثار المكتشفة ، ولاسيما دمى الطين ، الى وجود نوع من المعتقدات الدينية تدور على تجسيد الخصوبة على هيئة آلهة تمثل الارض وخصوبتها ، فصنعت لذلك دمى طينية ترمز لها على هيئة امرأة عارية مبالغ في انوثتها ، وقد عرفت هذه الآلهة فيما بعد بالآلهة الام Mother Goddess .

٩- كان استقرار الانسان في هذا العصر في القسم الشمالي من العراق فقط حيث لم يكن القسم الجنوبي صالحاً للاستيطان بعد .

١٠- لم يظهر في العصر الحجري الحديث التخصص في العمل بل كانت كل اسرة تقوم بجميع الاعمال اللازمة لتوفير المأكل والمشرب والملبس والمأوى لها ، وربما كان هناك تقسيم للعمل بين افراد الاسرة الواحدة حيث تولّت المرأة الامور ذات العلاقة بتنظيم البيت واعداد الطعام وحياكة الملابس وتربية الاطفال في حين تولى الرجل مهمة الزراعة والرعي والصيد والدفاع عن ممتلكات الاسرة .

١١- من المرجح أن الانسان اهتدى منذ هذه الفترة المبكرة الى طريقة لقياس الزمن ومعرفة تسلسل المواسم لأهمية ذلك بالنسبة للزراعة ، وكان القمر دليله في معرفة تتابع الاشهر واعتمد على الشمس لمعرفة تتابع الفصول والمواسم وراقب تكررها وجمع بين

مراقبته للقمر والشمس وعرف بأن كل دورة شمسية تضم اثني عشر شهراً قمرياً وزيادة.

وفي القسم الشمالي من العراق، كشفت التنقيبات الاثرية العلمية التي بدأت منذ اواسط القرن الحالي في البحث عن بقايا عصور قبل التأريخ عن عدد من المواقع التي عاش فيها انسان العصر الحجري الحديث تأتي جرمو في مقدمتها. وقد اثبتت التنقيبات ان جرمو الواقعة قرب كركوك هي اقدم القرى الزراعية المكتشفة لحد الآن من هذا العصر وقد كشف في هذه القرية عن بقايا الطورين الاول والثاني من العصر الحجري كما عثر على آثار من هذا العصر في قرية شمشارة في سهل رانية وقرية كرد علي اغا على الضفة اليسرى لنهر الزاب الاعلى شرقي نينوى. وفي منطقة الموصل، تعد قرية حسونة جنوبي الموصل، من اقدم القرى الزراعية في المنطقة كما وجدت بقايا هذا العصر في كل من تل الصوان، جنوب مدينة سامراء، وقرية مطارة جنوب كركوك وام الدباغية غرب الحضر والطبقات السفلى من مدينة نينوى نفسها وفي يارم تبة غربي تلعفر وغيرها.[1]

العصر الحجري المعدني Chalcolithic

يضع الباحثون نهاية العصر الحجري الحديث في العراق في اواسط الالف السادس قبل الميلاد (حدود ٥٦٠٠ ق.م) حيث يبدأ ما يعرف عادة بالعصر الحجري - المعدني الذي شغل الفترة الواقعة بين نهاية العصر الحجري الحديث وحتى ظهور اولى العلامات الصورية التي استخدمت للكتابة في اواسط الالف الرابع قبل الميلاد (حدود ٣٥٠٠ ق.م)، اي ان هذا العصر امتد قرابة الفي سنة كانت ذات اهمية كبيرة في نمو وتطور الحضارة العراقية القديمة حيث شهد نشوء وتطور عناصر حضارية مهمة كانت الاساس الذي قامت عليه الحضارة الناضجة في الالف الثالث قبل الميلاد. وقد اطلق الباحثون تسميات مختلفة على هذا العصر فسمي بعصر ما قبل السلالات pre—Dynastic period لانه سبق العصر الذي ظهرت فيه السلالات الحاكمة في بلاد سومر واكد كما هي معروفة لدينا من بعض النصوص المسمارية والآثار المادية الاخرى، وسمي بعصر الفخار الملّون نسبة الى الفخار الملّون الجميل الذي انتشرت صناعته في مختلف المواقع التي تعود الى هذا العصر، وسمي بالعصر الحجري المعدني لان الانسان استخدم في القسم الثاني منه المعادن الى جانب الحجارة لصناعة الآلات والادوات والحلي.

---

(١) تقي الدباغ، العصور الحجرية، ص ١١٣ - ١٢١.

وحيث إن الفترة الزمنية التي استغرقها هذا العصر طويلة ، فقد ارتأى الباحثون تقسيمها الى عدة ادوار حضارية تتميز بعضها عن بعضها الاخر بسمات حضارية معينة. والدور الحضاري ، كما سبق واشرنا ، يمثل حقبة زمنية قد تدوم بضعة قرون وتمثلها عدة طبقات أثرية (سكنية) في الموقع الذي يضم آثار هذا العصر، وتتميز آثارها بطرزها المعمارية واوانيها الفخارية وزخرفتها وبعض الخصائص الحضارية الاخرى ، كما يتضمن كل دور حضاري عادة تبدلات جوهرية نتيجة ظهور بعض الاختراعات الجديدة ، كاستخدام الفخار او المعدن او اختراع العجلة اوالسفينة الشراعية او الاختام والى غير ذلك من الاختراعات . وغالبا ما يضم الموقع الأثري الواحد بقايا اكثر من دور حضاري واحد وذلك لان الانسان آثر السكن في موقع واحد لاجيال عديدة وترك لنا آثار سكناه في طبقات متتابعة ففي مدينة الوركاء مثلاً ، وهي مدينة تقع في جنوب العراق فقد اظهرت التنقيبات التي أجريت فيها انها تضم ثمانية عشر طبقة أثرية (سكنية) متتابعة تمثل اربعة ادوار حضارية رئيسة فقط ، فالطبقات السفلى تمثل مايعرف بدور العبيد والطبقات التي تليها ، تمثل دور الوركاء ثم دور جمدة نصر واخيراً تمثل الطبقات العليا دور عصر السلالات اما تسمية هذه الادوار، فهي نسبة الى اسماء المواقع الأثرية التي اكتشفت فيها آثار الدور الحضاري لاول مرة . وبما انه كان اكتشاف آثار دور العبيد لاول مرة في تل العبيد في جنوبي العراق ، ولاننا لانعرف اسم الموقع القديم ، فقد اطلق المنقبون اسم تل العبيد على الدور الحضاري الذي تمثله الآثار المكتشفة لاول مرة في العبيد ، وهكذا بقية المواقع والتسميات .

وبالنسبة الى العصر الحجري المعدني ، ميّز المنقبون أربعة أدوار حضارية رئيسة شغلت فترة الالفين سنة المخصصة لهذا العصر وهي :

١ — دور حسونة ، نسبة الى موقع حسونة جنوبي شرقي الموصل بخمسة وثلاثين كيلومتراً . وهو أول ادوار العصر الحجري المعدني ، وقد وجدت في الطبقة السفلى منه آثار مستوطن من العصر الحجري الحديث وتلي ذلك طبقات العصر الحجري المعدني التي سميت بدور حسونة وقد شيدت البيوت في هذا الدور من الطين (الطوف) وصنعت الاواني الفخارية البسيطة المزخرفة بحزوز والوان . وقد انتشر استخدام فخار دور حسونة في عدد من المواقع في شمال العراق الا أننا لم نعثر على آثار معاصرة لهذا الدور في القسم الوسطي والجنوبي من العراق .

٢ — دور سامراء نسبة الى مدينة سامراء العباسية ، تميز فخار هذا الدور والذي عثر عليه في عدد من المواقع في شمال ووسط العراق فقط ، بأن اوانيه ملونة بلون واحد ومزخرفة بزخارف هندسية وبعض الرسوم المبسطة للحيوانات .

٣- دور حلف: نسبة الى موقع أثري اسمه حلف يقع على الحدود التركية السورية ضمن الحدود السورية. أظهرت التنقيبات الأثرية في الموقع إن اسمه القديم كان كوزانا، حيث كان عاصمة لمملكة ارامية ازدهرت في القرن العاشر قبل الميلاد. تميز فخار دور حلف بروعته وجماله ودقة زخارفه الملونة بعدد من الالوان وقد كشف على فخار دور حلف في عدد من المواقع في القسم الشمالي من العراق فقط وظهرت في هذا الدور بوادر استعمال المعادن، واتسعت القرى الفلاحية وزاد عدد سكانها وظهر استخدام الاختام المنبسطة وشيدت البيوت السكنية الدائرية الشكل ووجدت بقايا بعضها في تل الاربچية في الموصل.

٤- دور العبيد: نسبة الى تل العبيد القريب من مدينة اور حيث كشف فيه عن فخار ملون مميز، ويعد دور العبيد اقدم دور استيطان في القسم الجنوبي من العراق وقد وجد فخار العبيد في عدد كبير من المواقع المنتشرة في انحاء كثيرة من العراق شمالاً وجنوباً، قسم الباحثون دور العبيد الى اربعة اطوار يعاصر الطوران الاول والثاني منها دور حلف في شمالي العراق. ووجدت آثار دور العبيد خارج حدود بلاد وادي الرافدين في ايران وبلاد الشام وفي الاجزاء الساحلية من الخليج العربي ولاسيما السواحل التابعة للملكة العربية السعودية اضافة الى المواقع المكتشفة في داخل المملكة العربية السعودية نفسها. وفي دور العبيد زاد استخدام المعادن لصناعة الالات والادوات والحلي واتسعت القرى والمدن وشيدت البيوت باللبن المنتظم كما ظهرت اشارات الى وجود اتصالات تجارية مع بعض الاقطار الخارجية لجلب المواد الخام الضرورية.

وقد اظهرت التنقيبات التي اجريت في عدد كبير من المواقع الاثرية التي تضم اثار العصر الحجري المعدني، بعض الخصائص العامة التي اتصف بها هذا العصر يمكن اجمالها على النحو الاتي:

١- تطور اساليب الزراعة حيث كانت الزراعة في العصر الحجري الحديث للاكتفاء الذاتي، اي ان الانسان كان يزرع مساحات محدودة من الارض يكفي انتاجها لسد حاجاته الذاتية فقط، وفي هذا العصر، اتسعت الاراضي التي كان يزرعها فكان هناك فائض في الانتاج يزيد عن حاجة الفلاح مما دفعه لمبادلته بمواد اخرى فائضة عن حاجة الاخرين ونتج عن ذلك ان تخصص كل فرد بانتاج نوع من

الحاجيات ، فكان هناك من يصنع الفخار او يشيد البيوت او يغزل الصوف وينسج الملابس او يصنع الالات والادوات الزراعية او يزرع الحبوب او غيرها من المحاصيل الحقلية .

٢ – ادى التخصص بالعمل الى ظهورر عدد من الحرف اليدوية الجديدة وأدّت الزيادة في الانتاج الى المقايضة التي كانت الاساس الذي قامت عليه التجارة فيما بعد .

٣ – غدت القرى الزراعية الصغيرة اكبر حجماً وزاد عدد سكانها واصبحت نواة للمدن والمراكز الحضارية التي قامت فيما بعد ، وامتازت قرى العصر الحجري المعدني اضافة الى سعتها ، بتنظيمها واساليب البناء المتطورة فيها وباحتوائها على شوارع مبلطة تفصل بين البيوت وتنظم حركة الانتقال بينها .

٤ – عاش الانسان في القسم الاول من هذا العصر في القسم الشمالي والشمال الغربي من العراق فقط ، أي في المنطقة التي عرفت فيما بعد ببلاد آشور ، وفي النصف الثاني منه بدأ بالانتقال للسكن في السهل الرسوبي في وسط وجنوبي العراق . ويبدو أن هذا الجزء من العراق لم يكن صالحاً للاستيطان في الفترات السابقة وربما كانت هناك بعض الاقوام الرعوية التي أقامت فيه خيمها[1] ، فكان ذلك تمهيداً لمجئ المزارعين الاوائل الذين كان عليهم أن يباشروا بإنشاء مشاريع الري وتسخير مياه الانهار الوفيرة لري الاراضي المحيطة وزراعتها . لذلك ، لم يكشف في القسم الجنوبي على آثار الادوار الحضارية الاولى من العصر الحجري المعدني ؛ دور حسونة ودور سامراء ودور حلف ، وكانت اقدم الآثار المكتشفة في اسفل المواقع الأثرية من دور العبيد ، وهو آخر ادوار العصر الحضارية .

٥ – على الرغم من أن اسم هذا العصر يشير الى استخدام المعادن ، فإن المكتشفات الأثرية تؤكد أن المعدن لم يستخدم الا في النصف الثاني من العصر ، وكان النحاس في مقدمة المعادن التي استخدمت لصناعة الآلات والادوات .

٦ – ظهرت اولىٰ البنايات العامة المخصصة للعبادة ، أي المعابد . ويرقىٰ تأريخ اقدم المعابد المكتشفة الى دور العبيد (طور اريدو) . وكانت المعابد الاولىٰ تتألف من حجرة مربعة تقريباً تحتوي على دكة قرابين ومذبح وتتجه زوايا المعبد عادة الى الجهات الاربع الطبيعية .

---

(١) بونرو واخران ، الشرق الادنى ، ص ٣٨

٧- كان من النتائج الطبيعية لتطور الحياة وزيادة الانتاج ونشوء المدن الاولى أن تم اختراع بعض المبتكرات التي زادت في الانتاج وحسّنت في اساليب الصناعة كدولاب الخزاف، أو مايسمى بالقرص، والسفينة الشراعية وربما التوصل الى عمل العربة ذات العجلة التي زادت في سرعة التنقل.

٨- كان من نتائج الانتقال الى القسم الجنوبي من العراق (بلاد بابل) والقيام بمشاريع الري، كبناء السدود لدرء اخطار الفيضانات، وفتح الجداول والاقنية لايصال المياه الى الاراضي الزراعية ان ظهرت الحاجة لايجاد اولى الادارات المركزية لتنظيم جهود الجماعات في إنشاء تلك المشاريع والتخطيط لها وبذل الجهود المضنية للمحافظة عليها وإدامتها، فكان أن نشأت اولى انظمة الحكم السياسية التي تطورت فيما بعد الى ماعرف بنظام دول المدن.

٩- تشير بعض الآثار المكتشفة والمصنوعة من مواد اولية غير متوافرة في العراق، كالمعادن وانواع معينة من الحجارة الصلبة الى وجود اتصالات خارجية مع بلدان اخرى. يؤكد ذلك وجود تأثيرات حضارية عراقية على حضارات بعض تلك البلدان، سواء في الطرز المعمارية او في العثور فيها على آثار تحمل سمات عراقية واضحة، كالاختام الاسطوانية والاواني الفخارية، ومن هذه البلدان وادي النيل وجزر البحر المتوسط والاجزاء الجنوبية الشرقية من آسيا الصغرى وبلاد الشام وبلاد عيلام وسواحل الخليج العربي.

١٠- تميز العصر الحجري- المعدني بفخاره جميل الصنع والمتعدد الالوان الى درجة سمي العصر باسمه حيث عرف لدى بعض الباحثين بعصر الفخار الملّون، وقد صنف الفخار حسب اشكاله وانواعه والوانه وزخارفه وزمان ومكان صناعته وسلسلت استناداً الى ذلك الأدوار الحضارية المتتابعة.

جـ- العصر الشبيه بالكتابي Proto-Literate

يقصد بهذا العصر الفترة التي ظهرت فيها اولى العلامات الصورية التي استخدمت للتدوين. ففي اواسط الالف الرابع قبل الميلاد، اي في حدود ٣٥٠٠ ق.م، حقق سكان القسم الجنوبي من العراق اعظم انجاز حضاري باختراعهم طريقة للتدوين من خلال رسم بعض العلامات الصورية للتعبير عن الاشياء المادية التي ارادوا الاشارة اليها او الى اعدادها، وكانت تلك العلامات الصورية البسيطة بداية معرفة الانسان بالكتابة والتي تطورت خلال القرون التالية حتى اصبحت كتابه منتظمة ومعقدة وهي الكتابة المسمارية.

ولاهمية الكتابة في تاريخ الانسان عدّها الباحثون المحدثون الحد الفاصل بين عصور قبل التأريخ والعصور التأريخية طالما كانت الكتابة وسيلة تدوين التأريخ نفسه. الا ان الكتابة في مراحلها الاولى والتي استغرقت بضعة قرون كانت محدودة واقتصر استخدامها على عدد محدود من الناس، ولاسيما الكهنة، واستخدمت لتدوين بعض الامور ذات العلاقة بالحياة الاقتصادية بالدرجة الاولى، أي انها لم تكن تستخدم على نطاق واسع لتدوين التراتيل والاساطير الدينية والاحداث التأريخية والعلوم والمعارف بصورة عامة، لذلك، اصطلح الباحثون على تسمية العصر الذي ابتدعت فيه الكتابة وحتى شيوعها وانتشار استخدامها بالعصر الشبيه بالكتابي، اشارة الى ان الكتابة كانت معروفة فيه الا انها كانت محدودة الاستخدام، كما سمي العصر احياناً بالعصر الشبيه بالتأريخي proto-historic، اشارة الى ان التدوين التأريخي كان في بداياته الاولى. وقد اختلف الباحثون في تحديد بداية ونهاية هذا العصر، فأما البداية فيتفق معظم الباحثين على وضعها في حدود ٣٥٠٠ق.م. في حين وضعت نهاية العصر في حدود ٢٩٠٠ ق.م أو ٢٨٠٠ ق.م.

وقد ضم العصر الشبيه بالكتابي دورين حضاريين رئيسين، هما دور الوركاء، نسبة الى مدينة الوركاء التي اخترعت فيها أقدم العلامات الصورية، والتي كانت تعرف قديماً باسم اوروك Uruk، ودور جمدة نصر، اي «تل نصر»، نسبة الى اسم هذا التل القريب من موقع مدينة كيش.

شهد العصر الشبيه بالكتابي طلائع الحضارة الناضجة التي ازدهرت في القسم الجنوبي من العراق منذ مطلع الالف الثالث قبل الميلاد، فقد كان هناك تطور واضح في مختلف الجوانب والمظاهر الحضارية، فنمت القرى والمدن الصغيرة الى مدن كبيرة وزاد عدد سكانها وكان لها اداراتها المحلية وغدت مراكز حضارية مهمة وعواصم للدول السومرية التي قامت في الفترة التالية، كما يلاحظ التطور الواضح في الطرز المعمارية، ولاسيما طراز بناء المعابد وواجهاتها المزينة بالطلعات والدخلات وبالمسامير الفخارية الملّونة، وبفن النحت البارز والمجسم، وخير مثال على ذلك مسلة صيد الاسود والاناء النذري ورأس الفتاة من الرخام، اضافة الى عدد من الاختراعات ذات الاهمية القصوى في تطوير حياة الانسان وحضارته والتي يأتي في مقدمتها اختراع الكتابة ومن ثم استخدام الاختام الاسطوانية مما سنأتي الى ذكره فيما بعد.

مما يلاحظ أن حضارة العصر الشبيه بالكتابي التي ازدهرت في مواقع القسم الجنوبي من العراق لم تنتشر الى القسم الشمالي من العراق ، أي الى المنطقة التي عرفت فيما بعد ببلاد آشور الا استثناءً في حين وصل تأثيرها الى بلدان خارجية بعضها بعيد ، حيث وجدت تأثيرات هذا العصر في كل من وادي النيل وبلاد الشام وبلاد عيلام واطراف بحر قزوين وفي سهل انطاكية واعالي الفرات والخابور، سواء أكان ذلك في استخدام الاختام الاسطوانية أم اقتباس فكرة الكتابة او في الطرز المعمارية والنقوش والزخارف والتي ظهرت في القسم الجنوبي من العراق وانتقلت الى تلك المناطق البعيدة عن طريق التجارة الخارجية .

الا أن ذلك لايعني أن القسم الشمالي من العراق لم يكن اهلاً بالسكان في هذه الفترة ، بل ان التنقيبات الأثرية التي اجريت في عدد من المواقع التي تمتد بتأريخها الى عصور قبل التأريخ ، كمدينة نينوى وتبة گورا القريبة من الموصل ، تؤكد استيطان الانسان في العصر الشبيه بالكتابي في القسم الشمالي من العراق حيث اظهرت التنقيبات في نينوى ان آثار الطبقتين الثالثة والرابعة من الاسفل تعود الى هذا العصر وتبين من هذه الآثار أن المدينة كانت قد تطورت من قرية صغيرة الى مدينة واسعة نسبياً. أما في موقع تبة گورا ، فتمثل آثار الطبقة الثامنة آثار العصر الشبيه بالكتابي وقد ضمت اسس بعض الابنية ومنها بقايا معبد يعود الى هذا العصر. ولقد ظل هذا الجزء من العراق يعيش في عصور قبل التأريخ وذلك لان الكتابة لم تنتشر وتستخدم فيه الا بعد قرون عدة من اختراعها وانتشارها في القسم الجنوبي من العراق.

٢- جوانب من حضارة العراق في عصور ماقبل التأريخ

١- الآلات والادوات الحجرية

استخدم انسان العصور الحجرية التي شغلت معظم حياة الانسان على الارض آلات وادوات مصنوعة من الحجر بالدرجة الاولى ، وقد سميت تلك العصور نسبة الى ذلك ، كما استخدم الخشب والعظام والقرون وغيرها لصناعة بعض آلاته وادواته . ورغبة في متابعة تطور حياة الانسان عبر الفترات الزمنية الطويلة التي عاشها في تلك العصور ، فقد حاول الباحثون تصنيف الآلات والادوات الحجرية المكتشفة استناداً الى طريقة صناعتها ونوعيتها وسميت نسبة الى مواقع اكتشافها لاول مرة ، كما سبق والمحنا ، وسلسلت حسب تسلسل طبقات اكتشافها .

وقد ضمت الآلات الحجرية آلات النواة ، وهي آلات حادة من جانب واحد او جانبين تصنع من لب الحجارة او من نواتها بعد كسر قشرتها الخارجية وتحويل النواة الى آلة لها شكل القلب او القرص او اللوزة ، والشظايا التي تصنع بالضرب والتكسير لتصبح الشظية مدببة حادة او مسننة والتي استخدمت كسكاكين او مقاشط او مثاقب . وكانت بعض الشظايا والآلات الدقيقة تثبت بالقير في مقابض خشبية لتصنع منها السهام والرماح والمناجل .

اما الادوات الحجرية ، فهي الأواني الحجرية التي صنعها الانسان قبل اهتدائه الى صناعة الاواني الفخارية او المعدنية ، وظل استخدامها شائعاً حتى من بعد اهتدائه الى عمل الفخار واستخدامه للمعادن . وتضم الادوات الحجرية ادوات خزن وحفظ الاطعمة والمياه واواني الطبخ كما ضمت الرحى والهواوين والمدقات والجارش واقراص الغزل وغيرها .[1]

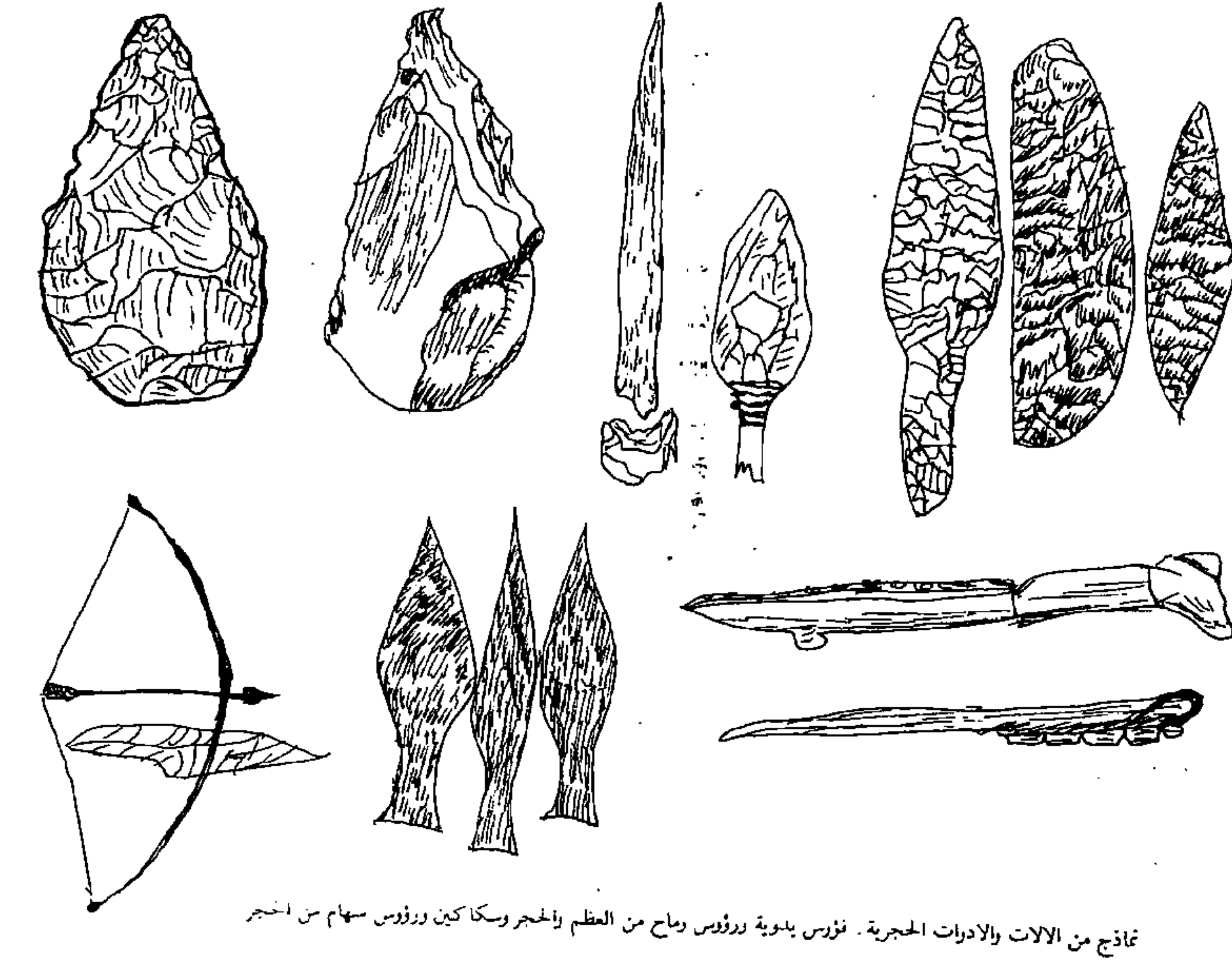
٢- الفخار :

يقصد بالفخار الأواني المصنوعة من الطين والمحروقة بالنار . وكان أول اهتداء الانسان لصناعة الفخار في الطور الثاني من العصر الحجري الحديث ، ومن الطبيعي إن الفخار في اول صناعته كان سمجاً سميك الجدران وغير مدلوك أو مزخرف وان كانت بعض الأواني مزينة بخطوط متقاطعة بلون اسود أو احمر ، كما وجد ذلك في الطبقتين الخامسة والرابعة

---

(١) حول تفصيل ذلك انظر : تقي الدباغ ، الآلات الحجرية ، في : حضارة العراق ، ج ١ ، بغداد ١٩٨٥ ، ص ٩٩–١٠٨ .

٠٠٤



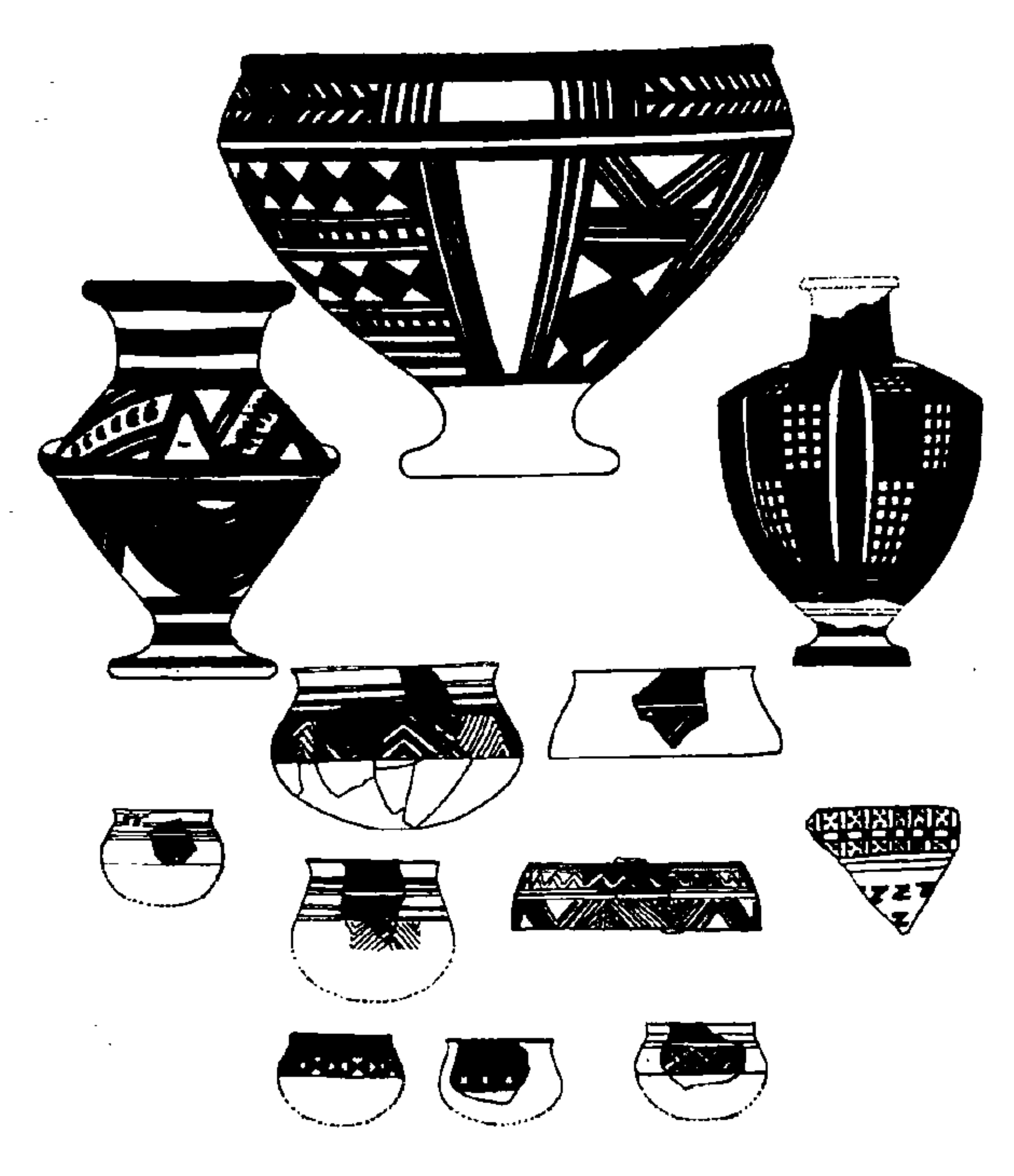
نماذج من الالات والادوات الحجرية. فؤوس يدوية ورؤوس رماح من العظم والحجر وسكاكين ورؤوس سهام من الحجر

من قرية جرمو وفي قرية شمشارة . وربما كان أول استخدام الفخار عن طريق تغليف جدران الحفر بالطين ثم حرقها بالنار لكي تجف وتفخر فتصبح صالحة لخزن الحبوب والمؤن ، ثم صنعت الأواني الفخارية البسيطة بعد ذلك . وتطورت صناعة الفخار في الفترات التالية ولاسيما في العصر الحجري – المعدني الذي تميز بفخاره الرائع الجميل وبدقة صناعته وتعدد الوانه وكثرة زخارفه . ولأهمية الفخار الكبيرة بالنسبة للباحثين فقد سمي الطور الأول من العصر الحجري الحديث بطور ماقبل الفخار في حين سمي العصر الحجري المعدني أحياناً بعصر الفخار الملوّن .

ان للفخار أهمية قصوى بالنسبة للباحث المعاصر في دراسة التطور الحضاري ومعرفة التسلسل الزمني للأدوار الحضارية المتتابعة التي مرت على العراق القديم في عصور قبل التأريخ بنحو خاص حيث لم تكن الكتابة معروفة بعد لتعين المنقب والباحث على تحديد أزمنة الآثار المكتشفة وادوارها الحضارية . لذا فقد استعان على ذلك بالفخار وبعض الآثار الأخرى . [فالمعروف ان الأواني الفخارية تختلف في اشكالها وأنواعها والوانها وزخارفها وطريقة صنعها بل وحتى في لون طينتها ودرجة حرارة فخرها ، نسبة الى مكان وزمان صنعها ، وقد استخدم العراقيون القدماء الأواني الفخارية على نطاق واسع جداً ، لأنه اصبح المادة الأساسية التي صنعت منها معظم الآلات والأدوات ، ولاسيما المنزلية منها ، بدءاً من الطور الثاني من العصر الحجري الحديث وحتى نهاية العصور القديمة بل وفي العصور التالية ايضاً ، حيث تقلّص تدريجياً استخدام الآلات والأدوات المصنوعة من الحجر وكان استخدام المعدن محدوداً جداً ، وهذا أمر طبيعي لرخص ثمن الأواني الفخارية وتوفر مادتها الأولية في جميع انحاء العراق ، ونظراً لسرعة تكسر الأواني الفخارية وتحطمها وصعوبة او استحالة ترميمها واصلاحها ، فقد زاد عدد الأواني المستخدمة كما زادت كمية الكسر الفخارية التي كانت ترمى الى جوار الدور السكنية وتتجمع سنة بعد أخرى وجيلاً بعد جيل لاتؤثر فيها عوامل التعرية الطبيعية أو الحرارة أو البرودة او الحرائق أو الأمطار.

ونتيجة لاستمرار السكن في الموقع الواحد لأجيال عدة وتهدم البيوت وترميمها وبنائها ، تكونت الطبقات السكنية (الأثرية) من الانقاض التي يتركها كل جيل من البيوت المتهدمة ، وفي الحالات الطبيعية فإن هذه الطبقات والانقاض تكون بشكل منظم من حيث التسلسل الزمني ، فالطبقة العليا هي الأحدث والسفلى هي الأقدم . وفي هذه الانقاض تتبعثر الكسر والأواني الفخارية ممثلة تعاقب العصور وتسلسل الأدوار الحضارية مما يساعد المنقب على تحديد الدور الحضاري والتسلسل الزمني لكل طبقة اثرية وما يكشف

فيها من آثار وبقايا من خلال دراسة وتحليل الأواني والكسر الفخارية المكتشفة فيها ومقارنتها مع غيرها من الفخار المكتشف في المواقع الأخرى. واذا ماهجرت القرية أو المدينة لأي سبب كان واضطر السكان الى ترك بيوتهم ومعها معظم حاجياتهم، ومنها الأواني الفخارية ثقيلة الوزن وسريعة الانكسار، وتراكمت الأتربة على الموقع وغطتها على مر السنين حتى اصبحت تلاً اثرياً غالباً ماتبقى الكسر الفخارية مبعثرة على سطح التل



نماذج من الكسر والاواني الفخارية المزخرفة

الأثري وسفوحه الجانبية مؤشرة بذلك الأدوار الحضارية التي مرت على القرية او المدينة المطمورة تحت الأتربة في ذلك التل مما يعين المنقب كثيراً عند اختياره الموقع للتنقيب والتعرف على ادواره الحضارية.

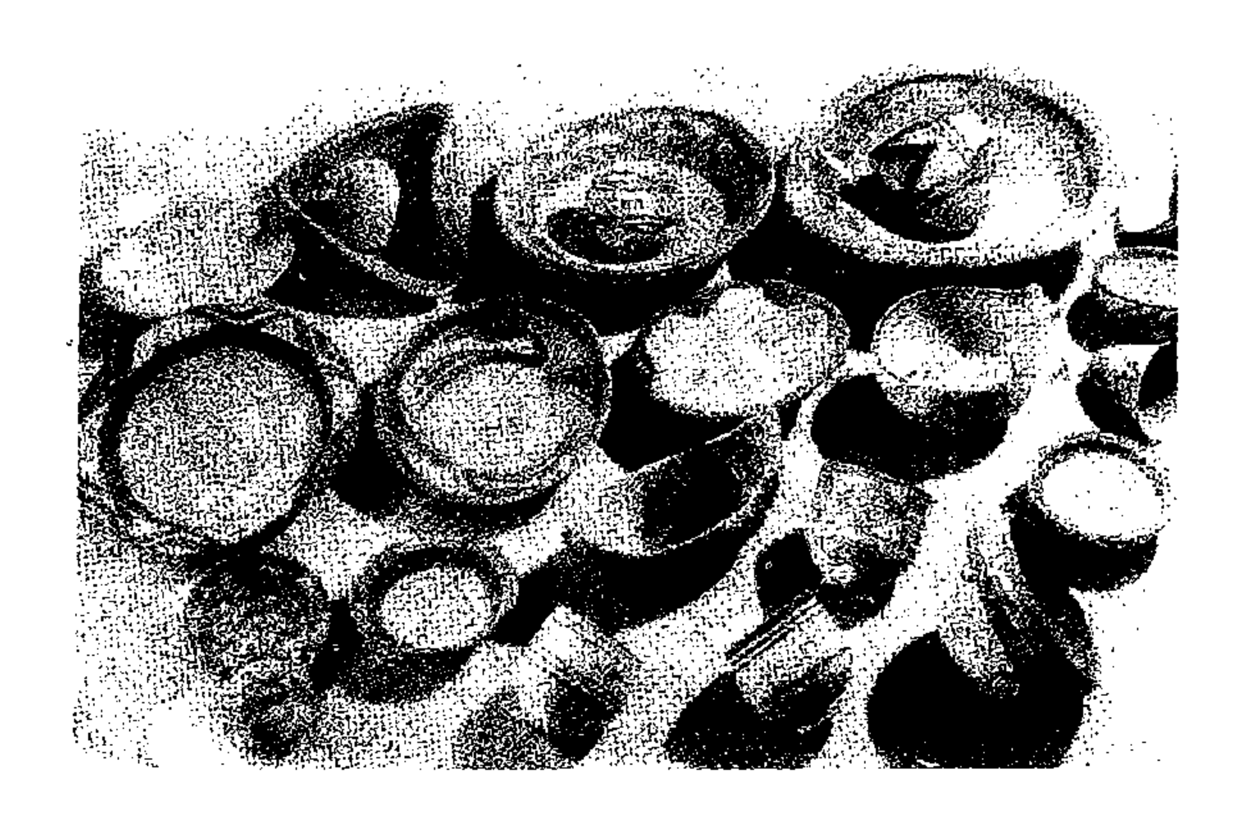
ولقد عكف الباحثون على دراسة وتصنيف الأواني والكسر الفخارية المكتشفة في المواقع المختلفة ومقارنة بعضها ببعض وذلك استناداً الى انواعها واشكالها وزخرفتها وطرزها الفنية وجميع صفاتها الأخرى المميزة، وتبين لهم بأنه كان لكل فترة زمنية تمثل دوراً حضارياً مستقلاً فخارها الخاص المختلف عن فخار الأدوار السابقة او اللاحقة، وقد ينتشر استخدام فخار دور معين في منطقة محدودة، في شمال العراق فقط او في جنوب العراق فقط او في منطقة صغيرة، وقد ينتشر استخدامه في منطقة واسعة تشمل جميع انحاء العراق وقد تكشف التنقيبات عن انتشاره في مناطق بعيدة خارج حدود العراق، كما كانت عليه الحال بالنسبة الى فخار دور العبيد الذي بدأت صناعته في جنوب العراق وانتشر استخدامه في جميع انحاء العراق كما وجد مايضاهي هذا الفخار في المملكة العربية السعودية وفي عدد من المواقع على سواحل الخليج العربي في دولة الامارات العربية. وقد يستفاد من متابعة انتشار استخدام فخار معين على معرفة العلاقات التجارية والحضارية بين سكان المناطق وعلى معرفة طريق هجرة بعض الأقوام واصولهم العرقية في حين يُشير بعض انواع الفخار الدخيلة الى حدوث غزو من اقوام اجنبية الى المنطقة.

وفضلاً عن ذلك، فإن الزخارف والرسوم المنفذة على الأواني الفخارية وكذلك اشكال بعض الأواني والغاية من صنعها قد تعكس بعض الأفكار الدينية التي كانت سائدة وتوضح بعض الطقوس والمراسيم الدينية خاصة وقد صنع من الفخار بعض الدمى والتماثيل كما صنعت منه أواني لاجراء بعض الطقوس الدينية واخرى لدفن الموتى وغيرها.

وكانت الأواني الفخارية في معظم عصور قبل التأريخ تصنع باليد اذ لم تكن عجلة الخزاف، او القرص، قد اخترعت بعد، وكانت تلون بألوان نباتية وحيوانية او معدنية الأصل. وتزخرف بشتى انواع الزخارف الهندسية والنباتية والحيوانية او قد تحمل بعض المشاهد والرسوم الادمية، وتنوعت اشكال الأواني الفخارية تنوعاً كبيراً فشملت معظم الأدوات المنزلية من طاسات وقدور وجرار واقداح وصحون ومجارش ومطاحن وغيرها، وكثير من الآلات والأدوات المستعملة خارج المنزل، كالأدوات الزراعية وتلك المستخدمة في بعض الحرف والصناعات.

وقد ظل استخدام الفخار شائعاً حتى من بعد انتشار استخدام المعادن ولكن على نطاق أضيق ، واختلفت صناعته من عصر الى آخر، الا أن أهميته في تحديد ازمنة الآثار والعصور التأريخية اصبحت محدودة بعد أن انتشر استخدام الكتابة وتم الكشف عن آلاف من النصوص المدونة على الواح الطين والحجر.

ولقد صدرت بحوث ودراسات كثيرة عن الفخار وطرزه الفنية وأنواعه واشكاله في كل دور حضاري او تأريخي بل وصدرت بعض الأدلة والجداول التي تعين المنقب على تحديد الدور الحضاري او التأريخي الذي تعود اليه الكسر الفخارية المكتشفة بمجرد مقارنتها مع ماهو مكتشف سابقاً بل وحتى في اسلوب وصفها وتحديد الوانها وزخارفها.



صورة لبعض الأواني والكسر الفخارية وزخرفتها

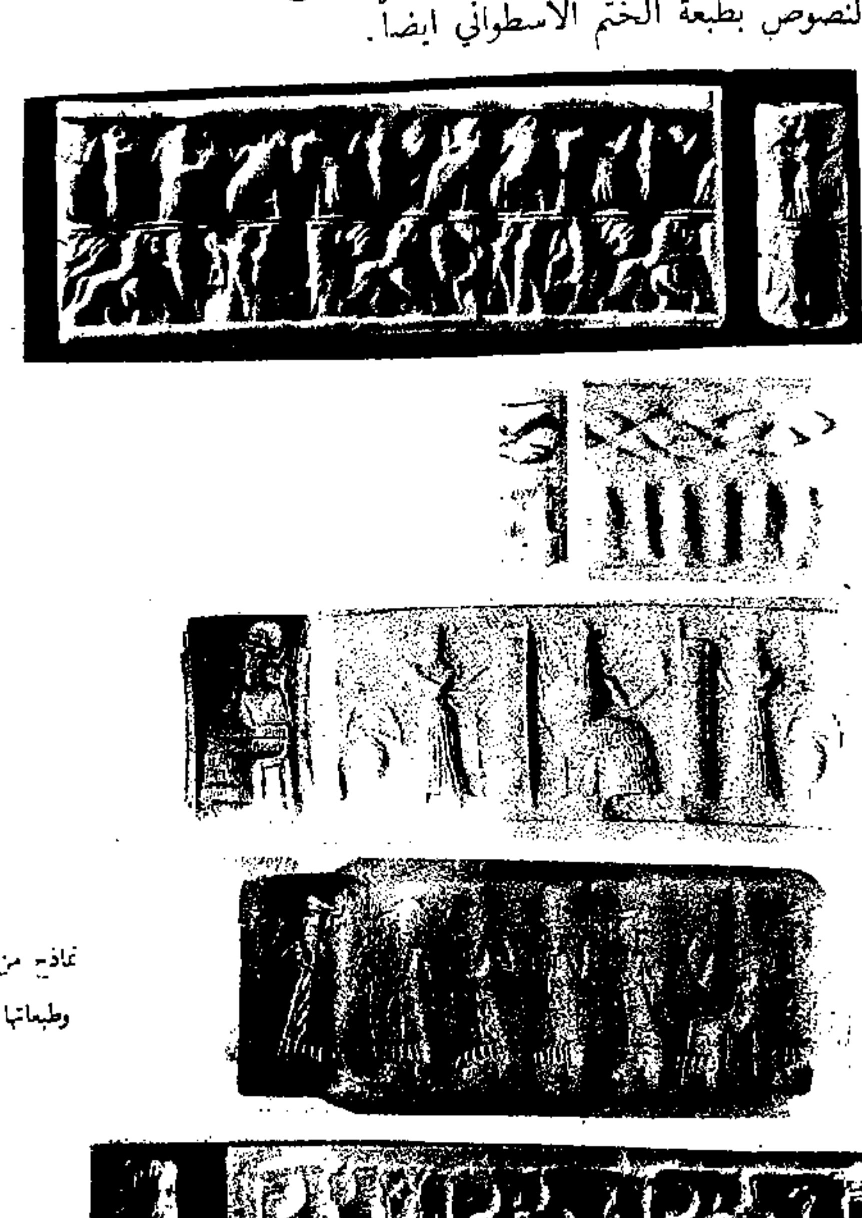
٣ ــ الأختام :

هناك نوعان من الأختام يضم الأول منها الاختام المنبسطة stamp seals والثاني الأختام الاسطوانية cylincler seals . وقد استخدم الختم بصورة عامة ومنذ العصر الحجري المعدني وحتى الآن للتوثيق ومنع التزوير او التلاعب بممتلكات الغير. في العصور المبكرة استخدم الختم المنبسط ، وهو عبارة عن قطعة صغيرة منبسطة من الحجر، مستطيلة او قرصية ، منقوش عليها بوساطة الحفر بعض الخطوط او الزخارف البسيطة ، فكان يضغط الختم على الطين الطري الذي يسد فوهة الجرار لمنع التلاعب بما فيها من مواد الآ بحضور مالكها ، صاحب الختم. وقد تم اكتشاف اقدم انواع هذه الأختام في الطبقة الثانية من موقع حسونة قرب الموصل ، وشاع استخدامها في الأدوار الحضارية التالية الى ان تم ابتكار الأختام الاسطوانية ، حيث تقلّص استخدامها تدريجياً . وظلت الأختام المنبسطة معروفة عبر العصور وحتى الوقت الحاضر، مع اختلافات في الشكل والمادة واسلوب الصناعة ، وظلت تستخدم للتوثيق ومنع التلاعب والتصديق لتقوم مقام التوقيع ، كأختام الدوائر الرسمية وأختام بعض الأفراد ، كالمختار والتاجر والملاّك وغيرهم ، ولاسيما ممن لايعرفون الكتابة او التوقيع .

وفي اواسط الألف الرابع قبل الميلاد ، وعلى وجه التحديد ، في الطبقة الرابعة في الوركاء التي تؤرخ عادة بحدود ٣٥٠٠ ق . م ، وجدت اقدم الأختام الاسطوانية والختم الاسطواني هو عبارة عن حجرة او خرزة اسطوانية الشكل صغيرة يتراوح طولها بين ٢ سم و ٨سم عادة ، ويتراوح طول اقطارها بين١ سم الى بضعة سنتمترات ، وتصنع من الأحجار المختلفة ، وبعضها احجار كريمة او شبه ثمينة ، وقد تصنع من المعادن او الفخار. والختم الاسطواني مثقوب طولياً من الوسط ، ربما ليعلق بخيط في الرقبة للمحافظة عليه من الضياع ولضمان عدم استخدامه من قبل الغير، وكان من المقتنيات الشخصية الملازمة لمعظم الأفراد ، ولاسيما الذكور منهم . وقد ابتكر العراقيون القدماء الختم الاسطواني لأنه اكثر ملائمة للتوثيق على الطين حيث يمكن النقش عليه بزخارف ونقوش ومشاهد مختلفة وربما بعض الكتابات ، وعند دحرجته على الطين يترك طبعة تلك الزخارف والمشاهد ويمكن تكرار تلك الطبقات بمجرد الاستمرار بدحرجة الختم . وقد استخدم الختم الاسطواني على نطاق واسع بعد اختراع الكتابة وذلك لتوثيق العقود والمعاملات التي كانت تدون على الواح الطين.

وكان النقش على الختم يتم بطريقة الحفر وتنقش الزخرفة او المشهد او الكتابة بشكل معكوس ، فإذا مادحرج الختم على الطين ترك طبقة صحيحة وموجبة .

ويعد الختم الاسطواني من سمات الحضارة العراقية القديمة ، فعلى الرغم من استعمال الأختام الاسطوانية في بعض بلدان الشرق الأدنى القديم ، مثل وادي النيل وبلاد الشام وآسيا الصغرى ، فإنها استخدمت لفترة محدودة وربما كانت اقتباساً وتقليداً لما كان شائعاً في العراق ، في حين استمر استخدام الختم الاسطواني في العراق طوال العصور التأريخية المتتابعة خاصة وان الكتابة كانت تطبع على الواح الطين وكان ملائماً جداً توثيق المعاملات والنصوص بطبعة الختم الاسطواني ايضاً.



نماذج من الاختام الاسطوانية وطبعاتها على الطين



ولقد ابانت التنقيبات الأثرية اعداداً كبيرة جداً من الأختام الاسطوانية تعود الى فترات زمنية وعصور تأريخية مختلفة ، وتختلف الأختام المكتشفة من حيث الحجم والشكل العام ومادة الصنع ومن حيث الزخارف والنقوش والمشاهد المنفذة عليها وقد اختص كل دور حضاري سواء في عصور قبل التأريخ او في العصور التأريخية بطرز وخصائص معينة بالنسبة للأختام الاسطوانية تماماً كما هي الحال بالنسبة للأواني الفخارية ، فساعد ذلك كثيراً من المنقبين والباحثين في التأريخ القديم على تحديد ازمنة الآثار المكتشفة في الطبقات التي وجدت فيها الأختام حيث صنفت تلك الأختام ، كما صنفت الكسر والأواني الفخارية ، حسب تسلسل الأدوار الحضارية التي صنعت فيها وغدا من اليسر على المنقب ان يحدد الدور الحضاري الذي يعود اليه الختم المكتشف ، ومعه الآثار الأخرى المكتشفة في الطبقة نفسها ، بمجرد الاطلاع على شكله وما عليه من نقوش وزخارف ومشاهد ، اي على طراز صنعه .

ولا تقتصر فائدة الأختام الاسطوانية على تحديد ازمنة الأدوار الحضارية التي تعود اليها ، بل ان الزخارف والنقوش والمشاهد المنفذة عليها قد تعكس لنا معلومات مفيدة جداً في دراسة الطقوس الدينية والعادات والتقاليد المتبعة وما كان من حيوانات ونباتات في المنطقة فضلاً عن ان بعضها كان يحمل مشاهد عن حياة الحكام أو الحياة اليومية للأفراد الى غير ذلك من المشاهد التي تعبّر عن جوانب مهمة من حضارة العصر الذي صنعت فيه ، بل ان بعض المشاهد يوضح هوية الاقوام التي استخدمت تلك الأختام ، سومرية كانت ام جزرية (اكدية او بابلية) أو أجنبية من ملامح الأشكال المرسومة عليها والتي تمثل بعض الاشخاص او الآلهة.[1]

٤– الكتابة

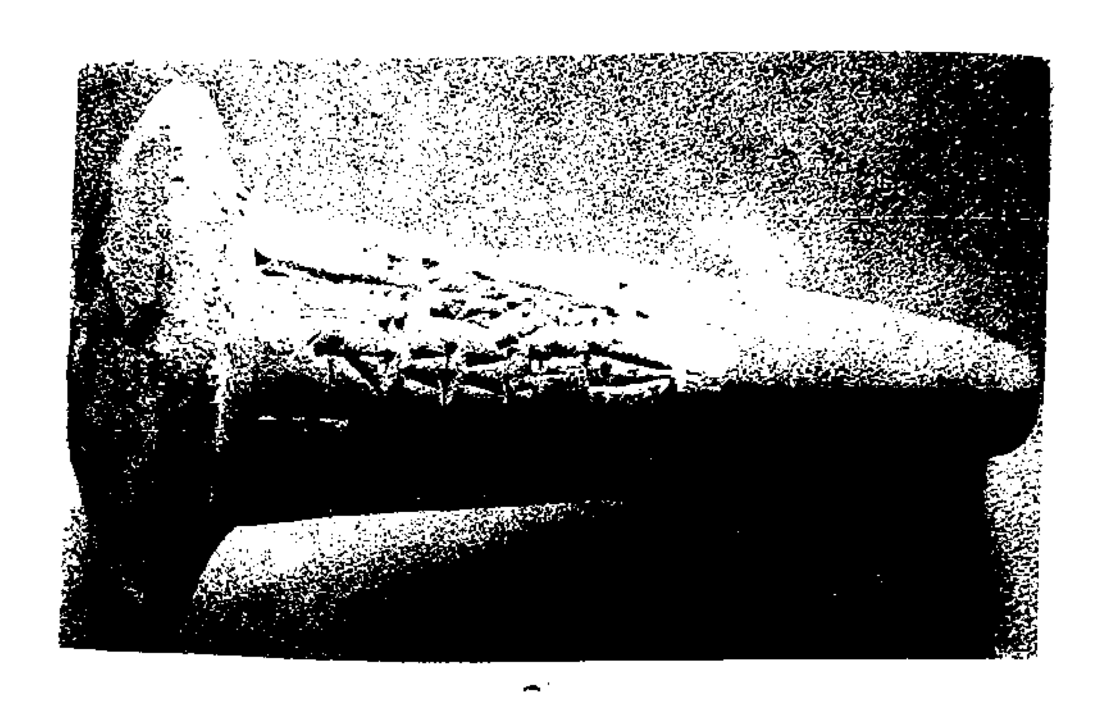
يعد اختراع الكتابة واحداً من اروع المنجزات الحضارية التي حققها العراقيون القدماء لأهميتها القصوى في حياة الانسان قديماً وحديثاً الى درجة دفعت الباحثين المحدثين الى تقسيم العصور التي مرت على الانسان الى قسمين رئيسين تفصل بينهما الكتابة . لقد غيّرت

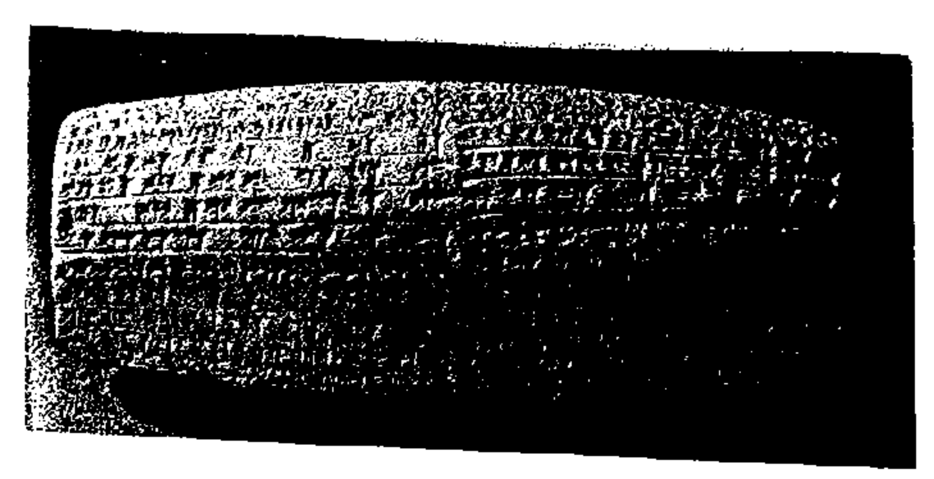
---

(١) للاطلاع على مزيد من التفاصيل حول الأختام انظر:
عادل ناجي ، الأختام الاسطوانية ، في حضارة العراق ، ج٣ ، بغداد ، ١٩٨٥ ، ص٢١٩– ٣٢٢.
فرج بصمة چي ، الأختام الاسطوانية في المتحف العراقي ، سومر، ٢ (١٩٤٦) ، صفحة ١٥٥– ١٦٤.

الكتابة حقاً حياة الانسان تغييراً جذرياً حتى اعتقد القدماء من السومريين بأن مصدرها الهي وعدّوها "أباً وأمّا للبشر" على حد تعبير احد اقوالهم المأثورة.

لقد أصبحت الكتابة منذ اختراعها في اواسط الألف الرابع قبل الميلاد (حدود ٣٥٠٠ ق.م) القارب الذي انتقلت بواسطته جميع التجارب والأفكار والقيم والتعاليم والعلوم والمعارف من جيل الى جيل عبر العصور المتتابعة فحفظت بذلك سجل تأريخ الانسان الذي غدا وكأنه ذاكرة البشرية، يفيد منها البشر اينما كانوا وفي اي مجال ارادوا.





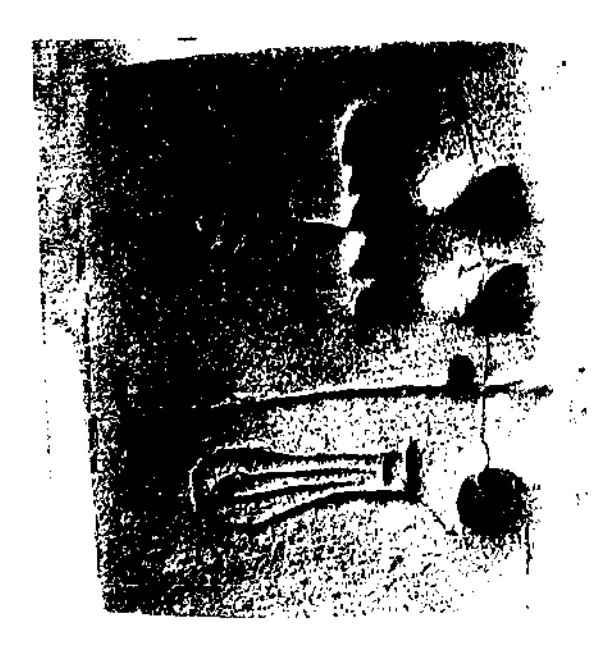
من اشكال الرقم الطينية المختلفة

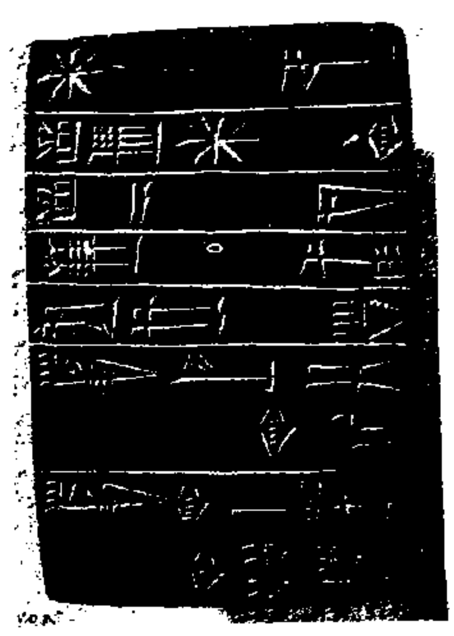
تعد الألواح الطينية الصغيرة المكتشفة في الطبقة الرابعة ب في مدينة الوركاء في القسم الجنوبي من العراق والتي تحمل بعض العلامات الصورية ، اقدم محاولات الانسان في تدوين مايجول بخاطره ونقل مايريد ان يقوله الى الغير. وقد استخدم العراقيون القدماء الطين الطري مادة للكتابة بالدرجة الرئيسة الى جانب الحجر، كما كتبوا على العاج والمعدن وربما الخشب وغيره من المواد ، ولكن بحدود ضيقة جدا ، وغدت الواح الطين التي عرفت من قبل الباحثين بالرقم الطينية اهم واثمن مايمكن الكشف عنه من آثار ذات فائدة علمية في اي موقع من المواقع الأثرية في العراق ، وتختلف الرقم الطينية المكتشفة من حيث الشكل والحجم ، فمنها الصغير الذي لاتتجاوز مساحته سنتمتراً مربعاً ومنها الكبير الذي قد تصل قياساته الى ٥٠ × ٥٠ سم ، ومنها المربع او المستطيل ومنها القرصي او المثلث الشكل ، ومنها ماهو مجسم على شكل اسطوانة او منشور ذي اضلاع عدة او مكعب او كروي او على هيئة حيوان او عضو من اعضاء الحيوان او الانسان ، وكان لكل فترة زمنية اشكالها الخاصة التي يمكن تمييزها عن غيرها كما كان لمضمون النص المدون على الرقيم علاقة بشكل الرقيم.

أما الكتابة على الحجر، فقد ضمت الكتابة على الألواح وعلى المنحوتات الجدارية والتماثيل والمسلات والأوزان وغير ذلك وينطبق الشيء نفسه على الكتابة على المعدن او العاج.

لايمكن تقدير عدد الرقم الطينية المكتشفة حتى الآن ، الا انها تعد بمئات الآلاف وقد ترجم جزء مهم منها ولازال البعض ينتظر دوره للترجمة ، كما ان التنقيبات التي تجري في العراق تضيف سنوياً الى اعداد الرقم الطينية المكتشفة اعداداً اخرى.

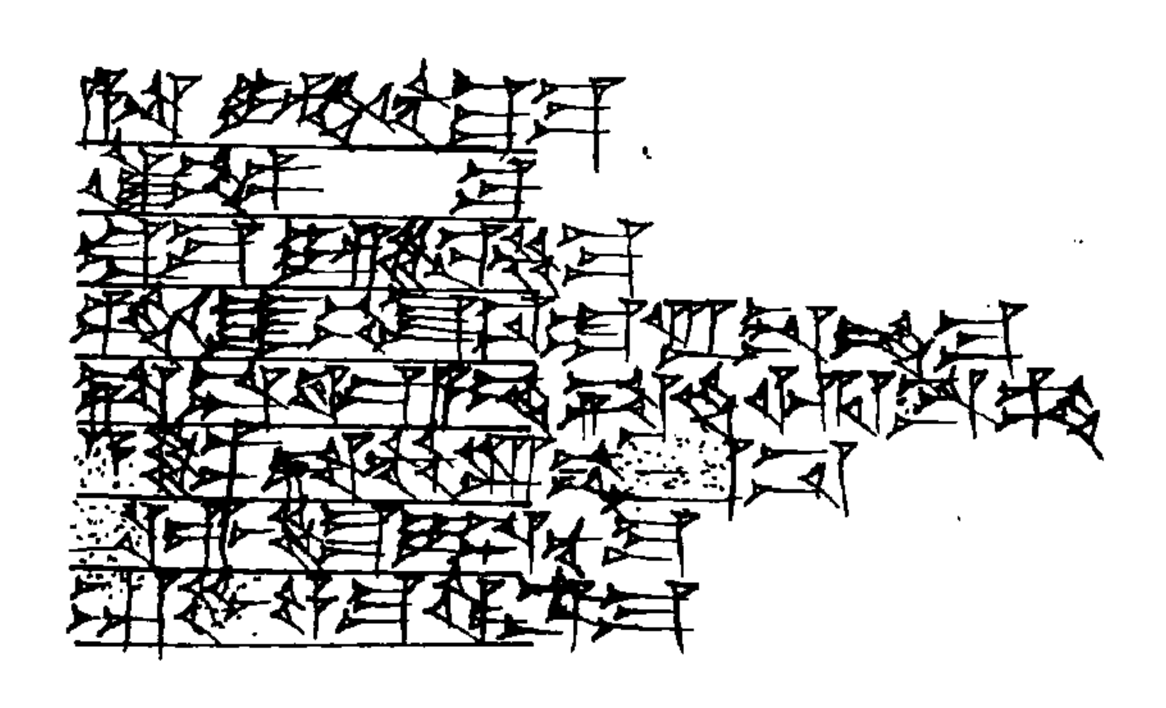
مرت الكتابة التي ابتدعها العراقيون القدماء بثلاث مراحل رئيسة الى ان وصلت الى شكلها النهائي الذي دونت به معظم النصوص ، فكانت في بدايتها صورية بحتة ، اي ان الكاتب كان يرسم الشيء المادي الذي يريد التعبير عنه بأبسط الأشكال الممكنة مستخدماً قلماً مدبباً يحركه على الطين الطري. الا أن هذه الطريقة لاتعبّر الاّ عن بعض الكلمات والمفردات والأشياء المادية المجردة وربما اعدادها. لذا ابتدع الانسان طريقة اخرى للتعبير عن المزيد من المفردات التي لاتمثل اشياء مادية ، فاستخدم العلامة الصورية الواحدة للرمز بوساطتها الى جميع الأفكار والمعاني المادية والمعنوية ذات العلاقة بتلك العلامة. فاصبحت العلامة الخاصة بالقدم، مثلاً ، لاتعني القدم حسب الطريقة



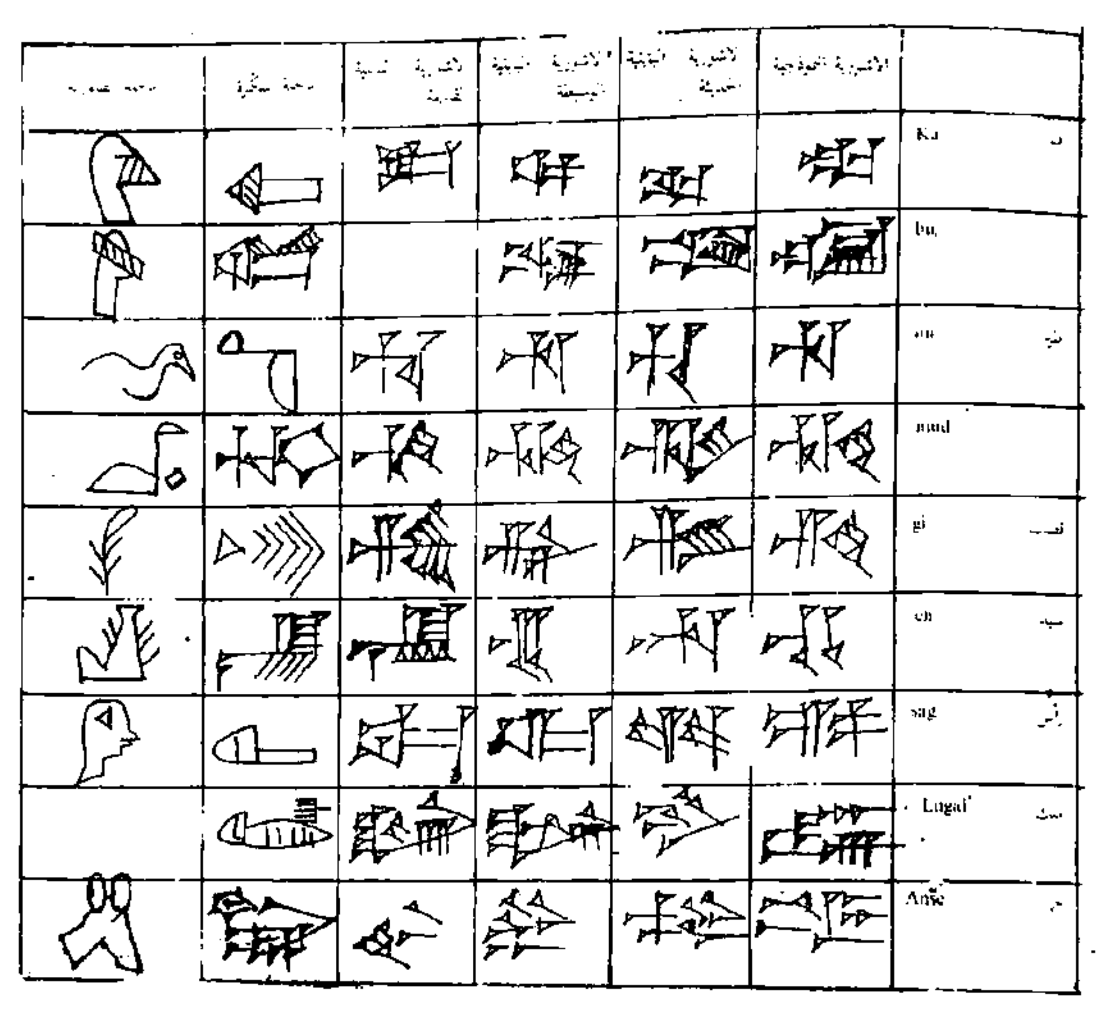



رقم طينية مختلفة من العصور المبكرة

الصورية فقط بل غدت تدل على المشي والركض والوقوف وكل ماله علاقة بعضو القدم وهكذا. ومع ذلك ظلت الكتابة قاصرة عن التعبير عن اسماء الاعلام وعن الأدوات النحوية والصيغ الفعلية وازمنتها والى غير ذلك مما تحويه اللغة، فابتدعت الطريقة الصوتية او، كما تسمى احياناً، بالمقطعية. وفحوى هذه الطريقة هو استخدام القيمة الصوتية لأي علامة صورية او رمزية، اي اسلوب لفظها، لتكوين كلمات جديدة لاعلاقة لها بالصورة التي تمثلها العلامة او ترمز لها، اي تماماً كما نستخدم الحروف الابجدية لتكوين كلمات جديدة كلما اردنا ذلك، غير ان الحروف الابجدية (أ وب وج وس وص... الخ) يمثل كل منها صوتاً واحداً منفرداً، في حين تمثل قيم العلامات الصوتية صوت اكثر من حرف واحد نحو بَ ودَ وسُ وباب وبيت.. الخ. ولم يكن التطور الذي طرأ على الكتابة في الاسلوب فقط بل وبطريقة الكتابة ايضاً حيث اصبح الكاتب يطبع العلامات على الطين بوساطة ضغط نهاية القلم ذي المقطع المثلث او المستطيل او الدائري فيترك طبعة تتألف من خط افقي، هو ضلع المقطع، ينتهي بمثلث صغير، هو زاوية المقطع فاضطر الكاتب ان يختزل في تفاصيل العلامة ويستبعد الدوائر والمنحنيات ويجرد العلامة من تفاصيلها تدريجياً حتى ابتعدت عن شكلها الأصلي وأصبحت عبارة عن مجموعة من العناصر المؤلفة من خط ينتهي بمثلث، اي مايشبه المسمار او الوتد، ومن هنا جاءت التسمية الحديثة (الكتابة المسمارية) حيث لم تكن الكتابة تعرف بهذا الاسم قديماً.



استنساخ يدوي لكتابة مسمارية من العصر البابلي القديم



مراحل تطور الكتابة المسمارية

استخدمت الكتابة المسمارية في العراق القديم منذ اختراعها في حدود ٣٥٠٠ ق.م. وحتى اواسط الألف الأول قبل الميلاد (حدود ٥٠٠ ق.م) ، حيث كانت الكتابة الرسمية والشائعة في بلاد بابل وآشور، ومن ثم بدأ استخدامها يتقلص تدريجياً حتى تلاشى بحدود التأريخ الميلادي وكان آخر الرقم المدونة بالمسمارية من القرن الأول الميلادي. وانتشر استخدام الكتابة المسمارية في الأقطار المجاورة ، بلاد الشام وآسيا الصغرى وبلاد عيلام ، وكان غالباً اقتباساً من بلاد بابل وآشور مع التحوير.

بعد توقف استخدام الكتابة المسمارية انطمرت الرقم الطينية والالواح الحجرية وغيرها من الآثار تحت الانقاض وتراكمت عليها الأتربة وظلت في طي النسيان حتى بداية القرن الماضي عندما بدأت محاولات التنقيب والكشف عن اسرار الماضي وكنوزه ، فتم اكتشاف اعداد كبيرة من الرقم الطينية والألواح الحجرية المنقوشة بالكتابة المسمارية وارسلت الى اوروبا لدراستها. وبعد جهود مضنية وبمساعدة بعض النصوص الثنائية اللغة والخط ، كالتي كانت تكتب على قواعد بعض التماثيل بالخطين الفارسي والبابلي في فترة الاحتلال الاخميني لبلاد بابل وآشور، او ثلاثية اللغة والخط ، كالتي كتبت على سفح جبل شاهق في برسيبوليس وعرفت بنقش بهستون ودونت بالخط المسماري البابلي والفارسي القديم والعيلامي ، تمكن الباحثون الاوربيون في اواسط القرن الماضي من حل رموز الكتابة المسمارية العراقية وبدأوا بترجمة النصوص الكثيرة المكتشفة الى اللغات الحديثة.
وقد تبين ان تلك النصوص قد ضمت مختلف المواضيع فمنها الدينية والأدبية ومنها الاقتصادية والقانونية والعلمية والادارية وغيرها حتى يمكن القول ان مضامين النصوص المسمارية متنوعة الى درجة لايمكن حصرها. وكان اكتشاف النصوص المسمارية في المعابد والقصور بالدرجة الاولى كما تم اكتشاف عدد من المكتبات القديمة التي كانت تضمها بعض المعابد والقصور ويأتي في مقدمتها مكتبة آشور بانيبال الشهيرة التي كشف عنها في القرن الماضي من قبل البريطانيين الذين كانوا يعملون في مدينة نينوى وقد ضمت تلك المكتبة اكثر من خمسة وعشرين الف رقيم طيني اوكسرة رقيم نقلت جميعها الى المتحف البريطاني في لندن[1].

---

(١) حول الكتابة المسمارية بالتفصيل انظر: عامر سليمان ، اللغة الاكدية ، موصل ١٩٩١ ، ص٩٧ - ١٧٨ ، بهيجة خليل ، الكتابة في حضارة العراق ، ج١ ، بغداد ، ١٩٨٥ ، ٢٣١ - ٢٧٢.

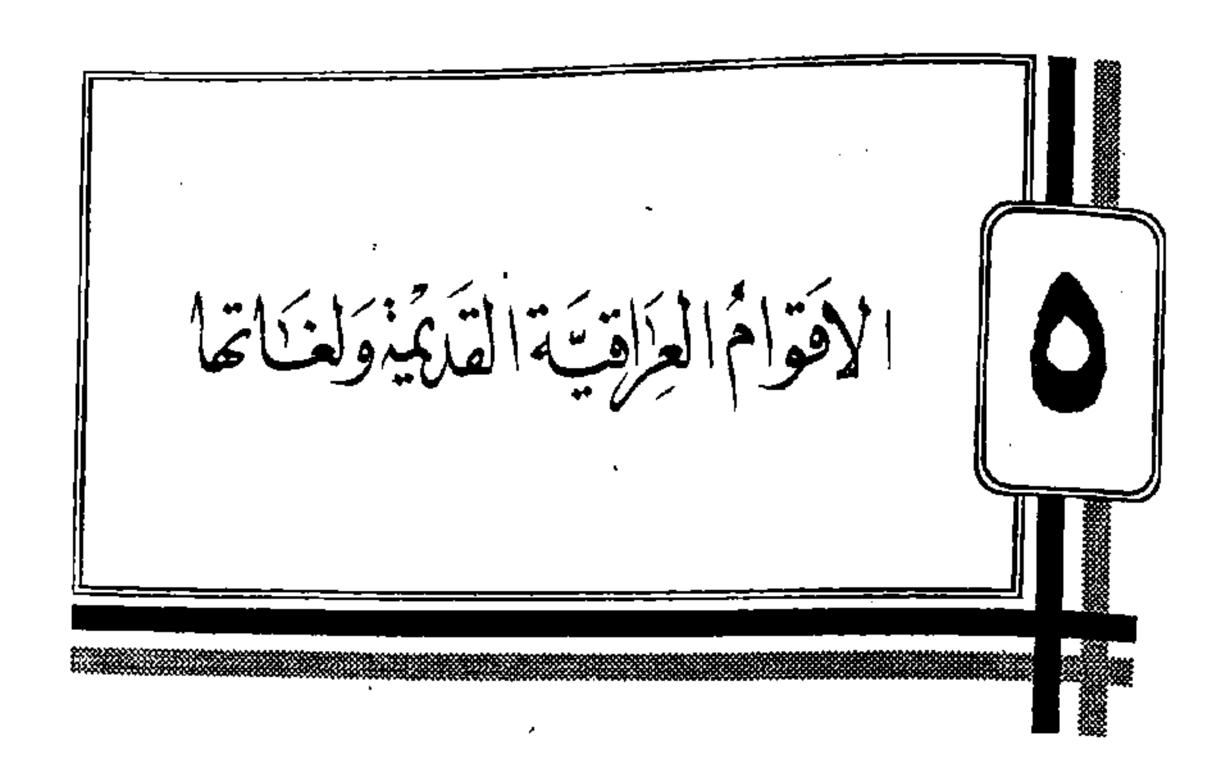
ومع ايجابيات استخدام الطين مادة اساسية للكتابة عليها مقارنة بورق البردي والجلود والورق العادي وغيرها ، حيث انه يقاوم التلف والبلل ولا يتأثر بالحرائق بل على العكس تزداد قوته نتيجة الحرق ، فكان ذلك من العوامل المهمة التي حفظت لنا النصوص العراقية القديمة بصيغتها الاصلية التي دونت بها قبل آلاف السنين على الرغم من ذلك فقد كان لاستخدام الطين سلبيات مهمة منها سرعة تكسر الرقم الطينية وتحطمها مفخورة كانت أم غير مفخورة وبالتالي فقدان اجزاء مهمة منها ، وكذلك ثقل وزنها وصعوبة حملها ونقلها مما استوجب استخدام رقم صغيرة وبالتالي اختصار النصوص المراد تدوينها الى ابعد الحدود فجاءت النصوص المسمارية غالباً موجزة ومقتضبة احياناً ولا تتطرق الاّ للامور ذات الاهمية.

ولصعوبة الكتابة المسمارية وكثرة عدد علاماتها الصورية والرمزية والتي جاوزت خمسمائة علامة بعد اختزال اعدادها ، وتعدد قيمها الصوتية واستخدامها للعلامات الدالّة والنهايات الصوتية التي كانت تكتب ولا تقرأ بل تساعد على فهم النص ، فقد كان على المتعلمين الالتحاق بالمدرسة لتعلّم الكتابة والقراءة ولمدة سنوات طويلة حتى يتمكنوا من اتقانها ثم يبدأوا دراساتهم للعلوم الأخرى ، كالطب والفلك والرياضيات وغيرها ، او يصبحوا كتاباً فحسب يكتبوا لبقية افراد المجتمع مايحتاجون من عقود ورسائل وغيرها ، وقد تم الكشف عن اعداد كبيرة من النصوص المسمارية المدرسية التي كان قد كتبها الطلبة المتعلمون وهي تحمل بعض العبارات التي دونها معلميهم في بداية اللوح.

عصور ماقبل التأريخ في العراق[1]

اسم العصر	التأريخ التقريبي	اهم المواقع في القسم الجنوبي (بلاد بابل)	اهم المواقع في القسم الشمالي (بلاد آشور)
العصر الحجري القديم الاسفل	١٠٠٠٠٠-٦٠٠٠٠	—	بردا بلكة ، مواقع عديدة في حوض سد صدام ، مواقع كثيرة في غرب العراق.
العصر الحجري القديم الاوسط	٦٠٠٠٠-٣٥٠٠٠	—	كهف هزارمرد ، شانيدار جـ ، منخفض الرزازة ، هور ابي. دبس ، بحر النجف.
العصر الحجري القديم الاعلى	٣٥٠٠٠-١٦٠٠٠	—	كهف زرزي ، شانيدار ٢ ، بالي كورا ، راوندوز، باراك
العصر الحجري الوسيط	١٢٥٠٠-١٠٠٠٠	—	كهف زرزي ، بالي كورا ، شانيدار كريم شهر، ملفعات ، زاوي جمي
العصر الحجري الحديث	٨٠٠٠ق.م-٥٦٠٠ق.م	—	جرمو،شمشارة، حسونة ام الدباغية ، نينوى ، يارم تبة ، الصوان
العصر الحجري المعدني	٥٦٠٠ق.م-٣٥٠٠ق.م	— — اريدو العبيد	حسونة سامراء حلف
العصر الشبية بالكتابي	٣٥٠٠ق.م-٢٩٠٠ق.م	الوركاء جمدة نصر	تبة گورا

(١) ثبت التواريخ التقريبية بالنسبة للعصور الحجرية وفق ماجاء في كتاب تقي الدباغ ، الوطن العربي في العصور الحجرية ، بغداد ، ١٩٨٨.



١ - الاقوام العراقية القديمة في عصور ماقبل التأريخ ولغاتها

عاش في العراق منذ اقدم العصور الحجرية وحتى نهاية التأريخ القديم اقوام عديدة واجناس مختلفة ، منها مانعرف عنها بعض الشيء ومنها مالانعرف عنها اي شيء. ولقد كان لطبيعة ارض العراق الجغرافية وموقعه اكبر الأثر في تعدد وتنوع الاقوام التي عاشت فيه كما سبق ان أشرنا . فأرض العراق ، ولاسيما السهل الرسوبي ، تمثل اقليماً مفتوحاً من جهاته الشرقية والغربية ، غني بموارده الطبيعية واراضيه الخصبة ، لذا تتابعت عليه الهجرات والغزوات منذ اقدم العصور، واختلطت فيه الاقوام ولم يعد من اليسر تحديد هويتها ، واستمرت تلك الهجرات والغزوات عبر العصور التأريخية بل ولازالت مستمرة الى الوقت الحاضر ولكن على نطاق ضيق ومحدود.

ان التعرف على هوية الاقوام القديمة يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمعرفة اللغة او اللغات التي تكلمت بها تلك الاقوام. فاذا ماعرفت لغة الاقوام وفصيلتها اوعائلتها اللغوية امكن معرفة الاصل الذي انحدرت عنه تلك الاقوام والموطن الاول الذي جاءت منه وربما الطريق الذي سلكته في هجرتها الى ان حلت في هذا المكان او ذاك. والى جانب اللغة يمكن الاستعانة بدراسة الهياكل العظمية البشرية المكتشفة وبالاثار المادية التي خلفها الانسان

وطرزها الفنية ولاسيما التماثيل والمنحوتات والرسوم التي تصور اشكالاً آدمية وذلك في اعطاء فكرة تقريبية عن هوية الاقوام. وبالنسبة الى الاقوام العراقية القديمة التي عاشت في ارجاء العراق المختلفة في عصور قبل التأريخ. وعلى الرغم من ان تلك الاقوام كانت تتكلم بلغة او لغات معينة يتفاهم بها الافراد بعضهم مع بعض، فانه لاسبيل الى معرفة تلك اللغة او اللغات طالما لم تكن الكتابة معروفة انذاك لتنقل الينا لغة الاقوام. اما دراسة الهياكل العظمية فقد اثبتت الدراسات الانثروبولوجية التي تمت على الهياكل العظمية المكتشفة في مدن العراق القديمة عدم جدواها في تحديد هوية الاقوام التي خلفتها حيث كانت النتائج غامضة ومرتبكة وتشير الى اختلاط عرقي منذ اقدم العصور الى درجة لايمكن ان نميز العرق الغالب على السكان. وما يقال عن الهياكل العظمية ينطبق على الآثار المادية المكتشفة، ومنها التماثيل والمنحوتات التي قد تحمل بعض الملامح او السمات التي تدل على هوية اصحابها، حيث ثبت أنها غير مفيدة حيث تحكمت في صنعها ونحتها الطرز الفنية السائدة من النحت بالدرجة الاولى وان مايظهر على تلك التماثيل والمنحوتات من ملامح وسمات لايمثل في الواقع فروقاً او ميزات عرقية[1]، وكذلك بالنسبة الى الطرز الفنية التي تظهر على الآثار المادية المكتشفة كالفخار والاختام والالات والادوات، وطرز البناء وغيرها، والتي لاتساعد على تحديد هوية الاقوام التي خلفتها طالما تحكمت فيها الطرز السائدة. وهكذا تبقى معلوماتنا عن هوية الاقوام العراقية القديمة في عصور قبل التأريخ وعن لغاتها تخمينية فقط الى ان تم ابتكار الكتابة واستخدمت لتدوين وتسجيل وحفظ اللغة وذلك في اواسط الالف الرابع قبل الميلاد.

ومع ذلك، فان طبيعة ارض الرافدين الجغرافية والطرق والمسالك المفتوحة اليها، وتتابع هجرة وغزو الاقوام في العصور التأريخية التالية ولاسيما القسم الجنوبي من العراق، كل ذلك يشير الى انه لابد ان دخل ارض العراق من الجهات الغربية والشمالية الغربية والجنوبية الغربية اقوام جاءت عن طريق الهجرة من شبه الجزيرة العربية وتغلغلت بين السكان واختلطت معهم. يؤكد ذلك ان التنقيبات التي اجريت في السنوات الاخيرة في سواحل شبه الجزيرة العربية وفي جزيرة البحرين وسواحل الامارات العربية اثبتت وجود تشابه كبير بين الآثار المكتشفة فيها مع ماهو مكتشف في مدن جنوب العراق من دور العبيد، اقدم ادوار الاستيطان فيها، مما يؤكد على الاتصال الحضاري بين المنطقتين منذ الالف الخامس قبل الميلاد، وهو اقدم تأريخ استيطان في هذا الجزء من العراق. كما ان وجود اسماء جزرية

---

(١) طه باقر، المقدمة، ص ٦٢.

بين اسماء ملوك اقدم سلالة حكمت في القسم الجنوبي من العراق، وهي سلالة كيش حسبما ورد ذلك في جداول الملوك السومريين يشير هو الآخر الى تواجد الاقوام الجزرية منذ عصور مبكرة جداً. والى جانب الاقوام الجزرية لابد وان كانت هناك اقوام اخرى دخلت العراق من الجهات الشرقية عن طريق الهجرة او الغزو واختلطت بالسكان كما لابد وان هاجرت الى السهل الرسوبي مجموعات صغيرة وكبيرة من السكان الذين كانوا يعيشون في الاقسام الشمالية والوسطى من العراق، الا ان معلوماتنا عن كل ذلك تبقى في دائرة التقدير والتخمين.

وفي الاربعينيات من هذا القرن حاول بعض الباحثين، وفي مقدمتهم الباحث لاندزبرجر Landsberger، دراسة الآثار المادية واللغوية التي خلفتها الاقوام العراقية القديمة التي عاشت في مدن جنوبي العراق في الالفين الخامس والرابع قبل الميلاد، اي في الفترة التي سبقت ابتكار الكتابة مباشرة، وتمكن من تحديد هوية تلك الاقوام بشكل تقريبي. فلقد لاحظ لاندزبرجر اثناء دراسته النصوص السومرية والاكدية القديمة وجود بعض المفردات اللغوية الدخيلة في تلك النصوص التي لاتنتمي الى اللغة السومرية او الى اللغة الاكدية، وهما اللغتان الرئيستان في مدن جنوبي العراق في الالف الثالث قبل الميلاد، وكان من جملة تلك المفردات الدخيلة اسماء معظم المدن السومرية والاكدية واسماء الانهار واسماء الحرف والصناعات الاساسية واسماء كثير من الالات والادوات الزراعية وغيرها. فاستنتج لاندزبرجر ان هذه المفردات الدخيلة لابد انها تعود الى لغة السكان الاوائل الذين سكنوا المنطقة من قبل السومريين والاكديين وخلّفوا لنا آثاراً مادية تتمثل باثار الدور الحضاري الذي سمّاه المنقبون بدور العبيد نسبة الى تل العبيد. وحيث ان الكتابة لم تكن معروفة بعد، لذلك لم تدون لغتهم بل ظلت بعض مفرداتها اللغوية حيّة في العصور التالية ودخلت في اللغة السومرية واللغة الاكدية متمثلة بالاسماء التي ذكرناها.

ولقد اطلق لاندزبرجر على تلك الاقوام اسم الفراتيين الاوائل Proto-Euphrates نظراً لانهم عاشوا على اطراف الاقسام السفلى من نهر الفرات.[1] ونسب المفردات اللغوية الدخيلة الى لغة تلك الاقوام. اما هوية تلك الاقوام العرقية، فلا تزال غير معروفة واغلب الظن انها كانت تتألف من عدة عناصر منها السومرية ومنها الجزرية ومنها عناصر اخرى لاتعرف هويتها، كما سبق واشرنا الى ذلك.

---

(١) هناك من الباحثين من أيّد هذا الرأي وقدّم ادلّة أضافية لاسناده مثل Gelb وطه باقر (انظر طه باقر المقدمة، ٧٤- ٧٦) في حين يرى آخرون خلاف ذلك، انظر تفصيل ذلك عامر سليمان، اللغة الاكدية، موصل، ١٩٩١، ص ٢٥- ٢٦.

ولابد من الاشارة هنا الى الاقوام التي ورد ذكرها في النصوص المسمارية من الالف الثالث قبل الميلاد وما بعد ذلك باسم «السوباريين» والذين سميت منطقة سكناهم ببلاد سوبارتو. فتشير هذه النصوص الى أن السوباريين كانوا من الاقوام التي كانت تقطن في منطقة الجزيرة العليا في شمال مابين النهرين وفي شرقي دجلة في العصور المبكرة وربما سكن بعضهم في الاجزاء الشمالية من بلاد آشور وذلك من قبل مجئ الآشوريين الى المنطقة. وعند مجئ الآشوريين انسحب السوباريون الى المناطق الجبلية شرقي دجلة ولابد وان ترسب بعضهم واندمج مع الآشوريين. وقد ذكر السوباريون وذكرت بلاد سوبارتو في النصوص البابلية المتأخرة اشارة الى الآشوريين انفسهم وبلادهم في حين تحاشى الآشوريون استعمال هذه التسمية ترفعاً واستهجاناً ربما لان بلاد سوبارتو كانت المكان الذي يؤتى منه بالعبيد الى درجة ان كلمة سوبارم غدت في اللهجة الآشورية مرادفة لكلمة عبد.[1] ان ما لدينا من معلومات عن السوباريين وبلاد سوبارتو قليل جداً ولايتعدى ذكرهم في النصوص المتأخرة ويظن انهم كانوا من جملة الاقوام الجبلية التي كانت تقطن في الجهات الشرقية من بلاد بابل وآشور.[2]

٢ – السومريون ولغتهم :

يمثل السومريون اول واقدم الاقوام العراقية القديمة التي ورد ذكرها في النصوص المسمارية ودونت لغتها، فلقد اثبتت الدراسات التي تمت على اقدم الالواح الطينية التي تحمل علامات صورية مفهومة اللغة، وهي الالواح التي ترقى بتأريخها الى دور جمدة نصر في النصف الثاني من العصر الشبيه بالكتابي، ان اللغة المستخدمة في تلك الالواح هي اللغة السومرية. وكان الرأي السائد لدى الباحثين حتى اواسط القرن الحالي أن السومريين يمثلون اقدم السكان الذين عاشوا في القسم الجنوبي من العراق ولذلك عرفت المنطقة باسمهم، بلاد سومر (بالسومرية Ki. en.gi وبالاكدية mat Šumerim) كما عرفت الحضارة التي نشأت وتبلورت في القسم الجنوبي من العراق منذ أول الاستيطان في هذا القسم وحتى أواخر الالف الثالث قبل الميلاد بالحضارة السومرية. الا ان الدراسات اللغوية والآثارية التي تمت بعد ذلك، ولاسيما دراسة الباحث لاندزبرجر التي سبقت

---

(١) انظر طه باقر المقدمة ٧٦– ٧٨

(٢) حول السوباريين وبلادهم انظر:

Gelb, Hurrians and Subarians, 1944

انظر كذلك: جمال رشيد احمد، دراسات كردية في بلاد سوبارتو، بغداد، ١٩٨٤، ص ٣ ومابعدها.

الاشارة اليها ، جاءت برأي جديد مفاده أن السومريين لم يكونوا اول من استوطن ارض جنوب العراق بل سبقهم الى ذلك اقوام اخرى مؤلفة من الاقوام الجزرية القادمة من شبه الجزيرة العربية ومن عناصر سومرية واخرى غير معروفة لدينا بعد وقد اصطلح على تسمية تلك الاقوام بالفراتيين الاوائل. وتمثل الطبقات الأثرية الاولى في اقدم المدن العراقية الجنوبية ، وهي طبقات دور العبيد ، بقايا استيطان الفراتيين الاوائل.

وسواء اكان السومريون أول من استوطن ارض جنوب العراق ام لا فمن المؤكد الان انهم اضطلعوا بدور رئيس في وضع اسس الحضارة العراقية القديمة التي نضجت وتبلورت في الالف الثالث قبل الميلاد. ومع ذلك فإن الباحثين مازالوا غير متفقين في الرأي حول الاصل الذي تحدر عنه السومريون والموطن الاول الذي جاءوا منه. ولقد ظهرت بشأن ذلك آراء ونظريات متباينة. وربما كان السبب في تباين الآراء حول اصل السومريين ان الدراسات اللغوية التي تمت على اللغة السومرية بينت بأنها لغة منفردة بنفسها اي انه لايمكن تصنيفها وارجاعها الى احدى العائلات اللغوية المعروفة الان ، ومن بعد يصعب الاستعانة بها لمعرفة هوية الاقوام التي تكلمت بها وموطنها الاول ، كما ثبت لدى الباحثين ، كما سبق واشرنا ، عدم جدوى دراسة الهياكل العظمية المكتشفة التي اشارت الى اختلاط عرقي من اقدم العصور، كما لايمكن الاستعانة بالسحن والملامح التي تظهر على تماثيل الاشخاص والمشاهده المنحوتة على الالواح الحجرية طالما كانت تتحكم فيها الطرز والمدارس الفنية السائدة في تلك الفترة.

وهكذا تباينت الآراء في اصل السومريين فمنهم من يرى أنهم جاءوا الى القسم الجنوبي من العراق من منطقة جبلية لذلك اقاموا معابدهم فوق مرتفعات اصطناعية هي الابراج المدرجة او الزقورات في حين يرى آخرون ان التشابه الحضاري بين حضارة السومريين وحضارة سكان بلاد ايران يشير الى ان السومريين جاءوا من تلك المناطق. وترى جماعة اخرى من الباحثين أن السومريين كانوا قد نزحوا أصلاً من وادي السند او جنوبي بلوجستان مستندين في ذلك الى التشابه الحضاري ايضاً والى غير ذلك من الآراء المتباينة عن اصل السومريين وموطنهم الاول. الا ان الرأي الاكثر قبولاً وانسجاماً مع مالدينا من ادلة آثارية ولغوية هو الرأي الذي جاء به الاستاذ المرحوم طه باقر وهو ان السومريين يمثلون احدى الجماعات المنحدرة من بعض الاقوام المحلية في وادي الرافدين في عصور ماقبل التأريخ البعيدة ، وانهم عرفوا باسمهم الخاص ، اي السومريين ، نسبة الى اسم الاقليم الذي استوطنوا فيه اخيراً في القسم الجنوبي من العراق ، أي ان التسمية لاحقة للاستيطان

ومشتقة من اسم موضح جغرافي ولا تحمل مدلولاً قومياً ، يؤيد هذا ان كثيراً من الاقوام التأريخية التي اشتهرت في وادي الرافدين واسهمت في تكوين حضارته واحداث تاريخه سميت باسم المواضع التي حلت فيها مثل الاكديين نسبة الى مدينة (اكد) او (اكادة) العاصمة التي اسسها سرجون الاكدي ، والبابليين نسبة الى مدينة بابل والآشوريين نسبة الى مدينة آشور على ما يرجح.

اما حدود بلاد سومر فيمكن القول أنها تمثل القسم الجنوبي من جنوب العراق وقد ضمت المدن السومرية كلاً من : اريدو (ابوشهرين) واور واوروك (الوركاء) وكلاّب ولارسا (السنكرة) ولجش (تل الهباء) وجرسُ (تلّو) ونينا (سرغل) واومّا وشروباك (تل فارة) وادب (بسمي) ونپر (نفّر) وغيرها.

أما اللغة السومرية فهي أقدم لغة مدونة معروفة حتى الآن كما أشرنا ، ليس في العراق فقط بل وفي العالم قاطبة طالما كانت الالواح الطينية التي ترقى بتأريخها الى دور الوركاء ودور جمدة نصر (العصر الشبيه بالكتابي) والتي دونت عليها بالعلامات الصورية بعض العبارات السومرية هي اقدم نماذج الكتابة المعروفة حتى الآن. فالمعروف ان السومريين هم اول من ابتدع وسيلة للتدوين في اواسط الالف الرابع قبل الميلاد دوّنوا بها لغتهم. ولابد أن كانت اللغة السومرية معروفة ومستخدمة في مدن جنوبي العراق ، اي في بلاد سومر ، من قبل أن تخترع الكتابة وتستخدم للتدوين بفترة من الزمن لانعرف طولها ، ثم بدأ تدوينها وغدت لغة البلاد الرسمية في مختلف المدن التي عاش فيها السومريون وظلت كذلك طوال عصور فجر السلالات (حدود ٣٠٠٠- ٢٤٠٠ ق.م) لاتنازعها لغة اخرى ، وقد دونت آلاف النصوص المسمارية باللغة السومرية في هذه الفترة. وعندما تأسست الدولة الاكدية عام ٢٣٧١ ق.م ، وكان مؤسسوها ينتمون الى الاقوام الجزرية الاكدية ويتكلمون اللغة الاكدية التي تختلف جذرياً عن اللغة السومرية ، بدأ استخدام اللغة الاكدية لغة رسمية في بلاد سومر واكد الى جانب اللغة السومرية ، وفي عصر سلالة اور الثالثة (٢١١٣ - ٢٠٠٦ ق.م) ، وهو عصر الانتعاش السومري الجديد كما سيأتي ذكر ذلك فيما بعد ، عادت اللغة السومرية واحتلت مكان الصدارة ثانية واصبحت اللغة الرسمية الوحيدة في البلاد ، الا ان نهاية سلالة اور الثالثة السياسية بعد فترة وجيزة سرعان ما افقدها هذا المركز. وهكذا بدأت اللغة السومرية بالافول وبدأ استخدامها يتقلص تدريجياً على حساب انتشار واتساع استخدام اللغة الاكدية ، وكان التحول الى اللغة الاكدية في مختلف المجالات الرسمية والخاصة تدريجياً وبطيئاً. ومع ذلك ، وعلى الرغم من

غياب السومريين من على المسرح السياسي نهائياً فان اللغة السومرية ظلت تستخدم لتدوين بعض النصوص الدينية والعلمية المهمة بل انها اكتسبت صفة مقدسة نوعا ما ، وكان على الكتبة ان يتعلموا اللغة السومرية الى جانب اللغة الاكدية خاصة وإن كثيراً من المفردات والعبارات والمصطلحات السومرية دخلت في اللغة الاكدية ، فكان على الكتبة ان يؤلفوا المعاجم اللغوية ثنائية اللغة التي تبين العلامات المسمارية ومعانيها في اللغة السومرية وما يقابلها في اللغة الاكدية ، كما دونت بعض النصوص المهمة باللغتين السومرية والاكدية وظل الكتبة يستنسخون النصوص السومرية المهمة ، ولاسيما الدينية والعلمية حتى من بعد زوال استخدامها لغة رسمية ولغة تخاطب باكثر من الف سنة. ثم بطل استخدام اللغة السومرية نهائياً ، وانطمرت النصوص السومرية تحت الاتربة في المواقع والمدن الاثرية القديمة وظلت في سبات عميق لاكثر من الفي سنة حتى آن لها ان تكتشف ثانية في القرن الماضي وبدأت محاولات الباحثين في قراءة النصوص المسمارية المكتشفة وتبين لهم بعد جهود مضنية استمرت لعشرات السنين ان النصوص المسمارية المكتشفة في بلاد بابل وآشور مدونة اما باللغة السومرية او اللغة الاكدية وهما اللغتان الرئيستان اللتان استخدمتا في العراق القديم منذ مطلع الالف الثالث قبل الميلاد فصاعداً.

اثبتت الدراسات اللغوية التي تمت على النصوص السومرية أن اللغة السومرية (بالسومرية eme. ku. ki. en. ge. ra وبالاكدية lišān Šumeri m) ، لغة منفردة لاتشبه اللغة الاكدية ولا غيرها من اللغات المحلية المعاصرة او التالية لها سواء في التراكيب ام القواعد ام المفردات ام حتى الاصوات ، فهي لاتنتمي الى أي من العائلات اللغوية المعروفة على الرغم من وجود بعض اوجه شبه بينها وبين عدد من اللغات المعروفة كاللغة التركية والهنغارية والقوقاسية ، الا ان هذا الشبة لايرقى الى درجة القرابة او الانتماء الى عائلة لغوية واحدة. وربما كانت اللغة السومرية تنتمي الى عائلة لغوية قديمة انقرضت جميع فروعها ، اي لغاتها ، من مضمار الاستخدام ، باستثناء اللغة السومرية ، وذلك من قبل ان تخترع الكتابة كوسيلة للتدوين ولحفظ اللغات للاجيال التالية. ولذلك فلا سبيل الى معرفة افراد تلك العائلة اللغوية وخصائصها لعدم توفر الادلة المادية عنها.

واللغة السومرية ، على كل حال ، لغة ملصقة Agglutinative ، ويقصد بظاهرة الالصاق فيها قابليتها على تكوين الفاظ ذات معانٍ جديدة وذلك بلصق كلمتين او اكثر مع بعضها البعض لتكوين كلمة جديدة. مثال ذلك كلمة لوجال التي تعني «ملك»

مؤلفة من لو بمعنى رجل وجال بمعنى عظيم فيصبح المعنى بعد الالصاق «الرجل العظيم» اي «الملك».

واللغة السومرية لغة غير قابلة للتصريف، اي انها ليست من اللغات المعربة كاللغة العربية، وجذورها بصورة عامة لاتتغير وتتألف من مقطع واحد، وليس فيها اصوات حلقية او مفخمة (كالعين والغين والقاف والطاء والضاد... الخ)، ولا تفرق السومرية بين المذكر والمؤنث قواعدياً الا اذا كانت طبيعة الاسم مذكرة أو مؤنثة، الا انها تميز بين العاقل وغير العاقل، وليس فيها صيغة خاصة للمثنى.

لقد وصلت الينا اعداد كبيرة من النصوص السومرية من الفترات المختلفة تضمنت مختلف المواضيع كالوثائق الادارية والاقتصادية والنصوص الملكية والتآليف الادبية كالترانيم والتراتيل والمراثي والرقى والصوات والقوانين والامثال والاساطير... الخ. ولما طرأ على اللغة السومرية من تغييرات عبر العصور التي مرّت بها واختلاف اللغة المدونة حسب الفترات الزمنية التي تعود اليها النصوص المكتشفة، فقد ميّز الباحثون عدداً من المراحل التي مرت بها اللغة السومرية استناداً الى النصوص المكتشفة، كما ميّزوا عدداً من اللهجات السومرية التي ورد ذكرها في النصوص منها اللهجة الاعتيادية، وهي اهم اللهجات، واللهجة الكبيرة أو العالية واللهجة المنتخبة او الشاذة ولهجة السفّانة ولهجة رعاة الغنم ولهجة الكهنة. أما لهجة النساء eme. sal، او لهجة العراك (لِشان صيلِتِ lišān ṣaliti) فقد كانت تستخدم غالباً عند الحديث عن النساء ثم اصبحت لهجة الكتابات الادبية.[1]

٣- الاقوام الجزرية ولغاتها:

مصطلح الاقوام الجزرية مصطلح حديث الاستخدام نسبياً، وقد استخدم هنا بديلاً عن مصطلح الاقوام السامية للدلالة على جميع الاقوام التي خرجت من شبه الجزيرة العربية على مر العصور القديمة المتالية على شكل هجرات كبيرة او صغيرة وبشكل سلمي غالباً واستوطنت في البوادي المجاورة على الاطراف الشمالية من شبه الجزيرة العربية

---

(١) حول اللغة السومرية، تأريخها وقواعدها انظر: فوزي رشيد، قواعد اللغة السومرية، بغداد، ١٩٧٢ وكذلك عامر سليمان، اللغة الاكدية، موصل، ١٩٩١، ص ٢٨- ٣٦.

وانتشرت في كل من بلاد وادي الرافدين وبلاد الشام . اما في بلاد وادي الرافدين ، فيؤلف الجزريون الذين بدأ قدومهم الى العراق واستيطانهم في بعض اجزائه منذ عصور قبل التاريخ واستمروا بهجرتهم اليه عبر العصور التأريخية القديمة ، القسم الاعظم من الاقوام العراقية القديمة في الالفين الثاني والاول قبل الميلاد . وقد اطلق على المجموعات او الهجرات الكبرى التي استقرت في العراق واثرت في تأريخه تأثيراً واضحاً تسميات مختلفة نسبة الى موضع استقرارها او طريق مجيئها او اسم القبيلة الرئيسة فيها . فاذا استثنينا الاقوام الجزرية التي دخلت الى القسم الجنوبي من العراق في عصور قبل التأريخ ، كما سبق ان أشرنا ، وكونت القسم الاكبر مما عرف باسم الفراتيين الاوائل واستثنينا المجموعات الجزرية الاخرى التي لابد أن هاجرت الى القسم الوسطي والشمالي من العراق في عصور قبل التاريخ الا اننا لانعرف عنها اي شيء لان الكتابة لم تكن معروفة لتنقل الينا لغتها واخبارها ، فان الاقوام الجزرية الاخرى تضم كلاً من الاقوام الاكدية ، نسبة الى مدينة اكد ، والامورية ، بمعنى الغربية ، نسبة الى طريق مجيئها الى ارض العراق عن طريق الغرب وهي ذات الاقوام التي سميت من بعد استقرارها في بلاد بابل باسم البابليين نسبة الى مدينة بابل وفي بلاد آشور باسم الاشوريين نسبة الى مدينة او بلاد آشور. اما الأقوام الجزرية التي اسست الدولة البابلية الحديثة فقد سميت بالاقوام الكلدية نسبة اسم القبيلة الرئيسة وهي قبيلة كلدو، واخيراً الاقوام الارامية . وتمثل القبائل العربية آخر المجموعات الكبرى التي استقرت في ارض الرافدين منذ عصور مبكرة ومازالت بعض القبائل العربية المتنقلة تتوغل الى داخل الاراضي العراقية وتستقر في القرى والمدن الحدودية . وهكذا كانت القبائل الجزرية الوافدة الى العراق في تزايد مستمر يقابل ذلك تناقص في عدد السكان من غير الجزريين، كالاقوام السومرية وغيرها ، وغدا الجزريون يؤلفون القسم الاعظم من السكان ، وكانت شبه الجزيرة العربية المعين الدائم الذي رفد ارض الرافدين بالعنصر البشري منذ اقدم العصور. ومن الملاحظ ان الاقوام الجزرية التي تتابعت في هجرتها الى ارض الرافدين وعلى الرغم من اختلاف الهجرات وتباين الفترات كانت تندمج بسهولة مع الاقوام الاخرى الموجودة في العراق وتنصهر في بودقتها وهو امر ليس بالغريب طالما كانت جميعها تنتمي الى اصل واحد وتشترك في العديد من الخصائص والصفات الفكرية وفي العادات والتقاليد واللغة وغيرها . اما في بلاد الشام ، فتمثل الاقوام الجزرية الاقوام الكنعانية والامورية والارامية والعربية اهم الاقوام التي استوطنت في بلاد الشام منذ اقدم العصور والى الان .

وتختلف الاقوام الجزرية عن الاقوام الاخرى التي كانت، ومازال بعضها، تقطن في الجهات الشرقية والشمالية الشرقية والشمالية من العراق، اي في ايران واسيا الصغرى، حيث تنتمي معظم الاقوام الايرانية والاقوام الجبلية وكذلك غالبية الاقوام التي استقرت في اسيا الصغرى في العصور القديمة الى مجموعة الاقوام التي تسمى بالاقوام الهندية – الاوربية. التي انتشرت في كل من اوروبا واسيا الى تخوم الهند، ومن هنا جاءت التسمية، وتؤلف لغاتها ايضاً على اختلافها ما يعرف بعائلة اللغات الهندية – الاوربية، وهي اكبر العائلات اللغوية المعروفة وتليها من حيث الأهمية والانتشار عائلة اللغات الجزرية (السامية).

تشترك الاقوام الجزرية جميعها، سواء تلك التي عاشت في العصور القديمة كالاقوام الاكدية والبابلية والاشورية والارامية، ام التي لاتزال تعيش في المنطقة واهمها القبائل العربية، بعدد من الخصائص والصفات اللغوية والجسمية والفكرية والحضارية تميزها عن غيرها من الاقوام وتؤكد انتماءها الى اصل مشترك واحد. واكثر ماتظهر اوجه التشابه بين الاقوام الجزرية في الناحية اللغوية حيث تتشابه اللغات الجزرية في العديد من الخصائص اللغوية سواء من حيث المفردات او التراكيب او الاساليب النحوية والادبية او الاصوات والقواعد والى غير ذلك. ولعل ابرز تلك الخصائص:

١- ان اصول معظم المفردات اللغوية فيها ترجع الى جذر ثلاثي وان كان هناك اصول ثنائية او رباعية الجذر وتشتق من هذا الاصل البسيط صيغ وصور مختلفة فيها معنى الاصل وزيادة.
٢- ان اللغات الجزرية تعتمد اعتماداً كبيراً على الاصوات الصامتة لا على الاصوات المتحركة، اي ان المعنى الرئيس للكلمة يرتبط بالاصوات الصامتة فيها، اما الاصوات المتحركة فانها تحدد المعنى المطلوب.
٣- تضم اللغات الجزرية مجموعة من الاصوات الصامتة لاتوجد عادة في غيرها من اللغات وهي الاصوات الحلقية (العين والغين والحاء والهمزة والهاء) واصوات الأطباق (القاف والطاء والضاد والظاء).
٤- ان الفعل في هذه اللغات محدود الزمن فهو اما ماضٍ او حاضر.
٥- ليس في اللغات الجزرية إلا جنسان هما المذكر والمؤنث.
٦- هناك ظاهرة غريبة في اللغات الجزرية هي علاقة العدد بالمعدود العكسية من الثلاثة الى العشرة، اي ان العدد يذكر مع المؤنث ويؤنث مع المذكر.

٧- تتشابه اللغات الجزرية بصورة عامة بالاساليب النحوية ، ومن ذلك تصريف الافعال وميزاتها واشتقاق الاسماء وتتشابه في مفردات اللغة الاساسية[١] .

اما بالنسبة الى الموطن الاول الذي تحدرت منه الاقوام الجزرية اهو شبه الجزيرة العربية ام غيرها ، فقد ظهرت بشأن ذلك اراء عدة ومتباينة إلا أن معظم الباحثين يتفقون الان على أن شبه الجزيرة العربية هي الموطن الاول لجميع الاقوام الجزرية ومنها خرجت هجرات متتابعة منذ عصور قبل التاريخ استوطنت في اطراف الجزيرة في بوادي الشام والعراق وبوادي مابين النهرين العليا ثم تغلغلت الى المناطق الاخصب مثل وادي الرافدين وبلاد الشام وهاجرت بعضها الى وادي النيل. وكانت هجرة تلك الاقوام نتيجة طبيعية لتغير مناخ المنطقة من بعد العصور الحجرية القديمة وحلول الجفاف في المنطقة وقلة الموارد مما تعذر معه العيش في شبه الجزيرة العربية فاضطر السكان الى الهجرة[٢] .

وفيما يتعلق بتسمية الاقوام التي خرجت من شبه الجزيرة العربية وانتشرت في وادي الرافدين وبلاد الشام بالاقوام الجزرية وتسمية لغاتها باللغات الجزرية ، فهي تسمية حديثة كما سبق واشرنا حيث كانت هذه الاقوام تسمى بالاقوام السامية ولغاتها باللغات السامية، وكان المستشرق الالماني شلوتزر هو اول من استخدم مصطلح ساميين ولغات سامية للدلالة على هذه المجموعة من الاقوام وعلى لغاتها وذلك عام ١٧٨١م مقتبساً التسمية مما ورد في كتاب العهد القديم (سفر التكوين –الاصحاح العاشر) عن انساب سام بن نوح ، وقد شاعت التسمية لسهولتها ومطابقتها لما ورد في كتاب العهد القديم ، كتاب اليهود المقدس. الا ان الدراسات الحديثة بينت عدم دقة هذه التسمية من الناحية التأريخية واللغوية لذلك فقد اتجه الرأي الان ولاسيما بين الباحثين العرب من العراقيين الى ايجاد تسمية بديلة اكثر دقة ، وعرضت اراء عدة منها تسميتها باقوام الجزيرة العربية[٣] او الاقوام العربية القديمة ولغاتها باللغات العربية القديمة[٤] والاقوام العربية او الاقوام الجزرية[٥] . وعلى الرغم من اننا نفضل تسمية هذه الاقوام بالاقوام العربية القديمة الا ان

١- حول تفصيل هذه الخصائص انظر : محمود حجازي ، علم اللغة العربية ، الكويت ١٩٧٩ ص ١٣٩–١٥٠ ورمضان عبدالتواب ، فصول في فقه اللغة العربية ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، ٣٠–٣١.

٢- انظر طه باقر، المقدمة ، ٦٦–٦٧.

٣- طه باقر، المقدمة ، ٦٥.

٤- عامر سليمان ، محاضرات في التأريخ القديم، موصل ، ١٩٧٨، ص ١٠٠.

٥- سامي سعيد الاحمد ، اللغات الجزرية ، بغداد ، ١٩٨٠ ، ص ٣.

شيوع تسمية الاقوام الجزرية الان واستخدامها من قبل اكثر الباحثين العراقيين دفعنا الى استخدامها هنا منعاً لاي ارباك او التباس(١) .

وقد قسّم الباحثون عائلة اللغات الجزرية الى ثلاثة فروع رئيسة نسبة الى أماكن انتشارها وهي :

أ- الفرع الشرقي ويتمثل باللغة الاكدية ولهجاتها البابلية والآشورية والتي انتشرت في وادي الرافدين والأقاليم المجاورة .

ب- الفرع الغربي ويضم جميع اللغات الجزرية التي انتشرت في بلاد الشام وضمت اللغة الكنعانية بفروعها الفينيقية والإبلية والعبرية والاوغاريتية والمؤابية كما ضمت اللغة الارامية بفرعيها الشرقي والغربي .

جـ- الفرع الجنوبي ويضم اللغة العربية الشمالية التي تسود فروعها ولهجاتها المختلفة الآن جميع الاقطار العربية ، واللغة العربية الجنوبية والتي ضمت المعينية والسبئية والحميرية والقتبانية ثم اللغات الحبشية(٢) .

اللغة الاكدية

فاللغة الاكدية اذن تمثل الفرع الشرقي من عائلة اللغات الجزرية فهي تنتمي بأصولها البعيدة الى ذات الشجرة والاصل الذي تنتمي اليه لغتنا العربية ، ولذلك كان التشابه بينها كبيراً وواضحاً ليس في المفردات اللغوية فحسب بل وفي التراكيب والصيغ والقواعد والاساليب والاصوات وغيرها من اوجه الشبه مع اختلافات في التفاصيل ، وربما كانت اوجه الشبه كبيرة لان اللغة الاكدية هي أقدم لغة جزرية مدونة حافظت على صيغتها الاصلية ، واللغة العربية الشمالية هي أكثر اللغات الجزرية محافظة على اصولها البعيدة وخصائصها العامة بحكم انتشارها في منطقة معزولة نسبياً ومحافظتها على خصائصها عبر العصور التالية بفضل القرآن الكريم . لذا فأن من الضروري دراسة اللغة الاكدية والتعرف عليها والالمام ببعض سماتها ، وتزداد هذه الاهمية بالنسبة الى العراقيين على وجه الخصوص لانها تمثل لغة الاجداد لاكثر من الفي سنة . إن دراسة اللغة الاكدية ستوضح لنا العديد من الظواهر والمفردات اللغوية العربية التي عجز عن توضيحها النحاة واللغويون العرب القدماء لعدم معرفتهم آنذاك باللغة الاكدية كما انها ستعيننا في بيان اصالة بعض الظواهر

---

(١) حول الآراء التي قيلت حول هذه التسمية والبدائل المقدمة : عامر سليمان ، اللغة الاكدية ، ٦٣ – ٦٨ .

(٢) حول تفصيل ذلك انظر: المصدر السابق ، ٦٩ – ٨٢ ، طه باقر، المقدمة ، ٦٩ – ٧٤ .

اللغوية في لغتنا العربية ، كظاهرة الاعراب مثلاً ، وتبين لنا اصول الوافر من المفردات اللغوية العربية الفصحى والعامية التي ظن البعض انها دخيلة على العربية او انها فارسية او رومية وبذلك ستتمكن من الرد بحزم على كل من حاول الدس على اللغة العربية واراد النيل منها ومن اصالتها بنسبة بعض ظواهرها ومفرداتها الى لغات اجنبية. وفضلاً عن ذلك ، فإن دراسة اللغة الاكدية ومعرفة مفرداتها ستوضح أن هناك كثيراً من المفردات اللغوية الدخيلة في لغتنا الفصحى والعامية والتي وصفت في المعاجم بأنها دخيلة من لغات اجنبية كالفارسية والرومية واليونانية ، هي من التراث اللغوي العراقي القديم ، أي انها ترجع باصولها الى اللغة السومرية او الاكدية الا انها انتقلت الى العربية اما بصورة مباشرة او عن طريق لغة اخرى ومن هذه المفردات اسماء معظم المدن والانهار القديمة واسماء أشهر السنة والوافر من المفردات اللغوية ذات العلاقة بالحرف والمهن الاساسية والآلات والادوات المستخدمة فيها. وقد انتقل بعض هذه المفردات عن طريق اليونانية او الفارسية الى اللغات الاوربية وما زال مستخدماً بها الى الآن كما سيأتي ذكر ذلك عند الحديث عن التراث العراقي القديم[1].

بعض قواعد اللغة الأكدية

الاسم في اللغة الاكدية ، كما هو في اللغة العربية ، يحدد معناه بالجنس والعدد وحالة الاعراب. فمن حيث الجنس يكون الاسم اما مذكراً او مؤنثاً وليس هناك جنس محايد كالذي نجده في اللغات الاوربية. وقد يكون الاسم في حالة المفرد او الجمع او المثنى ، وحالات الاعراب في الاسم ثلاث فاما أن يكون مرفوعاً بالضمة او منصوباً بالفتحة او مجروراً بالكسرة ، او بالالف والنون والياء والنون. وتتبع الصفة الموصوف من حيث التذكير والتأنيث وتتفق معه من حيث العدد وحالة الاعراب.

وفي اللغة الاكدية انواع عدة من الضمائر فهناك الضمائر الشخصية المنفصلة والضمائر الشخصية المتصلة بالاسم او الفعل وقد يكون الضمير في حالة الرفع او النصب او الجر.

اما الفعل في اللغة الاكدية ، فينقسم من حيث قوة احرفه الى صحيح ومعتل ومن حيث اصله الى ثلاثي ورباعي ومن حيث معناه الى متعد ولازم. وللفعل في اللغة

---

(١) انظر: عامر سليمان ، التراث اللغوي ، في حضارة العراق ، بغداد ، ١٩٨٥ ، ج ١ ، ٣٠٧- ٣١٧.

الاكدية اربع صيغ رئيسة هي الصيغة البسيطة والمضعفة والسببية وصيغة المبني للمجهول ويمكن اشتقاق صيغ ثانوية اخرى.

وللفعل في الاكدية اربعة أزمنة اضافة الى صيغة الامر هي المضارع (الحال) والماضي والتام والحالة المستمرة ويشبه الفعل في العربية من حيث التصريف.

وتتشابه المفردات الاكدية مع المفردات العربية تشابهاً كبيراً، فاصول وجذور معظم الافعال والمفردات اللغوية واحدة وإن اختلفت بعض الأصوات وفق قواعد صوتية معينة ومعروفة كتبدل الشين في الاكدية الى سين في العربية والضاد الى الصاد والغين الى خاء وسقوط الحروف الحلقية واحلال حروف العلة بدلاً منها، وقد يتغير معنى الكلمة تغيراً بسيطاً الا ان المعنى العام في اللغتين يبقى واحداً. وفيما يأتي قائمة منتخبة من بعض الكلمات:

الكلمة العربية	الكلمة الأكدية	
أبٌ	أبُ	abu
أمةٌ	أمةُ	amtu
بيتٌ	بيتُ	bītu
قضى ، دان	دانُ	danu
ذكر	زكارُ	zakaru
طاب	طابُ	ṭabu
ارسل ، طرد	طَرادُ	ṭarādu
لب ، قلب	لِبُّ	libbu
لسان ، لغة	لِشانُ	lišānu
مرض	مَراصُ	marāṣu
نفس ، حياة	نَپشتُ	napištu
حمى ، نصر	نَصارُ	naṣāru
نهر	نارُ	nâru
نور	نورُ	nuru
فم ، فو	پو	pû
مسك ، ضبط	صَباتُ	ṣabātu

صغير	صِحْرُ	sihru
كبير ، ربّي	رُبو	rabu
كتب ، سطر	شَطِارُ	sataru
سلم	شُلامُ	salamu[1]

تأريخ اللغة الاكدية :

وهي اللغة الرئيسة الثانية والاوفر اهمية بين اللغات العراقية القديمة ، استخدمت للتخاطب بين الاقوام الاكدية منذ فترة مبكرة ، ربما منذ مطلع الالف الثالث قبل الميلاد عندما حلّ الاكديون في اواسط العراق في المنطقة التي عرفت فيما بعد ببلاد أكد ، واصبحت لغة رسمية للبلاد عندما تأسست الدولة الاكدية في القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد (٢٣٧١ ق.م). وبدأ استخدام اللغة الاكدية يزداد تدريجياً بتوسع الدولة الاكدية وسيطرتها على مختلف انحاء العراق ، وكان صراعها قوياً مع اللغة السومرية التي ظلت بالاستخدام لغة للتخاطب والتدوين ولغة رسمية ، الا ان ذلك الصراع لم يكن صراعاً عرقياً او سياسياً . وكان لهذا الازدواج اللغوي نتائج مهمة ، فالى جانب تأثير كل من هاتين اللغتين في الاخرى تأثيراً واضحاً ، فقد كان لضرورة تعلم الكتبة لكلتا اللغتين اثره في تحفيزهم على تأليف القوائم والجداول بالعلامات المسمارية وما يقابلها من معانٍ باللغتين السومرية والاكدية وذلك لتعليم المبتدئين ومساعدة الكتبة ، وقد تطورت تلك القوائم والجداول الى معاجم لغوية تعد بحق اول واقدم المعاجم اللغوية المعروفة حتى الآن.

ظلت اللغة الاكدية ، ومعها اللغة السومرية ، لغة البلاد الرسمية ولغة التخاطب والتدوين حتى في فترة الغزو الكوتي لبلاد سومر واكد ، حيث لم يكن الكوتيون ، كما سنرى فيما بعد ، من اصحاب الحضارات المتطورة فكانوا يقلّدون السكان المحليين من سومريين واكديين في كل شيء فاستخدموا لغاتهم وكتبوا بكتابتهم المسمارية . ومنذ مطلع الالف الثاني قبل الميلاد (حدود ٢٠٠٠ ق.م) ، شاع استخدام اللغة الاكدية على نطاق اوسع وبدأت تزاحم اللغة السومرية وتزيحها من امامها في كثير من المجالات ، حتى كانت الغلبة والسيادة لها في معظم النصوص المدونة في العصر البابلي القديم (حدود ٢٠٠٠ — ١٦٠٠ ق.م) لتزايد عدد المتكلمين بها من البابليين والآشوريين. ولانها استخدمت في كل من بلاد بابل وبلاد آشور وعلى مدى مايقرب من الفي سنة او يزيد ، فقد ارتأى الباحثون التمييز بين لهجات المناطق المختلفة في العصور المتتابعة ، فميزوا فيها لهجتين رئيستين هما

(١) المصدر السابق ، ص ٣١٠

اللهجة البابلية واللهجة الآشورية ، وميزوا في كل من هاتين اللهجتين الرئيستين ثلاث لهجات أو أربعاً حسب العصور التأريخية التي ترقى اليها النصوص المسمارية المكتشفة ، فضمت اللهجة البابلية اربع فروع هي اللهجة البابلية القديمة والوسيطة والحديثة. والمتأخرة.أما اللهجة الآشورية فضمت اللهجة الآشورية القديمة والوسيطة والحديثة . اضافة الى ذلك ، كان هناك لهجات خاصة بمناطق معينة في فترات معينة مثل لهجة رسائل العمارنة في مصر ولهجة نصوص مملكة ماري في سوريا ولهجة نوزي شرقي دجلة.

والى جانب كل هذه اللهجات ، هناك اللهجة الاكدية القديمة ، وهي اولى اللهجات الاكدية المستخدمة في العراق وذلك في عهد الدولة الاكدية (٢٣٧١ - ٢٢٣٠ ق.م) ولأن اول النصوص المسمارية التي قرأها الباحثون المحدثون من الأوربيين كانت نصوصاً آشورية ، فقد سميّت لغتها باللغة الآشورية ، وعندما تبين بأن هناك نصوصاً كثيرة اخرى بابلية ، سميت لغتها باللغة البابلية ، الا ان الباحثين وجدوا ان التسمية المناسبة هي اللغة الاكدية ، باعتبار الاكديين اول من استخدم هذه اللغة في العراق ، وعدّوا الآشورية والبابلية لهجات متفرعة عن الفرع الاكدي. وظل العلم المختص بدراسة اللغة الاكدية يسمى بعلم الآشوريات.

ومع الاختلافات الموجودة بين اللهجات الاكدية المختلفة ، البابلية والآشورية ، فأنه من الممكن للباحث المتخصص في نصوص لهجة معينة ان يقرأ ويترجم نصوصاً معروفة بأي من اللهجات الاكدية الاخرى أن هو الم الماماً بسيطاً بخصائص تلك اللهجة ومميزاتها ، فالتباين الموجود بين اللهجات الاكدية هو بالتأكيد اقل بكثير من التباين الموجود بين اللهجات العربية العامية التي انتشرت في مساحة جغرافية اوسع بكثير من المساحة التي انتشرت فيها اللغة الاكدية ، كما انها ، اي اللهجات العربية ، تعرضت لمؤثرات داخلية وخارجية أجنبية كثيرة واحتكت بلغات أجنبية متعددة أثرت كثيراً في ابتعادها عن الاصل الذي تفرعت عنه.

ولم يقتصر استخدام اللغة الاكدية على بلاد بابل وآشور، بل انتشر استخدامها في فترات معينة في غالبية بلدان الشرق الادنى القديم ، فظهرت لهجات اكدية اخرى في تلك البلدان مثال ذلك بلاد عيلام ، جنوب غربي ايران ، واقليم كبدوكيا ، جنوب شرقي آسيا الصغرى ، وشمال سوريا في الالاخ وفي مملكة ماري على نهر الفرات وغيرها . وفي اواسط الالف الثاني قبل الميلاد شاع استخدام اللغة الاكدية بخطها المسماري على النطاق الرسمي حيث غدت اشبه باللغة الدبلوماسية التي كان يتفاهم بها الحكام الحثيون والميتانيون

والكشيون وغيرهم مع الفرعون المصري : يؤكد ذلك الرسائل الملكية المكتشفة في موقع العمارنة في مصر، وهي بقايا عاصمة الفرعون المصري اخناتون ، والمدونة بالخط المسماري واللغة الاكدية على الواح صغيرة من الطين ، ويبدو أنه كان لكل من هؤلاء الملوك والحكام مترجمين يعرفون قراءة اللغة الاكدية وكتابتها واستخدامها للتفاهم مع الملوك الآخرين الذين لايعرفون لغتهم المحلية وهو دليل واضح على عمق تأثير ورسوخ الحضارة العراقية القديمة خارج حدود بلاد بابل وآشور الاصلية.

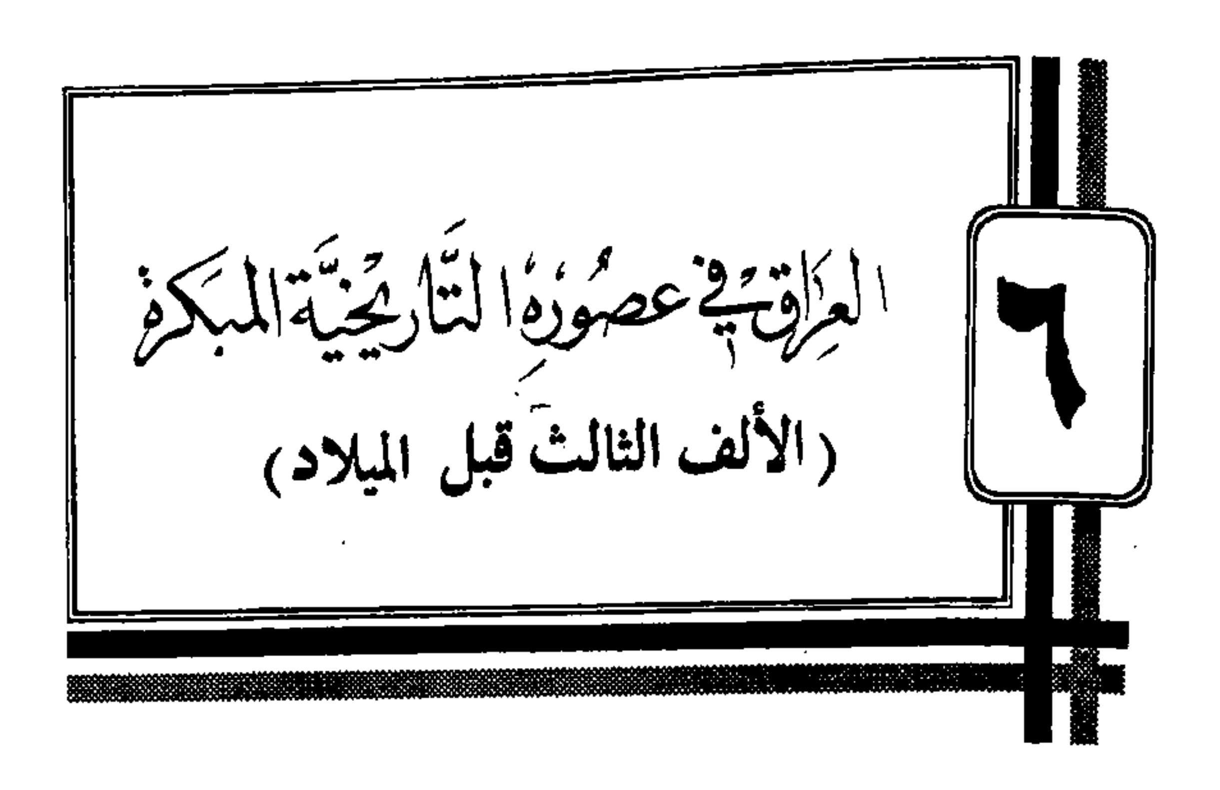
٤ - اقوام اخرى

اضافة الى الاقوام السومرية والاقوام الجزرية التي استقرت في العراق في العصور التأريخية واستخدمت لغاتها السومرية والأكدية بلهجاتها المختلفة ، فقد دخل العراق اقوام كثيرة اجنبية قادمة بالدرجة الاولى وعن طريق الغزو من الجهات الشرقية والشمالية الشرقية. فمنذ اقدم العصور التأريخية نقرأ في جداول الملوك السومريين وفي غيرها من النصوص السومرية والاكدية عن غزو الاقوام الكوتية لبلاد سومر واكد وسيطرتها على الاوضاع السياسية فيها لفترة تناهز المائة سنة ، والكوتيون من الاقوام القبلية الهمجية القادمة من المناطق الجبلية الى الشرق من بلاد سومر واكد. وفي حدود ١٥٩٥ ق.م. هجم الجيش الحثي على بلاد بابل قادماً من آسيا الصغرى ماراً بسوريا، وانهى حكم اخر ملوك سلالة بابل الاولى ثم عاد وانسحب وفسح المجال للاقوام الكشية ، وهي الاخرى قبائل جبلية جاءت من منطقة جبال زاجروس ، لاحتلال بلاد بابل ، وقد تم لها ذلك وظلت تحكم في بلاد بابل لاكثر من اربعمائة سنة وفي هذه الفترة احتلت الاقوام الحورية اجزاء كبيرة من بلاد آشور وسيطرت عليها لمدة مائة سنة تقريباً في حين تغلغلت بعض الاقوام الحورية الاخرى في الجهات الشرقية من بلاد آشور في منطقة كركوك (راجعًا قديماً) واثرت في حياة السكان فيها ، وبعد سقوط بابل عام ٥٣٩ ق.م. ونهاية الحكم الوطني في العراق ، وقع العراق ، بلاد بابل وآشور، ولفترة طويلة جداً تحت الاحتلال الاجنبي الفارسي الاخميني والمقدوني والسلوقي والفرثي والساساني بالتعاقب (من ٥٣٩ ق.م- ٦٣٧م) الى أن تم تحرير العراق وعاد اليه ثانية حكمه الوطني ودخل في حظيرة الاسلام. كما كان للآراميين دور كبير ووجود واضح ولاسيما خلال الالف الاول قبل الميلاد على اطراف بلاد آشور الغربية ، وفي الوقت نفسه كانت القبائل العربية تنتشر في الجهات القريبة من العراق وتستوطن في بعض المدن مثل مدينة الحضر وهكذا كان لطبيعة ارض العراق الجغرافية وعدم وجود حواجز طبيعية

تمنع توغل الاقوام وقيامها بالغزو او الهجرة ، اثر كبير في التركيب السكاني وفي دخول اقوام عدة الى ارض الرافدين الا انها لم تكن مؤثرة تأثيراً كبيراً حيث كانت غالبية السكان من الاقوام السومرية والجزرية ، لذا كانت اللغات السائدة هي اللغات السومرية والاكدية في الالف الثالث والثاني قبل الميلاد ثم تفردت اللغة الاكدية بلهجاتها البابلية والآشورية . أما لغات الاقوام الاجنبية التي غزت العراق ، فقد كان تأثيرها محدوداً وبسيطاً . فالملاحظ ان معظم الاقوام التي قدمت من الجهات الشرقية والشمالية الشرقية من العراق كانت اقل حضارة من سكان وادي الرافدين ، لذا كان دورها الحضاري محدوداً جداً حتى في الحالات التي سيطرت فيها على الحكم في العراق ، اوعلى الحكم في اجزاء مهمة منه ، بل ان الملاحظ ان تلك الاقوام كانت تندمج بالحضارة المحلية وتعيش في ظلها دون محاولة تغييرها على الرغم من أنها كانت هي الغالبه والمسيطرة على الاوضاع السياسية ، ويبدو ان ذلك كان امراً طبيعياً طالما كانت حضارة العراق القديم اكثر تقدماً وأصالة واعمق رسوخاً في النفوس . وكان من جملة العناصر الحضارية الكثيرة التي اخذتها الاقوام الغازية والمحتلّة عن العراقيين القدماء هي اللغة والكتابة ، فلم تدون لغتهم ولم تستخدم الا في نطاق ضيق جداً لذا لم نعثر على نصوص مدونة بلغات تلك الاقوام الى درجة اننا لانعرف الآن اي شيء عن لغة الكوتيين او لغة الكشيين مثلاً . وفي الالف الاول قبل الميلاد ، استخدمت اللغة الفارسية واللغة اليونانية ولكن على نطاق ضيق ايضاً وفي دائرة المتنفذين والحكام ثم شاع استخدام اللغة الارامية ، وهي لغة ترجع باصولها الى عائلة اللغات الجزرية ، وقد لقيت ترحيباً واسعاً لانها استخدمت خطاً ابجدياً بسيطاً في تدوينها على عكس الخط المسماري الصعب ذي العلامات الكثيرة . اما اللغة العربية ، لغة القبائل العربية المنتشرة في انحاء العراق ولاسيما في جهاته الغربية ، فقد ظلت لغة تخاطب وتفاهم محلية الا انها لم تجد طريقها للتدوين الا في فترة متأخرة نسبياً .[1]

---

(١) حول تفصيل ذلك انظر: عامر سليمان ، اللغة الأكدية ، ص ٤١- ٤٢ .



عصر فجر السلالات Early Dynastic Period

اعقب العصر الشبيه بالكتابي الذي شهد طلائع الحضارة الناضجة وبداية استخدام الكتابة عصر اصطلح على تسميته بعصر فجر السلالات Early Dynastic Period ، اشارة الى السلالات الاولى المعروفة التي حكمت في القسم الجنوبي من العراق ، وهو يمثل اولى العصور التأريخية الفعلية حيث زاد استخدام الكتابة فيه ودونت بواسطتها نصوص كثيرة ومهمة . ومن الباحثين من عرّف العصر نسبة الى الوضع السياسي العام الذي ساد المنطقة في هذه الفترة والذي تميز بوجود عدد من دول المدن السومرية او السلالات السومرية التي كانت كلاً منها تحكم في مدينة من المدن السومرية الرئيسة فأطلق عليه اسم عصر دول المدن السومرية Sumerian City States ، كما سُمّي العصر ايضاً بعصر ماقبل سرجون Pre – Sargonic Period ، لأهمية حكم سرجون الذي يؤشر نهاية هذا العصر. وهناك تسميات اخرى للعصر اقل شيوعاً منها (عصر اللبن المستوي المحدّب) – Plano Convex bricks اشارة الى استخدام نوع خاص من اللبن في هذا العصر فقط ، كما سمّاه البعض بعصر لجش ، نسبة الى احدى دول المدن السومرية المهمة التي قامت فيها

سلالة قوية هي سلالة لجش الاولى شغلت الفترة الأخيرة من العصر وأظهرت التنقيبات الأثرية آثارها ونصوصها المسمارية المهمة.[1]

وقد يثار التساؤل حول اسباب استخدام هذه التسميات المختلفة من قبل الباحثين وعدم الاتفاق على اسم واحد، كما هي الحال بالنسبة للعصور الأخرى التالية، ويبدو ان الجواب على ذلك ان هذا العصر على الرغم من طول فترته وازدهار حضارته وأهميته بالنسبة لتأريخ العراق القديم، الا أنه كان عصراً يكتنفه الغموض وتقل عنه المصادر الموثوقة من جهة كما اتسمت المنطقة خلاله بالتجزئة والانقسام وتعدد مراكز القوى ولم تظهر فيه دولة قوية موحدة كي يسمى العصر باسمها من جهة ثانية. وفضلاً عن ذلك، وعلى الرغم من أن العصر يمثل بداية العصور التأريخية الفعلية فإنه لم يشهد تغييرات حضارية جذرية او ابتكارات مهمة كابتكار صناعة الفخار او استخدام المعادن او اختراع الكتابة او غير ذلك مما قد يعطيه صفة خاصة يختلف فيها عن العصر السابق او اللاحق.

وكما اختلف الباحثون في تسمية العصر، كذلك اختلفوا في تحديد بدايته وللأسباب نفسها التي ذكرناها. فنهم من الحق الطور الأول من هذا العصر بالعصر الشبيه بالكتابي السابق له، ومنهم من عد بدايته بعد دور جمدة نصر مباشرة. وهكذا حددت بداية العصر بحدود عام ٢٩٠٠ ق.م او ٢٨٥٠ ق.م. او ٢٨٠٠ ق.م، في حين يتفق الباحثون على جعل نهايته عند قيام الدولة الأكدية عام ٢٣٧١ ق.م (حسب التسلسل التأريخي المتبع في هذا الكتاب).

ولطول الفترة الزمنية التي شغلها العصر (اكثر من اربعة قرون)، فقد تعارف اكثر الباحثين على تقسيمها الى ثلاثة اطوار او عصور ثانوية استنادا الى بعض الخصائص والسمات الحضارية التي اتسمت بها الآثار المكتشفة في مدن ومواقع هذا العصر وخاصة اشكال وطرز الأواني الفخارية والأختام الاسطوانية وما تحمله من مشاهد والطرز المعمارية

(١) انظر طه باقر، المقدمة، ص٢٥٢ - ٢٥٣.

الخاصة بالمعابد والقصور وغيرها من الطرز الفنية التي ميّزت فن النحت البارز والمدور والنقش على الحجر او المعدن واشكال واحجام الرقم الطينية وغيرها من الخصائص الحضارية. وقد عرفت الاطوار الثلاثة بعصر فجر السلالات الأول والثاني والثالث على التوالي وخصص لكل منها مايقرب من ثلث المدة الكلية المخصصة لعصر فجر السلالات بكامله.

مصادر معلوماتنا عن عصر فجر السلالات :

ان معلوماتنا عن عصر فجر السلالات ماتزال ، كما اشرنا ، قليلة نسبياً ولا تتناسب وطول فترة واهمية العصر من الناحيتين التأريخية والحضارية وبصورة خاصة بالنسبة لتأريخ السومريين والعناصر الحضارية التي ازدهرت في عهدهم ، فالمعروف ان اول ظهور السومريين عنصراً رئيساً في المنطقة على مسرح الأحداث السياسية والحضارية كان في هذا العصر. وقد امدتنا التنقيبات الاثرية التي اجريت في معظم المدن السومرية في بلاد سومر وبعض المدن والمواقع خارج بلاد سومر، كمواقع منطقة ديالى وبلاد آشور، بمعلومات وافية عن المنجزات الحضارية التي حققها السومريون خلال هذا العصر مكّنت الباحثين من رسم صورة عامة وتقريبية عن الحياة السومرية في عصر فجر السلالات ، الا ان معظم مالدينا من معلومات يخص الجانب المادّي من الحياة دون الجانب الفكري والثقافي نظراً لقلّة النصوص المسمارية المكتشفة والتي قد تعكس لنا هذا الجانب من الحياة. ومع اننا حصلنا على عدد كبير من النصوص المسمارية من هذا العصر فإن معظمها كان ذا طابع اقتصادي او مدرسي ولا يعكس لنا سوى جوانب محددة من الحياة انذاك.

أما معلوماتنا عن الوضع السياسي في بلاد سومر في هذا العصر وعن تأريخ السلالات والحكام والملوك الذين تتابعوا على حكم المدن السومرية ، فستمدة بالدرجة الاولى من نصوص مسمارية دونت في فترة لاحقة ، اي انها دونت بعد عصر فجر السلالات بعدة قرون ، وتأتي في مقدمتها مايعرف عادة بجداول او اثبات الملوك السومريين التي دونت اقدم نسخة منها في عهد سلالة اور الثالثة (٢١١٣ – ٢٠٠٦ ق . م) والتي سبق وتحدثنا عنها في الفصل السابق ، والنص المعروف بنص تمّال Tummal الذي دوّن هو الآخر في فترة مقاربة من تأريخ تدوين جداول الملوك. اضافة الى ذلك ، فإننا نمتلك نصوصاً مسمارية معاصرة على درجة كبيرة من الأهمية وتخص الفترة الأخيرة من عصر فجر السلالات تلك هي النصوص السومرية المكتشفة في مدينة لجش والتي تعود الى عهد سلالة لجش الاولى

والتي زودتنا بمعلومات وافية عن هذه السلالة التي لم تذكر اصلاً في جداول الملوك السومريين لأسباب غير معروفة لدينا بعد.

ومع اهمية جداول الملوك السومريين بالنسبة لتأريخ هذه الفترة السياسي، فإن طبيعة هذه الجداول ووقت تدوينها وما يؤخذ عليها من مآخذ، كما سبق أن اشرنا الى ذلك، يقلل من اهميتها. وفضلاً عن ذلك، فإن ماجاء فيها من معلومات عن تأريخ السلالات كان مقتضباً ويكتنفه الغموض والمبالغات ولا يتضمن سوى اسماء عدد من الحكام وسني حكم كل منهم. ومع ذلك، تبقى جداول الملوك مصدرنا الوحيد احياناً عن بعض السلالات التي حكمت في بلاد سومر ولاسيما في الفترات المبكرة من عصر فجر السلالات. اما نص تمّال فإن ماجاء فيه من معلومات تأريخية تكمل احياناً ماورد في جداول الملوك وتملأ النقص الموجود فيها بخصوص اسماء بعض الحكام الذين حكموا في مدينة نفر، وكان نص تمّال قد دوّن في مطلع الالف الثاني قبل الميلاد وتضمن اسماء عدد من حكام عصر فجر السلالات وازمنة حكم بعضهم بالنسبة لبعض من الذين قاموا بتجديد معبد تمّال في نفر.(1)

ويعد نص انتمينا حاكم مدينة لجش الذي حكم في القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد من اقدم المدونات التأريخية المعروفة لدينا حتى الآن واكثرها اهمية حيث أنه يسبق جداول الملوك السومريين عدة قرون من حيث تأريخ التدوين. ويروى لنا هذا النص تأريخ الصراع الذي خاضته مدينة لجش ضد مدينة اوما المجاورة لها لما لايقل عن ثلاثة اجيال الى ان تم عقد الصلح بينها والذي توّج بابرام معاهدة، تعد الاولى من نوعها، ثبتت الحدود بين المدينتين.

الأوضاع السياسية والعامة في عصر فجر السلالات:

تؤكد التنقيبات الأثرية التي اجريت في مدن العراق المختلفة والتي ضمت آثاراً من عصر فجر السلالات وكذلك النصوص المسمارية المعاصرة للعصر أو المتأخرة عنه على الرغم من قلّتها، ان القسم الجنوبي من العراق كان ينعم في هذه الفترة بنوع من الازدهار الحضاري والرفاه الاقتصادي كما يستدل على ذلك من نشاط الحركة العمرانية واتساع ونمو المدن التي كانت قد نشأت منذ العصر الشبيه بالكتابي حتى غدت مراكز حضارية مهمة. وقد رافق الازدهار الحضاري والنشاط العمراني زيادة ملحوظة في كثافة سكان المدن

---

(1) انظر. Kramer, S.N., The Sumerian Chicago, 1963, p.46

ونشاط في الزراعة والتجارة ، ولاسيما الخارجية ، وحركة دائبة في تنظيم مشاريع الري التي اعتمدت عليها الزراعة في بلاد سومر واقامة السدود اللازمة لدرء اخطار الفيضانات السنوية ، وقد تطلب كل ذلك جهوداً كبيرة وتعاوناً مستمراً من السكان فكان ان تطورت الادارات المحلية التي كانت تشرف على شؤون المدينة الى حكومات منظمة يشرف على ادارة كل منها مجلس المدينة العام المؤلف من مجلسين احدهما خاص بالمسنين من سكان المدينة وضم الآخر شباب المدينة من القادرين على حمل السلاح . ويبدو ان المجلس العام كان ينتخب احد اعضائه ويخوله الصلاحيات اللازمة لادارة شؤون المدينة وكان هذا المنتخب يسمى اين En ، اي السيد . وكان هذا النظام من ادارة المدن هو النواة الذي انبثقت عنه دول المدن السومرية حيث اصبحت كل مدينة رئيسة من المدن الكثيرة المنتشرة في بلاد سومر مركزاً لدولة صغيرة تضم المدن الصغيرة والقرى والارياف والأراضي الزراعية المحيطة بالمدينة الرئيسة ، وقد اصطلح الباحثون المحدثون على تسمية تلك الدول الصغيرة بدول المدن السومرية . وكان لكل دولة حدودها الاقليمية ومصادر مياهها الخاصة بها وحاكمها المستقل عن غيره ونظمها وقوانينها . كما كان لكل دولة معبدها الرئيس والهها الحامي ونظامها الكهنوتي ، وكان للمعبد وكهنته دور كبير في حياة المدينة الاقتصادية والثقافية الى جانب دوره في الحياة الدينية . وتشير الأدلة المتوفرة الى وجود عدد من دول المدن هذه في آن واحد ، اي ان بعضها كان يعاصر بعضها الآخر احياناً ، وقد يزيد عدد دول المدن القائمة في فترة معينة عن عشر دول ، وان كانت جداول الملوك السومريين قد ذكرت لنا اسماء المدن والسلالات التي حكمت في هذا العصر على نحو متعاقب وكأنَّ بلاد سومر كلها كانت تحت حكم سلالة واحدة وان الحكم لاينتقل الى السلالة الاخرى الا بعد القضاء على السلالة الحاكمة بقوة السلاح ، على حد تعبير جداول الملوك.

وتشير الأدلة الآثارية المتوافرة ، ولاسيما من دولة لجش ، ان المدن الرئيسة في بلاد سومر والتي كانت مراكز لدول صغيرة كانت في نزاع وحروب مستمرة . ويبدو ان من اسباب تلك الحروب اضافة الى الرغبة الذاتية الكامنة عند حكام المدن للاستحواذ على المزيد من الأراضي ومصادر المياه ، هو ضرورة السيطرة على الطرق التجارية ، عماد الحياة الاقتصادية من بعد الزراعة . كما كان هناك اتجاه سياسي عام غلب على سياسة الحكام والملوك البارزين الذين شعروا بانفسهم القوة يهدف الى ضم بعض الدول والمدن الصغيرة الى الدولة الأكبر والأقوى لزيادة قوتها وجعلها قادرة على تنفيذ مشاريع الري الكبيرة وضمان امن وسلامة القوافل التجارية من جهة وفي الوقت نفسه قادرة على مواجهة اي اعتداء خارجي قد تتعرض له المنطقة ولاسيما من جهاتها الشرقية . وقد حدثت بعض

المحاولات بهذا الاتجاه ونجح عدد من الحكام في ضم اراضي الدول المجاورة الى اراضيهم ، كما حدث ذلك بالنسبة لميسيلم ملك كيش وميسانيبدا مؤسس سلالة اور الاولى ، واي انّاتم حاكم لجش ، ولقب مثل هؤلاء الحكام انفسهم بلقب ملك الذي كان يدل على ان سلطاته قد تعدت حدود دولته ، الا ان المحاولة الناجحة في توحيد عدد من دول المدن واقامة دولة القطر الموحدة حدثت في اواخر عصر فجر السلالات عندما تمكن لوجال زاجيزي ، حاكم اوما من تحقيق ذلك وأسس اول دولة موحدة ضمت تحت لوائها معظم الدول السومرية التي كانت قائمة آنذاك ، الا انه لم يستمر بالحكم طويلاً وقبل ان يتمكن من تثبيت سلطانه ظهر زعيم آخر، حقق وحدة ارض الرافدين من اقصاها الى اقصاها واقام اول دولة موحدة من نوعها ذلك هو سرجون الأكدي الذي عد عهده نهاية لعصر فجر السلالات وبداية لعصر جديد هو عصر الدولة الأكدية .

السلالات الحاكمة في عصر فجر السلالات :

سبق أن اشرنا الى مصادر معلوماتنا عن الأوضاع السياسية والعامة في عصر فجر السلالات وبينّا ان النصوص المسمارية المتأخرة والمتمثلة بجداول الملوك السومريين وبنص تمّال ، هي مصدرنا الاساس في التعرف على الأحوال السياسية ، يضاف الى ذلك النصوص المكتشفة من عهد سلالة لجش . واستناداً الى هذه المصادر يمكن رسم الصورة التقريبية التالية عن السلالات الحاكمة في عصر فجر السلالات بصورة عامة دون الدخول في التفاصيل الاّ اذا كان هناك اهمية خاصة لحدث معين او ظاهرة معينة .

لقد حاول الكتبة السومريون الذين عاشوا في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد (حدود ٢٠٠٠ ق . م) ان يدونوا تأريخهم من اقدم العصور التي تصوّروا وجودها . ولم يكن لدى اولئك الكتبة من النصوص القديمة او الأدلة الاثارية مايعتد به بل كان جلّ اعتمادهم على ماسمعوه من روايات وما تناقلته الأجيال من حكايات وما اشارت اليه بعض النصوص المقتضبة من احداث وقعت في الأزمنة الماضية . وتعد جميع هذه المصادر من المصادر غير الموثوقة والتي لايمكن الاعتماد عليها على وفق أسس وقواعد كتابة التأريخ في الوقت الحاضر، ومع ذلك ، فقد كانت المصادر الوحيدة المتيسرة لدى الكتاب السومريين الذين كتبوا اول المدونات التأريخية المعروفة حتى الآن .

لقد قسّم السومريون تأريخهم الطويل الى قسمين رئيسين تفصل بينها حادثة مهمة هي حادثة الطوفان ، فذكروا لنا في جداول الملوك التي دونوها اسماء المدن والحكام في فترة ماقبل الطوفان ومن ثم اسماء المدن والحكام ومدد حكم كل ملك في فترة مابعد الطوفان.

ومع اننا نعرف معرفة مؤكدة ان دول المدن التي حكمت في عصر فجر السلالات كان يعاصر بعضها بعضها الآخر، كلا او جزءاً ، اي انه كان في بلاد سومر عدة دول مدن حاكمة في آن واحد ، فإن معلوماتنا عن هذا التعاصر وعن تفاصيل الأحداث والعلاقات السياسية التي كانت بين هذه الدول قليلة وان جلّ اعتمادنا في ذلك هو على ماورد في جداول الملوك السومريين التي ذكرت اسماء المدن والسلالات الحاكمة وكأنها متعاقبة الواحدة بعد الاخرى ولم تشر الى اي تعاصر بينها مما اربك الباحثين في وضع تسلسل دقيق لحكم الملوك والسلالات.

لقد تصور السومريون ان نظام الحكم الملكي هو نظام الهي وظنوا ان شاراته المتمثلة بالتاج والصولجان والقياس كانت موضوعة في السماء امام الاله آنو ، وان الآلهة من اجل ان تحكم البشر وتدير شؤونهم ، انتخبت احدهم وفوضته حكم البشر بالنيابة عنها ، وهذه النظرة الى نظام الحكم والى الملك وسلطاته المستمدة من كونه نائبا للآلهة على الارض ظلت ملازمة لنظام الحكم في العراق في العصور القديمة. وهكذا كان بدء حكم الملوك على الأرض. وقد عبّرت جداول الملوك السومريين عن ذلك بالقول ان الملكية :

"هبطت من السماء ، فكانت اريدو مركز الملوكية وحكم في اريدو الولم ملكاً (مدة) ٢٨٠٠٠ عام ..." وكان ذلك من قبل ان يحدث الطوفان. وتتابع جداول الملوك ذكر اسماء الملوك الذين تعاقبوا على الحكم في خمس مدن سومرية ، وقد بلغت مدة حكمهم جميعاً ٢٤١٠٠٠ عام ومن ثم حدث الطوفان.

ومن الواضح ان هناك مبالغة كبيرة في تحديد سنوات حكم ملوك ماقبل الطوفان وربما يمكن تفسير ذلك بأنه ناتج عن رغبة كتبة الجداول اضفاء صفة القدسية والأعمار غير الاعتيادية لاولئك الملوك القدماء الذين عاشوا في الأزمنة القديمة جداً مضافاً الى ذلك جهلهم بأسماء الملوك الاخرين الذين حكموا قبل وبعد الملوك المذكورين وفي الفترات بينهم. ومن المؤكد ان السنة المذكورة في الجداول هي السنة القمرية ، او الشمسية نفسها التي ذكرت في الجداول عند تثبيت حكم ملوك مابعد الطوفان حيث جاءت عدد سنوات حكم اواخر الملوك مطابقة لما لدينا من معلومات مؤكدة عنهم من مصادر اخرى.

ومن الجدير بالاشارة ان السومريين ظنوا أن الملكية اول مانزلت في مدينة اريدو، ولقد اثبتت التنقيبات الاثرية ان اقدم آثار الاستيطان في القسم الجنوبي من العراق يتمثل بالطبقات السفلى من موقع اريدو، اما آخر مدينة حكمت قبل الطوفان فهي مدينة شروباك التي ورد ذكرها في ملحمة جلجامش بأنها موطن بطل الطوفان (اوتو- نپشتم)[1].

ثم جاء الطوفان (وجرف البلاد)، كما تقول جداول الملوك، وتعد هذه اول اشارة مدونة يرد فيها ذكر الطوفان كما تؤكد أن الطوفان كان حدثاً بلغ من عظم الاثر والجسامة عند سكان وادي الرافدين القدماء بحيث ان منظمي جداول الملوك جعلوا من هذا الحدث حداً وفاصلاً في تاريخهم يفصل بين عهد ماقبل الطوفان وعهد مابعد الطوفان. وتشير جميع الأدلة المتوافرة ان الطوفان المذكور في جداول الملوك والطوفان المذكور في ملحمة جلجامش وفي عدد من القصص والملاحم السومرية والبابلية الاخرى يشير الى طوفان واحد وانه كان "حدثاً تاريخياً واقعياً" حدث في طيات الماضي البعيد، الا اننا لانتمكن بما لدينا من معلومات في الوقت الحاضر من تحديد زمن حدوثه او مدى حدوده وان كان هناك من يرى أنه حدث بين دور جمدة نصر وعصر فجر السلالات الأول في حين يرى المنقب وولي بأن الطوفان حدث في حدود ٤٠٠٠ ق.م. وقد يرى آخرون انه حدث في عصور سحيقة في القدم.[2]

وبعد ان انحسرت مياه الطوفان، عادت الملكية وهبطت من السماء ثانية وقد حلّت هذه المرة في مدينة كيش، كما تذكر الجداول، وخصص للسلالة التي حكم فيها ٢٣ ملكاً، او ٢٢ ملكاً، مدد حكم مبالغ فيها ايضاً ولكن بنسبة اقل من المبالغة التي نجدها في مدد حكم ملوك قبل الطوفان. وتؤكد الأدلة المتوافرة من مصادر اخرى ان اسماء بعض ملوك كيش كانوا شخصيات تأريخية وانهم حكموا في الواقع في حدود الطور الثاني من عصر فجر السلالات. ومما تجدر ملاحظته ان مدينة كيش تقع في بلاد أكد وليس في بلاد سومر، اي في البلاد التي كان الاكديون، اي الجزريون، يؤلفون العنصر الغالب فيها، يؤكد ذلك ان مالايقل عن اثني عشر ملكاً من ملوك هذه السلالة جاءت اسماؤهم من اشتقاق اكدي، مما يشير الى الاختلاط العنصري بين السومريين والاكديين. كما تجدر

---

(١) انظر طه باقر، المقدمة، ص٢٩٨- ٢٩٩.

(٢) انظر طه باقر، المقدمة، ٣٠٠- ٣٠١.

الاشارة الى ان الجداول تذكر ان الملك قبل الأخير كان قد قهر بلاد عيلام ، اما ابنه أجا ، وهو الملك الاخير ، فقد ثبت من نص آخر انه حكم في عصر فجر السلالات الثاني ، كما تنسب الى هذا الملك القصة القصيرة التي تدور حول النزاع والحرب بينه وبين جلجامش خامس ملوك الوركاء والتي انتهت ، كما سيأتي ذكر ذلك ، بالمصالحة . واخيراً لابد من الاشارة الى ميسيلم الذي يرى الباحثون انه حكم في عصر فجر السلالات الثاني او الثالث وانه ربما كان ملكاً على كيش واور وقد ورد ذكر ميسيلم في النص التأريخي الشهير الذي خلّفه لنا انتمينا حاكم لجش ودون لنا فيه اخبار نزاع لجش مع المدينة المجاورة اوما وكيف ان ميسيلم الذي حكم قبل انتمينا بعدة اجيال تدخل في فض النزاع وتحديد الحدود واقامة مسلة بين المدينتين وقد لقب بأنه ملك كيش ، الا ان اسمه لم يرد في جداول الملوك السومريين ضمن قائمة اسماء ملوك كيش وربما كان اسمه مدوناً في الجزء البسيط المخروم من الجداول .

ومن السلالات المهمة الاخرى التي حكمت في عصر فجر السلالات وجاء ذكرها في جداول الملوك السومريين هي سلالة الوركاء الاولى والتي كان خامس ملوكها جلجامش معاصراً لآخر ملوك سلالة كيش الاولى أجا ، كما كان من حكام هذه السلالة اينمركار ، وهو الحاكم الثاني فيها والذي ورد ذكره في نزاعه مع حاكم ارّاتا احد حكام الاجزاء الغربية من ايران وانتصاره عليه . اما جلجامش ، فيبدو من المؤكد انه هو بطل ملحمة جلجامش الشهيرة نفسه ، ويعزى له ايضاً أنه هو الذي بنى اسوار مدينة الوركاء .

اعقب سلالة الوركاء سلالة اور الاولى ، ومما يلاحظ في مدد الحكم المخصصة لملوك هذه السلالة انها ضمن مدى الاعمار الاعتيادية ، وقد ذكرت جداول الملوك اسماء ملوك هذه السلالة وايدت ذلك بعض النصوص المعاصرة الاخرى ، ومنهم مؤسس السلالة ميسا ينبدا . وبعد سلالة اور الاولى تعدد جداول الملوك اسماء احدى عشرة سلالة اخرى ذكرت بشكل متعاقب حتى يبدأ حكم السلالة السرجونية ، وكان من بين السلالات المذكورة سلالات كان مركز حكمها في بلاد عيلام ، مثل مدينة اوان ومدينة خمازي ، التي ذكرت الجداول ان الملكية انتقلت اليها ، ويبدو ان محرري الجداول لم ينظروا الى انتقال الملكية الى مدينة تقع في بلاد عيلام على ان ذلك انتقال الى بلاد اجنبية ربما لأن بلاد عيلام تمثل في الواقع امتداداً طبيعياً للسهل الرسوبي ولا يفصلها عن بلاد سومر اي حاجز اضافة الى احتمال تواجد السومريين والاكديين ومنذ فترة مبكرة في بلاد عيلام[1] .

---

(١) حول تفصيل ذلك انظر عامر سليمان ، بلاد عيلام وعلاقتها بتأريخ العراق القديم ، مجلة آداب الرافدين ، ١٤ ، ١٩٨١ ، ص ١٧٩ – ١٨١ .

ومما يلاحظ على مدد الحكم التي خصصتها جداول الملوك للملوك والحكام الاوائل أنها كانت خيالية ، وكلما تقدمنا بالزمن نحو تأريخ تدوين الجداول كلّما قلّت المبالغة في تحديد سنوات الحكم الى ان تصبح معقولة ثم متطابقة مع ما هو متوافر لدينا من معلومات عن الحكام من مصادر اخرى .

سلالة لجش الاولىٰ

الى جانب ما ذكرته جداول الملوك السومريين من سلالات حكمت في بلاد سومر لانعرف عن بعضها سوى اسماء ملوكها وسنوات حكمهم غير الدقيقة وما أشار اليه نص تمّال من اسماء ، فقد كشفت التنقيبات الأثرية التي أجريت في مدينة تلّو في منطقة الغرّاف عن آثار سلالة مهمة كانت قد قامت في مدينة لجش وما حولها من مدن صغيرة في الطور الثالث من عصر فجر السلالات في الفترة ٢٤٥٠-٢٣٠٠ ق.م. تقريباً لم تذكر اصلاً في جداول الملوك السومريين لأسباب غير معروفة لدينا . وكانت دولة لجش هذه تضم عدة مدن اهمها ثلاث مدن متجاورة وهي مدينة جرسُو ومدينة نينا ومدينة لجش ، وتقع اراضيها الزراعية في وسط سهل خصب في منطقة الشطرة والغرّاف . والى الشمال من لجش وعلى بعد خمسين كيلومتراً تقع مدينة مهمة اخرى هي مدينة اومّا. وكان قد اسس سلالة لجش الاولى هذه اور- نانشة الذي خلّف لنا آثاراً كثيرة ، وتدل الآثار المكتشفة وبعض النصوص التذكارية على ازدهار حضاري ورخاء اقتصادي عاشت في ظله دولة لجش ولاسيا في الجزء الاول من تاريخها الطويل ، حيث نشطت فيها الحركة العمرانية وشيدت المعابد والأسوار ونحتت التماثيل والمنحوتات والنصب واهتم حكام السلالة بمشاريع الري ، كما نشطت التجارة ، وخاصة التجارة الخارجية ، وكان كل ذلك من النتائج المتوقعة للانتصارات المتلاحقة التي حققها حكام لجش على الدول او المدن المجاورة ، ولاسيما مدينة اوما الى درجة ان بعض حكام لجش لقبوا انفسهم بلقب لوجال ، اي ملك بدلاً من لقب انسي اي حاكم . وتمدنا النصوص المسمارية المكتشفة ولاسيما النص الطويل والمهم الذي خلّفه لنا انتمينا ، احد حكام لجش ، بمعلومات تفصيلية عن الحروب والمنازعات والمناوشات الحدودية المستمرة التي كانت بين دولة لجش وجارتها اومّا والتي استمرت ، كما يذكرا نتمينا ، لاكثر من ثلاثة اجيال اي لما يناهز المائة سنة . وكانت اسباب تلك الحروب اقتصادية بالدرجة الاولى وهي الرغبة في السيطرة على المزيد من الأراضي السهلة والخصبة الواقعة بين الدولتين وعلى قنال الماء الذي يفصل بينها . وقد خلّد لنا احد حكام لجش

اخبار انتصاره على اومّا على هيئة نحت بارز على مسلة من الحجر عرفت لدى الباحثين بمسلة النسور او العقبان [1] في حين يذكر لنا انتمينا ، الذي جاء الى الحكم في فترة تالية ، أنه كان قد وضع حداً للنزاع بين الدولتين وذلك بابرام معاهدة صلح قام بدور الوسيط فيها حاكم يسمى ميسيلم ، وهو حاكم دولة ثالثة يظن انها كيش ، كما سبق أن أشرنا وقد ثبتت بنود المعاهد على مسلات من الحجر وضعت على الحدود بين الدولتين ، غير ان حاكم اومّا نقض المعاهدة وازال المسلات وشن حرباً على لجش واستمرت الحرب بين الدولتين سجالاً الى ان تمكن انتمينا من تحقيق الانتصار ، وان كان مؤقتاً كما اثبتت ذلك الاحداث التالية ، على مدينة اومّا .

ان اهمية نص انتمينا كبيرة جداً فاضافة الى كونه من اقدم النصوص التأريخية المتوفرة لدينا حتى الان فهو يسجل لنا اخبار اقدم معاهدة دولية معروفة لدينا كانت قد غقدت بين دولتين مستقلتين بتوسط دولة ثالثة . وتعد هذه المعاهدة من اولى الجهود البشرية في تنظيم العلاقات الدولية ووضع الضوابط اللازمة لها بحيث تعترف بها الاطراف المعنية ، لذا كانت دراستها على قدر كبير من الاهمية عند دراسة تأريخ القانون الدولي [2] ، كما ان النص يشير الى بعض الطقوس والمراسيم والاجراءات التي كانت تتبع عند عقد المعاهدات ، منها وضع مسلات على الحدود وترك ارض حاجزة بين حدود الدولتين ، اي ارض حياد ، واداء القسم بالالهة القومية والى غير ذلك من المراسيم التي ظلت ملازمة لعقد المعاهدات في الفترات التالية .

لم تستمر انتصارات لجش العسكرية طويلاً حيث مالبث ان دبّ الضعف فيها فحلّت فيها الازمات الاقتصادية وقلت الغنائم والضرائب التي كانت تتدفق عليها وربما رافق ذلك اهمال الحكام ادامة مشاريع الري ، وللتعويض عن النقص في الواردات اتجه الحكام الى زيادة مختلف انواع الضرائب وابتداع ضرائب جديدة للمحافظة على حياة البذخ والاسراف التي اعتادوا عليها في عهود الانتصارات ، كما يفهم ذلك من نص اصلاحات اوروانيمجينا (اوروكاجينا) ، فعم الارتباك الاقتصادي وشاع الفساد فقامت ثورة في البلاد كان من نتائجها ان تولى الحكم والسلطة حاكم جديد يظن انه كان من طبقة الكهنة ، وهو اوروكاجينا ، الذي بادر باصدار اصلاحات اقتصادية واجتماعية تعد

(١) وهي مسلة اي- انّا- تم وقد سميت بهذا الاسم لان نسوراً او عقباناً صورت في المسلة وهي تنهش جثث القتلى من جيش اوما ، وقد مثل حاكم لجش بعدته الحربية مرة واقفاً ومرة في عربته الحربية قائداً لجيشه المنتصر كما مثل اله المدينة الحامي ننجرسُ وقد نشر شبكته العظيمة فاصطاد بها جيش الاعداء (انظر تفصيل ذلك طه باقر، المقدمة ، ٣١٦) .

(٢) انظر عامر سليمان ، العلاقات السياسية الخارجية ، في حضارة العراق ، ج٢ ، بغداد ١٩٨٥ ، ص ١١٤-١١٧ .

الاولى من نوعها في التأريخ وقد ترك لنا نصاً مفصلاً يتحدث فيه عن محاولاته اصلاح الاوضاع المتردية التي وجدها عند توليه الحكم وعدّد المفاسد التي كانت تعم البلاد بتسع نقاط رئيسة ثم ذكر الاجراءات الجذرية التي اتخذها للقضاء على تل المفاسد، كما سيأتي تفصيل ذلك في مكان آخر[١]. غير ان الفترة القصيرة التي حكم فيها اوروكاجينا، وهي ثماني سنوات، لم تتح له فرصة تنفيذ تلك الاصلاحات واصلاح الاوضاع الفاسدة والمتردية حيث مالبثّ ان ظهر في مدينة اوما، عدوة لجش التقليدية، حاكم قوي طموح عاد فشن حرباً جديدة على لجش وقضى على حاكمها بصورة سريعة ومفاجئة مستغلاً اضطراب الاوضاع الداخلية في لجش وهكذا امكن القضاء على دولة لجش القوية والمهمة، وقد كان لهذه الحادثة اثر وصدى كبير في النفوس، ولاسيما الكتاب والادباء، مما دفع احدهم الى تأليف رثاء مؤثر لمدينة لجش ولمعابدها مبيناً فيه ماحل بها وبأهلها من دمار اثر هجوم حاكم اومّا، وهو لوجال زاجيزي عليها، وهو اسلوب ادبي ظل شائعاً في رثاء الدول والممالك القوية التي كانت تسقط لاسباب مختلفة.

كان لوجال زاجيزي من الشخصيات التي اثبتت مقدرتها السياسية والعسكرية وكفاءتها العالية، ويبدو انه كان يطمح الى توحيد جميع دول المدن السومرية في دولة واحدة، وهو الاتجاه الذي غلب على سياسة الملوك البارزين في الفترات التالية لذلك ايضاً. وهكذا تمكن من بعد قضائه على دولة لجش ان يضم الى حدود مملكته كل من مدينة الوركاء وكيش ونفر وادب واريدو ولقب نفسه لذلك بملك الاقليم، اي ملك البلاد lugal kalama ويلقب ملك سومر وملك كيش وملك الوركاء، وكلها القاب تشير الى سعة نفوذه وسلطانه. وقد حاول ايضاً ان يمد نفوذه الى مناطق بعيدة اخرى حيث ادعى انه وصل بنفوذه من البحر الاعلى (البحر المتوسط) الى البحر الاسفل (الخليج العربي) حيث: "جعل الاله انليل جميع البلدان، من البحر الاسفل على طول نهري دجلة والفرات الى البحر الاعلى تقع تحت سلطته".

ولايعرف الى اي مدى كان لوجال زاجيزي صادقاً في ذلك وربما قصد بذلك ان تجارته المباشرة قد وصلت الى هناك حيث ان ليس هناك مايؤكد امتداد حدود مملكته الى تلك المناطق البعيدة[٢].

---

(١) انظر عامر سليمان، القانون في العراق القديم، موصل، ١٩٧٧، ص ١٤٣- ١٤٦ وكذلك الفصل الخاص بالقانون من الجزء الثاني من هذا الكتاب.

(٢) انظر: جين بوترو وآخران، ص: ٩٣- ٩٤.

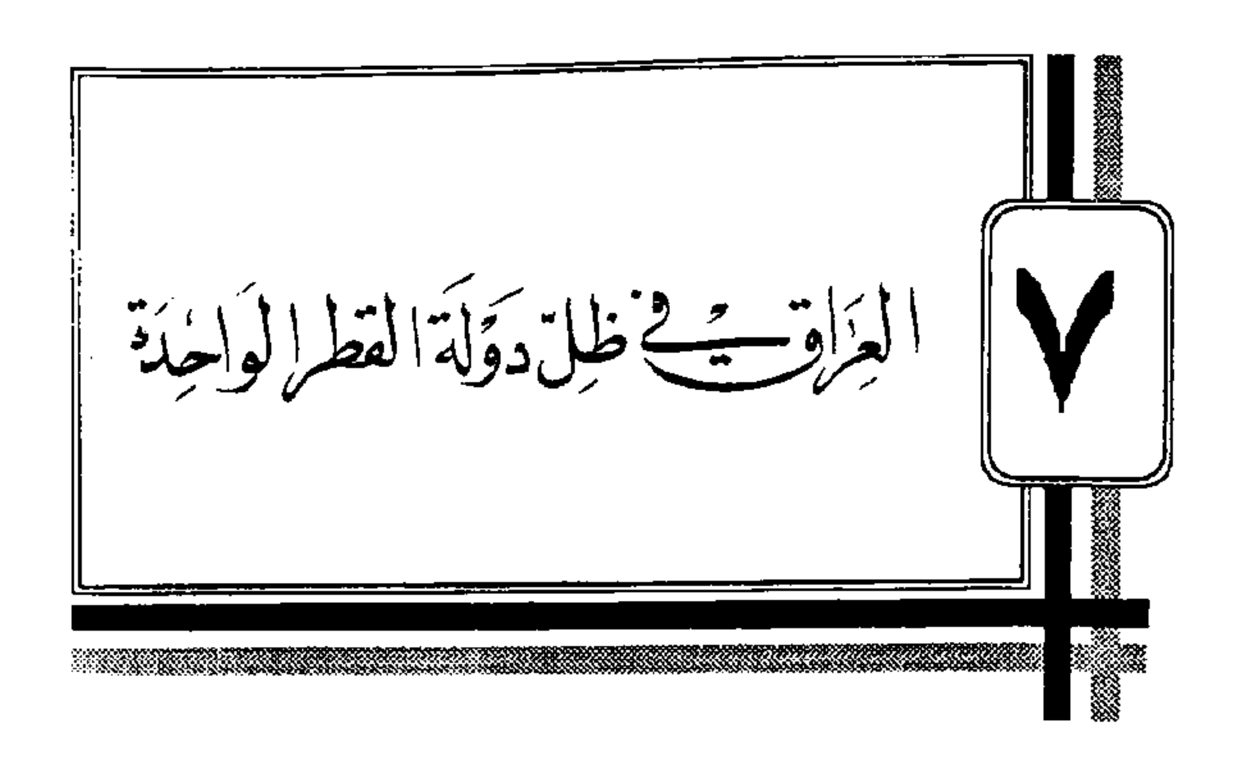
ويعد النص المسماري الذي خلّفه لنا لوجال زاجيزي اقدم واطول كتابة ملكية من نوعها واكثرها تفصيلاً حكم لوجال زاجيزي ٢٥ سنة ، كما تذكر جداول الملوك تمكن خلالها من اقامة دولة مركزية موحدة ضمت ولأول مرة في تاريخ بلاد سومر عدداً كبيراً من المدن السومرية ، وكانت محاولته هذه في توحيد جميع انحاء بلاد سومر ، كد تمهيداً لقيام دولة القطر الموحدة في عهد سرجون الاكدي الذي استطاع ان ينتزع السلطة والزعامة ويؤسس اول دولة موحدة مبتدأً حكمه عام ٢٣٧١ ق . م . وتؤشر نهاية حكم لوجال زاجيزي نهاية عصر فجر السلالات .

اهم مواقع عصر فجر السلالات :

تشير التنقيبات الأثرية التي قامت بها البعثات الاجنبية والعراقية في ارجاء العراق ، ان حضارة عصر فجر السلالات كانت قد ازدهرت في العديد من المناطق والمواقع وانها لم تقتصر على القسم الجنوبي من العراق ، اي بلاد سومر واكد ، وان كانت في هذا الجزء من العراق اكثر ازدهاراً ، بل ان آثار حضارة العصر وجدت في مواقع كثيرة في منطقة ديالى وشرقي دجلة وفي بلاد بابل وغربي نهر الفرات وفي بعض اجزاء سوريا ايضاً . فكما هو معروف ان بعض المواقع والمدن القديمة ، مثل اريدو واور وكيش ونينوى وماري وغيرها ، بدأ استيطان الانسان فيها منذ بداية العصر الشبيه بالكتابي او قبل ذلك ، واستمر استيطان الانسان فيها في العصور التالية ، بل ان بعضها ضم طبقات سكنية من العصر الحجري المعدني والعصر الشبيه بالكتابي وعصر فجر السلالات والعصور التأريخية التالية حتى العصور المتأخرة ، مثل مدينة نينوى مثلاً ، وبعضها الآخر بدأ الاستيطان فيه منذ عصر فجر السلالات ، كمدينة آشور . وقد اظهرت التنقيبات الاثرية في كل من مدينة اريدو. وتل العبيد واور وشروباك وكيش ونفر ومنطقة لجش عن طبقات سكنية تعود الى هذا العصر وكشفت فيها عن بقايا معابد وزقورات وقصور وابنية اخرى ومقابر مهمة كما كشف عن طبقات سكنية من هذا العصر في كل من تل اسمر وتل خفاجي وتل اشجالي وتل اجرب كشف فيها عن معابد مهمة جداً ولاسيما في تل خفاجي اما في الاجزاء الشمالية من العراق ، فقد عثر على آثار عصر فجر السلالات في كل من اشور التي تبين بانها كانت قد

اسست في هذا العصر، ونينوى وفي مدينة ماري (تل الحريري) على نهر الفرات شمال غربي البوكمال في الحدود السورية الآن اضافة الى موقع جغار بازار جنوب غربي القامشلي وتل براك جنوب شرقي جفار بازار في سوريا[1]، اضافة الى عدد آخر من المواقع الكثيرة الواقعة في بلاد اشور غربي نهر دجلة.

١- حول تفاصيل نتائج التنقيبات في هذه المواقع انظر طه باقر، المقدمة، ٢٦٢-٢٨٥.



١- العراق في ظل الدولة الأكدية (٢٣٧١- ٢٢٣٠ ق. م)[١]

هوية الاقوام الاكدية :

تعد الدولة الاكدية اول دولة مركزية انضوت تحت لوائها جميع مدن العراق من اقصى شماله الى اقصى جنوبه ، بل وامتدت بسعة نفوذها وسيطرتها الى خارج حدود بلاد بابل واشور الاعتيادية فشملت اجزاء من بلاد الشام واسيا الصغرى وضمت بلاد عيلام جنوب غربي ايران مما دفع بعض الباحثين الى وصفها بانها اول امبراطورية عرفها التأريخ القديم.[٢] وبذلك حق لاحد ملوكها تلقيب نفسه بلقب "ملك الجهات الاربعة" اضافة الى الالقاب الاخرى كلقب "ملك القطر" او "ملك بلاد سومر" الذي كان قد استخدم

---

(١) لقد اعتمدنا في تثبيت تواريخ حكم الملوك والسلالات في الالفين الثالث والثاني قبل الميلاد على التأريخ التي وضعها سدني سميث Sidny Smith واتبعها من بعده ساكز في كتابه عظمة بابل في حين ان هناك مدرسة اخرى تعطي تأريخ مختلف ولاسيا بالنسبة الى الالف الثالث قبل الميلاد والى عهد حمورابي ، انظر Oppenheim L. Ancient Mesopotomia Chicago, 1964.

(٢) انظر مثلا ساكز، عظمة بابل ، ص ٦٩ ، طه باقر، المقدمة ، ٣٥٢ ومابعدها.

من قبل حكام اخرين. وقد حكمت الدولة الاكدية مدة تقرب من قرن ونصف قرن، حكم خلالها عشرة ملوك[٣] اشتهر منهم الخمسة الاوائل.

اسس الدولة الاكدية زعيم من الاقوام الجزرية التي كانت تعيش في العراق، ولاسيما في قسمه الوسطي، منذ اقدم عهود الاستيطان في القسم الوسطي والجنوبي في العراق، وكان الموطن الاول للاقوام الجزرية هذه هو شبه الجزيرة العربية كما تؤكد ذلك جميع الدراسات الحديثة، وبعد ان هاجرت الاقوام الجزرية الى وادي الرافدين وتغلغلت بين السكان، عاشت حياة سلمية جنباً الى جنب مع بقية الاقوام التي كانت تعيش في العراق وفي مقدمتها الاقوام السومرية، واختلطت معها واندمجت فيها، الا انها كانت، كما يبدو، تتكلم بلغتها الجزرية الخاصة التي عرفت فيما بعد باللغة الاكدية. ان معلوماتنا عن الاقوام الجزرية في العراق قبل تأسيس الدولة الاكدية في حدود ٢٣٧١ ق.م. قليلة جداً حيث انها لم تظهر على مسرح الاحداث السياسية او تتسلم السلطة كما انها لم تستخدم لغتها الاكدية للتدوين فتخلف لنا نصوصا خاصة بها تعكس لنا جوانب من حياتها. ومع ذلك، يمكن تلمّس وجودها، ولاسيما في الجزء الوسطي من العراق في المنطقة التي عرفت فيما بعد ببلاد اكد، من خلال تأثيراتها الحضارية واللغوية على الاقوام السومرية الى درجة جاءت اسماء بعض الملوك السومريين وهي تحمل صيغاً جزرية (اكدية).

---

(٣) وهم: سرجون ٢٣٧١–٢٣١٦ ق.م
ريموش ٢٣١٥–٢٣٠٧
مانشتوسو ٢٣٠٦–٢٢٩٢
نرام–سين ٢٢٩١–٢٢٥٥
شاركالي شاري ٢٢٥٤–٢٢٣٠
ايكيكي– نانيوم– امن ٢١٩٢–٢١٩٠
دودو ٢١٨٩–٢١٦٩
شودورل ٢١٦٨–٢١٥٤
انظر ساكز، عظمة بابل، الملحق، ص ٦.

تمكن لوجال زاجيزي حاكم مدينة اوما ، كما سبق أن اشرنا ، من القضاء على مدينة لجش ، عدوّة اوّما التقليدية ، وعلى عدد اخر من المدن السومرية وضمها الى حدود مملكته المتنامية ، فأنجز بذلك اول محاولة ناجحة في توحيد عدد من دول المدن السومرية . ويبدو انه كان في هذه الفترة بالذات احد زعماء الاقوام الجزرية ، وهو الذي عرف فيما بعد باسم سرجون ، يعمل ساقياً في بلاط ملك كيش المدعو اور- زبابا . وقد استغل سرجون ارتباك الاوضاع السياسية في المنطقة الذي احدثته حروب لوجال زاجيزي ، وانشغال لوجال زاجيزي نفسه في حروبه مع المدن الجنوبية ، فاعلن نفسه ملكاً وذلك في حدود عام ٢٣٧١ ق . م ، في ظروف غامضة لانعرف عنها الا القليل . وتشير جداول الملوك السومريين الى ان سرجون لم يقض على ملك كيش حيث تتابع على الحكم في مدينة كيش خمسة ملوك اخرين من بعد اور-زبابا ثم انتقلت الملكية ، كما تذكر جداول الملوك ، الى مدينة اوروك التي حكم فيها ملك واحد ، هو لوجال زاجيري ، مدة ٢٥ عاماً ثم دحرت اوروك ونقلت ملوكيتها الى اكد .

وقد يفّسر هذا الغموض الذي يكتنف مجئ سرجون الى الحكم وبناؤه عاصمة جديدة له هي مدينة اكد ، انه كان قد استقل عن ملك كيش واسس سلالة جديدة تحكم في مدينة اكد وتنافس مع السلالة الحاكمة في كيش وغيرها من السلالات الحاكمة في المدن السومرية المختلفة . وقد تسمى مؤسس السلالة باسم سرجون الذي يلفظ باللغة الاكدية على هيئة شرُّم كين ، اي "الملك الصادق" ، او "الملك الثابت" ، ولايعرف اسمه الحقيقي قبل ان يصبح ملكاً .

اتخذ سرجون مدينة اكد عاصمة لملكه ، ونسب هو ومن تبعه من الاقوام الجزرية اليها فعرف بسرجون الاكدي وعرف اتباعه بالاكديين كما عرفت المنطقة التي تواجدوا فيها والمتمثلة بوسط العراق حاليا باسم بلاد اكد mat Akkadim التي يقابلها باللغة السومرية ki. uri . ولايعرف حتى الان اين تقع بقايا مدينة اكد بالضبط حيث لم يكشف عنها بعد الا انه يمكن القول بشيء من الثقة إنها تقع في موضع مابين المحمودية وبابل وربما اسست بالقرب من كيش او بالقرب من مدينة سبار او انها اسست في موضع مدينة بابل نفسها . وبالتأكيد فان سرجون قد اختارلها موقعاً متوسطاً من البلاد وقريباً من شواطئ نهر الفرات .

شخصية سرجون :

كانت شخصية سرجون من بين الشخصيات القليلة البارزة التي عرفت في تأريخ العراق القديم ، كشخصية حمورابي وسنحاريب وآشوربانيبال ونبوخذنصر ، فقد كان قائداً عسكرياً اضافة الى انه كان ادارياً من الطراز الاول اثبتت انجازاته العسكرية والادارية ذلك ، ان هذا الوصف لايمثل رأي المؤرخين المحدثين فقط بل ان هناك العديد من القصص والروايات القديمة التي نسجت حول شخصية سرجون ومنجزاته الى درجة ان اثنين من الملوك الاشوريين تسموا باسم سرجون ، ربما تيمناً به ، وذلك بعد اكثر من الف سنه من تأريخ حكمه.

لقد دأب سرجون ، وكذلك فعل عدد من الملوك الاكدين الاخرين ، على تخليد اعمالهم ومنجزاتهم المهمة ، ولاسيما العسكرية منها ، باقامة التماثيل والنصب والمسلات بتلك المناسبات ووضعها في معبد الاله انليل في مدينة نيبور (نفّر) ، الا اننا لم نعثر على تلك التماثيل والنصب بل إن احد الكتبة القدامى ، ولاسباب غير معروفة حتى الان ، قام بعد عدة قرون من تأريخ وضع التماثيل والمسلات في المعبد باستنساخ جميع الكتابات المدونة عليها وتدوينها على رقيم طين تم الكشف عن معظم اجزائه ، فأعاننا ذلك على رسم صورة تقريبية للوضع العام في العراق في فترة الدولة الاكدية. اضافة إلى ذلك امكن الكشف عن عدد من النصب والمسلات والتماثيل الاكدية في مواقع عدة اكملت الصورة التي رسمت عن تأريخ سرجون وتأريخ الدولة التي اقامها. كما ان هناك بعض النصوص الاخرى التي دونت في العصر الاشوري الحديث (حدود ٩١١-٦١٢ ق.م) ، اي بعد حكم سرجون بمئات من السنين، تشير الى بعض القصص الخيالية الخاصة بمولد سرجون وارتفاع شأنه حتى صار ملكاً على اكد. فقد ذكر احد نصوص العصر الاشوري الحديث (من القرن السابع قبل الميلاد) قصة مولد سرجون وجاءت القصة بضمير المتكلم حيث تقول على لسان سرجون :

«إن امي كانت كاهنة (؟) ولم اعرف ابي وكان متجولاً ، واصلي من مدينة آزوفيرانو على الفرات. وحملت بي امي ووضعتني سّراً ، فاخفتني في سلة من الحلفاء مقيّرة ، وغطتها ورمتني في الماء الذي لم يغرقني. وحملني الماء الى «اكي» ، ساقي الماء ، فانتشلني «اكي» وربّاني واتخذني ولدا وعينني بستانيا عنده. وبينما كنت اعمل بستانياً احبتني عشتار وتوليت الملوكية طوال اربع و... سنة...».

تشير القصة الى ان أم سرجون كانت قد ولدته سّراً، ربما لانها كانت كاهنة عليا (إنتوم entum) من الكاهنات اللائي لم يكن يسمح لهن بالزواج والانجاب، الا انها حملت به سرا وولدته سّراً فاضطرت الى التخلص منه فوضعته في سلة ورمته في النهر، وقد اشار بعض الباحثين الى الشبه الكبير بين ماورد في هذه القصة وبين ماورد في قصة مولد موسى عليه السلام[1] وربما يمكن تفسير التشابه في اسلوب التخلص من الوليد ان الطريقة المعتادة التي كان الناس يتخلصون بواسطتها من الاطفال غير المرغوب فيهم، لاي سبب كان، هو وضع الطفل في سلّة من القصب وتركها تطفو في النهر، نهر النيل او الفرات اودجلة او غيرها، طالما كانت معظم المدن تقع على شواطئ الانهار، املاً في ان ينتشل الطفل احد ممن يعمل او يقف على ضفاف النهر. وفضلاً عن ذلك لابد من الاشارة ان النص الذي اورد القصة الخاصة بسرجون الاكدي كان قد دوّن في القرن السابع قبل الميلاد، اي بعد تأريخ ولادة النبي موسى بأكثر من ستة قرون كاملة (عاش النبي موسىٰ في القرن الثالث عشر قبل الميلاد)، وان الآشوريين كانوا على اتصال دائم ووثيق بوادي النيل وبلاد الشام في هذه الفترة وربما كانوا قد تعرفوا على قصة مولد موسى، كما وردت في التوراة، وتأثروا بها ونسبوا قصة مشابهة لها الى شخصية سرجون الاكدي، تمجيداً له ورغبة في اضفاء القدسية على ولادته وحياته ثم ملوكيته.

انجازات سرجون العسكرية:

تبقى المعلومات المتوافرة عن حكم سرجون وحكم خلفائه قليلة على الرغم مما دونه بعض الكتبة القدماء عنها وما استنسخوه من نصوص قديمة، الا انها لاتعطي تفاصيل الأحداث التي وقعت في عهد الدولة الأكدية وتسلسلها وربما ستكشف لنا التنقيبات المقبلة عن مدينة اكد نفسها وما يتوقع ان تضمه من آثار ونصوص مهمة.

حكم سرجون ٥٤ سنة، وهي فترة حكم طويلة جداً مما يشير الى انه لابد أن نصب نفسه ملكاً على بلاد اكد وهو شاب في مقتبل العمر وانه ظل يحكم ملكاً حتى جاوز السبعين من عمره. وتشير كل المعلومات المتوافرة ان طموحات سرجون كانت بعيدة وان السياسة التي وضعها واراد تحقيقها كانت تهدف، كما يبدو، الى توحيد جميع المدن السومرية والأكدية في دولة مركزية واحدة والى اتخاذ التدابير اللازمة للقضاء على اي تمرد

---

(١) انظر: طه باقر، المقدمة، ٣٦٠

او عصيان او ثورة ضد الحكومة المركزية اضافة الى ضمان امن وسلامة الطرق الموصلة الى مصادر المواد الخام ، وكان عليه ان يعمل على بناء جيش قوي قادر على تنفيذ هذه السياسة وعلى مواجهة اخطار الغزو المتوقع دائماً ، ولاسيما من الجهات الشرقية والشمالية الشرقية لبلاد اكد.

ومع قلة المعلومات المتيسرة يمكن القول ان سرجوناً حاول ، بعد ان استقل عن ملك كيش واعلن نفسه ملكاً ، تثبيت مركزه بالسيطرة على المناطق الواقعة الى الشمال والشمال الشرقي من بلاد اكد ، ومن ثم بدأ بمنازلة خصمه الرئيس لوجال زاجيزي وتمكن منه في حرب خاطفة وهجوم مباغت. ثم شرع بعد ذلك باخضاع المدن السومرية الواحدة تلو الاخرى وضمها الى حدود مملكته حتى تم له توحيد جميع بلاد سومر واكد ووصل الى سواحل الخليج العربي ، حيث قام ، كما يذكر احد النصوص ، «بغسل اسلحته في مياه الخليج» . ويبدو ان نفوذ سرجون امتد ليشمل بعض بلدان الخليج وما وراءها حيث يشير احد النصوص الى ان سفن ميلوخا وسفن ماكان وسفن دلمون اصبحت تلقي مراسيها في مرفأ مدينة اكد. فاما ميلوخا فربما كانت تعني بلاد الصومال او الحبشة في حين تتفق الآراء على ان ماكان هي عمان وان دلمون هي البحرين. وقد تطلب تحقيق وحدة بلاد سومر واكد من سرجون الدخول ، كما يذكر احد النصوص الاكدية ، في اربع وثلاثين معركة انتصر فيها على جميع المدن وضمها الى حدود مملكته :

"لقد انتصر سرجون ، ملك كيش ، في اربع وثلاثين معركة (على المدن الممتدة) الى حافة البحر ، وهدم اسوارها ...".

توجه سرجون بعد ذلك بنشاطاته العسكرية الى الجبهات الاخرى حيث تذكر النصوص انه ضم مدينة اتو (هيت) وماري (تل الحريري) وجبال الارز (جبال الامانوس) وجبال الفضة (جبال طوروس) وبارموتي (جنوب جبيل) ومدينة إبلا (شمال سوريا) . كما تذكر نصوص اخرى انه وصل الى جزيرة كفتارة ، وهي جزيرة كريت.

أما بالنسبة للقسم الشمالي من العراق اي بلاد آشور ، فيبدو ان سرجون قد ضمه الى حدود مملكته في وقت مبكر من حكمه حيث اظهرت التنقيبات التي اجريت في كل من نينوى وآشور ، وهما اهم المدن الآشورية ، انهما كانتا من المراكز الادارية الاكدية المهمة ، كما كشفت التنقيبات عن بقايا ابنية كانت مكرسة للملوك الاكديين وعلى قطع فنية تحمل طابعاً اكدياً واضحاً منها الرأس البرونزي الذي يظن انه يمثل رأس سرجون او رأس حفيده نرام . سين.

وتؤكد نشاطات سرجون العسكرية وضمه هذه المدن الكثيرة الى حدود مملكته المتنامية السياسة العامة التي اتبعها الملوك الاكديون والتي وضع خطوطها الرئيسة سرجون والهادفة الى اقامة دولة القطر الواحدة التي كانت تدار في عهد سرجون من العاصمة اكد. ولضمان نجاح تنفيذ هذه السياسة الطموحة والمحافظة على حدود المملكة الجديدة التي امتدت بنفوذها الى مناطق بعيدة، كان على سرجون ان يواجه التحديات التي جاءته من جهة الشرق. فلقد كانت الجهات الشرقية من بلاد سومر وأكد والتي ضمت بلاد عيلام والمناطق الجبلية المتاخمة تكوّن خطراً متزايداً على الدولة الاكدية. فلقد كانت الحدود الشرقية ومنذ مطلع الألف الثالث قبل الميلاد مرتعاً للأقوام الجبلية التي كانت تثير القلاقل والاضطرابات في بلاد سومر وتتحين الفرص للقيام بغزو المدن السومرية والأكدية. وعندما قامت الدولة الاكدية ووحّدت جميع المدن تحت لوائها، كان لابد لها من مواجهة الاخطار القادمة من الشرق والحد من غارات الاقوام الجبلية على المنطقة الحدودية فقام سرجون بالسيطرة على القبائل المناوئة في سلسلة من الحملات العسكرية وفرض سيطرته عليها وعلى بلاد عيلام ومرخشي ولقب نفسه "ملك كيش، قاهر عيلام ومرخشي" وربما قام سرجون بحملة عسكرية جديدة على بلاد عيلام في السنوات الاخيرة من حكمه، كما تشير الى ذلك نصوص الفأل البابلية. وبعد ان تمت السيطرة على بلاد عيلام عين سرجون ممثلاً شخصياً له في بلاط سوسا (الشوش) عاصمة عيلام واصبحت عيلام ضمن حدود الدولة الاكدية وانتشرت الحضارة الاكدية في بلاد عيلام واستخدمت اللغة الاكدية بخطها المسماري للتدوين الى درجة ان جميع النصوص المكتشفة في سوسا، باستثناء بضع نصوص فقط، جاءت مدونة بالأكدية.[1]

من جهة اخرى تشير احدى القصص التي جاءتنا مدونة على رقيم طيني عثر عليه في تل العمارنة في مصر الوسطى، وهي عاصمة الملك اخناتون، والذي يرقى بتاريخه الى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، الى ان سرجوناً ربما سيطر على الأجزاء الشرقية من آسيا الصغرى التي عرفت فيما بعد باقليم كبدوكيا، حيث تذكر هذه القصة التي وردت بعنوان (ملك الحرب) ان جماعة من التجار الأكديين كانوا يقيمون في مدينة بورشخندا في اقليم كبدوكيا، وانهم ارسلوا الى سرجون يستغيثونه ويطلبون منه التدخل لحمايتهم من اضطهاد احد الحكام المحليين، فاستجاب سرجون واغاثهم وخف لنجدتهم، إذ جهز حملة

---

(١) انظر تفاصيل ذلك: عامر سليمان، الجيش في العصر الأكدي في: الجيش والسلاح بغداد، ١٩٨٨، ج١، ص١٠٧ - ١٥٠.

عسكرية وجهها الى تلك المنطقة النائية مما اضطر حاكمها المحلي الى الاستسلام والتوقيع على معاهدة تبعية وقد عثر على نسخة من هذه القصة مدونة باللغة الحثية ، لغة آسيا الصغرى المحلية في عهد الدولة الحثية ، كما اشار الى وصول سرجون الى تلك المناطق البعيدة الملك الحثي حاتوشيليش الاول (حدود ١٦٥٠ ق.م) مما يدل على انه كان للقصة شيء من الحقيقة.

وهكذا حق لسرجون ان يتفاخر ويقول : "والآن ايا كان الملك الذي يدعي انه نظير لي ، فليصل الى حيث وصلت انا !" وان يقول إنه كان يطعم ٥٤٠٠ محارب كل يوم في قصره.

خلفاء سرجون :

اجتاحت الدولة الاكدية الفتن والاضطرابات في اعقاب وفاة سرجون ، وقد اعتلى العرش الأكدي من بعده ابنه ريموش الذي حكم تسع سنوات ، وكان عليه ان يقضي سنوات حكمه الاولى في القضاء على تلك الفتن والاضطرابات ، وكانت بلاد عيلام ومراخشي من الاقاليم التي تمردت على السلطة الأكدية ، فقام ريموش بتجهيز حملة عسكرية باتجاه الشرق سالكاً الممرات الجبلية الصعبة نفسها التي كان ابوه قد سلكها من قبل ، وحقق انتصارات حاسمة حيث يخبرنا في احدى كتاباته عن هذه المعركة انه احصى "اكثر من ١٧٠٠٠ قتيلاً واكثر من ٤٠٠٠ اسيراً" وهناك اشارات الى ان ريموش قام ببناء مدينة تحمل اسمه بالقرب من مدينة نينوى.[١]

جاء بعد ريموش في الحكم اخوه مانشتوسو، وربما كان توأمه ، الذي حكم خمس عشرة سنة ، وباستثناء السنوات الاولى من حكمه التي سادها الهدوء ، فقد اتبع السياسة نفسها التي نهجها اخوه من قبل فجهز الحملات العسكرية للقضاء على الفتن والاضطرابات واعادة تثبيت سلطانه ولاسيا في المناطق الشرقية والجنوبية الشرقية.

وتؤكد النصوص المسمارية ان نرام - سين ، حفيد سرجون ، الذي اعقب مانشتوسو في الحكم ، كان ذا شخصية قوية جداً تضاهي شخصية جده مؤسس السلالة الأكدية حيث قاد الدولة الأكدية على الرغم مما كان فيها من فتن وتمردات ، الى الذروة في قدراتها

(١) جين بوترو وآخران ، الشرق الأدنى ص١٣٢.

العسكرية والادارية ، وحكم فترة تقرب من اربعين سنة امتدت خلالها حدود الدولة الأكدية الى اقصاها. وكان من اولى انجازاته العسكرية قضاؤه على التمردات التي عمت ارجاء الامبراطورية فقام بحملات عسكرية متابعة بدأها بحملة باتجاه الغرب والشمال الغربي بمحاذاة نهر الفرات حتى وصل الى جبال الارز وجبال الفضة وسيطر على اعالي مابين النهرين وأقام بعض الحصون في المواضع المهمة مثل حصن تل براك.

وبرز نشاط نرام– سين الحربي في الجبهة الشرقية والشمالية الشرقية حيث خاض اعنف المعارك في المناطق الجبلية ضد القبائل التي ورد اسمها في النصوص على هيئة لولوبو ثم قبائل الكوتيين، وهي قبائل جبلة غير متحضرة ، وكان على نرام– سين ان يجهز جيشه ويتسلق الجبال لكي يمكن احراز النصر على تلك الأقوام ، وقد حقق ذلك وخلّد انتصاراته على منحوتة اقامها على سفح الجبل كما عثر على مسلّة مشابهة لهذه المنحوتة من حيث الموضوع وذلك في مدينة سوسا عرفت باسم مسلة النصر.

أما بالنسبة لبلاد عيلام ، فقد اخمد نرام– سين في بداية حكمه التمرد الذي قامت به اربع مدن عيلامية ثم اتصفت العلاقات مع بلاد عيلام بالهدوء حيث عقدت معاهدة مع ملك اوان دونت في ستة أعمدة على وجهي لوح طيني عثر عليه في مدينة سوسا. وقد دونت المعاهدة باللغة الأكدية بخطها المسماري. وينص احد بنود المعاهدة على ان ملك اوان يعد نفسه عدواً لمن يعادي نرام– سين وصديقاً لكل صديق له.

أما بالنسبة الى بلاد آشور، فيبدو انها كانت تؤلف جزءاً مهماً من اراضي الدولة الأكدية. ويتأكد ذلك اثارياً في عهد خلفاء سرجون حيث تم الكشف في كل من نينوى وآشور على ابنية وآثار مكرسة للملوك الأكديين في حين قام بعض الملوك الأكديين انفسهم بتشييد بعض الأبنية. وربما قام ريموش خليفة سرجون بتشييد مدينة تحمل اسمه على بعد بضعة كيلومترات الى الشمال من مدينة نينوى[1] وتشير بعض النصوص الى ان آشور كانت قد اتخذت قاعدة انطلاق عسكرية الى المناطق المجاورة. كما تم الكشف عن قصر مهم في مدينة آشور يشبه في طرازه القصور الأكدية. ولابد من الاشارة هنا الى القناع البرونزي الذي عثر عليه في نينوى ويظن انه يعود الى الملك سرجون او الى حفيده ، كما تم العثور في السنوات الاخيرة في محافظة دهوك على تمثال شاب جالس القرفصاء مصنوع من البرونز وقد فقد رأسه والجزء العلوي من الجسم ، وهو اصغر حجماً من الحجم الطبيعي وعليه كتابة

---

(١) انظر جون برتزو وآخران ، الشرق الأدنى ، ص١١٢.

تحمل اسم نرام– سين.[1] وهكذا تؤكد الآثار المكتشفة ان بلاد آشور كانت جزءاً من الدولة الأكدية.

ومما يذكر عن حكم نرام– سين انه يبدو ان كان اول ملك في تأريخ العراق القديم كتب اسمه مسبوقاً بالنجمة، وهي علامة دالّة كانت توضع عادة قبل اسماء الآلهة، مما يشير الى انه الّه نفسه خلاقاً لما كانت عليه العادة حيث كان الملك في نظر العراقيين القدماء من البشر الا انه كان ممثلاً للآلهة على الأرض ونائباً عنها. كما ان نرام– سين لقب نفسه بملك الجهات الأربعة، وهو لقب كان يستخدم في وصف الآلهة فقط.

وهكذا ارتفع شأن الدولة الأكدية في عهد نرام– سين، ومعها ارتفع شأن مدينة أكد: العاصمة. وان كنا لانعرف الكثير عن مدينة اكد وعن الحياة فيها لأننا لم نكتشف بعد [illegible]ها، فإنه من الممكن ان نقرأ عنها ما كتبه احد الكنية القدماء وهو يرثي مدينة اكد التي دمّرها الكوتيون، ويصف لنا المدينة قبل ان تمتد اليها يد الغزاة فيقول.

«في تلك الأيام كانت مساكن اكد مملوءة بالذهب
بيوتها الساطعة اللامعة مملوءة بالفضة
والى مخازنها كان يحمل النحاس والرصاص وحجر اللازورد...
عجائزها وهبن سداد الرأي
وشيوخها وهبوا وضاحة اللسان
وشبابها عرفوا ببطش السلاح
وصغارها منحوا قلوباً مرحة...
البلاد كلها كانت تعيش في امان
وملكهم الراعي نرام– سين
يخطو كالشمس نحو عرش اكد المقدس
اجل! لقد كانت اسوارها تطاول السماء كالجبال الشاهقة...»[2]

كان نرام– سين آخر الملوك الأقوياء، وتشير الاخبار المتأخرة إلى ان حكمه انتهى بتجمع الاعداء عليه وحدوث الاضطرابات فدبّ الضعف في ارجاء الامبراطورية.

---

(١) طارق مظلوم وفوزي رشيد، دراسة تمثال اكدي من البرونز، سومر، ٣٢ (١٩٧٦) ص٤١– ٥٨.

(٢) انظر فاضل عبدالواحد، وثيقة حرب التحرير، في: الجيش والسلاح، بغداد، ١٩٨٨، ج١، ص١٥٤.

خلف نرام– سين في الحكم ابنه مشاركالي شاري "ملك كل الملوك"، وقد استغلت بلاد عيلام فرصة وفاة نرام– سين ونقضت المعاهدة واستقلت عن الدولة الأكدية بل انها هاجمت الأراضي الاكدية اكثر من مرة. كما صادف في هذه الفترة بداية تدفق اقوام جزرية جديدة من جهة الغرب عرفت بالأقوام الامورية التي اصبح لها دور رئيس في الأحداث السياسية فيما بعد. الا ان الخطر الرئيسي الذي كان يواجه الدولة الاكدية كان قادماً من الشرق، من الأقوام الكوتية القاطنة في المنطقة الجبلية الى الشرق من بلاد اكد. وكانت هذه القبائل الكوتية تغير على حدود الدولة الاكدية الشرقية وتنهب وتسلب المدن الحدودية الى ان تمكنت اخيراً من شن هجوم كبير وكاسح قضى على الدولة الاكدية. فحلت الفوضى والارتباك السياسي في ارجاء البلاد الى درجة ان جداول الملوك السومريين تذكر انه في السنوات التي اعقبت حكم شاركالي شاري مباشرة لم يكن يعرف (من كان الملك ومن كان غير الملك)، وتستمر جداول الملوك في ذكر اسماء اربعة ملوك آخرين حكموا جميعهم ثلاث سنوات واعقبهم ملكان حكما مدة طويلة نسبياً ومهما كانت الاوضاع متردية، فيظهر ان الكوتيين لم يسيطروا الا على بلاد اكد، وهي القسم الوسطى من العراق. ويبدو ان حكم الملكين الاخيرين من السلالة الاكدية كان معاصراً لوجود الكوتيين اما لأنهما كانا تابعين للسلطات الكوتية اوانهما حكما في الأجزاء التي لم يسيطر عليها الكوتيون.

وهكذا اسدل الستار على اول امبراطورية عرفها التأريخ القديم ووقعت بلاد سومر واكد تحت الاحتلال الأجنبي لما يقرب من مائة سنة.

سياسة الملوك الاكديين:

كان توحيد دول المدن السومرية وضمها في دولة مركزية واحدة مالبثت ان غدت امبراطورية مترامية الاطراف تعد الاولى من نوعها في التأريخ القديم من الاحداث الجسام التي مرت على العراق القديم. لم يكن تحقيق ذلك، كما رأينا، من الامور الهينة والبسيطة بل تطلب الدخول في صراعات عنيفة وحروب طاحنة ومواجهة تحديات كبيرة ووضع سياسة ادارية جديدة، وهذا ماشرع سرجون مؤسس الدولة الاكدية تنفيذه.

كما ان حقيقة ان سرجوناً كان من الأقوام الجزرية الاصل واعتماده على العناصر الاكدية في ادارة المقاطعات والاقاليم وقيادة الوحدات العسكرية له اثره في الطابع العام الذي اتسمت به الحضارة في هذه الفترة. والى جانب سيادة الاقوام الاكدية الجزرية الاصل التي لابد وان ادخلت معها عناصر حضارية خاصة بها، فقد غدت اللغة الاكدية لغة رسمية في البلاد الى جانب اللغة السومرية ودونت بالكتابة المسمارية التي كان قد ابتدعها السومريون لتدوين لغتهم. ومع ذلك، وعلى الرغم من سيادة الاقوام الاكدية، فان ذلك لايعني انه كان هناك صراع قومي بين السومريين والاكديين بل ان دراسة النصوص السومرية والاكدية المكتشفة ومتابعة تطور الاحداث تشير الى عدم وجود اي صراع قومي اساسه التميز بين العناصر السومرية والعناصر الاكدية وان الاجراءات التي اتخذها الحكام الاكديون في قمع واخماد الفتن والتمردات لم تقتصر على المدن السومرية بل شملت المدن التي يمثل الاكديون غالبية سكانها ايضاً، كما ان قوائم اسماء الاشخاص واسماء الحكام تشير هي الاخرى الى ان السومريين كانوا يعيشون بسلام جنباً الى جنب مع الاكديين دونما تمييز عرقي، وكذلك كانت الحال في عهد سلالة اور الثالثة التي كان حكامها من السومريين.

ومع قلة المعلومات المتوافرة لدينا عن الحياة العامة في عهد الدولة الاكدية، فان النصوص المكتشفة بالرغم من انها مقتضبة وذات مواضيع محددة الا انها تشير الى انه لم يكن هناك صراع ديني بين الاقوام الاكدية والسومرية او بين المدن المختلفة، ربما لان سرجوناً واتباعه لم يأتوا بمعتقدات جديدة او يركزوا على عبادة اله قومي معين، حيث كان العراقيون القدماء يعتقدون بتعدد الالهة وكان لكل مدينة الهها الحامي في تصور القوم.

ولتحقيق طموحاته الواسعة في تأسيس دولة مركزية مترامية الاطراف، عمد سرجون الى هدم الاسوار التي كانت تتحصن بها المدن الرئيسة والتي كانت تمثل عواصم الدويلات السومرية السابقة. ويبدو ان الهدف من هذه السياسة اضافة الى أن المدن لم تعد بحاجة الى اسوار تحميها من هجوم الاعداء طالما اصبحت جزءاً من دولة كبيرة واحدة تحمي حدودها الخارجية قطعات عسكرية ثابتة، فأن هدم الاسوار يمنع احتمال وقوع اي تمرد او ثورة ضد السلطة المركزية من قبل حكام المدن وحكامها معتمدين في ذلك على تحصين المدينة وسهولة حمايتها ومقاومة السلطة المركزية.

وبالنسبة الى الجيش ، فقد كان على سرجون ان يبني جيشاً قوياً بعدده وعدته كفوءً بتدريبه وادارته مقتدراً على خوض معارك في مناطق وبيئات مختلفة بعيدة عن مركز الدولة . فكان ان استحدث الجيش الدائم ، او النظامي ، ليكون مستعداً طوال الوقت لحماية حدود الدولة الواسعة ويعمل على اخماد أية ثورة او فتنة قد تحدث في الاقاليم المختلفة ، كما زود الجيش باسلحة خفيفة يمكن حملها بسهولة والتنقل بها الى مسافات بعيدة وادخلت اساليب جديدة في القتال تتلاءم والبيئات المختلفة التي كان على الجيش الأكدي ان يقاتل فيها وتواجه اسلحة الاعداء المختلفة ايضاً بأختلاف المناطق والبلدان ، وربما كان اعتماد سرجون وخلفائه على بعض القطعات الخاصة ، التي كانت نواة الحرس الملكي ، المجندة من العناصر الاكدية . ولابد ان كان لطبيعة الاقوام الاكدية الجزرية الاصل اثره في ادخال بعض اساليب القتال الجديدة التي لم تكن معروفة في العصور السومرية السابقة كالمبارزة الفردية وسرعة الحركة في القتال مما ينسجم وطبيعة الحياة البدوية .

أما بالنسبة الى النظام الاداري الذي اتبعه الملوك الاكديون ، فقد كان نظاماً مركزياً بالتأكيد حاول توحيد الانظمة التي كانت سائدة في دول المدن السومرية السابقة بقالب جديد ذي طابع اكدي ، الا ان معلوماتنا عن ذلك قليلة وذلك لقلة النصوص المكتشفة ومع ذلك فانها تشير الى توحيد التقويم المستخدم في المدن المختلفة وتوحيد اسلوب المحاكمات من خلال القسم باسم الملك الى جانب اسم الاله .

وأخيراً لابد من الاشارة الى النتائج الحضارية التي اسفرت عن قيام الدولة الاكدية وامتداد نفوذها الى مناطق بعيدة حيث انتشرت الحضارة العراقية واثرت في المناطق التي وصل اليها الاكديون الى درجة شاع استخدام اللغة الاكدية وخطها المسماري في بعض تلك المناطق ، مثل بلاد عيلام وآسيا الصغرى وتأثرت مناطق اخرى بالافكار والمعتقدات والفنون العراقية القديمة كما تؤكد ذلك المكتشفات الأثرية فيها .

الغزو الكوتي

كانت بلاد سومر واكد ، كما سبق أن أشرنا اكثر من مرة ، اقليماً مفتوحاً امام القبائل الجبلية وغيرها القاطنة الى الشرق منها لايفصلها عنها اي حاجز طبيعي حتى شواطىء نهر دجلة الشرقية ، كما كان لغنى ارض العراق الزراعية الخصبة ومياهها العذبة الوفيرة اثره في ان تتطلع تلك القبائل دائماً للسيطرة على السهل الرسوبي ومدنه العامرة وتشير جداول الملوك السومريين التي دونت في اواخر الالف الثالث قبل الميلاد الى ان الملكية انتقلت من بلاد سومر الى مدن عيلامية الى الشرق من بلاد سومر اكثر من مرة ، وهذا يشير الى غزوات كانت قد قامت بها الاقوام العيلامية الى بلاد سومر وقضت على السلالات الحاكمة فيها وانتزعت منها الملكية ، كما تذكر الجداول .كما كان من مهام الملوك الاكديين الرئيسة والاولى القيام بحملات عسكرية تأديبية الى المنطقة الجبلية الواقعة الى الشرق والتي كانت قبائلها تغير على الحدود الاكدية كلما سنحت لها الفرصة ووجدت ضعفاً في الحكومة ، او الحكومات ، المركزية في بلاد سومر واكد.

ولقد انتهزت القبائل الجبلية فترة ضعف الدولة الاكدية عندما تولى الملك شاركالي شرّي الحكم فيها وبدأت تتحرش بحدود الدولة الاكدية الشرقية ، ويشير اسم احدى سنوات حكم هذا الملك بانه جرّد حملة على الكوتيين وانتصر عليهم واسر ملكهم ، الا ان الاخبار التالية تؤكد أن الكوتيين قاموا بعد ذلك وفي عهد هذا الملك نفسه بهجومهم الكاسح على بلاد سومر واكد وقضوا على السلالة الاكدية ، فحلت الفوضى في البلاد وقد عبّرت جداول الملوك عن هذه الفوضى بالعبارة (من كان الملك ومن كان غير الملك).

وكان الكوتيون من الاقوام الجبلية غير المتحضرة ولا يعلم اصلها العرقي وهل كانت من الاقوام الهندية – الاوربية ام لا ، حيث لم تدون اللغة الكوتية ولا يعرف عن الكوتيين الا اسماء ملوكهم الواردة في جداول الملوك السومريين وما كتبه السومريون والاكديون عنهم . وقد ورد ذكرهم في الفترات المتأخرة على هيئة «قوتو» واشير اليهم في اخبار الملوك الآشوريين وحملاتهم العسكرية . ولم يترك لنا الكوتيون اثاراً مادية يمكن التعرف من خلالها عليهم حيث كانوا اقل حضارة من سكان بلاد سومر واكد.

وقد رافق هجوم الكوتيين على بلاد اكد تخريب وتدمير لمعظم المراكز الحضارية وفي مقدمتها مدينة اكد. ويصف لنا اوتو حيكال، القائد السومري الذي حرر البلاد من الاحتلال الكوتي كما سيأتي ذكر ذلك فيما بعد، جموع الكوتيين البربرية حيث يقول عنهم :

الكوتي افعى وعقرب الجبل
الذي رفع يده ضد الالهة .
ونقل ملوكية سومر الى بلاد اجنبية
وملأ سومر بالعداوة والبغضاء
لقد اختطف الزوجة ممن كان له زوجة
واختطف الولد ممن كان له ولد
واقام العداوة والعصيان في البلاد...[1]

وتعد فترة الاحتلال الكوتي فترة مظلمة في تأريخ العراق القديم لتوقف عجلة التقدم الحضاري اولاً ولندرة مالدينا من معلومات عن هذه الفترة ثانياً. ويبدو ان التسلط الكوتي لم يكن عاماً وشاملاً حيث ان الكوتيين لم يسيطروا على جميع انحاء الدولة الاكدية ولعلهم بعد ان قاموا بتدمير وتخريب المدن، انسحبوا الى الجهات الشمالية ولا سيما منطقة كركوك، واختاروا مدينة ارابخا (كركوك) مركزاً لهم على ما يرجح[2] .

وتذكر جداول الملوك السومريين اسماء واحد وعشرين ملكاً من الملوك الكوتيين الذين حكموا في بلاد سومر واكد مدة ١٢٥ سنة، ولايعرف عن هؤلاء الملوك الا اسماؤهم وبعض المعلومات القليلة جداً عن بعضهم. وقد اتسمت هذه الفترة في تأريخ العراق القديم بالفوضى السياسية والارتباك حيث كان الكوتيون يعبثون بأمن البلاد وينهبون اموال المواطنين كما تشير الرسالة الاتية التي ارسلها شخص يدعى اشكون – دكان الى شخص آخر يقول فيها :

«احرث حقلك واحرس ماشيتك، وقبل كل شيء لاتقل لي ان الكوتيين من حولي وانني لا استطيع حرث الحقل... واذا ماحاول الكوتيون الهجوم عليك فاجلب الماشية الى المدينة، لانه عندما أخذ رجال من الكوتيين

---

(١) فاضل عبد الواحد، وثيقة حرب التحرير، ص ١٦٤
(٢) طه باقر، المقدمة، ٣٧٤

الماشية منّي في السابق فاني لم استطع النطق بكلمة
واحدة... والان فاني اقسم بحياة الملك شاركليشاري انه
اذا ما اخذ رجال الكوتيين الماشية ولم تستطع ان تدفع لي
من جيبك الخاص فاني لن ادفع لك ثمنه عندما آتي الى
المدينة. والان ارجوك ان تحرس الماشية».[1]

وكعادة الكتبة العراقيين القدماء في رثاء بعض المدن المهمة مابعد سقوطها ونسبة ذلك الى غضب الالهة لعمل معين قام به احد الملوك، فقد وصف لنا شاعر سومري الكوتيين من خلال رثائه لمدينة اكد قائلاً:

شعب لايخضع وبلاد (شعبها لايحصى)
بلاد الكوتيين، البلاد التي لايكبح جماحها
...
(هؤلاء) جاء بهم انليل من الجبال
وباعداد ضخمة فغطوا الارض كالجراد
وامتدت ايديهم اليه (شعب سومر؟) في السهل
كأنها مصيدة لبهائم (؟)
فلم يفلت من يدهم شيء
ولم يهرب من يدهم احد
فلم يعد الرسول يسير على الطريق
ولم يعد الملاح يمخر بقاربه النهر
وال... ماعز الاله انليل التي افلتت من حظائرها
جعلها راعيهم (الكوتيون) تتبعه
والابقار التي افلتت من حظائرها
جعلها راعيهم تتبعه
وعلى الاشجار (؟) على ضفاف النهر وضع الرقباء
وعلى الطرقات اقيم اللصوص

(١) انظر Oppenheim, Letters from Mesopotamia, 1967, p.71–72

وفي مداخل بوابات البلاد اصبحت الابواب مغطاة بالتراب
واطلقت كل البلاد صرخة حزن من اسوارها ... [1]

سلالة لجش الثانية

وعلى الرغم مما احدثه الغزو الكوتي لبلاد سومر واكد من تخريب وتدمير وما نتج عن ذلك من ارتباك وفوضى سياسية ، فلقد تمكنت بعض المدن السومرية القديمة الاستقلال عن سيطرة الكوتيين. وكانت مدينة لجش التي كان الاكديون قد اعادوا بناءها من بعد التدمير الذي اصابها في عهد لوجال زاجيزي ، احدى تلك المدن التي استعادت سالف اهميتها ميناءاً نهرياً ولعدم وجود حكومة مركزية قوية ، فقد تمكن حكام لجش من توسيع حدود سلطانهم الى خارج حدود دولتهم الاعتيادية واسسوا سلالة جديدة عرفت لدى الباحثين بسلالة لجش الثانية ، وقد امدتنا النصوص السومرية التي خلفها لنا حكام لجش انفسهم بمعلومات مفصلة عن نشاطاتهم العمرانية والعسكرية والاقتصادية على الرغم من ان جداول الملوك السومريين لم تذكر شيئاً عن هذه السلالة وكان حاكم لجش الرابع جوديا اشهر اولئك الحكام واكثرهم نشاطاً حيث امتدت سلطته لتشمل نيبور والوركاء وجهز حملة على بلاد عيلام وتؤكد النصوص التي خلفها على تقواه ونشاطاته في بناء وتجديد المعابد وقيامه بواجباته الدينية . كما ادعى علاقات تجارية واسعة مع عدد من البلدان التي تقع ماوراء الخليج العربي ، وهي مگان وميلوخا ودلمون السابق ذكرها اضافة الى مناطق اخرى في آسيا الصغرى وايران [2] . الا ان قوة لجش لم تستمر طويلاً بعد جوديا وان اعقبه في الحكم ابنه ثم حفيده ثم عادت لجش لتقع تحت نفوذ قوى محلية اخرى .

يعد عهد سلالة لجش الثانية بحق انبعاثاً جديداً للتراث الحضاري السومري حيث نشطت التآليف الادبية وازدهرت الحركة العمرانية ونشطت التجارة الخارجية ولاسيما في عهد جوديا . وتعد النصوص التي خلفها لنا جوديا فضلاً عن اهميتها الادبية واللغوية ، اطول نصوص ادبية سومرية وصلت الينا لحد الآن وخير ما يمثل لنا اللغة السومرية ابان نضجها [3]. وقد دونت بعض هذه النصوص على اسطوانات من الطين في حين دونت نصوص اخرى على تماثيل جوديا الشخصية .

---

(١) فاضل عبد الواحد علي ، اقدم حرب للتحرير عرفها التأريخ ، سومر، ٣٠ (١٩٧٤) ، ص ٥٣
(٢) انظر ساكز، عظمة بابل ، ٧٣ .
(٣) طه باقر، المقدمة ، ٣٧٦ .

وعلى الرغم من الاستقلال الذي كانت تتمتع به مدينة لجش والذي ربما كان مرهوناً بالاعتراف بسيادة الحكام الكوتيين الاجانب، فقد كانت عامة السكان المحليين، من سومريين واكديين، ينظرون الى الوجود الكوتي في بلادهم بانه احتلال اجنبي يجب التخلص منه باسرع مايمكن، لذا كانت الظروف مهيأة، كما يبدو، للثورة على الغزاة وشن الحرب على المحتلين. وكانت مدينة الوركاء من المدن السومرية المهمة في هذه الفترة حيث ظهر فيها حاكم وقائد عسكري اعلن الثورة ضد الكوتيين وجنّد جيشاً كبيراً لمقاتلتهم واثار الحماسة في النفوس للتخلص من الاحتلال. وقد وصلت الينا تفاصيل ذلك مدونة على وثيقة سومرية تعود لهذا الحاكم السومري وهو اوتوحيكال، الذي قاد الحرب ضد الكوتيين وانتصر عليهم ونصب نفسه ملكاً على الوركاء وحكم فيها مدة ثمان سنوات فقط.

وجرياً على عادة العراقيين القدماء المعتمدة على معتقداتهم الدينية فقد نسبت وثيقة التحرير شن الحرب على الكوتيين الى الالة حيث تذكر ان الاله انليل هو الذي امر اوتوحيكال بشن الحرب على الكوتيين وطردهم من البلاد لانهم امعنوا في ظلمهم وتعسفهم في معاملة الناس. "فوّض الاله انليل ملك البلدان، الرجل العظيم اوتوحيكال ملك الوركاء، ملك الجهات الاربع، الملك الذي لايخالف احد امره ان يحطّم اسم "الكوتي" افعى وعقرب الجبال الذي رفع يده ضد الالهة، الذي نقل ملوكية سومر الى بلاد اجنبية، وملك بلاد سومر بالعداوة، الذي ابعد الزوجة عمن كانت له زوجة، وابعد الطفل عمن كان له طفل والذي اقام العداوة والعصيان في البلاد...". لذا بادر اوتوحيكال وقدم الصلوات والادعية ملتمساً تحقيق الانتصار عليهم وبدأ بتجميع قواته لخوض المعركة. وتتحدث وثيقة التحرير عن لقاء بين القائد اوتوحيكال وجنده المحتشدين من ابناء المدينة وخطابه فيهم واثارته لحماسهم واعدادهم لخوض المعركة. وقد سار الجيش بقيادته وتجمع الجند من حوله، وكان يقوم في كل يوم بتقديم القرابين والصلوات الى الالهة حتى كان اليوم الخامس حيث التقى باثنين من مبعوثي الملك الكوتي لاسباب غير معروفة. وفي اليوم السادس بدأ زحف الجيش واخيراً تتحدث الوثيقة عن المعركة الفاصلة بين الجيش السومري بقيادة اوتوحيكال والجيش الكوتي بقيادة تريكان، وكيف احرز السومريون نصراً حاسماً على المحتلين وانهزم الملك الكوتي تريكان والتجأ الى مدينة دبروم "ثم سار اوتوحيكال الملك الذي منحه انليل القوة والذي اختارته الالهة اينانا الى قلبها، الرجل العظيم... الى

المعركة من الوركاء ضد (تريكان) ... عندئذ تملك الفرح اهالي مدينة الوركاء واهالي مدينة كولاب وتبعه رجال مدينته وكأنهم رجل واحد ... وفي اليوم السادس وصل الى كاركار... وكان الكوتيون قد جمعوا قواتهم في ذلك المكان ... غير ان اوتوحيكال ، الرجل العظيم ، تمكن من دحرهم واسر قائدهم . وعندئذ فرّ تريكان والتجأ الى مدينة دبروم".

وسرعان ماالقى رجال المدينة القبض عليه وعلى افراد عائلته وسلموهم الى مبعوثي الملك اوتوحيكال .

وتختم الوثيقة بالقول انه جئ بالملك الكوتي ليركع عند قدمي اوتوحيكال في الوركاء وان الملك السومري وضع قدمه على رقبة تريكان تعبيراً عن اندحاره وهزيمته :

"ولكن رجال دبروم ... القوا القبض على تريكان وعائلته ووضعوا القيد في يديه ... ولما جلب تريكان امام اوتوحيكال التي بنفسه عند قدميه ... فوضع اوتوحيكال قدمه على رقبته ... وهكذا اعاد الملوكية الى بلاد سومر."[1]

وقد ظل هذا الانتصار الذي حققه اوتوحيكال وطرده للكوتيين من بلاد سومر واكد خالداً في ذاكرة الاجيال ولأزمان طويلة حيث ذكر في بعض نصوص الفال البابلي التي تشير الى ان الانتصار الحاسم وقع في اليوم الرابع عشر من شهر تموز حيث حدث في ذلك خسوف للقمر، لذلك اتخذ سكان وادي الرافدين من ذكرى النصر على الكوتين فالاً حسناً حيث ورد ذلك كما يأتي :

" اذا خسف القمر في اليوم الرابع عشر من شهر تموز فهو نذير للملك الكوتي : سوف يسقط الكوتيون في المعركة وتتحرر البلاد".

وعلى الرغم من الانتصار الكبير الذي حققه اوتوحيكال على الكوتيين ، فان حكمه كان قصيراً حيث لم يستمر اكثر من سبع سنوات انتقلت بعدها السلطة الى احد موظفيه المسمى اور- نمو الذي كان حاكماً على اور. ولايعرف مااذا كان اور- نمو قد ثار على سيده واغتصب منه السلطة ام انه جاء الى الحكم بعد وفاة اوتوحيكال .

---

(١) انظر: فاضل عبدالواحد ، السومريون والاكديون في العراق في التأريخ ، بغداد ، ١٩٨٣ ، ص ٧٩-٨٠.

٣- سلالة اور الثالثة (٢١١٣- ٢٠٠٦ ق.م)

تعد سلالة اور الثالثة ، او امبراطورية اور الثالثة كما يسميها بعض الباحثين[١] آخر سلالة سومرية تولت السلطة السياسية وبانهيارها في اواخر الالف الثالث قبل الميلاد ينتهي دور السومريين السياسي ، الا ان ذلك لايعني نهاية لدور السومريين الحضاري بل أن تأثيرهم الحضاري ظل واضحاً وعميقاً في مختلف جوانب الحياة ، وبنحو خاص في المجالات الدينية والعلمية ، الى فترة متأخرة نسبياً ، بل ان اللغة السومرية التي توقف استخدامها لغة رسمية بعد عهد سلالة اور الثالثة ظلت تستخدم لتدوين بعض النصوص الدينية والعلمية ذات الاهمية الخاصة حتى اواخر الالف الاول قبل الميلاد[٢]. حكمت سلالة اور الثالثة اكثر من مائة سنة (٢١١٣- ٢٠٠٦ ق.م) تعاقب على الحكم فيها خمسة ملوك من اسرة واحدة.

فقد تمكن اوتو حيكال من طرد الكوتيين والقضاء على آخر حكامهم وذلك في حدود عام ٢١٢٠ ق.م ، واتخذ من مدينة اوروك (الوركاء) عاصمة له ، وقد خصصت له جداول الملوك السومريين حكماً دام سبع سنوات ونصف ثم تذكر الجداول : «دُحرت اوروك ونقلت ملوكيتها الى اور» ، ومن ثم تذكر اسم مؤسس السلالة الجديدة في مدينة اور وهو الملك اور-نمّو وتخصص له فترة حكم دامت ثماني عشرة سنة.

اور-نمّو مؤسس سلالة اور الثالثة

وتشير النصوص المتوفرة من جانب آخر الى ان اور- نمّو ، وهو سومري الاصل كما يشير الى ذلك اسمه ، كان حاكماً في مدينة اور في فترة الاحتلال الكوتي لبلاد اكد وربما كان احد الزعماء السومريين الذين تعاونوا على طرد الكوتيين مع اوتو حيكال كما يمكن استنتاج ذلك من حقيقة ان اوتو حيكال نفسه عيّنه شاجناً šagin ، اي حاكما ، او حاكما عسكرياً ، على مدينة اور. ولاسباب وظروف غير معروفة ، ثار على اوتو حيكال واستقل عنه ، وهذا ما تشير اليه عبارة جداول الملوك الآنفة الذكر والتي تنص على ان اوروك دحرت

---

(١) جين بوترو واخران ، الشرق الادنى ، ص ١٣٥

(٢) انظر عامر سليمان ، اللغة الاكدية ، ص ٣٣- ٣٦

ونقلت ملوكيتها الى اور، الا ان هذه العبارة قد لاتعني مايفهم منها ظاهرياً حيث انها العبارة التي استخدمتها جداول الملوك مراراً للدلالة على انتقال الملكية من مدينة الى اخرى سواء كان الانتقال نتيجة اندحار عسكري ام لا وليس من المستبعد ان اور–نمّو استقر بمدينته اور واعلن نفسه ملكاً فيها من بعد وفاة سيده اوتو حيكال[1]

وبقيام سلالة اور الثالثة[2] واعادة وحدة بلاد وادي الرافدين الى ما كانت عليه في عهد الدولة الاكدية ، عاد استخدام اللغة السومرية لغة رسمية في البلاد. ومع ذلك فقد ظلّت اللغة الاكدية مستخدمة على نطاق واسع ، ولاسيما في بلاد اكد ، لغة مخاطبة وتدوين ، فكان هناك صراع لغوي استمر لفترة طويلة وكانت الغلبة في نهاية المطاف الى اللغة الاكدية ، وهو امر طبيعي طالما كانت الاقوام الجزرية القادمة من جهة الغرب والتي كانت تتكلم لهجة جزرية قريبة من اللهجات الاكدية ، مستمرة في تدفقها نحو بلاد وادي الرافدين وتغلغلها بين السكان حتى غدت العناصر الجزرية التي تتكلم اللغة الاكدية تؤلف الغالبية العظمى من السكان وذلك في العصر البابلي القديم في حين كان عدد السومريين في تناقص مستمر نتيجة اندماجهم مع الاكديين وقد استحدث ملوك سلالة اور الثالثة لقباً جديداً هو لقب «ملك بلاد سومر واكد» فضلاً عن الالقاب القديمة الاخرى ، تأكيداً منهم على عدم وجود صراع قومي بينهم وبين الاكديين ، كما تسمى ثلاثة من ملوك السلالة ، وكذلك احدى ملكاتهم ، باسماء اكدية . وقد يفسر ذلك ايضاً على نحو عكسي بالقول انه لولا وجود نوع من الصراع القومي بين السومريين والاكديين لما لجأ الملوك السومريون الى التأكيد على انهم ملوك بلاد سومر واكد ولما تسمى بعضهم باسماء اكدية ، ومع ذلك فإن الاحداث التالية تؤكد عدم وجود مثل هذا الصراع .

ومع كثرة عدد النصوص المسمارية المكتشفة من عهد سلالة اور الثالثة ، وغالبيتها معروفة باللغة السومرية ، حيث هناك اكثر من عشرين الف من الرقم القانونية والادارية والاقتصادية التي تم نشرها حتى الآن وربما اكثر من مائة الف رقيم آخر من الرقم المكتشفة

---

(١) المصدر نفسه ص ١٣٧

(٢) توالي على الحكم في سلالة اور الثالثة كل من : اور– نمو ٢١١٣– ٢٠٩٦ ق.م
شولجي ٢٠٩٥– ٢٠٤٨
امار–سين ٢٠٤٧– ٢٠٣٩
شو–سين ٢٠٣٨– ٢٠٣٠
ابي–سين ٢٠٢٩– ٢٠٠٦ ق.م

غير المنشورة ، الا ان معلوماتنا عن هذه الفترة التي دامت اكثر من مائة سنة قليلة ولا تتناسب واعداد الرقم الطينية المكتشفة ومع اهمية الفترة بالنسبة الى تأريخ العراق القديم. ومن اسباب ذلك ان الرقم الطينية المكتشفة جاءت مقتضبة جداً ومليئة بالمصطلحات الفنية الشائعة الاستعمال والتي لاتعطي الا القليل من المعلومات[1] حيث انها غدت اشبه بالكلايش او المصطلحات التي فقدت معانيها الاصلية وظلت تستخدم كصيغ فنية ، كالعبارات المقتضبة التي ترد عادة في عقود الدين والايجار والبيع وعقود الزواج والتبني وغيرها. كما ان غالبية الرقم المكتشفة هي ذات طبيعة اقتصادية او ادارية في حين كان تصيب الرقم التي تتطرق الى الاحداث التأريخية قليل جداً منها. ومع ذلك ، افاد الباحثون من التاريخ المسجلة على هذه الرقم ، حيث ارخت السنون بالنسبة لاهم الاحداث كما افادوا من بعض النصوص البنائية او تلك المدّونة على التماثيل والمسلات وتشير جميع الادّلة الكتابية والآثارية الى رخاء اقتصادي عمّ هذه الفترة [illegible]ـذه النشاطات المعماريه التي اضطلع بها اوررنمو وخلفاؤه والتي شملت معظم مدن بلاد سومر واكد ولكن كان نصيب مدينة اور، عاصمة المملكة بالتأكيد اكثر من غيرها من المدن.

ومن النصوص التأريخية المهمة التي دونت في هذه الفترة والفترة التالية لها مباشرة جداول الملوك السومريين التي سبق ان أشرنا اليها. وقد ذكرت هذه الجداول ان اور—نمّو حكم ثماني عشرة سنة. وتشير احد التراتيل الدينية الى انه طارد فلول الكوتيين، ويذكر اور—نمّو نفسه انه اخضع حاكم لجش في حين تشير احدى الحوادث المؤرخ بها انه مهد الطريق من الجهات السفلى الى الجهات العليا ، اي انه سار من البحر الاسفل (الخليج العربي) الى البحر الاعلى (البحر المتوسط) واذا ماجمعنا هذه النتف من المعلومات مع ما لدينا من دلائل عن الرخاء الاقتصادي الذي عم البلاد في هذه الفترة ، امكن الاستنتاج ان تولي اور—نمّو الحكم كان بداية عهد جديد تميز بقوة الادارة المركزية التي اعادت وحدة بلاد وادي الرافدين الى ماكانت عليه في عهد الدولة الاكدية وان الملك اور—نمّو قضى سنوات عدة من حكمه من اجل توحيد البلاد والقيام بالحملات العسكرية لاخضاع المناطق المختلفة ، وانه كان من نتائج تلك الحملات ايضاً تدفق الغنائم الكثيرة التي كانت من اسباب الرخاء الاقتصادي.

---

(١) ساكز، عظمة بابل ، ٧٤

وتؤكد الادلة المتوافرة الى ان اور– نمو اتبع سياسة ادارية كفوءة للمحافظة على وحدة المملكة مترامية الاطراف وتقليل احتمالات حدوث تمردات داخلية وذلك من خلال السيطرة المحكمة على حكام المدن ونقلهم من مدينة الى اخرى وعدم اعطائهم الفرصة لتقوية علاقاتهم المحلية وارتباطاتهم بالسكان ومن ثم تقوية مراكزهم مما قد يساعد على احتمال التمرد والعصيان ضد السلطة المركزية. كما حاول ملوك اور الثالثة الفصل بين الادارات العسكرية والادارات المدنية وربط القطعات العسكرية بادارات خاصة ترتبط بالملك مباشرة. وللاشراف المستمر على ماقد يحدث في المدن المختلفة فقد اتبع نظام مراسلي الملك ومبعوثيه الى المدن والمقاطعات المختلفة في حين تمت المحافظة على علاقة المملكة بالممالك والبلدان الواقعة خارج حدود بلاد سومر واكد من خلال الممثلين الدبلوماسيين وربما تمت مصاهرات سياسية من اجل ذلك.

وكان طبيعياً ان تقع بلاد آشور ضمن حدود امبراطورية اور الثالثة غير ان معلوماتنا عن تطور الاحداث في بلاد آشور قليلة وإن كان لدينا بعض الاشارات الى المنطقة في الرسائل الملكية التي كان قد ارسلها خليفة اور– نمو الى حكامه في آشور تؤكد ان آشور ونينوى واربيل كانت مراكز ادارية تابعة لملك اور، كما كشف عن آثار معابد شيدت من اجل ملك اور، مثل المعبد الذي شيده زريقوم في نينوى من اجل سيده امار–سين.

ولعل من اهم منجزات اور– نمو المعمارية بناؤه الزقورة في مدينة اور والتي لاتزال بقاياها ماثلة الى اليوم تفصح عن فخامة مشاريع البناء التي اضطلع بها ملوك هذه السلالة، وتعد زقورة اور هذه الاولى من نوعها في تأريخ العراق القديم ثم شاع بناء الزقورات في الفترات التالية وغدت سمة من سمات الحضارة العراقية القديمة لاتخلو مدينة من المدن المهمة منها. ويرى الباحثون ان بناء الزقورة كان تطوراً للمصاطب التي كانت تشيد عليها المعابد عادة في العصور السابقة. والزقورة شكلاً معمارياً عبارة عن صرح مدرج ضخم يتألف من عدة مصاطب ذات قاعدة مربعة او مستطيلة تتناقص من حيث المساحة وتنتهي المصاطب، ثلاثة في العصور المبكرة ووصلت الى سبع مصاطب في العصور المتأخرة، بمصطبة يقام عليها المعبد العالي ويرقى الى هذه المصاطب بواسطة درج خارجي والزقورة بصورة عامة بناء أصم مشيد باللبن وتغلف المصاطب من الخارج بالآجر المفخور والمختوم باسم الملك عادة. اما من الناحية الدينية، فتؤلف الزقورة جزءاً مكملاً للمعبد الارضي حيث كان يظن القوم ان الالهة تنزل في مناسبات معينة، كاعياد راس السنة والزواج المقدس، وكان لابد من اعداد مكان لاستراحتها، فكان ان شيدت الزقورة العالية وفوقها معبد صغير خصص لاستراحة الالهة.

اما قياسات زقورة اور المؤلفة من ثلاث طبقات، فمساحة المصطبة السفلى ٦٢,٥×٤٣ متراً وارتفاعها ١١ متراً والمصطبة الثانية ٣٦×٢٦ متراً وارتفاعها ستة امتار والمصطبة الثالثة التي لم يبق منها الاّ جزء قليل يبلغ ارتفاعها ثلاثة امتار، اي ان ارتفاع الزقورة الكلي كان اكثر من عشرين متراً. وقد خلد اور– نمو بناء الزقورة على منحوتات من الحجر صور عليها الملك واقفاً امام الاله ننا– «لاله القمر، اله مدينة اور» وقفة الخاشع المتعبد وهو يتسلم الاوامر المقدسة الخاصة بتشييد الزقورة.

وفضلاً عن ذلك، قام اور– نمو بعدد من مشاريع البناء ولاسيما بناء المعابد وترميمها في عدد من المدن كما تشير الى ذلك تماثيله الصغيرة المكتشفة والمنحوتة من الحجر او مصنوعة من البرونز المسبوك وعلى هذه التماثيل كتبت نصوص بنائيه قصيرة وكانت التماثيل توضع عادة في اسس الابنية. كما اهتم اور– نمو بحفر القنوات والجداول وكري الانهار وقد دوّنت مثل هذه الاعمال على مخاريط من الطين وجد بعضها في مدينة لجش وغيرها، وكانت مشاريع الري قد اهملت وتخربت ابان الاحتلال الكوتي مما اثر على الحياة الاقتصادية تأثيراً واضحاً.

واخيراً لابد من الاشارة الى الواح الطين التي عثر عليها في مدينة نفر والتي تمثل نسخاً غير كاملة من قانون كان اور– نمو قد اصدره وهو مدون باللغة السومرية ويعد اقدم قانون مدون مكتشف حتى الان ليس في بلاد سومر وأكد فحسب بل وفي العالم قاطبة حيث انه يسبق قانون حمورابي بأكثر من مائتي سنة وقد بقي منه ما يقرب من ثلاثين مادة فقط.

خلفاء اور–نمّو

انتهى حكم اور–نمّو ربما بمقتله في ساحة المعركة واعتلى العرش من بعده ابنه شولجي الذي حكم ثمان واربعين سنة. وقد سنحت لشولجي الفرصة خلال هذه السنوات الطويلة من حكمه ان ينجز الكثير من الاعمال العمرانية ويقوم بالعديد من الحملات العسكرية لتوطيد اركان الامبراطورية. ويبدو ان الوضع السياسي العام في انحاء الامبراطورية كان مستتباً في القسم الاول من حكمه مما فسح له المجال للاهتمام بمشاريع البناء والتعمير والعناية بمشاريع الري، فاكمل بناء زقورة اور وزقورة الوركاء اللتان كان ابوه قد بدأ بها كما جدد معبد نفر في حارة تمأل.

اما النشاطات الحربية ، فعلى الرغم من أن معلوماتنا عنها قليلة لقلة النصوص المسمارية عنها فان الحوادث التي ارخت بها السنون تؤكد قيام شولجي بالعديد من الحملات العسكرية الى الجهات المختلفة بهدف ضمان امن وسلامة الطرق التجارية المؤدية الى مصادر المواد الخام التي يفتقر اليها العراق اولاً ولقمع التمردات التي كانت تهدد حدود المملكة الشمالية الشرقية والشرقية وتحرشات الاقوام الجبلية والاقوام التي عرفت بالحوريين التي كانت تهدد الاجزاء الشمالية من المملكة . وهكذا قام شولجي بعدد من الحملات لتثبيت سيطرته على هذه المناطق وقد اضطر احياناً الى ترحيل بعض القبائل المتمردة واقامة مستوطن لاسرى الحرب بالقرب من مدينة نفر.[1] وفي احيان كثيرة ، وطّد شولجي علاقاته مع البلدان والممالك الاخرى المجاورة بعلاقات دبلوماسية قوية من خلال المصاهرات السياسية حيث زوج ابنته الى ملك ماراخشي شمال غربي عيلام وزوج ابنته الثانية الى حاكم انشان في عيلام ايضاً.

لقب شولجي نفسه بلقب ملك الجهات الاربع ، وهو لقب سبق ان تلقب به نرام– سين حفيد سرجون الاكدي ، وهو اللقب الخاص عادة بالالهة مما يشير الى ان شولجي كان قد آله نفسه كما فعل نرام–سين من قبله ، وتؤكد النصوص المكتشفة من عهده ان القرابين كانت تقدم له في المعبد وان اسمه كتب مسبوقاً بالعلامة الدالّة الخاصة بالالهة وان تراتيل دينية قد نظمت لتمجيده ، وعندما مات دفن في قبر فخم في مدينة اور شيد فوقه معبد فخم لتقديم القرابين له من بعد مماته . ومع ذلك ، فإن تاليه الملك في العراق القديم لايعني ان الملك اصبح مساوياً للالهةالاخرى التي اعتقد القوم بوجودها بل كان في نظرهم ارتفاع شأن الملك الى درجة اله ثانوي حام مما حدا ببعض الافراد ان يسموا اولادهم باسماء يدخل في تركيبها اسم شولجي.[2]

من جانب آخر، ادعى شولجي انه اتقن فن الكتابة والادب وانه كان يعزف على ما لا يقلّ عن ثمان الات موسيقية ، وبذلك فهو اول ملك موسيقار ومثقف. ومن منجزاته الادارية توحيد التقويم في انحاء الامبراطورية حيث كانت العاصمة اور تصدر سنويا الاسم الذي تؤرخ به السنة وتوزع على المدن كافة لاتباعه ، كما عمل على توحيد الاوزان والمكاييل

---

(١) جين بوتر وآخران ، الشرق الادنى ، ص ١٤٤

(٢) طه باقر، المقدمة ٣٨٧

وربما جعلها رسمية ومراقبة ، وقد عثر المنقبون على نماذج من .الاوزان التي كانت تستخدم وهي غالباً على شكل بطة ملتفة الى الوراء باحجام مختلفة ومصنوعة من الحجر وقد نقش عليها اسم الملك ووزن البطة.

توالى على الحكم من بعد شولجي كل من امار-سين ، أ ويورسين حسب القراءة الاكدية للعلامات ، وشوسين وقد حكم كل منهما تسع سنوات . اهتم الملكان ايضا باقامة المشاريع العمرانية في بناء المعابد او ترميمها مما يشير الى الرخاء الاقتصادي واستتباب الامن في عهدهما بصورة عامة ومع ذلك فقد قاما بنشاطات عسكرية ولاسيما في الجهات الشرقية والشمالية الشرقية حيث ارسلت عدة حملات عسكرية لتوطيد الامن والقضاء على تمردات بعض القبائل الجبلية . وقدقدسر كل من هذين الملكين نفسيهما كما فعل شولجي من قبل وفي عهد شوسين بدأ تدفق القبائل الامورية القادمة من جهة الغرب ، وهي قبائل جزرية جاءت اصلاً من شبه جزيرة العرب ، وقد حاول شوسين صد هذه القبائل واقامة سور طويل سمي بسور الاموريين او السور الذي يصد الاموريين ، وقد تمكن فعلاً من صدهم ولكن لفترة مؤقتة حيث استمر تدفق تلك القبائل وزاد ضغطها على حدود المملكة الغربية في عهد ابي-سين اخر ملوك سلالة اور الثالثة .

ابي-سين وانهيار سلالة اور الثالثة :

كان ابي-سين آخر ملوك سلالة اور الثالثة وقد حكم ٢٤ سنة مليئة بالاحداث التي واجهتها المملكة في الداخل والخارج . فمع ان ابي-سين قام ببعض الاعمال العمرانية في السنوات الاولى من حكمه ، كما تشير الى ذلك الحوادث التي أرخت بها السنون ، الا انه كان منشغلاً بالنشاطات العسكرية ومحاولاته اليائسة في توطيد الامن في ارجاء الامبراطورية مما دفعه الى ارسال الحملات العسكرية ولاسيما الى الجهات الشرقية والشمالية الشرقية. ومع ذلك ، كانت بوادر الضعف والانهيار تدب في اوصال المملكة وتعمل على انهيارها بالتدريج .

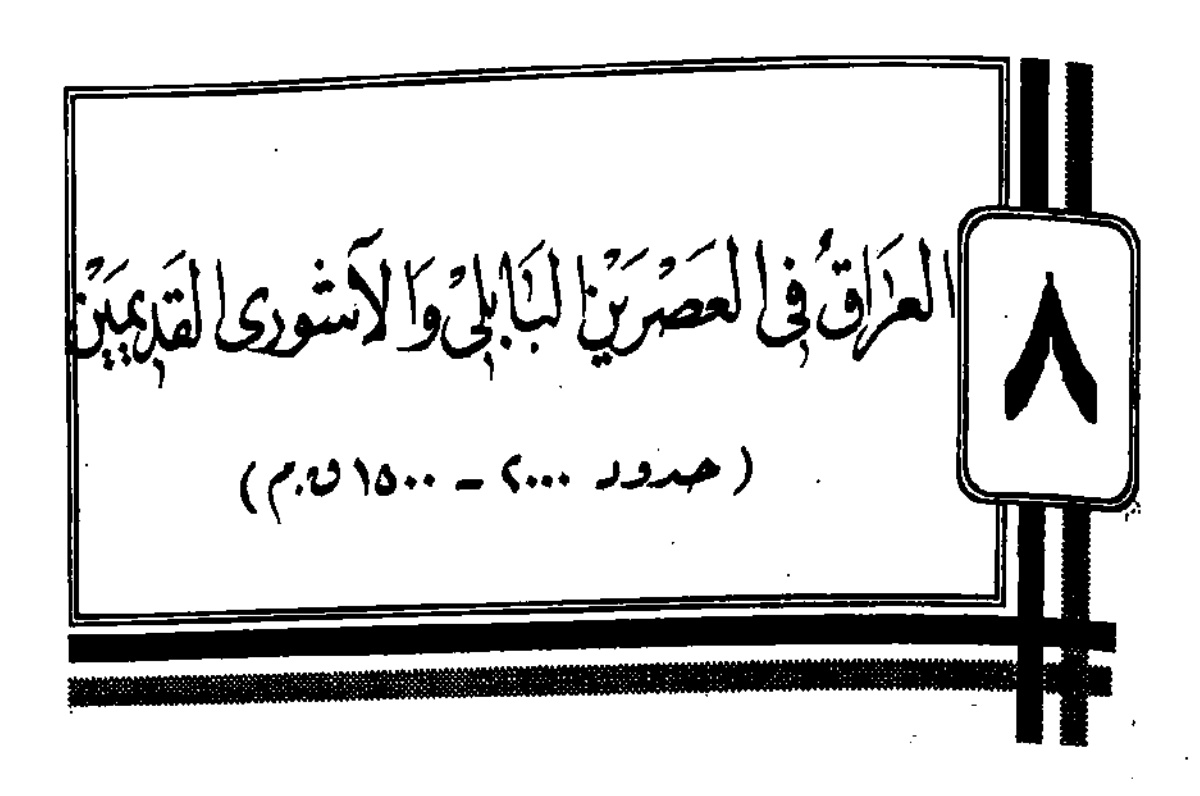
وكانت عوامل الانهيار على نوعين منها الداخلية ومنها الخارجية . فاما الداخلية فتتمثل بضعف السلطة المركزية وضعف السيطرة على المدن والاقاليم المختلفة التابعة للمملكة مما دفع بعض حكام المدن الى الاستقلال والانفصال عن الحكومة المركزية ونبذ الاعتراف بها وبسيادتها ، والدليل على ذلك ان تلك المدن لم تعد تؤرخ السنين بالاحداث التي تقرها وتؤرخ بها العاصمة اور بل استخدم كل حاكم من حكام هذه المدن احداثا خاصة بمدينته

لتأريخ السنين ، كما ان حكام المدن لم يستمروا في ارسال القرابين الخاصة بعبد الاله القمر ننا ، الى مدينة اور الرئيس ، مما يؤكد عدم احترامهم واعترافهم للملك الحاكم في اور وهكذا ظهرت التمردات وعم العصيان في المدن المختلفة رافق ذلك اهمال في مشاريع الري ، العمود الفقري للحياة الاقتصادية ، حيث لم نعد نسمع عن فتح قنوات اوكري انهار في السنوات الاخيرة من عهد سلالة اور الثالثة ، فقلت المواد الغذائية وارتفعت الاسعار ارتفاعاً فاحشاً حتى لم يعد بالامكان توفير مايلزم لاطعام سكان العاصمة فبعث الملك الى بعض حكامه في المدن الاخرى ،مثل حاكم مدينة ايسن المدعو اشبي-ارّا طلباً بارسال الحنطة والشعير وشراءها حتى وان كان السعر مضاعفاً . وقد استغل الحكام ذلك في ابتزاز الملك ومحاولة القضاء عليه وهذا مافعله اشبي-ارّا كما تشير الى ذلك الرسائل التي تبادلها مع الملك ابي-سين .

اما العوامل الخارجية فتتمثل بضغط القبائل الامورية من الغرب وتحرشات ثم هجوم العيلاميين من الشرق . فقد سبق ان اشرنا الى بدء تدفق القبائل الامورية من الغرب ومحاولات شوسين صد هجمات تلك القبائل وبنائه سور على طول الجبهة الغربية ، وقد زادت ضغوط تلك القبائل في عهد ابي-سين وبدأت تتغلغل في اطراف المدن وتنتشر حولها مستغلة الارتباك السياسي وضعف السلطة المركزية في اور ونشوب التمردات في المدن المختلفة . الا ان الضربة القاضية التي انهت سلالة اور الثالثة جاءت من جهة الشرق حيث قامت مملكة عيلام التي كانت قد انفصلت عن اور واستقلت عنها بهجوم عسكري مفاجئ دمّروا خلاله مدينة اور واسروا ملكها ابي-سين وتركوا حامية عسكرية فيها ثم عاد وانسحب الجيش . وقد كان ذلك ايذاناً بنهاية عهد شهد توحيد ارض وادي الرافدين وبداية عهد تمزق سياسي واضطراب في الاوضاع وعودة الى التجزئة استقلت خلاله المدن الرئيسة واقامت كل منها لها سلالة حاكمة كما ستتابع ذلك عند الحديث عن الفترة التالية . كما يشير سقوط سلالة اور الثالثة إلى نهاية السومريين السياسية ونهاية اور كعاصمة للبلاد . وقد وصلتنا قصائد سومرية خصصت لرثاء هذه المدينة التي شهدت عنفوان قوة السومريين وازدهار حضارتهم .

العراق في عصوره التأريخية المبكّرة
(الالف الثالث قبل الميلاد)
اهم السلالات الحاكمة

التأريخ		اهم السلالات الحاكمة
٢٩٠٠	عصر فجر السلالات	كيش ١ اوروك ١
٢٨٠٠	(٢٩٠٠-٢٣٧١)	كيش ٢ اور ١ اوان
٢٧٠٠		لجش ١
٢٦٠٠		كيش ٣ اور ٢ اكشاك [illegible]
٢٥٠٠		كيش ٤
		اوروك٣ ماري
٢٤٠٠	السلالة الاكدية	لوجال زاجيزي اوروكاجينا ماري
	(٢٣٧١-٢٢٣٠)	(٢٤٠٠-٢٣٧١) (٢٤١٥-٢٤٠٠)
		نهاية عصر فجر السلالات وبداية عهد دولة القطر الموحدة
٢٣٥٠	سرجون	
	(٢٣٧١-٢٣١٦)	
٢٣٢٠	ريموش	
	مانشتوسو	
	نرام-سين	
٢٢٥٠	شاركالي شري	الغزو الكوتي
٢٢٣٠	(٢٢٥٤-٢٢٣٠)	(٢٢٥٠-٢١٢٠)
		لجش ٢
٢٢٠٠		(٢٢٠٠-٢١٠٠)
		جوديا
	سلالة اور ٣	اوتوحيكال في الوركاء وحرب التحرير
٢١٠٠	(٢١١٣-٢٠٠٦)	وعودة دولة القطر الواحدة (٢١٢٠-٢١١٤)
	اورنمو	
	شولجي	
	امار-سين	
	شو-سين	
٢٠٠٠	ابي-سين	
	(٢٠٢٩-٢٠٠٦)	
	نهاية اور	- بداية العصر البابلي القديم -



العصر البابلي القديم (٢٠٠٦-١٥٩٥ ق.م)

اصطلح الباحثون على تسمية الفترة الواقعة بين انهيار سلالة اور الثالثة عام ٢٠٠٦ ق. م ونهاية سلالة بابل الاولى عام ١٥٩٥ ق.م. بالعصر البابلي القديم تمييزاً له عن العصور البابلية الاخرى الوسيطةوالحديثة ، وتعد هذه الفترة التي امتدت لاربعة قرون كاملة من فترات الازدهار الحضاري التي مرت على العراق في عصوره القديمة وذات اهمية خاصة بالنسبة لدراسة تاريخ العراق القديم بصورة عامة حيث تم الكشف عن الاف من النصوص المسمارية المتنوعة من العصر البابلي القديم القت ضوءاً ساطعاً على مختلف الجوانب الحضارية. وقد تميزت الفترة بخصائص سياسية وعرقية واقتصادية واجتماعية معينة تمثل قمة النضوج الحضاري في العراق القديم لذا اتخذ الباحثون منها نموذجاً يعكس حضارة العراق القديمة بصورة عامة.

ومما ميز العصر البابلي القديم سيادة الاقوام الامورية وتأثيرها الواضح على مختلف الاوجه الحضارية ، والاموريون فرع من الاقوام الجزرية التي كان موطنها الاول شبه الجزيرة العربية ثم هاجرت الى بلاد الشام واتجه بعضها شرقاً الى وادي الرافدين وتشير الادلة المتوفرة ، ولاسيما الادلة اللغوية ، الى ان الاقوام الامورية بدأت تتغلغل بين السكان بشكل سلمي وواسع منذ اواخر الالف الثالث قبل الميلاد ، كما يستدل على ذلك من وجود اسماء جزرية امورية في قوائم اسماء العاملين في المعابد. وقد حاول ملوك سلالة اور الثالثة منذ عهد شو-سين صد القبائل الامورية ومنعها من الدخول الى المدن ، فبنى من اجل ذلك سوراً ، كما سبق ان اشرنا ، ضخماً على طول الجبهة الغربية سمي بالسور الغربي لصد الاموريين[1] ، لصد هجماتهم وغاراتهم الحدودية ، الا ان تلك الاجراءات لم تات الا بالمزيد من الاقوام الامورية حتى انتشرت في مختلف ارجاء العراق. وقد استغلت هذه القبائل ارتباك الاوضاع السياسية واستقلال بعض المدن عن السلطة المركزية في اواخر عصر اور الثالثة وهجوم العيلاميين على مدينة اور، فسيطرت على الاوضاع السياسية في عدد من المدن في بلاد بابل واقامت لها فيها سلالات حاكمة.

ولم تكن الاقوام الامورية غريبة عن سكان بلاد بابل ، ففضلاً عن انها اقوام جزرية تنتمي الى ذات الاصل الذي تنتمي اليه الاقوام الاكدية التي اسست الدولة الاكدية من قبل ، فقد ورد ذكر الاموريين في النصوص السومرية منذ مطلع الالف الثالث قبل الميلاد بصفتهم بدواً محاربين لايعرفون سكن البيوت ولا الزراعة والحبوب ويعتمدون في قوتهم على استخراج الكمأ من البادية ويأكلون اللحم نيئاً ، ولايعرفون كيف يدفنون موتاهم[2] ، وتشير هذه الصفات التي وصف بها الاموريون ، وهي صفات البدو قديماً وحديثاً الى نظرة السومريين المتحضرين المستقرين في المدن الى البدو المتنقلين ، كما ذكر الاموريون في عهد الدولة الاكدية حيث كانوا يهددون الحدود الغربية مما اضطر احد الملوك الاكديين الى القيام بحملة عسكرية لصد هجومهم.

ويبدو ان هجرة الاموريين الى وادي الرافدين لم تكن على هيئة موجات كبيرة بل على شكل جماعات صغيرة كانت تتغلغل بين السكان وتعيش بينهم وتندمج بهم ، ثم كانت هناك هجرة كبيرة في اواخر عصر اور الثالثة نتج عنها تأسيس سلالتي ايسن ولارسا وربما

١- طه باقر، المقدمة ، ٣٩٠. وقد ارخت احدى سنوات شو-سين بعبارة السنة التي شيد فيها سور الاموريين ، وكان طول السور بحدود ٢٧٥ كم ويظن انه كان يمتد من بلدة الرمادي وينتهي بيغداد والفلوجة.

٢- طه باقر، المقدمة ، ص ٤٠٦.

سلالة اشنونا ايضاً. وبعد زهاء القرن الواحد حدثت هجرة كبيرة ثانية كان من نتائجها تأسيس سلالة بابل الاولى وغيرها من السلالات. ويبدو ان الاموريين انتشروا في مختلف ارجاء وادي الرافدين ، من نهر الفرات الى شرقي دجلة وفي مابين النهرين اضافة الى السهل الرسوبي وذكرت النصوص عدداً من قبائلهم.

اطلق السومريون اسم مارتو Martu على القبائل البدوية القادمة من الغرب ، وتعني الكلمة الغرب ، نسبة الى الطريق الذي سلكته وجاءت منه هذه القبائل بالنسبة الى السومريين. وقد ورد الاسم بالاكدية على هيئة امورو Amuru واموريون ، او عاموريين ، المرادفة من حيث المعنى للاسم السومري مارتو واطلق بعض الباحثين المحدثين على الاقوام الامورية التي دخلت العراق اسم (الكنعانيين الشرقيين تمييزاً لهم عن الكنعانيين الغربيين ، الذين هاجروا الى الساحل السوري باعتبار ان كلتا الموجتين تنتميان الى مجموعة او هجرة جزرية واحدة تفرقت بعد هجرتها فاستقر بعضها في الساحل السوري واتجه بعضها الاخر الى وادي الرافدين وبعد ان استقر الاموريون في بلاد بابل واقاموا لهم عدداً من دول المدن التي مالبثت ان توحدت وضمت الى مملكة حمورابي ، استخدم اسم (البابليين) للدلالة على جميع الاقوام العراقية القديمة التي عاشت في بلاد بابل منذ بداية العصر البابلي القديم ومابعده سواء اكانت تلك الاقوام من اصول امورية ام غيرها ، اي ان التسمية تدل على انتماء السكان الى بلاد بابل ولاتشير الى هوية الاقوام واصولها العرقية.

اما لغة الاموريين ، فهي بالتأكيد لغة جزرية تشبه اللغة الاكدية في جوانب كثيرة وتختلف عنها في بعض التفاصيل الا ان الاموريين لم يستخدموا لهجتهم الامورية للتدوين بعد ان دخلوا بلاد بابل بل استخدموا اللغة الاكدية السائدة ومع ذلك فان تأثيراتهم اللغوية تظهر في اسماء الاشخاص والالهة كما تظهر في اللهجة البابلية القديمة التي انتشرت في هذا العصر ولاسيما في منطقة ماري على نهر الفرات.

شغل العصر البابلي القديم فترة دامت اربعة قرون كاملة من تأريخ العراق القديم (من حدود ٢٠٠٠ الى حدود ١٦٠٠ ق.م) ، تغيرت خلالها الاوضاع السياسية تغييرات جذرية وان كانت الحضارة التي سادت العصر بصورة عامة واحدة.

ويمكن ان نميز من حيث الاوضاع السياسية العامة ، بين فترتين رئيستين اتصفت الاولى بالتجزئة والانقسام وظهور عدد من دول المدن المستقلة في مختلف ارجاء العراق ، وقد سمى بعض الباحثين هذه الفترة بعصر ايسن – لارسا او عصر دول المدن الثاني ، اما الفترة الثانية ، فقد تميزت بعودة البلاد الى عصر الدولة الموحدة التي ضمت جميع دول المدن تحت ادارة مركزية واحدة.

١- عصر ايسن-لارسا

اطلقت هذه التسمية على القسم الاول من العصر البابلي القديم (من حدود ٢٠٠٠-١٧٦٠ ق.م) نسبة الى اهم سلالتين حكمتا في بلاد بابل في اعقاب سقوط سلالة اور الثالثة وهما سلالتا ايسن ولارسا ونظراً لقيام عدد من السلالات الحاكمة في المدن المختلفة في آن واحد فقد سمى بعض الباحثين الفترة هذه بعصر دول المدن الثاني لانها شبيهة من حيث الوضع السياسي العام لما كان سائد في بلاد سومر في عصر دول المدن السومرية كما سبق واشرنا، كما اطلقت تسمية (العصر البابلي الاقدم، على عصر ايسن-لارسا في حين اقتصرت تسمية العصر البابلي القديم على القسم الثاني من هذا العصر.

سلالة ايسن:

استغل اشبي-ارّا، كما سبق ان المحنا، الارتباك السياسي الذي عم ارجاء امبراطورية اور-الثالثة في عهد آخر حكامها ابي-سين وحدة الأزمات الاقتصادية وغلاء الاسعار وتدفق الاقوام الامورية من الغرب، فاستقل بمدينة ايسن التي كان قد عين فيها حاكماً واعلن نفسه ملكاً عليها واقام سلالة جديدة فيها وارّخ السنين بحوادث خاصة بايسن، وقد صادف بعد ذلك بفترة وجيزة ان هجم العيلاميون على العاصمة اور وانهوا سلالتها الحاكمة وتركوا لهم حامية عسكرية فيها، فكانت فرصة مواتية لايسن لان تكون الدولة الوارثة لسلالة اور الثالثة وفعلاً تمكن اشبي-ارّا من السيطرة على عدد من المدن السومرية التي كانت تابعة الى اور ثم توجه الى مدينة اور نفسها وطرد الحامية العسكرية العيلامية وسيطر عليها.[(١)]

ومع ان معلوماتنا عن حكم اشبي-ارّا قليلة نسبياً فانها تشير الى انه وخلفاءه تمكنوا من تثبيت سلطة ونفوذ ايسن وتقويتها ومد نفوذها الى مناطق جديدة، كما عاد نشاط التجارة الخارجية وقضي على الازمة الاقتصادية التي كانت تمر بها البلاد ربما بسبب اهمال مشاريع الري التي اعتمدت عليها الزراعة. الا ان مملكة ايسن لم تنفرد في السيطرة على

١- انظر فاروق الراوي، الصراع مع العيلاميين في الصراع العراقي الفارسي، بغداد، ١٩٨٣، ص ٤٩.

بلاد سومر واكد ، بل قامت سلالة اخرى قوية في مدينة لارسا كانت تدعمها القوات العيلامية. وبمجرد ان بدأ ضعف ينتاب السلالة الحاكمة في ايسن ، بدأت لارسا تنافسها السيطرة على المدن المختلفة وتقطع منها اجزاء من اراضيها ومدنها فسيطرت على مدينة اور ثم مدينة نفر. اما في بابل ، فكان هناك سلالة محلية ضعيفة عرفت بسلالة بابل الاولى تعمل على تقوية نفسها في الداخل غير انها لم تجرأ ان تدخل النزاع الذي كان قائماً بين سلالة ايسن وسلالة لارسا ، وقد قدّر لسلالة بابل الاولى في نهاية المطاف ان تسيطر على جميع العراق كما سيأتي ذكر ذلك فيما بعد. ويبدو ان تتابع الاحداث كان الى جانب سلالة لارسا حيث تمكنت اخيراً سلالة لارسا في عهد ملكها المسمى ريم-سين (عام ١٧٩٤ ق.م) من القضاء عليها نهائياً.

ومما تجدر الاشارة اليه بالنسبة الى حكم سلالة ايسن الذي استمر اكثر من مائتي سنة ، انها كانت الوارثة الشرعية لسلالة اور الثالثة ليس في الحكم فقط بل ومن الناحية الحضارية ايضاً حيث استمر الازدهار الحضاري الذي شهدته سلالة اور الثالثة بعناصره السومرية المختلفة ، وفي المقدمة استخدام اللغة السومرية لغة رسمية واعيد في عهد هذه السلالة استنساخ جداول الملوك السومريين التي سبق ان دونت اول مرة في عهد سلالة اور الثالثة وادخلت اسماء ملوكها السابقين.

وقد اشتهر من بين ملوك سلالة ايسن الملك لبت-عشتار (١٩٣٤-١٩٢٤ ق.م) الذي ينسب اليه ثاني قانون مدون مكتشف حتى الان من حيث القدم حيث لايسبقه الا قانون اور-نمو. كان لبت-عشتار قد دون قانونه باللغة السومرية على مسلة ربما وضعها في احد المعابد الا انه لم يكشف حتى الآن عن تلك المسلة ، وقد تم التعرف على احد الرقم الطينية الذي دون عليه نسخة من قانون لم يبق من مواده سوى ثمان وثلاثين مادة ويظن ان القانون كان يضم اكثر من مائة مادة قانونية.

ومن الطريف ان نشير هنا الى الطريقة التي اعتلى بها احد ملوك ايسن الحكم ، وهو انليل-باني الذي حكم مايقرب من عشرين سنة ، والذي كان قد عين بديلاً عن الملك الاصلي ، وهو ايرا-اميتي ، لفترة مؤقتة ، الا انه ظل في الحكم نتيجة موت الملك الاصلي. فقد كان من التقاليد السائدة انذاك انه اذا ماتنبأ الكهنة بوجود اي نذير شؤم على حياة الملك ، ولقدسية شخص الملك وضرورة المحافظة على حياته من اي خطر او نذير شؤم ، فقد كانت العادة ان يختفي الملك الحقيقي عن الانظار لفترة مؤقتة وينصب بدلاً عنه احد الاشخاص الاعتياديين ملكاً لدفع الشر عن الملك الحقيقي ، وكان الملك البديل يتولى

جميع السلطات ويحكم البلاد طوال فترة اختفاء الملك الحقيقي ولحين زوال الخطر عن حياته ثم ينحى عن العرش ويعود الملك الحقيقي الى العرش. وبالنسبة الى انليل-باني، فقد كان بستانيا يعمل في حديقة القصر وحيث ادعى الكهنة بوجود نذر شؤم على حياة الملك الحقيقي، فقد اختير انليل-باني ليكون ملكاً بديلاً من اليوم الثاني من اعتلاء الملك البديل العرش، فرفض عندها البديل التنازل عن الحكم وظل يحكم المملكة عشرين عاماً. وقد يفسر موت الملك الحقيقي بانه مات غيلة ونتيجة مؤامرة دبرها الكهنة بالاتفاق مع انليل-باني حيث يقول احد النصوص المسمارية الذي يذكر الحادثة انه مات اثر تناوله الحساء. "لكي لاتنقرض السلالة الحاكمة عين الملك ايرا-ايمتي البستاني انليل-باني بدلاً منه على العرش، ووضع التاج الملكي فوق رأسه. ولكن ايرا-ايميتي مات بدلاً منه على اثر تناوله الحساء. اما انليل-باني، فلم يتخلَّ عن العرش بل صار ملكاً حقيقياً.[1]"

سلالة لارسا:

تمكنت السلالة الحاكمة في لارسا اخيراً من القضاء على سلالة ايسن وقد كانت حادثة نهاية سلالة ايسن من الحوادث المهمة التي ارّخت بها السنون. وبدأت قوة لارسا تزداد تدريجياً، ويبدو ان عيلام كانت تساند حكام لارسا. وبعد اختفاء ايسن من مسرح الاحداث السياسية، انحصر الصراع في المنطقة بين لارسا وسلالة بابل الاولى في عهد ملكها حمورابي واستمر الصراع لمدة ثلاثين سنة تمكن بعدها حمورابي من القضاء على آخر حكام لارسا وذلك عام ١٧٦٣ ق . م . وبذلك انطوت صفحة مهمة من صفحات تأريخ المنطقة السياسية حيث سيطر بعد ذلك حمورابي على جميع انحاء المنطقة وقضى على دول المدن المستقلة.

مملكة اشنونا

قامت سلالة امورية اخرى في المنطقة المحصورة بين نهر دجلة ونهر ديالى، وقد عرفت في النصوص المسمارية بمملكة اشنونا نسبة الى عاصمتها مدينة اشنونا (تل اسمر حالياً) وامتد نفوذ هذه المملكة فشمل عدداً من المدن الواقعة في المنطقة ووصلت بنفوذها الى حدود مدينة بغداد الحالية حيث تم الكشف عن عدد من المدن والمراكز الادارية الصغيرة

١ - طه باقر، المقدمة، ص ٤١٢.

اطراف بغداد من التي كانت تابعة لمملكة اشنونا ، منها تل حرمل (شادوبوم قديماً) وتل الضباعي (زرا لولو قديماً) بالقرب من تل محمد اطراف بغداد الجديدة والتي عثر فيها على مئات من النصوص المسمارية .

وكانت مملكة اشنونا ذات اهمية سياسية واقتصادية خاصة وذلك لانها تجاور بلاد عيلام وبلاد اشور ولوقوعها على الطرق التجارية التي تصل بين بلاد اشور والخليج العربي ، لذا ، فقد كانت منطقة اتصلت فيها ثقافات مختلفة من الشرق والشمال الشرقي ومن الغرب والشمال الغربي ، الا انها ظلت تحتفظ بالسمات العامة التي اتصفت بها الحضارة العراقية القديمة .

شهدت منطقة ديالى منذ عصور فجر السلالات ، ازدهاراً حضارياً حيث تم العثور فيها على آثار تدل على ذلك ، وغدت المنطقة جزءاً من اراضي الدولة الاكدية ومن بعدها مملكة اور الثالثة وكانت من المناطق الغنية بمواردها .

دخلت مملكة اشنونا في الصراع والتنافس الذي نشأ بين دول المدن ولاسيما في عهد الملك حمورابي ، وكانت تنضم احياناً الى الحلف المضاد الى حمورابي واحياناً اخرى نراها في حلف مع حمورابي تبعاً لتطور الاحداث السياسية ، غير ان طموحات حمورابي وسياستها الهادفة الى تأسيس دولة مركزية واحدة تضم جميع دول المدن القائمة انذاك حد من قوة اشنونا وغيرها الى ان تمكن حمورابي من القضاء على سلالتها الحاكمة وضمها الى حدود مملكته المتنامية .

ولمملكة اشنونا اهمية خاصة بالنسبة للباحثين في الوقت الحاضر حيث ان التنقيبات الاثرية ، ولاسيما في تل حرمل وتل الضباعي ، قد اسفرت عن الكشف عن الاف من الرقم الطينية ذات الاهمية من بينها لوحين سجل عليها نسختان من قانون يسبق قانون حمورابي بما يقرب من ثمانين سنة وقد سمي بقانون اشنونا لعدم معرفتنا اسم الملك الذي اصدره ، وقد ضم القانون المدون باللغة الاكدية مايقرب من ستين مادة قانونية ، ويعد هذا القانون على درجة كبيرة من الاهمية وذلك لانه تضمن مواد كانت الاساس الذي قام عليه قانون حمورابي فيما بعد ، ولأنه اقدم القوانين المكتشفة المدونة باللغة الاكدية –كما كان من بين النصوص المسمارية المهمة المكتشفة نصوصاً رياضية ضم احدها نظرية هندسية تشبه النظرية المعروفة لدينا بنظرية فيثاغورس الا ان النص المسماري يسبق فيثاغورس اليوناني باكثر من الف سنة .

مملكة ماري :

تقع مدينة ماري (تل الحريري قرب البوكمال في سوريا) على نهر الفرات ، ولموقعها على الطريق التجاري الموصل بين العراق وبلاد الشام ، فقد ازدهرت فيها الحضارة منذ عصور فجر السلالات كما بيّنت ذلك التنقيبات الأثرية التي اجريت فيها ، ثم دخلت ضمن الأقاليم التابعة للدولة الأكدية ومن بعدها سلالة اور الثالثة . وكانت منطقة ماري من المناطق الاولى التي شهدت هجرة الأقوام الآمورية اليها واستقرارها فيها وبعد أن انهارت سلالة اور الثالثة ، استقلت ماري كغيرها من المدن ، واقامت لها سلالة محلية مستقلة امتد نفوذها على طول نهر الفرات والخابور وشملت منطقة عانة . وفي هذه الفترة قامت سلالة آمورية قوية في آشور استغلت فرصة اغتيال ملك ماري اثر مؤامرة داخلية ، وضمتها الى حدود مملكتها وذلك في عهد ملكها شمشي – أدد الأول الذي نصّب ابنه الأصغر نائباً له على ماري . وبعد وفاة الملك الآشوري شمشي – أدد ، استقلت ماري ثانية وعاد اليها ملكها الذي كان قد لجأ الى احدى الممالك السورية ودخلت مملكة ماري الصراع الذي كان سمة بارزة تميز بداية العصر البابلي القديم ، وكانت تنضم الى هذا الحلف او ذاك في سبيل توازن القوى والمحافظة على استقلالها . الا ان تعاظم قوة حمورابي بعد ان ضم الى حدوده مملكة لارسا واشنونا وآشور حال دون بقاء ماري مملكة مستقلة ، فوقعت هي الأخرى تحت سلطة ونفوذ حمورابي وأصبحت جزءاً من مملكته المتنامية .

امدتنا مدينة ماري بمعلومات جدّ غزيرة عن بلاد بابل وآشور في العصر البابلي القديم بصورة عامة حيث تم العثور فيها على مجموعة كبيرة من الرقم الطينة الاقتصادية والقانونية والادارية افادت كثيراً في فهم مختلف جوانب الحياة انذاك . كما تم الكشف عن بقايا قصر زمري – ليم آخر حكام ماري المستقلين الذي ضم اكثر من ٣٠٠ غرفة يشير الى ارتفاع شأن الملك وانفصال السلطة الدينية عن السلطة الدنيوية تماماً .

اضافة الى ذلك ، تم الكشف عن اعداد من المنحوتات المهمة واللوحات الجدارية البرونزية وأبنية كثيرة امدتنا بمعلومات وافية عن طرز العمارة ، وتشير جميع المكتشفات الى رخاء اقتصادي واضح .

مملكة آشور والسلالات الأخرى :

وفي هذه الفترة ايضاً استقلت آشور وقامت فيها سلالة محلية كان اشهر ملوكها شمشي – آدد الأول الذي عاصر في سنواته العشر الأخيرة حمورابي ، وكان على علاقة طيبة مع حمورابي حتى وفاته ، الا ان بلاد آشور وقعت هي الاخرى تحت نفوذ حمورابي في عهد ابن شمشي – أدد كما سنتحدث عن ذلك فيما يلي .

والى جانب الممالك المهمة الآنفة الذكر ، فقد استقل عدد آخر من المدن وقام في كل منها سلالة ملكية حاكمة الا ان اهميتها كانت محدودة وكانت اقرب الى المشيخات او الامارات منها الى الممالك المستقلة ، ومن هذه السلالات سلالة دير ومركزها مدينة دير ، تلول العقر الحالية قرب بدرة على الحدود العيلامية ، وسلالة الوركاء وسلالة كيش وسلالة سپار وغيرها .

٢ – عصر حمورابي :

سمي القسم الثاني من العصر البابلي القديم بعصر حمورابي (١٧٩٢ – ١٧٥٠ ق . م) لأن حمورابي تمكن خلال سنوات حكمه الطويل من ان يوحد جميع الدول التي كانت قائمة في القسم الأول من العصر البابلي القديم في دولة مركزية واحدة يسيطر عليها حمورابي نفسه من عاصمته بابل . وهي المرة الاولى التي تظهر فيها بابل مدينة مهمة وعاصمة لدولة واسعة . حيث قامت فيها في حدود عام ١٨٩٤ ق . م سلالة آمورية حاكمة ضمت في بداية امرها مدينة بابل وما حولها فقط ، وحكم فيها عدد من الملوك في عصر ايسن – لارسا ، الى ان اعتلى حمورابي العرش البابلي وكان تسلسله السادس في السلالة . وكانت بابل عند اعتلاء حمورابي العرش مملكة صغيرة قليلة الشأن ، الا ان طموح حمورابي وسياسته الهادفة وقابلياته الادارية والعسكرية ، رفع من شأن بابل تدريجياً حتى غدت عاصمة لأكبر دولة في المنطقة . وقد عمل حمورابي في سنوات حكمه الاولى على تقوية جبهته الداخلية وبناء قوته العسكرية وتنظيم جهازه الاداري ثم بدأ بالتحرش بالمدن المجاورة لتحقيق سياسته بعيدة المدى ، غير ان قوة الممالك المعاصرة حالت دون ذلك . وكانت الاحلاف بين بعض الممالك ضد بعض آخر تعقد من اجل المحافظة على توازن القوى ، وغالباً مانجد مملكة معينة تنضم الى هذا الحلف ثم بعد فترة تنسحب منه لتنضم الى الحلف المضاد حسب تطور الاحداث السياسية ، ولعل الرسالة الآتية توضح الوضع السياسي العام الذي كان قائماً في بداية عهد حمورابي ، حيث تقول الرسالة :

ليس هناك ملك من هو الاقوى لوحده ، فهناك عشرة او خمسة عشر ملكاً يتبعون حمورابي (ملك) بابل والعدد نفسه يتبع ريم- سين (ملك) لارسا والعدد نفسه يتبع ايبال- بيل (ملك) اشنونا والعدد نفسه يتبع اموت- بال (ملك) قطنا وعشرون ملكاً يتبعون يارم- ليم (ملك يمخد)[1] .

هكذا كان الوضع عندما بدأ حمورابي نشاطاته السياسية والعسكرية ، وقد دخل ، كما تشير الرسالة ، في عقد الاحلاف وفي الصراع الذي كان قائماً بين دول المدن المختلفة . وفي العام السادس من توليه الحكم قام بهجوم على مدينة ايسن والوركاء وضمها الى حدود مملكته ثم هجم على اقليم باموت- بعل التابع لمملكة لارسا وضمه الى حدوده كذلك ، فقوي بذلك مركز بابل وارتفع شأنها بين بقية دول المدن مما دفع الدول الاخرى الى اقامة حلف مضاد لبابل للحد من امتداد نفوذها وسيطرتها على بقية المدن . ويبدو ان حمورابي توقف عن نشاطاته الحربية لمدة عشرين سنة ساد خلالها هدوء نسبي ، والتفت حمورابي الى شؤونه الداخلية وتحصين المدن التابعة له وتنظيم الجيش وتسليحه وتنفيذ عدد من مشاريع الري وبعض المشاريع العمرانية ، كما يستدل على ذلك من الحوادث التي ارخت بها السنون . وفي العام الثلاثين من حكمه دخل الحرب ثانية وقام بالهجوم على مدينة لارسا وانهى سلالتها الحاكمة فاصبح بذلك المسيطر على بلاد بابل باكملها ، وفي السنوات التالية بدأ بتنفيذ خطته الرامية الى ضم جميع الدول والممالك القائمة الى حدود مملكته مبتدئاً باشنونا ثم آشور واخيراً مملكة ماري ، تمكن بعد ذلك من اقامة دولة مركزية واحدة تسيطر على جميع انحاء العراق من اقصاه الى اقصاه بل انه امتد بنفوذه الى بلاد الشام وسيطر على عدد من مراكز الاموريين فيها ، وغدت بعد ذلك مدينة بابل عاصمة لاقوى واوسع مملكة في المنطقة ، وقد رافق الانتصارات العسكرية المتلاحقة التي حققها حمورابي ضد الممالك المعاصرة له انجازات ادارية وعمرانية رائعة . وفي اواخر حكمه اصدر حمورابي قانونه الذائع الصيت الذي نظم بموجبه الحياة الاقتصادية والاجتماعية في البلاد وركز السياسة المركزية التي اراد تطبيقها وقضى على الاختلافات الشكلية في النظم والقوانين المتبعة في الممالك المختلفة التي كانت مستقلة سابقاً .

---

(١) انظر ساكز ، عظمة بابل ، ص ٨٤ . مملكة يمخد احدى الممالك الآمورية التي قامت في شمال سوريا .

وهكذا تمكن حمورابي من صهر دول المدن المختلفة في مملكة واحدة واستخدم في جميع ارجاء المملكة لغة واحدة للادارة والعمل بالرغم من ان السومرية ظلت تستخدم للأغراض الكهنونية ، ونظاماً قانونياً واحداً كما يمكن القول انه جعل لبلاد بابل مجموعة موحدة من الآلهة على راسها الآله مردوخ إله مدينة بابل القومي . وظل التنظيم الاجتماعي والاقتصادي الذي فرضه حمورابي على البلاد واضحاً حتى نهاية تأريخ بلاد بابل.
ولابد من الاشارة هنا الى ان التنقيبات الأثرية التي اجريت في مدينة بابل لم تكشف لنا عن آثار العصر البابلي القديم نظراً لأنها واقعة دون مستوى المياه الجوفية وان معلوماتنا عن بابل في هذا العصر جاءتنا من المدن الأخرى المعاصرة وأحياناً من خارج حدود بلاد بابل نفسها .

وكان غياب حمورابي عن مسرح الاحداث عند وفاته عام ١٧٥٠ ق . م . ايذاناً لضعف مملكته الموحدة القوية حيث لم يكن خلفاؤه من القوة ومن الادارة بحيث يتمكنوا من المحافظة على وحدة المملكة وضمان امن وسلامة اقاليمها كافة . وقد تتابع على الحكم من بعد حمورابي خمسة ملوك لم تخل معظم اعوام حكمهم من الحملات العسكرية التي كانت توجه الى الأقاليم المختلفة ، ولاسيما اقاليم الاطراف ، التي تمردت واستقلت عن الحكومة المركزية وكذلك لصد هجمات الاقوام الغازية من الخارج . وبدأ تغلغل الاقوام الأجنبية القادمة من الشرق الى بلاد بابل وانفصلت فعلاً بعض الأقاليم النائية عن بابل . ففي القسم الجنوبي من بلاد بابل ، في منطقة بلاد سومر ، ثار احد المتمردين واستقل عن الحكومة المركزية وأسس سلالة عرفت في تأريخ العراق القديم باسم (سلالة القطر البحري) لمجاورتها لمنطقة الخليج والأهوار الجنوبية ، وقد ظلت هذه السلالة مستقلة عن بابل حتى حدود ١٥٠٠ ق . م . كما تعرضت بلاد بابل الى تغلغل الاقوام الأجنبية ، وكان أول هجوم واجهته بابل هو هجوم الاقوام الكشية القادمة من المنطقة الجبلية في الشرق وقد تمكنت هذه الأقوام من السيطرة على مدينة اور والوركاء بينما استغلت الفرصة آشور واستقلت هي الاخرى واقامت لها سلالة محلية .

وعلى الرغم من تقلص نفوذ بابل واستقلال عدد من الاقاليم والمدن التابعة فإن الملوك الخمسة الذين اعقبوا حمورابي في الحكم قاموا بعدد من المشاريع العمرانية ومشاريع الري التي حافظت نسبياً على الأوضاع الاقتصادية بصورة عامة . وقد استمر تغلغل الاقوام الكشية ويظن انها اقامت لها مملكة صغيرة في منطقة عانة على الفرات الأوسط منذ اواخر عهد سلالة بابل الأولى .

وقد صادف في هذه الفترة قيام دولة الحثيين القوية في آسيا الصغرى ، والحثيون من الأقوام الهندية - الاوربية التي دخلت آسيا الصغرى منذ مطلع الالف الثالث قبل الميلاد وأسست لها امبراطورية قوية في حدود عصر حمورابي ، وقد امتدت بنفوذها وضمت اليها اجزاء كبيرة من شمال سوريا . ولاسباب غير معروفة حتى الآن قام الملك الحثي مرسيليس الأول بحملة عسكرية قوية قادها بنفسه وباغت بها سوريا ومنها الى بلاد بابل واكتسح خلالها جميع الاقاليم والمدن الواقعة على الطريق حتى وصل الى بابل نفسها ودخلها وذلك عام ١٥٩٥ق.م وانهى سلالتها الحاكمة.

وهكذا انتهت سلالة بابل الاولى ، وبزوالها انتهى العصر البابلي القديم وانتهت انجازات حمورابي العسكرية الباهرة التي حققها من اجل توحيد البلاد ، الا ان انجازاته الادارية وبرامجه السياسية وتنظيماته الاقتصادية والاجتماعية ظلت تؤثر في جميع ارجاء بلاد بابل وآشور حتى بعد زوال حكم سلالته.

ويمثل نهاية سلالة بابل الاولى احدى العلامات الدّالة في التأريخ القديم والممهد وباسلوب مرير لظهور اقوام اجنبية قامت بدور قيادي في المنطقة لعدة قرون كما سيأتي تفصيل ذلك.

٣- اهم الخصائص الحضارية :

تعد فترة العصر البابلي القديم من فترات الازدهار الحضاري المشرقة في تأريخ العراق القديم ونموذجاً للحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فيه وقد استمر لفترة اربعة قرون كاملة اثرت على حياة العراقيين القدماء تأثيراً واضحاً حتى بعد زوال السلطة السياسية لسلالة حمورابي ، بل هناك من يرى ان قانون حمورابي ظل يعمل به لقرون عدة من بعد نهاية حكم حمورابي ليس في بلاد بابل فقط بل وفي بلاد آشور ايضاً... ونستعرض فيما يأتي اهم الخصائص الحضارية التي تميز بها هذا العصر:

١- غلبة الاقوام الامورية الجزرية الاصل وسيادتها من الناحيتين السياسية والحضارية. ولم يكن الاموريون ، كما اشرنا ، اول الاقوام الجزرية التي استقرت في العراق واقامت لها كيانات سياسية فقد سبقتهم الى ذلك الاقوام الاكدية ، الا ان مجئ الاموريين باعداد كبيرة كان له تأثير في التركيب السكاني حيث غدا العنصر الجزري هو

الغالب في العراق القديم عبر العصور التأريخية التالية مما ثبت العناصر الحضارية الجزرية الأصل وفي مقدمتها اللغة والقوانين والعادات والتقاليد وغيرها.

٢- ظلت اللغة الاكدية هي اللغة السائدة والرسمية في بلاد بابل بصورة عامة ولم تستخدم لغة الاموريين الخاصة للتدوين، كما ظل الخط المسماري السومري الاصل مستخدماً لتدوين اللغة الاكدية، وقد عرفت اللغة الاكدية التي سادت في العصر البابلي القديم باللهجة البابلية القديمة واتسمت بانها اكثر اللهجات البابلية والاشورية محافظة على القواعد اللغوية وعلى حركات الاعراب فاصبحت نموذجاً للغة الاكدية فكانت نصوصها، ومنها نص قانون حمورابي، من النصوص الرئيسة التي تدرس حالياً في الجامعات التي تدرس اللغة الاكدية لطلبتها.

٣- شهد العصر البابلي القديم حركة واسعة ونشطة في التأليف والاستنساخ والترجمة فكما اشرنا سابقاً، كان سقوط سلالة اور الثالثة ايذاناً بنهاية استخدام اللغة السومرية، وفعلاً توقف استخدامها لغة رسمية للبلاد وحلت محلها اللغة الاكدية فكان على الكتبة ان يعملوا على تدوين علومهم ومعارفهم المختلفة ومآثرهم باللغة الاكدية كما كان عليهم ان يستنسخوا المهم من التآليف السومرية، ولاسيما ماله علاقة بالناحية الدينية، ويحافظوا عليها او ان يترجموا بعضاً منها وفي احيان كثيرة قاموا بترجمة النصوص السومرية ثم تحويرها وتغييرها لانشاء قطع ادبية ذات طابع بابلي جديد الا ان اصولها ترجع الى اللغة السومرية، ومن اجل تسهيل مهمة الكتبة والقراء السومريين والبابليين على حد سواء، فقد قام بعض الكتبة بتأليف المعاجم اللغوية التي ضمت المفردات والمصطلحات السومرية الفنية والادبية ومايقابلها باللغة الاكدية في حين ضمت نصوص اخرى قوائم باسماء النباتات والحيوانات والأشياء وفضلاً عن ذلك، الفت العديد من القصص والاساطير وكتبت جداول الملوك وغيرها من النصوص المهمة. وحيث ان القوانين البابلية اشترطت تدوين جميع المعاملات اليومية، الاقتصادية والشخصية، فقد وصلت الينا اعداد كبيرة من العقود والوثائق اليومية اضافة الى الرسائل الملكية والخاصة والنصوص الادارية حتى فاق عدد النصوص المسمارية المكتشفة والتي تعود الى العصر البابلي القديم اية مجموعة اخرى من النصوص المكتشفة حتى الان.

٤- تعد النصوص القانونية التي ترقى بتاريخها الى العصر البابلي القديم اهم مجموعة من النصوص القانونية المكتشفة في العراق حتى الان. فاضافة الى المئات بل الآلاف من النصوص القانونية ذات العلاقة باجراءات المحاكم واقضيتها والعقود القانونية

على اختلافها ، فقد وصلت الينا ثلاث مجاميع قانونية مهمة في هذا العصر هي مجموعة قانون لبت–عشتار من سلالة ايسن وقانون اشنونا من مملكة اشنونا وقانون حمورابي .

٥– من التغييرات المهمة التي انتهى اليها التطور السياسي في هذا العصر تعاظم سلطة الملك وانفصال السلطة الدينية المتمثلة بالمعبد عن السلطة الدنيوية المتمثلة بالقصر الملكي . وقد رافق هذا التغيير اتساع في سلطة القصر وبنايته وضخامته يقابل ذلك تقلص في سلطات المعبد وفي ابنيتها وصغر حجمها يؤكد ذلك ماتم الكشف عنه في مدينة ماري حيث كشف عن قصر الملك الحاكم زمري–ليم الذي ضم اكثر من ثلاثمائة غرفة في حين كشف عن عدد من المعابد الصغيرة في المدينة كانت مؤلفة من مدخل المعبد والحجرة الامامية التي تفضي الى الساحة وفيها دكة القرابين ثم حجرة المابين والحجرة المقدسة التي فيها المحراب والدكة لاقامة تمثال الاله ، وتنطبق هذه الظاهرة على معظم المدن البابلية القديمة مثل اشجالي وتل حرمل واور وغيرها .

٦– على الرغم من ان يد التنقيب لم تصل الى الطبقات السكنية التي تعود الى العصر البابلي القديم في مدينة بابل نفسها وذلك بسبب وقوعها تحت مستوى المياه الجوفية فان هذا العصر قد تميز، مع ذلك ، بوفرة المصادر التي امدتنا بمعلومات وافية جداً مقارنة مع العصور العراقية القديمة الاخرى ، فاضافة الى المخلفات المادية الكثيرة والمتنوعة ، كالبقايا المعمارية الكثيرة مثل المعابد والقصور ودور السكن التي كشف عنها في العديد من المدن في منطقة ديالى وعلى نهر الفرات وفي بلاد بابل فقد تم الكشف عن الاف من النصوص المسمارية ذات المضامين المختلفة والتي القت ضوءاً ساطعاً على مختلف الجوانب الحضارية في العصر البابلي القديم والتي بلغ عددها عشرات الآلاف ضمت الكتابات الرسمية وقوائم بأسماء السنين المؤرخة باهم الحوادث ونصوص الفأل والتنبؤ وقراءة الطالع والاثبات الجغرافية والرسائل الملكية والشخصية والوثائق والعقود والنصوص الرياضية واخيراً النصوص القانونية التي سبقت الاشارة اليها فضلاً عن النصوص الادارية والاقتصادية التي تعد بالالاف .

٧– عكست النصوص المسمارية الاقتصادية الكثيرة المكتشفة وكذلك النصوص القانونية النشاط الواضح في التجارة الداخلية والخارجية في العصر البابلي القديم ونشاط القطاع الخاص في هذا المجال مما دفع بعض الباحثين الى وصف المجتمع البابلي في هذا العصر بمجتمع التجار.

٨- تعد فترة العصر البابلي القديم فترة اشعاع حضاري على البلدان والاقطار المجاورة ، فزادت رقعة البلدان المتحضرة ووصلت بعض العناصر الحضارية البابلية ، وكذلك المصرية ، الى سواحل البحر المتوسط واواسط اسيا وجنوب روسيا وجزر البحر المتوسط ، وكان هناك العديد من المراكز الحضارية المهمة في هذا العصر منها بابل واور وماري كما ازدهرت في هذا العصر كل من آشور ونينوى .

العصر الآشوري القديم (حدود ٢٠٠٠ - ١٥٢١ ق.م)

من المفيد قبل الاسترسال في الحديث عن تطور الاحداث السياسية في بلاد بابل في اعقاب انهيار سلالة بابل الاولى ووقوعها تحت وطأة حكم سلالة اجنبية، ان تستعرض تطور الاحداث التي شهدتها بلاد آشور، النصف الثاني من العراق والمكمل لبلاد بابل والمتمثل بالقسم الشمالي من العراق، لفهم تطور الاحداث التالية.

بلاد آشور:

لقد سبقت الاشارة الى بلاد آشور مراراً عند الحديث عن عصور قبل التأريخ والعصور التأريخية المبكرة حتى سقوط سلالة اور الثالثة وتبين لنا كيف ان استيطان الانسان في عصوره الحجرية الاولى في العراق كان في هذا الجزء من العراق في حين لم يكن القسم الجنوبي من العراق الذي عرف فيما بعد ببلاد بابل صالحاً للاستيطان حتى الألف الخامس قبل الميلاد. ومع ذلك، كان النضوج الحضاري في الألف الثالث قبل الميلاد في القسم الجنوبي من العراق وليس في القسم الشمالي منه لأسباب سبق وان تحدثنا عنها والمتعلقة بالدرجة الاولى بطبيعة المنطقة الجغرافية وقسوة تلك الطبيعة في الجنوب مما حفز الانسان ودفعه للعمل المجد المثابر للسيطرة عليها وتسخيرها لخدمته، فكان النضوج الحضاري نتيجة تفاعل الانسان مع الطبيعة وتحديه لها. اما بلاد آشور فقد ظلت تعيش في عصور قبل التأريخ حياة هادئة مستقرة نسبياً ولم تستخدم فيها الكتابة الا بعد قرون عدة من اختراعها واستخدامها في القسم الجنوبي من العراق، بل ان اقدم النصوص التي تم الكشف عنها في المواقع الآشورية حتى الآن تعود الى عصر الدولة الأكدية (القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد) لذلك، فإن معلوماتنا عن تطور الاحداث في بلاد آشور في العصور التأريخية المبكرة (الألف الثالث قبل الميلاد) قليلة ومستمدة غالباً من نصوص وجدت في بلاد سومر وأكد. وقد اشير سابقاً الى ان بلاد آشور بمدنها الرئيسة، نينوى وآشور واربيل، كانت جزءاً مهماً من مملكة سرجون الاكدي وخلفائه، كما تؤكد ذلك الآثار المكتشفة فيها

وتدعمها النصوص المدونة . وفي ابان الغزو الكوتي لوادي الرافدين اصاب المدن الآشورية مااصاب المدن السومرية والأكدية من تخريب ودمار اثبتته التنقيبات الاثرية . وغدت بلاد آشور تؤلف جزءاً من مملكة اور الثالثة التي ضمت جميع مدن العراق تحت سلطة حكومة مركزية واحدة وظلت كذلك حتى انهيار سلالة اور الثالثة امام الغزو العيلامي القادم من الشرق وامام ضغط القبائل الآمورية القادمة من الغرب ، وكانت آشور من جملة المدن الرئيسة التي استقلت عن اور واقامت لها سلالة محلية مستقلة وذلك في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد ، اي في بداية مااصطلحنا على تسميته بالعصر الآشوري القديم الذي يقابل بداية العصر البابلي القديم ايضاً .

وقد تعارف الباحثون على تقسيم التأريخ الآشوري الى ثلاثة عصور رئيسة بدءاً من العصر الآشوري القديم الذي ينتهي بحدود ١٥٠٠ ، والعصر الآشوري الوسيط من حوالي ١٥٠٠ - ٩١١ ق . م . والعصر الآشوري الحديث ، او الأخير ، وينتهي بنهاية الآشوريين السياسية وسقوط نينوى عام ٦١٢ ق . م .

يؤلف الآشوريون العنصر الرئيس الذي عرف في منطقة بلاد آشور منذ مطلع الألف الثالث قبل الميلاد ، وقد عرفت المنطقة باسمهم 'بلاد آشور' (بالأكدية مَت . آشور. كي mat Aššur ki) كما اطلق الاسم على اول عاصمة آشورية ، وهي مدينة آشور القريبة من قلعة الشرقاط الحالية ، وعلى الاله القومي للآشوريين ، الاله آشور. اما قبل الالف الثالث قبل الميلاد ، اي في عصور قبل التأريخ ، فإننا لانعرف الاسم الذي كانت تسمى به المنطقة كما لانعرف هوية السكان ولغتهم ، شأنها في ذلك شأن غيرها من المناطق والاقوام التي لم تصل الينا عنها نصوص مدونة ، وسيلتنا الوحيدة لمعرفة لغة الأقوام وهويتهم القومية . ومع ذلك ، فقد ورد في النصوص المسمارية المتأخرة المدوّنة في اواخر عصر فجر السلالات وفي العصر الأكدي ذكر اقوام سميت بالسوباريين كانت تعيش في الجهات الشمالية من العراق الى الشرق من نهر دجلة وعرفت منطقة سكناهم سوبارتو، غير انه يصعب تحديد المنطقة المقصودة بذلك من خلال ماورد في النصوص المسمارية المقتضبة التي وصلت الينا حتى الآن كما لايمكن التعرف على هوية السوباريين ولغتهم واصولهم العرقية[1] ، وربما كانوا من الاقوام الجبلية التي نزحت الى المنطقة السهلية طلباً للعيش غير

---

(١) حول تفصيل الحديث عن السوباريين وبلاد سوبارتو انظر: جمال رشيد احمد ، دراسات كردية في بلاد سوبارتو، بغداد ، ١٩٨٤ ، صفحة ٣ وما بعدها.

انها عادت وانسحبت عندما تعرضت لضغط الاقوام الجزرية المتزايد القادم من جهة الغرب . وقد ظل اسم السوباريين واسم بلاد سوبارتو يطلق على جزء من شمالي العراق من قبل ملوك سومر واكد في حين تحاشى الملوك الآشوريون استخدام الاسم للدلالة على بلادهم او جزء منها ربما لأنه كان يشير الى العبيد الذين كان يؤتى بهم من هناك .

الآشوريون : -

أما الآشوريون انفسهم ، فهم فرع من الأقوام الجزرية التي هاجرت الى العراق واستقرت في قسمه الشمالي منذ فترة مبكرة من العصور التأريخية وربما كان الآشوريون يؤلفون مع الاكديين الذين استقروا في الجنوب ، موجة جزرية واحدة جاءت عن طريق الغرب خاصة وان اللهجة الآشورية القديمة ، وهي لهجة من لهجات اللغة الاكدية بمفهومها الحديث والواسع ، تشابه الى حد بعيد اللهجة الاكدية القديمة ، اللهجة التي استخدمت في عصر الدولة الاكدية وما قبلها ، الى درجة ظن بعض الباحثين بأنه لابد أن كان الآشوريون يعيشون الى جنب الاكديين اولاً ثم هاجروا الى القسم الشمالي من العراق وبذلك يمكن تفسير هذا التشابه في اللهجات ، الا ان الأدلة الآثارية لاتؤيد مثل هذا الافتراض . وقد تتابعت هجرة الاقوام الجزرية على المنطقة ووصلت جماعات من الهجرة الآمورية الى بلاد آشور اسست لها سلالة حاكمة عرفت بسلالة شمشي - آدد الأول .

يتفق معظم الباحثين على تسمية الفترة الواقعة بين سقوط سلالة اور الثالثة (حدود ٢٠٠٦ ق . م) واواسط الألف الثاني قبل الميلاد (حدود ١٥٢١ ق . م) بالعصر الآشوري القديم قياساً على تسمية العصر البابلي القديم الذي يتزامن معه تقريباً . ولتباين الظروف السياسية والعامة التي مرت بها بلاد آشور خلال هذا العصر الذي استغرق مايقرب من خمسة قرون ، فإن الحديث عن بلاد آشور خلاله سيميز بين ثلاث مراحل رئيسة ضمت المرحلة الاولى تأريخ الآشوريين المبكر في الفترة السابقة لحكم الملك شمشي - ادد الأول ، ابرز الملوك الآشوريين خلال العصر الآشوري القديم ، وضمت الثانية حكم سلالة شمشي - ادد الأول نفسه ، اما المرحلة الثالثة فتشمل البقية الباقية من العصر الآشوري القديم .

تشير المعلومات القليلة المتوافرة لدينا الى ان الأوضاع التي سادت بلاد سومر وأكد إثر سقوط سلالة اور الثالثة والتي اتصفت بقيام عدد من دول المدن المستقلة وعودة البلاد الى عهد التجزئة ، قد شمل بلاد آشور ايضاً ، حيث استقلت آشور واقامت لها سلالة محلية تدير شؤونها . الا ان معلوماتنا عن المرحلة الاولى من التأريخ الآشوري قليلة جداً وتعتمد اساساً على ماورد في بعض النصوص المسمارية المتأخرة ، منها جداول الملوك الآشوريين وبعض النصوص التذكارية وما يمكن ان تعكسه النصوص المسمارية الاكدية المكتشفة في اقليم كبدوكيا جنوب شرقي آسيا الصغرى والخاصة بالمراكز التجارية الآشورية في ذلك الاقليم .

اما جداول الملوك الآشوريين[1] ، فهي قائمة تضم اسماء الملوك والحكام الذين تعاقبوا على حكم بلاد آشور منذ الألف الثالث قبل الميلاد وحتى اواخر القرن الثامن قبل الميلاد . ومع ان المعلومات فيها غير دقيقة الا انها تمثل احياناً مصدرنا الوحيد عن تأريخ الفترة . وتذكر جداول الملوك هذه اسماء اربع مجاميع من الملوك الآشوريين الذين حكموا قبل اعتلاء الملك شمشي – ادد الأول العرش الآشوري ، والذي نعرف عنه اكثر من غيره من مصادر اخرى كما نعرف انه عاصر في سنوات حكمه العشر الأخيرة حكم الملك حمورابي في بابل[2] ، وفي عهد عدد من هؤلاء الملوك ، قامت مراكز تجارية آشورية في آسيا الصغرى امدتنا بمعلومات وافية عنها النصوص المسمارية المكتشفة فيها .

المراكز التجارية الآشورية في آسيا الصغرى :

فلقد كشفت التنقيبات الأثرية التي اجريت في موقع كول تپة (قانش قديماً) في جنوب شرقي آسيا الصغرى ، اقليم كبدوكيا ، عن عدد كبير من النصوص المسمارية المدونة باللغة الاكدية بلهجتها الآشورية القديمة . وبعد قراءة هذه النصوص وترجمتها تبين بأنها تخص احد المراكز التجارية التي كان يقيم فيها عدد من التجار الآشوريون خلال القرنين العشرين والتاسع عشر قبل الميلاد اي في المرحلة الاولى من العصر الآشوري القديم ، وقد امدتنا هذه النصوص ببعض المعلومات المهمة عن حياة اولئك التجار كما عكست لنا جانباً من حياة الآشوريين بصورة عامة حيث تؤكد هذه النصوص التي بلغ عددها اكثر من اربعة عشر الف رقيم ، ان التجار الآشوريين ظلوا يعيشون في قانش وغيرها من المراكز

---

(١) انظر Saggs, H.W.F., The Might That Was Assyria, London, 1984, p.23.

(٢) حول اسماء هؤلاء الملوك انظر عامر سليمان، منطقة الموصل في الالف الثالث قبل الميلاد ، في موسوعة الموصل الحضارية ، موصل ، ١٩٩١ ، ص٦٨ – ٦٩ .

التجارية الآشورية حياتهم الآشورية ويتبعون العادات والتقاليد الآشورية ويقيمون طقوسهم الدينية الخاصة وينظرون الى بلاد آشور بأنها الموطن الأم. لذا كانت هذه المراكز مراكز اشعاع حضاري انتقل من خلالها العديد من العناصر والمقومات الحضارية الآشورية الى بلاد الأناضول سيما وان سكان الاناضول كانوا اقل حضارة من الآشوريين فلم يؤثروا فيهم بل انهم تأثروا بما اتبعه الآشوريون من نظم وتقاليد وما استخدام الخط المسماري وانتشاره في آسيا الصغرى من بعد ذلك الامثال على ذلك.

ويبدو ان علاقة التجار الآشوريين في هذه المراكز مع الامراء المحليين كانت طيبة ووطيدة طالما كانت تجارتهم تدر الارباح على الطرفين وعلى بلاد آشور نفسها بل كانت سبباً من اسباب الرخاء الاقتصادي في بلاد آشور. كما يظهر من الرقم المكتشفة ان التجار الآشوريين الذي عاشوا في تلك المراكز كانوا يمثلون اسراً تجارية آشورية عريقة في تجارتها تقيم في بلاد آشور، وكان الاتصال بينها وبين ممثليها في آسيا الصغرى مستمراً من خلال الرسائل المتبادلة. وكانت الهيئة المشرفة على ادارة كل مركز تجاري تسمى بالأكدية كارُم Karum. وكان للكارُم مكان خاص يقع بالقرب من قصر الحاكم. وكانت وظائف الكارُم وواجباته متعددة ومتنوعة[1]، فكان له محاكمه الخاصة التي تنظر في الخصومات التي تنشب بين التجار. وبعبارة اخرى كان الكارم يقوم مقام الغرف التجارية او نقابة التجار في الوقت الحاضر. وقد عثر بين الرقم الطينية من قانش على بعض الرقم في حالة رديئة وتالفة تبين بأنها تضم مواداً قانونية خاصة بتنظيم نشاط التجار وقد عرفت لدى الباحثين بالقوانين الآشورية القديمة.[2]

مملكة شمشي- ادد الأول:

يشير اعتلاء شمشي- ادد الأول العرش الآشوري عام ١٨١٣ ق.م إلى بداية مرحلة جديدة في تأريخ الآشوريين السياسي، حيث اصبحت بلاد آشور في عهد هذا الملك ولأول مرة مملكة قوية تضم جميع بلاد آشور الاصلية وتتجاوزها الى المناطق والأقاليم المجاورة الى درجة ان بعض الباحثين سماها بامبراطورية شمشي- ادد الاول[3] فكانت من القوى المؤثرة في سير الاحداث ليس بالنسبة للدول والممالك القائمة في العراق فقط بل وكذلك بالنسبة لتلك المعاصرة في بلاد الشام وآسيا الصغرى. وتشير جداول الملوك الآشوريين

(١) انظر مثلاً: سامي سعيد الأحمد، المستعمرة الآشورية في آسيا الصغرى، سومر، ٣٣ (١٩٧٧) ص ٧٠- ٩٦.
(٢) انظر: عامر سليمان، القانون في العراق القديم، موصل، ١٩٧٧، ص ٢٧٥- ٢٧٨.
(٣) انظر Kupper, J.R., The Cambridge Ancient History Cambridge, 1963 ff., Vol. III p.2 ff.

وغيرها من النصوص المكتشفة الى ان شمشي- ادد كان ابن احد الزعماء الآموريين ، وانه بعد أن اعتلى العرش الآشوري بالقوة بدأ بتنفيذ سياسة محكمة تهدف الى تأسيس مملكة قوية تضم جميع المنطقة الواقعة شمالي بلاد بابل ، وقد امدتنا النصوص المسمارية المكتشفة في مدينة ماري على نهر الفرات بمعلومات غزيرة عن مملكة شمشي- ادد وسياسته وخططه التي جعلت منه في فترة وجيزة شخصية من الشخصيات البارزة والمؤثرة في المنطقة. حيث كان يعاصره عدد من الممالك القوية التي تأسست من بعد سقوط سلالة اور الثالثة وبدأت تتصارع ، كما سبق أن ذكرنا ، وتتنافس على السيطرة على الطرق التجارية ، وكان على شمشي- ادد ان يبني مملكة قوية تتمكن من مواجهة تلك الممالك ، وغالباً ما كان يدخل في حلف مع بعضها للوقوف امام بعض آخر. ويبدو انه استغل فرصة حدوث مؤامرة في بلاط مملكة ماري انتهت باغتيال ملكها وهروب ولي عهدها ، فامتد بنفوذه للسيطرة عليها وضمها الى حدود مملكته وتعيين ابنه نائباً له عليها وربما كان هو نفسه وراء تلك المؤامرة.[1] وكان وراء نجاح شمشي- ادد في تأسيس مملكته القوية مقدرته الادارية وحنكته السياسية كما تفصح عن ذلك رسائله الكثيرة الى ابنه ونائبة في ماري ، كما كان للاحتياطات العسكرية التي اتخذها لمواجهة الاخطار والتحديات ولمنع قيام التمردات والمؤامرات ووضع الحاميات العسكرية الدائمية في المدن اثرها في بناء المملكة وقوتها. وقد نشطت المراكز التجارية الآشورية في كبدوكيا ثانية في عهد شمشي- ادد وكان لذلك اثره في الرخاء الاقتصادي الذي عم بلاد آشور.

وكان شمشي- ادد دائم الحركة والتنقل ولم يستقر في مدينة واحدة ويتخذها عاصمة لملكه ، فكان يقيم احياناً في مدينة آشور واحياناً اخرى في نينوى في حين كان يقضي معظم اوقاته في شوبات- انليل[2] الواقعة على اعالي نهر الخابور، وقد وزع نشاطاته العمرانية على مختلف المدن الآشورية.

وكان شمشي- ادد دبلوماسياً بارعاً حيث وطّد علاقاته مع عدد من الممالك في سوريا ، ومنها مملكة كركميش ومملكة قطنا ، بهدف تأمين سلامة القوافل التجارية الآشورية المتوجهة الى الساحل السوري والى آسيا الصغرى ، الا ان علاقته مع مملكة يمخد في شمال

---

(١) ساكز ، عظمة بابل ، ص٨٧.

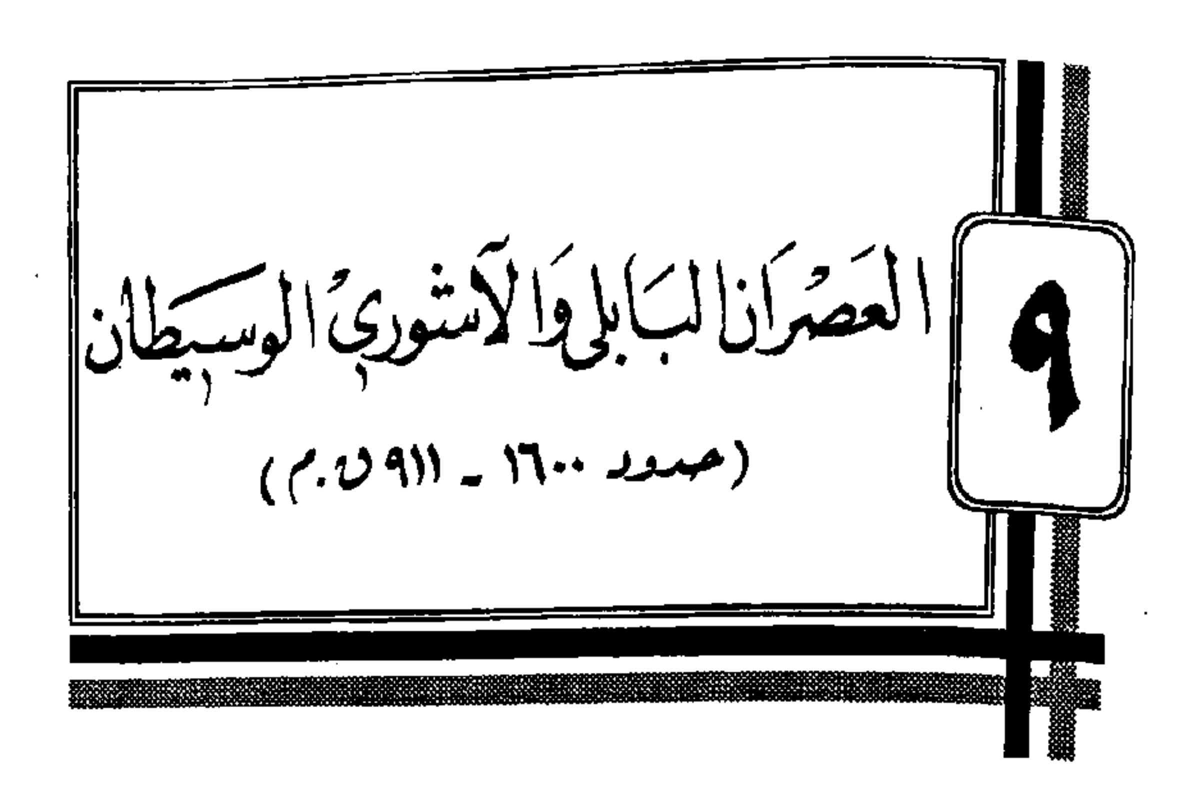
(٢) Kupper, Op. cit., p.8

سوريا (قرب حلب) كانت عدائية منذ ان لجأ اليها ولي عهد ماري الهارب. كما قام شمشي- ادد بعدد من الحملات العسكرية الى المنطقة الجبلية الى الشرق من بلاد آشور وثبت سلطانه عليها. اما بالنسبة الى مملكة اشنونا، فكانت علاقته معها متأرجحة بين الصداقة والعداء تبعاً لتطور الاحداث السياسية في المنطقة وزيادة قوة هذه المملكة او تلك. وكان حمورابي يمثل ابرز شخصية سياسية في بلاد بابل، ويبدو ان علاقته بشمشي- ادد كانت ودية وعلاقة مجاملة حذرة، وربما تحاشى الطرفان المواجهة الفعلية لتصادم مصالحهما ورغبة كل منهما توسيع حدود مملكته على حساب الآخر. وتمكن شمشي- ادد بجهوده المثمرة من توفير الأمن والاستقرار لبلاد آشور لفترة طويلة ونشطت في عهده التجارة الداخلية والخارجية وعم الرخاء الاقتصادي.

توفي شمشي- ادد عام ١٧٨٢ ق.م بعد حكم دام ثلاثاً وثلاثين سنة وهو في عنفوان قوته، وكانت وفاته من الاحداث الجسام في المنطقة الى درجة ارّخت بها السنة من قبل مملكة اشنونا.

كانت وفاة شمشي- ادد نهاية مرحلة مزدهرة من تأريخ الآشوريين القديم وبداية مرحلة جديدة اتصفت بالضعف والانكماش واستمرت حتى نهاية العصر الآشوري القديم.

اعتلى العرش الآشوري اشمي- داجان، الذي كان ابوه قد عينه نائباً له على اقليم اكلاتم شرقي دجلة، غير انه وعلى الرغم من كفاءته وقابلياته الادارية لم يقو على مواجهة التحديات التي واجهته بعد اعتلائه العرش، فقد ثارت عليه معظم الأقاليم التابعة وتقدمت اشنونا بجيشها نحو بلاد آشور وهزم اخوه الذي كان ابوه قد عينه نائباً له على ماري وعاد ولي عهد ماري الهارب الى عرشه واستقل عن آشور ولم يتمكن اشمي- داجان الا ان يحافظ على حدود مملكة اشور الصغيرة التي تقلصت الى ادناها وفقد بذلك جميع الأقاليم التابعة الواقعة خارج حدود بلاد آشور الاصلية. ومع ذلك، تشير جداول الملوك الآشوريين الى ان اشمي- داجان حكم اربعين سنة، وبما كتابع للملك حمورابي، حيث تؤكد المعلومات المتوفرة ان حمورابي ضم بلاد آشور الى حدود مملكته في السنة الثامنة والثلاثين من حكمه وذلك بعد ان كان قد ضم كل من اشنونا وماري. وقد ظلت بلاد آشور جزءاً من مملكة بابل في عهد خليفة حمورابي ثم انسلخت عنها واقامت لها سلالة محلية مستقلة في اواخر القرن الثامن عشر قبل الميلاد ذكرت جداول الملوك الآشوريين اسماء ملوكها، الا انهم كانوا قليلي الشأن ولم تذكر لهم اعمال مهمة، وقد ظلت بلاد آشور تعيش في فترة ضعف وانكماش لمدة طويلة حتى نهاية العصر الآشوري القديم في حدود ١٥٢١ ق.م.



يعد اختفاء سلالة بابل الاولى من مسرح الاحداث السياسية عام ١٥٩٥ ق.م اثر هجوم الجيش الحثي المفاجئ على مدينة بابل وقضاءه على أخر الملوك البابليين من اهم الاحداث التي شهدها تاريخ العراق القديم حيث يشير ذلك الى نهاية عصر ازدهرت فيه الحضارة العراقية القديمة بمختلف مظاهرها في ظل دولة مركزية واحدة ضمت جميع بلاد بابل واشور وامتدت بنفوذها وتأثيراتها الحضارية الى ماوراء ذلك، الى بعض البلدان والاقاليم المجاورة، كما يحدد بداية عصر وقعت فيه كل من بلاد بابل واشور تحت وطأة الحكم الاجنبي لفترات متباينة، استمرت في بلاد بابل لاكثر من اربعة قرون في حين استطاع الاشوريون التخلص من النفوذ الاجنبي بعد مايقرب من مائة سنة من وقوع بلادهم فريسة له، وقد تعارف الباحثون على تسمية هذه الفترة بالعصر البابلي الوسيط، بالنسبة الى بلاد بابل والعصر الاشوري الوسيط، بالنسبة الى بلاد اشور.

اولاً : العصر البابلي الوسيط :

١ – بلاد بابل في فترة السيطرة الكشية :

بعد ان قام الجيش الحثي الغازي بهجومه الكاسح على بلاد بابل ونهب وسلب قصور ومعابد مدينة بابل ودمر وخرب حقولها وبساتينها واسوارها وابنيتها الفخمة، عاد وانسحب راجعاً بشكل مفاجئ وسريع بعد ان سمع قائده مرسيليس الاول بحدوث مؤامرة داخلية في بلاطه الملكي، وقد قتل مرسيليس نفسه بعد عودته مباشرة من قبل اقرب المقربين له، وهو زوج اخته[1]. وقد تركت مدينة بابل بعد غياب السلطة الحاكمة ومقتل اخر ملوكها في فوضى سياسية واضطراب وارتباك عم جميع المنطقة مما مهد الطريق امام غزو الاقوام الكشية وسيطرتها على الاوضاع وتسلمها زمام الحكم في بابل نفسها.

والكشيون[2] من الاقوام الجبلية التي كانت تقطن اصلاً في اواسط جبال زاجروس وهي الجبال التي تفصل بين العراق وايران، وكان يعيش الى جوارها من جهة الشمال الاقوام الكوتية واقوام اللولوبو التي سبق وان تحدثنا عن اعتداءاتها على بلاد سومر وأكد، فكان هجوم الكشيين وغزوهم بلاد بابل حلقة اخرى من حلقات اعتداءات الاقوام الجبلية القاطنة الى الشرق من بلاد بابل التي وجدت من السهل الرسوبي اقليماً مفتوحاً امامها غنياً بموارده الزراعية.

ومع اننا نعرف ان الكشيين جاؤا اصلاً من منطقة جبال زاجروس فاننا لانعرف بالضبط هويتهم القومية حيث انهم لم يستخدموا لغتهم الخاصة للتدوين للتعرف عليها وعلى عائلتها اللغوية ولكن يبدو انهم كانوا محكومين من قبل جماعة ارستقراطية محاربة درّبتهم ونظمتهم عسكرياً يظن انها كانت من الاقوام الآرية، اي الهندية – الاوربية. وهناك اشارات واضحة في النصوص المسمارية الى توغل جماعات من الكشيين الى بلاد وادي الرافدين منذ بداية عهد سلالة بابل الاولى لاقت مقاومة من الملوك البابليين، فاتجهت تلك الجماعات الى الجهات الشمالية الغربية واقامت لها سلالة حاكمة مستقلة في منطقة خانة (عانة حاليا). ولبث الكشيون في منطقة خانة فترة من الزمن وتعاقب على الحكم فيهم عدد من الملوك، كما تشير الى ذلك جداول الملوك، وكانوا يتحينون الفرص

---

(١) ساكز، عظمة بابل، ص٩٢.

(٢) سمي الكشيون بهذا الاسم نسبة الى اسم قبيلة كِشّو Kiššu التي لايعرف اصل اشتقاقها ولعلها كانت تعني القوة والبأس او انها مأخوذة من اسم اله الكشيين القومي.
انظر سامي سعيد الاحمد، فترة العصر الكاشي، سومر، ٣٩ (١٩٨٣) ص ١٣٤

للانقضاض على بلاد بابل متى ضعفت السلطة المركزية فيها ، وجاءت الفرصة الملائمة عندما قتل الملك البابلي وانسحب الجيش الحثي[1] تاركاً فراغاً سياسياً سارع الكشيون الى ملئه . وليس من المستبعد ان الكشيين كانوا قد اتفقوا سلفاً مع الملك الحثي ومهدوا له الطريق لغزو بلاد بابل خاصة وان منطقة نفوذهم وحكمهم كانت على نهر الفرات على الطريق الذي مرّ به الجيش الحثي وهو في طريقه من سوريا الى بلاد بابل. كما يظهر انهم تعاونوا ايضاً مع بقية الاقوام الكشية التي كانت لاتزال تقطن في المنطقة الجبلية لتعاونها في غزو بلاد بابل والسيطرة عليها .

ومهما كان الاسلوب الذي سيطر به الكشيون على بلاد بابل ، فانه من المؤكد انهم كانوا اقواماً اقل حضارة من سكان بلاد بابل الاصليين وانهم كانوا اقلية حاكمة بالنسبة الى عدد السكان لذلك فقد طغت عليهم حضارة بلاد بابل العريقة والراسخة ، فعاشوا في ظلالها واندمجوا بها وانصهروا ببودقتها ، فاستخدموا اللغة الاكدية لغة رسمية لهم ، وربما تعلموها لغة تخاطب ايضاً ، وكتبوا بالخط المسماري البابلي ولم يتركوا لنا نصاً واحداً بلغتهم الاصلية بل لانعرف عن تلك اللغة سوى بعض اسماء الالهة والملوك ذات الصياغة الكشية ، وقلّدوا البابليين في مختلف المجالات فساروا على النظم والقوانين والتقاليد البابلية في اسلوب ادارة شؤون الدولة وتطبيق القانون واجراء المعاملات التجارية وغيرها من النظم والتقاليد الراسخة .

ومع اهمية الفترة التي سيطر خلالها الكشيون على بلاد بابل لمدة جاوزت الاربعة قرون فانها كانت فترة مظلمة في تاريخ العراق القديم مقارنة مع الفترات السابقة لها واللاحقة بها سواء من حيث قلّة المنجزات الحضارية ، واحياناً توقف عجلة التقدم الحضاري بصورة عامة ، ام من حيث قلة مالدينا من معلومات .

فالنصوص المسمارية التاريخية المكتشفة قليلة ، وهي تشير الى عدد واسماء الملوك الكشيين الذين تتابعوا على الحكم في بلاد بابل وان كان هناك ثغرات في سلسلة الملوك لازالت غير معروفة. كما افادت بعض النصوص الاشورية التي دونت في فترة متأخرة في معرفة اسماء عدد من الملوك الكشيين في الاثبات الذي يعرف عادة بالتاريخ التعاصري الذي دوّنه احد الكهنة الاشوريين في القرن السابع قبل الميلاد وذكر فيه اسماء الملوك الاشوريين ومن كان يعاصرهم من الملوك الكشيين وغيرهم في بلاد بابل كما سبق

---

(١) طه باقر، المقدمة ، ص ٤٤٧.

أن المحنا|كما تم العثور على عدد من الوثائق الاقتصادية والقانونية والرسائل التي القت بعض الضوء على جوانب محددة من الحياة في فترة حكم السلالة الكشية في بلاد بابل. وتأتي اهم معلوماتنا عن علاقة الملوك الكشيين بالممالك المعاصرة، ولاسيما مملكة آشور والمملكة المصرية، من مجموعة مهمة من الرسائل الملكية التي تم العثور عليها في موقع العمارنة في مصر الوسطى، وهي موقع عاصمة الفرعون المصري اخناتون في القرن الرابع عشر قبل الميلاد. وقد دونت هذه الرسائل باللغة الاكدية والخط المسماري البابلي وكان قد بعثها حكام وملوك عدد من ممالك بلاد الشام ووادي الرافدين واستخدموا فيها اللغة الاكدية على الرغم من انها لم تكن لغتهم المحلية او الرسمية كما انها لم تكن لغة المصريين مما يشير الى استخدام اللغة الاكدية لغة دبلوماسية للتفاهم بين حكام وملوك الشرق الادنى القديم في هذه الفترة. وفضلاً عن ذلك فقد امدتنا التنقيبات التي اجريت في عدد من المدن العراقية القديمة، وفي مقدمتها مدينة عقرقوف التي تضم بقايا مدينة دور كوريكالزو العاصمة الكشية الجديدة التي بناها كوريكالزو، بمعلومات عن جوانب من الحضارة في فترة السيطرة الكشية.

تؤكد النصوص المسمارية المكتشفة على قلّتها وغموضها ان السلالة الكشية، حكمت بلاد بابل، والتي عرفت بسلالة بابل الثالثة، حيث سميت سلالة القطر البحري بسلالة بابل الثانية، الى حدود عام ١١٥٧ ق. م دون انقطاع تقريباً وليس هناك مايشير الى انها استخدمت سياسة البطش والقمع للقضاء على الثورات الداخلية التي نتوقع انها لابد أن حدثت في المدن البابلية المختلفة التي وقعت تحت السيطرة الكشية. وقد تكشف لنا التنقيبات المقبلة عن نصوص تاريخية تفسر لنا الغموض والظلام الذي يكتنف فترة السيطرة الكشية. ويبدو مما هو متوافر لدينا من معلومات ان الكشيين كانوا قد استخدموا سياسة اللين والترضية تجاه السكان المحليين في حين اتبعوا سياسة التعايش السلمي مع الممالك المعاصرة، ولاسيما مملكة اشور على حدود بلاد بابل الشمالية، وقد يفسر هذا بعض الغموض الذي اشرنا اليه. وهكذا نجد الملوك الكشيين يحترمون عادات وتقاليد ومعتقدات البابليين فاهتموا بتعمير وبناء المعابد واظهروا احتراماً خاصاً للالهة البابلية الى درجة ان احد الملوك الكشيين قام بحملة عسكرية على منطقة خانة من اجل استرداد تمثال الاله مردوخ، اله مدينة بابل القومي، الذي كان قد اخذ بالقوة ربما في اثناء الغزو الحثي لمدينة بابل. ومن سياسة اللين التي اتبعها الملوك الكشيون تخفيض الضرائب وتقليص الخدمة الالزامية العسكرية والاهتمام بالمشاريع العمرانية مما زاد في

الرخاء الاقتصادي[١] . اما بالنسبة لسلالة القطر البحري التي كانت قد تأسست في اقصى جنوب العراق ، فقد تمكن الكشيون من القضاء عليها بحملة عسكرية وجهت الى المنطقة بعد حكم استمر اكثر من مائتي سنة ، كما تشير النصوص المتوفرة الى انه كان هناك مناوشات حدودية مع المملكة الاشورية في الشمال ، الا ان السياسة العامة التي اتبعها الكشيون مع الاشوريين كانت تتصف بانها سارت على مبدأ التعايش السلمي طالما كانت القوتان متعادلتان ، واذا انتاب احداهما الضعف ، تغيرت السياسة . وقد ابرمت مابين الطرفين معاهدات لاقرار الوضع وتثبيت الحدود الا ان الحدود لم تكن ثابتة بل كانت تتوقف على قوة مملكة الاشوريين او مملكة الكشيين[٢] ، وكانت علاقة الكشيين بحكام وملوك الممالك المعاصرة ، كالمملكة المصرية،علاقة ودية طيبة وكذلك بالنسبة للممالك التي قامت في بلاد الشام .

كان الكشيون ، كما تؤكد ذلك الدلائل الاثرية ، اقل حضارة من سكان بلاد بابل الاصليين ، ومع ذلك فان وجودهم كسلطة حاكمة في بلاد بابل لهذه الفترة الطويلة كان لابد أن يترك آثاراً حضارية معينة . وكان من بين العناصر الحضارية التي ظهرت في فترة السيطرة الكشية طريقة جديدة في تاريخ السنين وذلك باعتماد اسماء الملوك وتسلسل سني حكمهم لتاريخ السنين بدلاً من تأريخها حسب الحوادث ، وهي طريقة كانت معروفة سابقاً الا انها لم تكن شائعة الاستخدام كما ان الملوك الكشيين كانوا مولعين باستخدام الخيول ، لذلك شاع استخدام الخيل في السلم وفي الحرب ، كما استخدم الكشيون طريقة تثبيت الاقطاعات الملكية من الاراضي الى الافراد او الجماعات على احجار خاصة عرفت باحجار الحدود كودورُ kudurru ربما كانت تحفظ في المعبد، وكان يدون عليها اضافة الى بعض الرموز الدينية الخاصة بالالهة اسم الملك صاحب المنحة واسم من اقطعت الارض له، وحدودالارض ومساحتها والامتيازات الخاصة بها . وكان شكل هذه الاحجار غير منتظم وهو اشبه بمسلات مخروطية لايزيد ارتفاعها عن متر واحد .

كما كان من السمات الحضارية التي اتصفت بها هذه الفترة من تاريخ بلاد بابل استمرار نشاط حركة التأليف واستنساخ النصوص السومرية والاكدية القديمة ولاسيما النصوص الدينية من قصص واساطير وملاحم والنصوص الادبية على اختلافها . كما دونت في هذه الفترة بعض النصوص الفلكية والطبية الى جانب نصوص الفأل والتنبؤ.

---

(١) طه باقر، المقدمة ، ص٤٥١ – ٤٥٢

(٢) ساكز ، عظمة بابل ، ص٩٥

اتخذ الكشيون مدينة بابل عاصمة لهم وقاموا بتعمير معابدها وتزيينها ، وفي عهد كوريكالزو شيدوا لهم مدينة جديدة اطلق عليها اسم دور- كوريكالزو التي تعرف بقاياها اليوم باسم عقرقوف غربي بغداد. وسموا بلاد بابل نسبة الى احد الهتهم فاطلقوا عليها اسم كاردنياش ، اي بلاد دنياش.

استمرت السلالة الكشية تحكم في بلاد بابل ولم يكن هناك اخطار تهدد كيانها الى ان قويت المملكة الاشورية في الشمال وبدأت تتدخل في شؤون بلاد بابل وذلك منذ عهد اشور- اوبالط (١٣٦٥ - ١٣٣٠ ق. م) ، كما كانت بلاد عيلام تتحين الفرص للسيطرة على بلاد بابل ، وهكذا قام الصراع بين الاشوريين وبين العيلاميين للسيطرة على بلاد بابل وفي حدود عام ١١٥٧ ق. م. قام العيلاميون بهجوم كبير على بلاد بابل قضوا فيه على السلالة الكشية ودمرت بابل وغيرها من المدن وسلبت ونهبت نصبها ومسلاتها وكان من بين المسلات التي نهبت مسلة الملك الاكدي مانشتوسو ومسلة نرام ـ سين ومسلات قانون حمورابي وتمثال الاله مردوخ وبذلك انتهى حكم السلالة الكشية في بلاد بابل.

٢ ـ بلاد بابل في ظل سلالة ايسن الثانية (بابل الرابعة):

لم تكد بلاد بابل ان تخلص من حكم السلالة الكشية الاجنبية حتى وقعت تحت سيطرة العيلاميين الذين تركوا حامية عسكرية في مدينة بابل بعد ان دمّروا المدينة ونهبوا وسلبوا مافيها وقضوا على آخر الملوك الكشيين. ولكن يبدو ان البابليين لم يرضخوا للعيلاميين فعمت انتفاضة وطنية بلاد بابل قادها احد زعماء مدينة ايسن ، وهو مردوخ - كابت - آخيشو، ربما في السنة ذاتها التي احتل فيها العيلاميون مدينة بابل ، اي في سنة ١١٥٧ ق.م ، وقد تمكن البابليون من طرد الحامية العسكرية العيلامية واقامة سلالة جديدة في مدينة ايسن عرفت بسلالة ايسن الثانية ، وسميت ايضاً سلالة بابل الرابعة.

تعاقب على الحكم من سلالة ايسن احد عشر ملكاً حكموا اكثر من مائة سنة (١١٥٧ - ١٠٢٥ ق.م) ، الا ان قوتهم وتأثيرهم على الاوضاع الدولية انذاك كانت محدودة وان تدخل بعضهم في شؤون بلاد اشور. وكان من اشهر ملوك السلالة نبوخذ نصر الاول (١١٢٤ - ١١٠٣ ق.م) الذي عزم على مقارعة مملكة عيلام ، عدوة بلاد بابل التقليدية ، والهجوم عليها في عقر دارها ، ولذلك جهز حملة عسكرية قادها بنفسه وتوجه بها الى بلاد عيلام وربما توغل الى داخل بلاد عيلام لكنه اضطر الى التوقف ثم

الانسحاب بسبب تفشي المرض بين جنوده، ثم عاود الكرة بعد ان استعد للمعركة استعداداً كاملاً وجّند وحشّد القطعات العسكرية بعرباتها الحربية وباغت مملكة عيلام بهجوم كاسح في شهر تموز، اي في وقت غير متوقع نظراً لشدة الحرارة، وحقق انتصاراً حاسماً على الجيش العيلامي. وقد جاءتنا تفاصيل حملة نبوخذنصر الاول على مملكة عيلام مدّونة على حجر حدود (كودورّو) كانت قد نقشت برموز الالهة التقليدية وكتب عليها عمودين من الكتابة المسمارية ضمت تفاصيل حملة نبوخذ نصر الاول الى عيلام وتفاصيل الامتيازات التي منحها الملك الى قائد العربات لبطولاته الفذة في المعركة وقائمة باسماء الاشخاص الذين حضروا اعلان هذه الوثيقة بصفتهم شهوداً عليها واخيراً دعاء موجه الى كل الالهة لانزال لعناتها والحاق الاذى والشر بكل من يحاول تحريف مضمون الوثيقة اوكسرها، وقد عرفت هذه الوثيقة لدى الباحثين المحدثين بوثيقة النصر[1]. ولعل من المفيد ان نقتطع بعض فقرات الوثيقة للاطلاع على اسلوب كتابتها وما ضمته من معلومات:

فبعد ان تذكر الوثيقة القاب الملك وصفاته تقول:

لقد جعله (مردوخ) يحمل سلاحه من اجل الثأر لاكد
فمن الدير، مدينة الاله آنو،
شنّ هجومه لمسافة ثلاثين بيرو (ساعة مضاعفة)
وكانت حملته في شهر تموز
عندما كانت الفؤوس (!) تلتهب كالنار (بايدي الجنود)
والطريق تتوهج كالسنة اللهب
وقد نضبت مياه الابار وانقطعت مياه الشرب
حتى كادت تخور قوى اشد الجياد
وتسترخي ارجل اقوى الابطال

وعلى الرغم من تلك الصعاب استمر نبوخذ نصر، الملك العظيم، وواصل تقدمه، كما تقول الوثيقة وبعدها:

ثم اسرع الملك الصنديد فوصل الى ضفة نهر u.la.a'
واتخذ كلا الملكين موقعيهما ثم اشتبكا في معركة (ضارية)
كانت النيران تندلع (لهوطها) من بينهم

(١) انظر فاضل عبد الواحد، سلالة ايسن الثانية، في: العراق في التاريخ، بغداد، ١٩٨٣، ص١٠٧-١١٨

ثم اظلم «وجه» الشمس بغبار معركتهم
فكأن الزوابع كانت تهب والعواصف تهيج
ووسط عاصفة معركتهم (الضارية هذه)
لم يعد بامكان المقاتل في العربة
ان يرى رفيقه الذي كان الى جانبه
ثم تأتي الوثيقة اخيرا لتحدثنا عن انتصار الملك.
وهكذا خرج الملك نبوخذ نصر منتصراً من المعركة
فاستولى على بلاد عيلام واخذ غنائمها.

وتقديراً من الملك لقائد العربات على شجاعته وبلائه بلاءً حسناً في المعركة امر بتكريمه واعطائه الامتيازات التي دونها على هذه الوثيقة.

ظلت سلالة ايسن تحكم بلاد بابل ولكن صادف في هذه الفترة تعاظم قوة المملكة الاشورية في الشمال ومحاولتها السيطرة على بلاد بابل كما بدأت القبائل الارامية تتدفق الى بلاد بابل واقامت لها عدداً من المشيخات او الامارات وانتزعت السلطة من ملك ايسن.

اعقب سلالة ايسن الثانية جملة سلالات لانعرف عنها شيئاً يذكر باستثناء تسلسلها بالنسبة للسلالات الاخرى واسماء ملوكها كما جاءت في اثبات الملوك البابليين حتى تمكنت المملكة الاشورية في عهد ملكها تجلاتبليزر الثالث (٧٤٥- ٧٢٧ق.م) من السيطرة عليها، وظلت علاقة بلاد بابل ببلاد آشور متأرجحة، فتارة تقع ضمن حدود مملكة آشور وتارة تستقل عنها حتى كانت نهاية الدولة الآشورية عام ٦١٢ ق. م. وقيام سلالة كلدية في بابل عام ٦٢٦ ق.م). كان من اشهر ملوكها الملك نبوخذ نصر الثاني كما سيأتي تفصيل ذلك فيما بعد.

٣ ـ بلاد آشور في العصر الاشوري الوسيط (١٥٢١-٩١١ق.م)

ذكرنا كيف ان بلاد آشور انسلخت عن مملكة حمورابي في عهد خلفاء حمورابي واقامت لها سلالة محلية ضعيفة لانعرف عنها اشياء كثيرة وقد ذكرت لنا جداول الملوك الاشوريين اسماء الملوك الذين تعاقبوا على الحكم في بلاد اشور في الفترة التالية.

وكما وقعت بلاد بابل اثر الغزو الحثي لها لقمة سائغة لسيطرة الاقوام الكشية، كذلك كانت الحال بالنسبة لبلاد آشور حيث تمكنت دولة ميتاني من فرض السيطرة عليها وذلك في مطلع القرن الخامس عشر قبل الميلاد وظلت بلاد آشور تحت السيطرة الميتانية على الرغم من قيام عدد من الملوك فيها الا انهم كانوا ضعفاء وخاضعين للسلطة الميتانية فكانت فترة مظلمة مرت على بلاد آشور استمرت حتى اعتلاء اشور اوبالط العرش الاشوري عام ١٣٦٥ ق. م.

وقد تعارف الباحثون على تسمية العصر الآشوري الذي يبدأ منذ اواسط الالف الثاني قبل الميلاد، اي منذ بدء السيطرة الميتانية على بلاد اشور، وحتى بداية العصر الاشوري الحديث عام ٩١١ ق. م. بالعصر الاشوري الوسيط، اي ان هذا العصر استغرق مايقرب من ستة قرون، وهي فترة طويلة جداً شهدت خلالها بلاد اشور ومنطقة الشرق الادنى بصورة عامة تقلبات سياسية وعرقية مهمة وتغييرات اجتماعية واقتصادية واضحة. وقد واجهت بلاد آشور خلال هذا العصر تحديات صعبة ومخاطر جسيمة كادت تقضي عليها لولا صمود الاشوريين واصرارهم ومقاومتهم التحديات والاخطار وظهور عدد من القادة البارزين الذين تمكنوا من انقاذ بلاد آشور من المحن التي تعرضت لها. ومع ذلك، فقد انتابت بلاد آشور فترات من الضعف والتدهور وقعت خلالها تحت الاحتلال الاجنبي المباشر. وحيث انه كان للظروف الدولية التي مرت بها المنطقة بصورة عامة تاثير مباشر على سير الاحداث السياسية في بلاد اشور وتطورها، لذا كان لابد من المامة سريعة بما كان يجري على الساحة الدولية أنذاك لفهم تطور تلك الاحداث.

ففي اسيا الصغرى وشمال سوريا كانت الاقوام الحثية، وهي من الاقوام الهندية- الاوربية، قد وصلت الى المنطقة وأصطدمت بالدول والممالك المحلية انذاك وتغلبت عليها وتمكنت في حدود ١٧٠٠ ق. م من تاسيس مملكة حثية قوية لها، نمت واتسعت بحدودها ونفوذها حتى شملت منطقة واسعة من شمال سوريا اضافة الى اسيا الصغرى، واصبحت

تهدد الممالك المجاورة وتحد من نشاطها وتعرقل طرق مواصلاتها ، وكان من بين تلك الممالك مملكة آشور ومملكة بابل

وقد تدخلت المملكة الحثية تدخلاً مباشراً في شؤون بلاد بابل كما سبق وذكرنا ، وغزا جيشها بلاد بابل وانهى سلالتها الحاكمة وذلك في حدود عام ١٥٩٥ ق.م. ثم عاد وانسحب تاركاً بلاد بابل. لقمة سائغة لغزو الكشيين الذين سيطروا عليها كما رأينا لاكثر من اربعة قرون. كما قام الحثيون ايضاً بمعاونة اقوام اخرى ، كالاقوام الحورية في اعالي مابين النهرين ، ومدهم بالعون المادي والعسكري من اجل التوغل الى بلاد آشور واقتطاع بعض اجزائها.

وكان تعاظم قوة الاقوام الحورية يؤلف خطراً حقيقياً ومباشراً بالنسبة للدولة الاشورية. فقد تمكن الحوريون من تأسيس دولة مترامية الاطراف عرفت بدولة ميتاني امتدت بنفوذها من بحيرة وان الى نهر الفرات ومن جبال زاجروس الى الساحل السوري وكان الحوريون من الاقوام التي جاءت اصلاً من منطقة القوقاز وانتشرت في شمال سوريا واعالي مابين النهرين واسست لها دولة قوية تمكنت اخيراً من السيطرة على بلاد اشور وغدت من القوى الكبرى في المنطقة. وكانت سيطرتها على بلاد آشور في بداية القرن الخامس عشر قبل الميلاد مقصورة على بعض اجزاء بلاد آشور الشمالية ثم امتدت في نهاية القرن لتشمل كل بلاد اشور فدخلت بلاد آشور بذلك في فترة مظلمة من تاريخها لم يكن لها فيها اي مركز سياسي او قوة عسكرية بل كانت مجزأة الى عدة ادارات تابعة للدولة الميتانية. وكان الاشوريون يقاسون من مرارة الاحتلال الاجنبي ويعملون جاهدين للتخلص منه. وقد ذكرت جداول الملوك عدداً من الملوك الضعفاء التابعين الى ان اعتلى العرش الآشوري الملك آشور- اوبالط الاول (١٣٦٥- ١٣٣٠ ق.م).

اما بالنسبة الى الجبهة الجنوبية لبلاد آشور- فكانت بلاد بابل خاضعة للسيطرة الكشية كما ذكرنا وكان الكشيون يمثلون الاقلية الحاكمة. وكانت علاقة مملكة اشور بالكشيين متأرجحة بين الحرب والسلام تتحكم فيها قوة المملكة الآشورية او ضعفها وكان الكشيون يسعون دائماً الى ان يمدّوا نفوذهم الى بلاد آشور خاصة بعد ان استقلت آشور ونبذت عنها نفوذ الاحتلال الميتاني وهذا ماتفصح عنه رسائل الملك الكشي الى الفرعون

المصري اخناتون والمكتشفة في موقع العمارنة في مصر الوسطى. فكانت هناك مناوشات حدودية احيانا وهناك ايضاً محاولات للتعايش السلمي والتعاون بين بلاد بابل واشور وهذا ماتفصح عنه معاهدات الحدود التي عقدت بين الطرفين.

اما الاقوام الجبلية في الجهات الشرقية والشمالية الشرقية من بلاد آشور فكانت لاتنفك تهدد حدود الدولة الآشورية وتقوم بغاراتها المفاجئة على المراكز الادارية والمدن الحدودية كلما وجدت ضعفاً من الحكومة المركزية.

وقد ظلت بلاد آشور في القسم الاول من العصر الاشوري الوسيط، كما اشرنا، تحت الاحتلال الاجنبي الى ان تمكنت من نبذ الاحتلال وتحقيق الاستقلال وذلك في عهد ملكها القوي آشور اوبالط الاول (١٣٦٥ – ١٣٣٠ ق.م) الذي لم تقتصر جهوده على تخليص بلاد آشور من السيطرة الميتانية الاجنبية بل انه اسهم في اسقاط الدولة الميتانية نفسها مستغلاً الظروف الدولية التي كانت تمر بها المنطقة والاضطرابات الداخلية التي انتابت البلاط الميتاني ومستفيداً من العلاقات الطيبة التي بناها مع كل من المملكة الحثية والمملكة المصرية، فانقسمت بعد ذلك الدولة الميتانية على نفسها وتأسست من اراضيها مملكتان احداهما في اعالي مابين النهرين عرفت في النصوص الاشورية باسم خانيكلبات والاخرى جنوبي بحيرة وان، وكان العداء مستفحلاً بينهما. ويعد حكم آشور اوبالط بداية فترة ازدهار وانتعاش حضاري عم الرخاء الاقتصادي فيها، بل ان بعض الباحثين يعد بداية حكم هذا الملك بداية للعصر الامبراطوري الاشوري.

وكانت نشاطات آشور اوبالط الدبلوماسية وعلاقاته الخارجية واسعة، فقد عمل على تحسين علاقته بالسلالة الكشية الحاكمة في بلاد بابل واتبع معها سياسة التعايش السلمي فاقام علاقة ودية ختمها بمصاهرة سياسية زوّج فيها ابنته من ولي العهد الكشي ولم تلق سياسة التقارب هذه التأييد الكامل في البلاط الكشي حيث ما ان توفي الملك الكشي حتى قامت مؤامرة داخلية اغتيل فيها ولي العهد ونصب بدلاً عنه ملك آخر مما اضطر الملك الآشوري للتدخل المباشر وتنصيب حفيده من ابنته ملكاً على بلاد بابل. ومع ذلك، فبعد وفاة الملك الآشوري، اندلعت الحرب ثانية بين بابل وآشور كان من نتائجها المباشرة اضعاف الطرفين.

وقام آشور اوبالط، ومن جاء بعده من الملوك، بتجهيز الحملات العسكرية الى الجبهة الشمالية الشرقية والشرقية لمواجهة الاخطار والتهديدات التي كانت وراءها القبائل الجبلية وقد اعقب آشور اوبالط عدد من الملوك الاقوياء استمر في عهدهم نمو الدولة الاشورية

وتزايد قوتها ووضوح سياستها ، وكان من جملة المناطق الرئيسة التي شهدت نشاطات عسكرية مملكة خانيكلبات التي جرّد لها الملوك الاشوريين عدة حملات عسكرية حتى ضمت اراضيها الى حدود المملكة الاشورية وغدت تدار من قبل حاكم اشوري بعد ان كانت قد تمردت على الملك الاشوري اكثر من مرة .

وفي عهد شيلمنصر الاول (١٢٧٤-١٢٤٥ ق.م) تظهر قوى جديدة في المنطقة بدأت تهدد الاشوريين كانت اهمها قوة اورارتو التي ظلت من القوى المؤثرة حتى آواخر تاريخ الاشوريين السياسي. وفي عهد توكلتي- ننورتا (١٢٤٤-١٢٠٨ ق.م) ضمت بلاد بابل، ولو لفترة قصيرة، الى حدود الدولة الاشورية، اعقبت ذلك فترة من الضعف والانكماش الذي انتاب المملكة الاشورية استمرت حتى مجئ تجلاتبليز-الاول الى الحكم عام ١١١٥ ق.م.

حكم تجلاتبليز-الاول مايقرب من اربعين سنة (١١١٥-١٠٧٧ق.م)، ووضع الأسس التي قامت عليها سياسة الملوك الاشوريين من بعده، وهي سياسة فرضتها الظروف الصعبة التي كانت تحيط بالدولة الاشورية وتهدد كيانها، لذا اتسمت بالقسوة والشدة في قمع اي عصيان او تمرد والحد من الغارات الحدودية وايقاف تحركات الاقوام والقبائل المجاورة بالقوة ومنعها من التوغل الى داخل بلاد اشور. وهكذا كان حكم هذا الملك والملوك الذي جاؤا من بعده عبارة عن سلسلة من الحملات العسكرية الى الجهات المختلفة تهدف الى تأمين امن وسلامة الحدود الاشورية والدفاع عنها ضد توغل القبائل والاقوام الغازية ومن جهة اخرى تأمين طرق المواصلات المؤدية الى مصادر المواد الخام. وفي هذه الفترة ظهرت قوى جديدة اخرى مثل الكمريين والمشكو في الشمال والآراميين، وهم من القبائل الجزرية القادمة من جهة الغرب. والتي كانت قد انتشرت في بلاد الشام وعلى اطراف حدود بلاد اشور الغربية وكانوا يؤلفون ضغطاً متزايداً على الحدود الآشورية مما دفع بالاشوريين الى تجهيز الحملات العسكرية وصدهم الى ماوراء الحدود الاشورية.

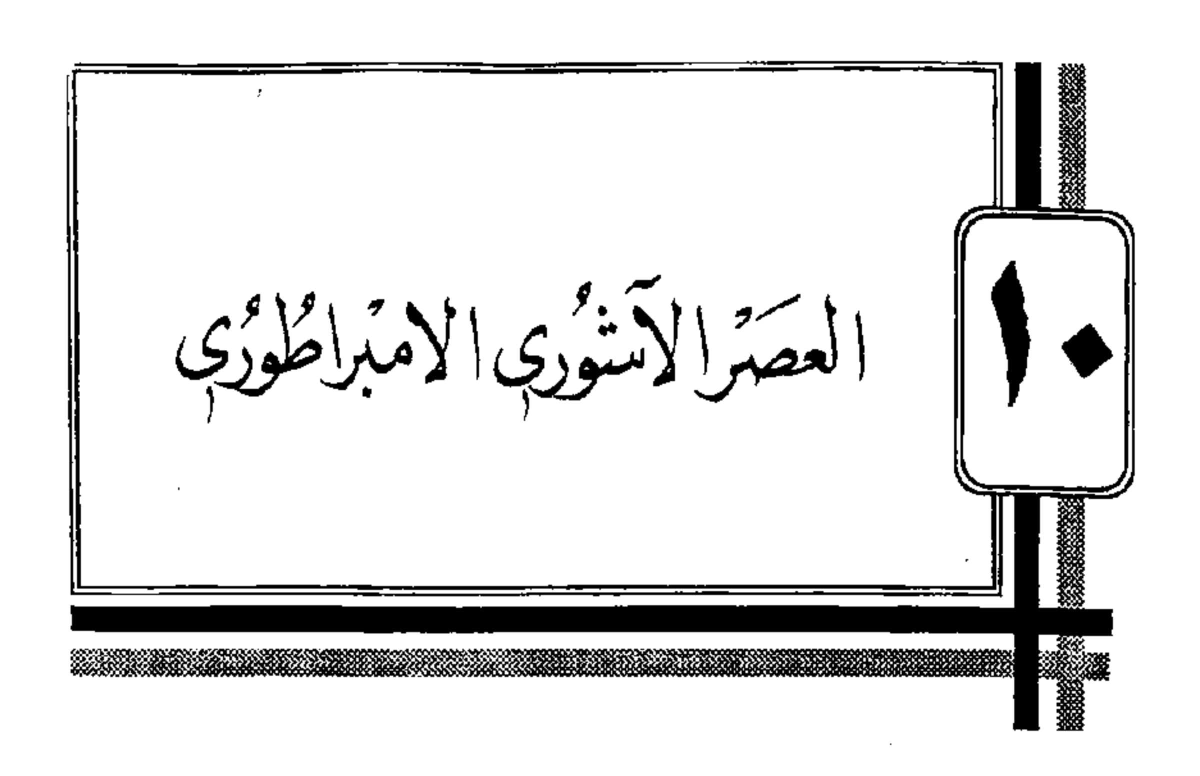
وبعد اغتيال تجلاتبليز-الاول، انتهت فترة الازدهار التي عمت بلاد آشور ودخلت بدلاً من ذلك في فترة مضطربة سواء من حيث المصادر المتوفرة عنها ام من ناحية تعرض الاشوريين الى اشد الاخطار والمحن وهم في اضعف حالة. وكانت تهديدات الممالك الآرامية على اشدها حيث كانت تقتطع الاراضي الآشورية دون خوف من سلطة مركزية او جيش قوي كما كانت عليه بلاد اشور سابقاً.

وتتابع على الحكم في بلاد آشور عدد من الملوك قام بعضهم بحملات عسكرية على بلاد اورارتو وعلى القبائل الارامية، وتحسنت خلال عهود بعضهم العلاقة مع بابل، ربما نتيجة تعرض المنطقتين للاخطار وازدادت الاوضاع تأزماً واضطراباً وفي القرن العاشر قبل الميلاد بدأت الاوضاع تتحسن تدريجياً وبدأ الانتعاش الفعلي والازدهار الواضح في عهد الملك ادد-نراري الثاني الذي اعتلى العرش عام ٩١١ ق.م وعد عهده بداية العهد الاشوري الحديث.

العراق في الالف الثاني قبل الميلاد

	ايسن	لارسا / بابل	ماري	اشور
	اشبي – ارا	العصر البابلي القديم		العصر الاشوري القديم
٢٠٠٠	١٩٨٥–٢٠١٧	(١٦٠٠–٢٠٠٠)		(١٥٢١–٢٠٠٠)
١٩٥٠				
	لبت– عشتار ١٩٢٤–١٩٣٤			
١٩٠٠		سوموابوم ١٨٨١–١٨٩٤	اشطب بابل	ايلوشوما
	انليل–باني			ايريشم الاول سرجون الاول
١٨٥٠	١٨٣٩–١٨٦٢			
		وردسين ريم سين / سين–مبلط	ياجدليم يخدنليم	
١٨٠٠		١٧٦٣–١٨٢٢ / ١٧٩٣–١٨١٢		
		حمورابي ١٧٥٠–١٧٩٢	يسمخ–ادد	شمشي ادد الاول ١٧٨٢–١٨١٤ إشمي–داجان
١٧٥٠				
	سلالة القطر البحري			
١٧٠٠		توحدت بلاد بابل واشور		
١٦٥٠				
١٦٠٠		سمسو–ديتانا ١٥٩٥–١٦٢٥		العصر الاشوري الوسيط ٩١١–١٥٢١
		العصر البابلي الوسيط (١١٥٧–١٥٩٥) الغزو الكشي لبلاد بابل		
١٥٥٠				
		الملوك الكشيون		

١٥٠٠				
١٤٥٠				
١٤٠٠				
١٣٥٠				اشور-ادبالط الاول ١٣٣٠-١٣٦٥
١٣٠٠		شيلمنصر الاول ١٢٤٥-١٢٧٤		
١٢٥٠		توكلتي ننورتا		
١٢٠٠				
١١٥٠	نهاية السلالة الكشية			
١١٠٠	نبوخذنصر الاول ١١٠٣-١١٢٤	تجلاتبليزر الاول ١٠٧٧-١١١٥		
١٠٥٠				
١٠٠٠				
٩٥٠				
٩٠٠		العصر الاشوري الحديث ادد-نراري الثاني ٨٩١-٩١١		



١٠ العصر الآشوري الامبراطوري

يؤشر اعتلاء الملك الآشوري أدد-نراري الثاني العرش عام ٩١١ق.م نهاية فترة ضعف عسكري واضطراب سياسي في بلاد آشور، وبداية عهد برزت فيه الدولة الآشورية حتى غدت اقوى واهم دولة في الشرق الادنى القديم تتحكم في سير الاحداث ليس في داخل بلاد اشور بل وفي البلدان والاقاليم المجاورة لها ايضاً، فحقّ ان يسمى هذا العصر الذي استمر حتى نهاية كيان الآشوريين السياسي عام ٦١٢ ق.م. بالعصر الآشوري الامبراطوري، ومن حيث التسلسل الزمني لتأريخ الآشوريين، سمّي العصر بالعصر الآشوري الحديث New Assyrian Period وقد تعارف الباحثون على تمييز فترتين رئيستين في هذا العصر عرفت الاولى بالامبراطورية الآشورية الاولى (٩١١-٧٤٥ ق.م) والثانية بالامبراطورية الآشورية الثانية (٧٤٤-٦١٢ ق.م) التي انتهت بسقوط العاصمة نينوى. ومع ان قوة الآشوريين قد وصلت في عهد هاتين الامبراطوريتين الذروة، فانه تخلل ذلك فترات من الضعف والانكماش ناتجة عن ضعف شخصية الملوك وتزايد الضغوط الخارجية والمؤامرات الداخلية، وتبدأ فترة الضعف الاولى من بداية حكم الملك ادد-نراري الثالث عام ٨١٠ ق.م، حيث كان صغير السن فتولت امّه شمو- رامات ، المعروفة في المصادر الاغريقية باسم سمير اميس، الحكم وصية عليه لمدة خمس سنوات ثم تتابع

بعد ذلك على الحكم ثلاثة من الملوك لم يتميز حكمهم بالقوة، فكانت نهاية عصر الامبراطورية الاولى. اما فترة الضعف الثانية فهي الفترة التي اعقبت وفاة الملك اشوربانيبال عام ٦٤٦ ق.م، وهو اشهر الملوك الآشوريين المتأخرين، حيث انتقل الحكم الى ابنه وثم الى ثلاثة من الملوك الاخرين سقطت في عهد احدهم العاصمة نينوى عام ٦١٢ ق.م.

المنجزات الآشورية:

لقد حقق الآشوريون خلال العصر الآشوري الحديث مالم يحققه غيرهم من الاقوام العراقية القديمة قاطبة، فقد عملوا على توحيد بلاد بابل وآشور، ونجحوا في ذلك احياناً كثيرة وان فشلوا في احيان اخرى، وقضوا على مملكة عيلام جنوب غربي ايران وهي المملكة التي كانت دائماً وراء الفتن والاضطرابات التي تحدث في بلاد بابل، تمدها بالعون المادي والعسكري وتّوفر لها الملجأ، وامتد الآشوريون بنفوذهم الى بلاد الشام وفرضوا الجزية على جميع الممالك والدويلات الارامية وغيرها وضمنوا أمن وسلامة طرق المواصلات الى ساحل البحر المتوسط، وقضوا على دويلة اسرائيل التي كانت تحرض غيرها من الدويلات الآرامية على العصيان والتمرد ضد الدولة الآشورية يؤيدها في ذلك فراعنة مصر، كما فرضوا الجزية على دويلة يهوذا، وعندما زاد تدخل المملكة المصرية في بلاد الشام ودعمها المتواصل للدويلات والممالك فيها للوقوف ضد الدولة الآشورية وضرب مصالحها التجارية فيها عزم الملك الآشوري اسرحدون على ضم وادي النيل الى حدود امبراطوريته وبدأ بتنفيذ هذه السياسة، وقد اكمل تنفيذها ابنه وخليفته اشوربانيبال ودخل الجيش الآشوري فعلاً الاراضي المصرية ووصل الى مصر العليا في اقصى الجنوب ثم عاد وانسحب بعد بضع سنوات، ومن الغريب ان العلاقات الآشورية - المصرية اتسمت بالود والتعاون بعد ذلك حيث سارع الجيش المصري الى تقديم العون العسكري الى الآشوريين في ايام محنتهم بعد سقوط نينوى على ايدي الجيوش الميدية والكلدية وانسحاب بعض القطعات الآشورية الى بلاد الشام لمقاومة الغزو الميدي كما سيأتي ذكر ذلك فيما بعد.

توالى على الحكم في بلاد آشور خلال عصر هاتين الامبراطوريتين عدد من ابرز الملوك الذين شهدهم التاريخ القديم اشتهروا بانجازاتهم العسكرية وانتصاراتهم المتلاحقة ونشاطاتهم العمرانية والادارية كما تفصح عن ذلك آثارهم الباقية. وفي الواقع فان المتتبع للتاريخ الآشوري بصورة عامة، وتاريخ الآشوريين المتأخر بنحو خاص، يذهل ويدهش

من كثرة المخلفات المادية التي تركها لنا الآشوريون في المدن والمواقع التي سكنوا فيها والتي تشكّل حالياً اثمن واروع ماتمتلكه المتاحف العالمية الشهيرة من آثار. كما تعد المدن الآشورية المكتشفة، ومعظمها في او اطراف مدينة الموصل، اهم المدن العراقية القديمة التي تم الكشف عنها حتى الآن باستثناء مدينتي بابل والحضر، من حيث فخامة وضخامة ابنيتها وكثرة اثارها وسعة مساحتها.

ولقد سبقت الأشارة الى ان اعمال التنقيب عن الاثار في العراق اول مابدأت كانت في بلاد اشور، حيث حرص المنقبون الاوائل من الهواة على الكشف عن العواصم الاشورية التي تردد ذكرها في اسفار العهد القديم وكتب الكتاب الكلاسيكيين، وعملوا جاهدين للتعرف على آثارها وذلك منذ اواسط القرن الماضي. وكانت النتائج التي حصلوا عليها على درجة كبيرة من الاهمية على الرغم من ان تنقيباتهم الأثرية كانت تنقصها الاساليب العلمية. فاضافة الى المئات من المنحوتات الجدارية الضخمة التي كانت تزين وتغلف جدران قاعات القصور من الداخل وعشرات الثيران المجنحة التي كانت توضع في مداخل المدن والقصور ظناً بأنها تحمي تلك المدن والقصور من الشرور، وتماثيل الآلهة والملوك الشخصية ومسلات النصر وقطع العاج المنحوتة نحتاً جميلا والكنوز الذهبية التي تمثل مختلف انواع الحلي وادوات الزينة، فقد تم الكشف عن العديد من القصور والمعابد والزقورات والمقابر ودور السكن ودور الاحتفالات الدينية والحصون والثكنات العسكرية الى جانب اسوار المدن ببواباتها الضخمة، كسور نينوى وبواباته الكثيرة. وفوق هذا كلّه فقد تم العثور على عشرات الالوف من الرقم الطينية والنصوص المسمارية المدونة على الواح الحجر في المواقع الاشورية المختلفة تضمنت مختلف المواضيع الدينية والادبية والعلمية والادارية والملكية والشخصية وغيرها، وكان بعضها قد تم تأليفه في العصر الآشوري وبعضها الآخر عبارة عن نسخ من نصوص اقدم تعود بتاريخها الى قرون عدة قبل العصر الاشوري استنسخت وجمعت لتوضع في المكتبات الملكية التي حرص بعض الملوك الاشوريين وفي مقدمتهم الملك اشوربانيبال، اخر الملوك الاشوريين البارزين، على جمعها وقراءتها وقد تم الكشف عن مكتبة اشور بانيبال وفيها اكثر من اربعة وعشرين الف رقيم طيني وذلك في احد اجنحة قصره الملكي في مدينة نينوى عاصمة الدولة الاشورية في عهده ونقلت جميعها الى المتحف البريطاني في لندن. وقد كانت النصوص المسمارية المكتشفة في بلاد آشور، في نينوى وغيرها من المدن، من اول النصوص التي تمكن الباحثون الاوربيون من فك رموزها وترجمتها الى اللغات الحديثة لذلك اطلقوا على العلم الذي اهتم بقراءتها

وترجمتها اسم علم الاشوريات Assyriology نسبة الى بلاد اشور Assyria وظلت التسمية مستخدمة الى الان على الرغم من ان الدراسات الحديثة بينت ان هذه التسمية غير دقيقة وان مايسمى بالاشوريات يضم نصوصاً اكدية وبابلية واخرى اشورية.[1]

ان اكتشاف هذه الاثار الكثيرة والمهمة في بلاد اشور، قد يفسّر بانه نتيجة طبيعية لاستخدام الآشوريين لمادة الحجر بانواعه المتوافرة في بلادهم، كالحجر الكلسي الرخام والحلان، في البناء وصناعة التماثيل والمسلات وتغليف الجدران وذلك لرخص مادة الحجر وقوة مقاومتها لعوامل الطبيعة دون ان يصيبها تلف كبير، وقد يعطي هذا التفسير جانباً من الحقيقة اما الجانب الثاني الذي لابد ان نستنتجه من هذه الاثار فهو ان الاشوريين كانوا قد وصلوا الى درجة عالية من التقدم الحضاري وفي المجالات كافة، في الفن المعماري وفن النحت والبناء وصناعة التماثيل والمسلات اضافة الى تقدمهم في المجالات العلمية والادبية والمعارف الأخرى وتقدم النظم الادارية والقانونية، كما توضح ذلك النصوص المسمارية المكتشفة. وتعكس الحوليات الملكية وغيرها من النصوص الملكية النشاطات العسكرية والانتصارات التي حققها الملوك الآشوريون وتبين المشاهد المنحوتة على المسلات واللوحات الجدارية قوة الجيش الاشوري وتطور اسلحته ووسائل هجومه ودفاعه.

من البديهي انه لم يكن بمقدور الآشوريين ان يصلوا الى ماوصلوا اليه من القوة وسعة النفوذ ويحققوا الانتصارات العسكرية المتلاحقة ويرتفعوا بمستواهم الاقتصادي ويرفلوا بازدهار حضاري واضح في غفلة من الزمن وعلى نحو مفاجئ، بل لابد وان كانت هناك عوامل هيأت لهم الظروف الملائمة واسباب دفعت بهم وحفزتهم لتحقيق كل تلك الانجازات. ومن هذه الاسباب والعوامل مايمكن التعرف عليه من خلال الدراسات الموضوعية لمخلفات الاشوريين انفسهم ومتابعة تطور الاحداث في المنطقة، ومنها مايبقى خافياً حتى تكشف لنا عنه الدراسات والمكتشفات المقبلة، وقد يبقى خافياً الى الابد.

الوضع العام في الشرق الادنى القديم

ويبدو ان في مقدمة الاسباب والعوامل التي حفزت الآشوريين ودفعت بهم الى توحيد جهودهم وبناء جيشهم ومن ثم تحقيق ماحققوا من الانتصارات على بقية الشعوب والاقوام وتفوقوا عليهم هي التحديات الصعبة والاخطار الجسيمة والتهديدات المستمرة التي واجهها

---

(١) انظر عامر سليمان، اللغة الاكدية، ص ٨.

الاشوريون منذ ان وجدوا في المنطقة ، ولم تكن تلك التحديات والتهديدات موجهة ضدهم بالذات لانهم اشوريون بل كانت من اجل السيطرة على بلاد اشور الغنية بمواردها الزراعية مقارنة بالمناطق الفقيرة المحيطة بها ، فضلاً عن ان بلاد اشور تقع في موقع ستراتيجي وتجاري مهم يصل بين بلاد بابل والخليج العربي من جهة وبين بلاد الشام وساحل البحر المتوسط من الجهة الاخرى.

وهكذا لم يكن الآشوريون يعيشون بمعزل عما كان يجري في انحاء الشرق الادنى القديم من احداث سياسية وتحركات عرقية بل ان بلاد اشور كانت تتأثر وبشكل مباشر بما كان يجري حولها لما لذلك من اثر كبير على زيادة خطورة التحديات وجسامة الاخطار والتهديدات التي تواجهها او انكماشها ، بل ان ماكان يحدث في بلدان الشرق الادنى القديم املى على الملوك الاشوريين في احوال كثيرة اتباع سياسة معينة في داخل بلاد اشور وخارجها لذا ، فانه من المفيد جداً ان نلقي نظرة خاطفة على الاوضاع السياسية والعرقية العامة التي كانت تمر بها المنطقة في هذه الفترة مما كان يؤثر على الاشوريين.

في مطلع الالف الاول قبل الميلاد ، اي مع بداية العصر الاشوري الحديث ، كانت الاوضاع الدولية قد تغيرت تماماً عما كانت عليه في العصر الاشوري الوسيط ، فكانت قد غابت عن المسرح السياسي والعسكري قوى عديدة كان لها تاثيرها في المنطقة بل انها كانت تتحكم في توجيه الاحداث الدولية ، كما تقلص وانكمش نفوذ قوى اخرى كانت لها مكانتها فيما سبق. فالامبراطورية الحثية التي كانت تسيطر على اسيا الصغرى وشمال سوريا تهدد مصالح المملكة المصرية وتحد من نشاط الاشوريين كانت قد انتهت في حدود القرن الثاني عشر قبل الميلاد. اما الدولة الميتانية التي كان الحوريون قد اسسوها وغدت من الدول الكبرى حتى انها سيطرت ، كما سبق ان ذكرنا ، على بلاد اشور لفترة جاوزت المائة سنة في بداية العصر الاشوري الوسيط ، فكانت قد انقسمت على نفسها إثر اضطرابات داخلية وتشكلت منها دولتان ، ولم يعد لدولة ميتاني الصغيرة في اعالي مابين النهرين ، والتي ورد ذكرها في النصوص المسمارية على هيئة مملكة خانيگلبات ، الا سلطة محدودة على منطقة صغيرة ، ثم انتهت تلك المملكة وضمت اراضيها الى المملكة الاشورية وغدت احدى مقاطعاتها الكثيرة.

وفي بلاد بابل كانت السلالة الكشية ، التي سعت دوماً للسيطرة على بلاد اشور او مد نفوذها الى داخل حدود بلاد اشور ، قد انتهت اثر الهجوم العيلامي في اواسط القرن الثاني عشر قبل الميلاد وحلت محلها سلالة ايسن الثانية اولاً ومن ثم تتابع على الحكم فيها

عدد من السلالات المحلية الضعيفة وغالباً ماوقعت بلاد بابل ضمن حدود الدولة الاشورية المتنامية بالقوة. وكان الملوك الاشوريون ينظرون الى بلاد بابل على انها النصف الثاني المكمل لبلاد اشور وبأنها جزء من مملكتهم طالما اعتمدت سياستهم توحيد ارض العراق واقامة دولة مركزية واحدة تهيمن على المنطقة. وقد اصطدمت هذه النظرة وهذه السياسة مع مصالح بعض القبائل الكلدية التي كانت قد استقرت في اقصى جنوب العراق. وكان من اهمها قبيلتا كلدو وبيت باقين، وهما من القبائل التي ترتبط بالاقوام الارامية على اغلب الظن، وكانت هذه القبائل قد اقامت لها سلالات محلية مستقلة مناوئة للنفوذ الاشوري، وكانت مملكة عيلام في جنوب غربي ايران تقدم لها العون المادي والعسكري وتحرضها ضد النفوذ الاشوري وتشجعها على السيطرة على بلاد بابل كما كانت توفر لها الملجأ متى ضيقت الدولة الاشورية الخناق عليها. وطبيعي انه لم يكن استعداد حكام عيلام لتقديم العون والوقوف الى جانب قبيلة كلدو وغيرها من اجل مصلحة تلك القبائل اورغبة في مساعدتها لذاتها بل كان الهدف من وراء ذلك الحد من قوة الاشوريين واثارة الفتن والاضطرابات في بلاد بابل لزعزعة الحكم الاشوري ومن ثم محاولة السيطرة على بلاد بابل كما فعلت من قبل ذلك مراراً، وقد وضحت نوايا حكام عيلام هذه للملوك الآشوريين امثال سنحاريب واشور بانيبال، مما دفعهم اخيراً لمهاجمتهم في عقر دارهم وايقاف تدخلهم المستمر في شؤون بلاد بابل الداخلية واخيراً تمكن اشور بانيبال عام ٦٣٩ ق. م. من القضاء على مملكة عيلام قضاءً نهائياً انهى كيانها السياسي.

اما المملكة المصرية فكانت قد ضعفت وتقلّص نفوذها الى داخل حدودها ولم يكن لها الا اثارة بعض الممالك في بلاد الشام للوقوف ضد النفوذ الاشوري وقطع طرق المواصلات التجارية بهدف السيطرة المصرية عليها.

يبدو من هذا ان الظروف الدولية كانت ملائمة نسبياً لظهور الاشوريين وتنامي قوتهم واحتلال مكانتهم بين الممالك الأخرى، غير ان ذلك لايعني ان الاشوريين قد انفردوا بالقوة والزعامة ولم يكن هناك من ينافسهم او يقف امامهم وأمام تطلعاتهم بعد ان غابت الدول الكبرى عن المسرح السياسي، بل ظهرت قوى واقوام جديدة كانت اشد خطراً على الدولة الاشورية ممن سبقها.

ففي الجهة الغربية والشمالية الغربية زادت ضغوط القبائل الارامية وزادت غاراتها الحدودية، وكانت تلك القبائل قد تبلورت وكوّنت لها عدداً من دول المدن او الممالك الصغيرة في انحاء بلاد الشام منها مملكة ارام نهرايم، فيما بين الخابور والفرات، وارام،

صوباً في الجنوب وارام معكة عند سفوح جبل الشيخ وارام رحوب في منطقة حوران ومملكة دمشق ومملكة شمال (سنجرلي) فضلاً عن دويلة اسرائيل التي انقسمت في عهد يربعام ابن سليمان الى دويلتين صغيرتين هما دويلة اسرائيل وعاصمتها السامرة (نابلس) ودويلة يهوذا ومركزها مدينة اورشليم[1] وغالباً ماكانت هذه الدول والممالك تعقد احلافاً سياسية وعسكرية لمواجهة خطر الدولة الاشورية وتعاظم قوتها ، وقد تتلقى العون من القوى الاخرى الكبرى كالمملكة المصرية . وقد دخل الاشوريون ضدهم في معارك طاحنة اودت بحياة عشرات الالوف من كلا الجانبين بهدف السيطرة على الطرق التجارية شريان حياتهم الاقتصادية ، المؤدية الى موانئ البحر المتوسط والى مصادر المواد الخام في جبال الارز وجبال الفضة (جبال الامانوس وطوروس)

اما في الجهات الشمالية الشرقية والشرقية ، فكانت تحركات القبائل والاقوام الجبلية على اشدّها ، وكاد ضغطها يقضي على الدولة الاشورية وينهي كيانها السياسي لولا عزم وثبات القوات الاشورية وجراة وشجاعة قادتها ، فكان تجهيز الحملات العسكرية المتتالية على المنطقة محور سياسة الملوك الاشوريين الاقوياء بهدف الحد من غارات وتحرشات القبائل الجبلية وفرض السيطرة عليها وتأمين طرق المواصلات المارة عبر اراضيها . وكان من بين تلك القوى التي اقلقت الآشوريين سنين طويلة دولة اورارتو (اورارطو) في ارمينيا والاقوام الجبلية في منطقة زاموا واقليم تشخاني (جنوب شرقي تركيا) وبلاد نائيرى والميديون .

وهكذا كان على الاشوريين ان هم ارادوا البقاء وبناء دولة قوية ان يواجهوا هذه التحديات ويقضوا على الاخطار المحدقة بهم او يحّدوا منها بعزيمة وقوة وسياسة حكيمة ثابتة ، فكان ان اتبع الملوك المتعاقبون سياسة تجهيز الحملات العسكرية المتتالية على المناطق المختلفة للسيطرة على الاقوام والقبائل المناوئة التي كانت تهدد كيانهم وارغامها على الاعتراف بسيادة الدولة الاشورية ضماناً لسلامة وامن حدودها . وبعبارة اخرى ، ان الظروف المحيطة بالدولة الاشورية هي التي املت على الاشوريين اتباع هذه السياسة

(١) وهي مدينة القدس حالياً. واسم اورشليم بمعنى « دار السلام » اسم كنعاني قديم اطلقه الكنعانيون ، وهم سكان المنطقة الاوائل على المدينة قبل ان يفد بنو اسرائيل الى المنطقة التي عرفت في اسفار العهد القديم باسم « ارض كنعان » تأكيداً على هوية سكانها الأصليين ومن ثم سميت بفلسطين.
انظر، احمد سوسة ، المفصل ، ص ٣٢٣.

لذلك لم تكن اهداف تلك الحروب الا دفاعية محضة في الاساس ، او انها كانت بالاحرى حروباً وقائية تستهدف حماية " ارض الاله اشور " على حد تعبير جورج رو.

عوامل قوة الاشوريين ونجاحاتهم :

ان تحقيق الانتصارات المتلاحقة كالتي حققها الاشوريون ، لم يكن يتم من خلال تجهيز الحملات العسكرية لمواجهة الاخطار والتحديات فحسب بل كان لابد ان رافق ذلك سياسة حازمة وقيادة عسكرية مقتدرة وجيش على مستوى عال من التدريب والتسليح ومعنويات عالية ونظام اداري كفء يؤمن للجيش جبهة داخلية قوية ومتماسكة ، ويبدو انه توفر للاشوريين هذه الاسباب والعوامل في عصرهم الحديث فكان ان حققوا تلك الانتصارات العسكرية ، فنمت الدولة الاشورية وتعاظمت قوتها واتسع سلطانها وغدت بعد فتر وجيزة اقوى دول الشرق الادنى القديم طراً تهابها بقية الدول والممالك وتحسب لها حسابها وتسعى الدول الصغيرة لكسب مرضاتها وعقد الاحلاف والمعاهدات معها وتقديم الخضوع لها مقابل ماتبديه من حماية لحدودها وصد اي اعتداء عليها ، وقد رافق كل ذلك ازدهار حضاري ورفاه اقتصادي عم بلاد اشور تفصح عنه الاثار الكثيرة المكتشفة .

فاما السياسة العامة فكانت وبحق على درجة كبيرة من النضج وبعد النظر، حيث لم تكن الحملات العسكرية تجهز الا بعد دراسة مستفيضة للاوضاع الداخلية والخارجية للمنطقة المزمع توجيه الحملة اليها ، كما كان يسبق كل حملة اتصالات مكثفة مع امراء وحكام البلدان المجاورة لضمان ولائهم للسياسة الاشورية ، او تحييدهم على اقل تقدير، لضمان امن وسلامة الخطوط الخلفية المارة بحدود مملكتهم . وقد تعقد المعاهدات مع بعض الامراء وتوثق بالمصاهرات السياسية من اجل ذلك كما كان رجال الاستخبارات الاشوريون المبعوثون الى تلك المناطق يقومون بدراسة الاوضاع الداخلية ويبعثون بتقاريرهم التفصيلية الى الملك الاشوري ، وقد وردت الينا تقارير بعض اولئك المخبرين ولاسيما فيما يتعلق بحملة سرجون الثامنة التي وجهها على بلاد اورارتو. وقد يضطر الملك الى ايقاف الحملة قبل الشروع بها او حتى بعد بدئها ، من اجل معالجة موقف مستعجل في مكان أخر، كما فعل سرجون عندما اوقف الحملة التي كانت ستوجه الى بلاد بابل ريثما تتم معالجة الجبهة

الغربية [١] ، وقد يقدم الملك بعض التنازلات المؤقتة في جبهة معينة من اجل تحقيق هدف ابعد في جبهة اخرى ، كما فعل اسرحدون بالنسبة لاحد الأقاليم الاشورية الحدودية في الجبهة الشمالية الشرقية [٢] ، كل ذلك وفق سياسة مدروسة من قبل الملك نفسه ، وربما بالتشاور مع قادة الجيش وكبار موظفيه وحكام المقاطعات.

ومن اجل تقوية معنويات الجند المقاتلين ورفعها كان لابد من الادعاء بان الحملات العسكرية ما كانت توجه الى اية جبهة الاتنفيذاً لرغبات الالهة القومية ووفق توجيهاتها التي اوحتها الى الملك ، كما كانوا يظنون ، باحدى الطرق المعروفة آنذاك ، لذا كان الملك يقوم وقبل كل شيء باستخارة الالهة من خلال الكهنة لاخذ موافقتها على بدء الحملة ثم يستخيرها ثانية لتحديد الوقت المناسب لبدئها ، وقد يؤجل الموعد ان لم تكن تنبؤات الكهنة وقراء الطالع ملائمة. وكان بعض الكهنة يرافقون الحملة العسكرية ويقومون باجراء الطقوس الدينية في كل مناسبة ويعلنون احياناً عن تجلّي بعض الهتهم ، ولاسيما الهة الحرب ، في اوقات معينة ، وغالبا في الاوقات العصيبة التي كانت تمر بالجيش كل ذلك من اجل رفع معنويات الجند وشحذ هممهم. [٣]

وفي الحملات المهمة كان الملك نفسه يقود الجيش في حين كان يتولى قيادة الحملات الاقل اهمية احد القادة العسكريين او احد حكام المقاطعات القريبة. وقد ذكرت النصوص المسمارية القاب ورتب كبار القادة ، وقد يقود الجيش ولي العهد. وامتازت القوات الاشورية بصلابة افرادها وشجاعتهم وصبرهم على تحمل الصعاب كما امتازت بخبرتها الطويلة المكتسبة حيث خاض الجيش الاشوري معارك كثيرة في ظروف وبيئات متباينة ومواسم مختلفة مما اكسب القطعات العسكرية قوة قتالية عالية وتدريباً جيداً.

اما الجبهة الداخلية ، فكان يديرها وينظمها ويقويها جهاز اداري كفء اثبت ذلك عبر العصور ، ويرجع الفضل الاول في وضع اسس هذا الجهاز الكفوء الى الملك تجلاتبليزر الثالث (٧٤٥–٧٢٧ق.م) الذي يبدأ في عهده عصر الامبراطورية الثانية فقد اعاد تنظيم الدولة الاشورية ووضع لها نظاماً ادارياً غاية في الدقة ، فقسم اراضيها الى مقاطعات

---

(١) ساكز ، عظمة بابل ، ص ١٤٣

(٢) المصدر نفسه ، ص ، ١٥٥.

(٣) 1 – Saggs, The Might that was Assyria, London1984

وقسم المقاطعات الى وحدات اصغر واصغر، كما سيشار الى ذلك فيما بعد، وعلى غرار ماهو متبع حتى الآن في العراق. وكان يشرف على ادارة المقاطعة حاكم يسمى (سيد المقاطعة) يمثل الملك في المقاطعة وينفذ سياسته وتعليماته، يعاونه ملاك من الموظفين الاكفاء المختارين استناداً الى كفاءتهم وولائهم وكان كل حاكم مسؤولاً عن الشؤون المالية والعسكرية والدينية والادارية في المقاطعة، وينطبق ذلك على حكام الوحدات الادارية الاصغر والاصغر. وكان الاتصال بالملك يتم وفق التسلسل الاداري واحياناً يتم الاتصال بالملك مباشرة دون المرور بهذا التسلسل حيث كان بامكان اي حاكم او اي مواطن نظرياً على الاقل الاتصال المباشر بالملك من خلال رسالة يبعث بها لعرض مشكلته امام الملك، الا ان مثل هذه الحالات كانت قليلة جداً[١].

ولادارة البلدان والاقاليم التابعة لنفوذ الدولة الاشورية، فقد اتبعت سياسة ثابتة تجاهها تستند على درجة ارتباطها بالدولة الاشورية. فهناك الممالك الصغيرة الموالية للسياسة الاشورية، طوعاً اوخوفاً، والتي كانت تعترف بسلطان الآشوريين وتدفع الجزية السنوية المقررة عليها مقابل الحماية العسكرية التي توفرها لها الدولة الاشورية ضد اي اعتداء خارجي او تمرد داخلي. وكانت مثل هذه الممالك تحكمها الاسر الملكية المحلية ولها استقلالها الكامل. اما اذا امتنعت احداها عن دفع الجزية مثلاً اوسحبت اعترافها بسلطان الدولة الاشورية او تحالفت مع دولة اخرى معادية للاشوريين، كان لابد من فرض سيطرة اقوى عليها بعد ان توجه اليها حملة عسكرية تقضي على اسرتها الحاكمة وعلى اعوانها وتأتي بحاكم جديد موال للسياسة الاشورية ومستعد لتنفيذها، وكان مثل هذا الارتباط الجديد يوثق بالمعاهدات ويختم بالقسم وقد يعين في بلاط الحاكم الجديد موظف اشوري يمثل مصالح الدولة الاشورية ويوجه السياسة الخارجية، وقد يزود بقوة عسكرية صغيرة لدعمه ودعم اجراءاته عند الضرورة. اما اذا حنث الحاكم بالقسم وخرج عن العهد او طرد الموظف الاشوري لديه او قتله، عندها توجه على مملكته حملة عسكرية مستعجلة تقضي عليه وعلى اعوانه وتنزل بهم عقوبة قاسية ورادعة وتلحق اراضي مملكتهم بحدود الدولة الاشورية لتصبح مقاطعة من المقاطعات الاشورية التي كانت تدار عادة من قبل حاكم اشوري، وقد يرحل السكان المتمردون الى مناطق اخرى من الامبراطورية، ولعل خير نموذج لتطور هذه العلاقة هي مملكة خانيگلبات الميتانية[٢].

---

(١) حول النظام الاداري في العصر الاشوري الحديث انظر

Ahmad, A.Y Some Neo – Assyrian Provincial An unpublished Ph. D thesis. University of London, 1984, 247.

(٢) عامر سليمان العصر الاشوري العراق في التاريخ، ١٤٢–١٤٣.

ولضمان الاتصال الدائم والسريع بين الحكومة المركزية ، وعلى رأسها الملك في العاصمة ، وبين الحكام والموظفين الاداريين الاخرين في المقاطعات والمدن المختلفة للوقوف على مايجري فيها وايصال التوجيهات الملكية اليها باسرع مايمكن ، كان هناك نظام للبريد والاتصالات على درجة كبيرة من الكفاءة والسرعة يسبق نظام البريد الذي ينسب ابتكاره خطأ الى الفرس بعدة قرون[1] .

وهكذا كانت هذه الاسباب والعوامل مجتمعة وراء قوة الدولة الاشورية وتعاظم نفوذها خلال العصر الامبراطوري ، ورافق تلك القوة ازدهار حضاري ورفاه اقتصادي واضح . وكان لظهور عدد من الملوك والقادة من ذوي الشخصية القوية والمقدرة المتميزة اكبر الاثر في استثمار هذه الاسباب والعوامل وتوجيهها لصالح الدولة الاشورية .

تقويم السياسة الاشورية

اختلفت آراء الباحثين المحدثين في تقويم السياسة الآشورية تجاه الدول والممالك والشعوب التي احتكت بالاشوريين واصطدمت معهم ، وقد اجمع معظم الباحثين الاوربيين وتبعهم في ذلك كثير من الباحثين العرب على وصف السياسة الاشورية الخارجية بالسياسة الاستعمارية وبوصف المقاتلون الاشوريون وعلى راسهم ملوكهم ، بالتعطش لسفك الدماء واساليبهم القمعية بالبربرية والوحشية ومع ذلك ، فان هناك من الباحثين الاوربين والعرب من انصف الاشوريين واعاد تقويم سياستهم وبين أنها لم تكن بربرية ووحشية كما وصفها الاوربيون ومن تبعهم بل ربما اتصفت بالشدة والقسوة في قمع التمردوالعصيان[2] كما ان غاياتها لم تكن استعمارية وإنما (دفاعية محضة في الاساس ، او انها كانت بالاحرى حروباً وقائية تستهدف حماية ارض الاله اشور، من اذى جيرانها المعادين[3] .، ويبدو ان من الاسباب الرئيسة التي دفعت كثيراً من الباحثين الى وصف الاشوريين ووصف سياستهم بهذه الصفات البغيضة هي طبيعة المصادر التي اعتمدوا عليها في استنباط المعلومات وتقويم الآشوريين وسياستهم والمتمثلة بالدرجة الاولى بالنصوص

١- ساكز ، عظمة بابل ، ص ٢٨٩ .

(٢) ساكز، عظمة بابل ص ٢٨٢

(٣) جورج رو ، العراق القديم ، ص ٣٨٣-٣٨٤ .

الملكية التي خلفها لنا الملوك الاشوريون انفسهم وبالمنحوتات الجدارية الكثيرة التي كانت تؤطر الاجزاء السفلى من جدران القصور الاشورية والتي صورت لنا مشاهد حربية مختلفة فضلاً عما ورد ذكره في بعض اسفار العهد القديم ، كتاب اليهود المقدس ، من اشارات عن الاشوريين وعن حملاتهم العسكرية وقضائهم على مملكة اسرائيل.

فاما النصوص الملكيةالتي اسهبت في وصف الحملات العسكرية الاشورية واطنبت في وصف الانتصارات المتلاحقة التي حققها الجيش الملكي وبالاساليب القمعية التي اتبعها في القضاء على التمرد والعصيان ، فانها وان كانت صادرة عن الملوك الاشوريين فإنها لاتعكس الصورة الحقيقية التي اتصفت بها الحملات العسكرية وما كان يجري فيها من ممارسات لمعالجة التمرد والعصيان طالما كان هدفها اعلامياً بالدرجة الاولى فهي تعبر عن وجهة النظر الاشورية البحتة وتقدم الصورة التي يرغب الملك نفسه ان يظهر فيها هو وجنده امام الرعية وامام الاجيال المقبلة بما يدخل الرعب والخوف في نفوسهم ويبين الاساليب القمعية التي يمكن اتباعها لمعالجة اي تمرد او عصيان ، لذا كان في تلك النصوص من المبالغة والمغالات الشيء الكثير، شأنها شأن جميع وسائل الاعلام الحربية في كل عصر ومكان ، ومايقال عن النصوص الملكية ينطبق على المنحوتات الجدارية التي كانت وسيلة رئيسة من وسائل الاعلام المتيسرة آنذاك ، حيث صورت تلك المنحوتات مادونه الكتبة من النصوص مظهرة قوة الملك الاشوري وقوة جيشه ومؤكدة على المصير المحتوم الذي ينتظر الاعداء والمتمردين وهوالاسر والتعذيب والقتل. ان مايؤكد اهداف هذه النصوص والمنحوتات الاعلامية انها لم تشر الى اية خسارة مني بها الجيش الاشوري خلال تلك المدة الطويلة التي خاض فيها الجيش معارك كثيرة في حين اننا نعرف من مصادر اخرى ان الاشوريين خسروا العديد من المعارك وانسحبت جيوشهم لاسباب مختلفة. اما اسفار العهد القديم التي دونت من قبل الاحبار اليهود في اثناء وجودهم اسرى في بلاد بابل ، فليس غريباً ان نجد فيها مايسيء الى الاشوريين والبابليين الذين قضوا على مملكتهم واسروا العديد منهم ، لذا اتصفت كتاباتهم بالحقد والكراهية وباتهام الاشوريين بشتى التهم ووصفهم بالصفات البغيضة. وفضلاً عن ذلك ، فان الباحثين المحدثين لم يشيروا الى الاسباب التي دفعت الاشوريين للقيام بحملاتهم العسكرية واتباعهم القسوة والشدة في قمع التمرد ، وهي اسباب وقائية ودفاعية كما سبق واشرنا ، كما ان على الباحث المنصف ان لايقارن بين الاساليب الاشورية في الحرب مع الاساليب والقيم والمثل المتبعة في الوقت الحاضر بل عليه ان يقارنها مع الاساليب التي اتبعتها الاقوام الاخرى المعاصرة للاشوريين ، كالمصريين والحثيين واليهود وغيرهم وسيجد انها لم تكن تختلف عن اساليب تلك

الاقوام[1] ، ومع ذلك ، ومهما كانت الاساليب الاشورية في قمع التمردات قاسية وشديدة فانها لاتضاهي ماهومتبع في الحروب المعاصرة بل ان "هناك القليل جداً من الاجزاء الرهيبة في الحوليات الملكية الاشورية التي لايمكن ان نجد لها مايقابلها او يزيد عليها في سجلات الاحداث في اوروبا وافريقيا (السوداء والبيضاء) منذ عام ١٩٣٩م" على حد تعبير الباحث الاوربي ساكز[2] .

لذلك كله كان على الباحث المنصف ان هو اراد ان يكون نظرة صحيحة عن الاشوريين وعن سياستهم ان يأخذ بنظر الاعتبار طبيعة النصوص الملكية والمنحوتات الجدارية والغاية من تدوينها ثم يخضع ماجاء فيها من معلومات للنقد التاريخي الموضوعي مستعيناً بالنصوص الاخرى ويفعل الشيء نفسه بالنسبة لما ورد في اسفار العهد القديم ومن ثم يستنتج مايمكن استنتاجه من معلومات اقرب ماتكون للواقع ومن المؤكد ان الصورة التي سيضعها للاشوريين ستكون مغايرة للصورة المشوهة التي وضعها الكتاب الاجانب التي اتسمت بالمغالات الواضحة الا انه سيجد الاشوريين اشداء قساة في معالجة التمرد والعصيان اقوياء في المعارك[3] الى جانب كونهم اقواماً متحضرة ازدهرت في عهدهم الحضارة العراقية القديمة في مختلف جوانبها المادية والعلمية والثقافية تؤكد كل ذلك الآثـار الكثيرة المكتشفة في بلاد اشور.

توالى على الحكم في بلاد اشور في عهد الامبراطورية الاشورية الاولى (٩١١-٧٤٥ق.م) والثانية (٧٤٤-٦١٢ق.م) عدد من الملوك والقادة البارزين في تاريخ العراق القديم حيث تركوا اثاراً حضارية وسياسية واضحة في تاريخ الاشوريين بشكل خاص وتاريخ المنطقة بصورة عامة وقد حكم في عهد الامبراطورية الاشورية الاولى تسعة ملوك في حين حكم في عهد الامبراطورية الاشورية الثانية ستة ملوك فقط في ظل الدولة القوية اعقبهم اربعة اخرون توالوا على الحكم من بعد وفاة اشوربانيبال عام ٦٢٦ق.م. وحتى نهاية الاشوريين السياسة بحدود عام ٦٠٩ق.م. وفي مايأتي نبذة موجزة عن نشاطات ومنجزات كل من هؤلاء الملوك المهمة :

---

١ - انظر، ساكز، عظمة بابل، ٢٨٣-٢٨٤.

٢ - المصدر السابق، ص ٢٨٤.

(٣) انظر وليد محمد صالح، العلاقات السياسية للدولة الاشورية، اطروحة ماجستير غير منشورة، مقدمة الى جامعة بغداد عام ١٩٧٦، ص ١٢٦-١٣٩.
وكذلك : عامر سليمان، العصر الاشوري، العراق في التاريخ، بغداد، ١٩٨٣، ص ١٤٥-١٤٧.

ملوك الامبراطورية الآشورية الاولى :

على الرغم من ان بداية الانتعاش السياسي والاقتصادي كانت في عهد الملك آشور– دان (٩٣٤– ٩١١ ق.م) ، فإن النهضة الحقيقية لبلاد آشور بدأت في عهد ابنه وخليفته ادد– نراري الثاني الذي عدَّ عهده بداية لعهد الامبراطورية الآشورية الاولى.

بدأ ادد– نراري حكمه بتجهيز حملة عسكرية على الأراضي الواقعة جنوبي الزاب الأسفل بغية تثبيت مركز الدولة الآشورية في المنطقة واشعار سكانها باستعادة الآشوريين لسالف قوتهم ، وقد تمكنت الحملة خلال ذلك من ضم مدينة أرّابخا (منطقة كركوك) وبعض المدن الاخرى الواقعة الى الجنوب منها الى حدود الدولة الآشورية ، وكان من نتائج الحملة ان اصطدم الآشوريون بالبابليين ثانية غير ان الصدام هذه المرة انتهى بابرام معاهدة صلح ختمت بمصاهرة سياسية بين الاسرتين الحاكمتين في كل من بلاد بابل وآشور، وتعد المعاهدة التي عقدت بين الجانبين ذات اهمية تأريخية خاصة حيث انها تذكر، اساساً لاقرار السلام ، موجزاً لتأريخ المنازعات الحدودية بين الطرفين في الفترة السابقة ، لذا كان للوثيقة اهمية خاصة في معرفة تعاصر الملوك والحكام في كلتا المنطقتين فسميت بالتأريخ التعاصري.[١]

وبعد ان ضمن الحدود الشرقية والجنوبية ، اتجه ادد– نراري الى الاقاليم الواقعة الى الغرب من نهر دجلة حيث كانت القبائل الارامية قد سيطرت على اجزاء كبيرة منها ، ومن خلال عدد من الحملات العسكرية تمكن من فرض سيطرته على المنطقة الواقعة على طول نهر الفرات الأوسط وفرض الجزية عليها واتخذ من بعض مدنها حصناً لحماية طرقه التجارية . كما وجّه عدداً من حملاته العسكرية الى المنطقة التي عرفت لدى الآشوريين باسم خانيگلبات ، وهي مملكة تمثل بقايا المملكة الميتانية السابقة وتقع مدنها في اعالي مابين النهرين ، وقد امكن حصار مدن المملكة وفتحها ثم القضاء على ملكها والامراء التابعين له . واستمرّت مسيرة الجيش الآشوري شمالاً حيث جعلت جميع المدن والمناطق الواقعة على طول نهر الخابور تابعة للدولة الآشورية من خلال فرض الجزية عليها وبذلك امكن الحفاظ على امن واستقرار حدود الدولة الآشورية الغربية والشمالية الغربية .

---

(١) انظر حول ترجمة النص Pritchard , J.B., (ed.) Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament, New Jersy, 1969, (third ed.), pp.271 ff.

نهج توكلتي – ننورتا الثاني (٨٩٠ – ٨٨٤ ق.م) ابن وخليفة ادد – نراري، السياسة نفسها فبدأ حكمه بحملة عسكرية على بلاد نائيري في الجنوب الغربي من بحيرة وان، ونجح بعد اربع سنوات من اخضاعها وبسط سيطرته عليها كما قام بحملة اخرى على المنطقة الواقعة بين الزابين واخرى الى بلاد بابل التي كانت تحكمها انذاك سلالة محلية ضعيفة لم تتمكن من مواجهة الجيش الآشوري، فاستمر الجيش الآشوري بتقدمه دون مقاومة باتجاه الجنوب ووصل الى مدينة بابل وسپار، ثم اتجه غرباً حتى نهر الخابور ثم شمالاً حتى نصيبين ووصل اخيراً الى منطقة تقطنها اقوام تسمى مشكو[1]، وكانت السياسة الآشورية المتبعة تعتمد على ترك حاميات عسكرية صغيرة في المناطق الحدودية ضماناً لأمنها واستقرارها ودفع امراؤها الجزية المفروضة عليهم.

وكان عصر آشور ناصربال الثاني (٨٨٣ – ٨٥٨ ق.م) واحداً من العصور التي وصلت فيها الدولة الآشورية الى الذروة، كما ان هذا العصر ذو اهمية قصوى بالنسبة للباحث المعاصر لكثرة مخلفاته المادية، ولاسيما النصوص المسمارية والتماثيل والمنحوتات الجدارية المكتشفة في العاصمة كلخو (نمرود)، وقد امدتنا هذه النصوص والمنحوتات بتفاصيل دقيقة عن منجزات آشور ناصربال الثاني العسكرية والعمرانية وان كانت، كما اسلفنا، تمثل وجهة النظر الآشورية وتكمن وراءها اهداف اعلامية:

ففي الجبهة الشرقية والشمالية الشرقية، كانت نشاطاته العسكرية واسعة حيث جهز حملة عسكرية على المنطقة وفرض سيطرته على الاقوام التي لم تكن خاضعة حتى ذلك الوقت للنفوذ الآشوري كما وجه حملة اخرى الى الشمال الغربي من بلاد آشور وأسس مقاطعة جديدة مركزها المدينة القديمة تشخان واتخذها قاعدة حصينة ضد بلاد كاشياري ونائيري.
اما في الجبهة الغربية فكانت قد ظهرت دويلة آرامية قوية هي بيت – اديني اتخذت من مدينة بارسب (تل احمر حالياً) جنوبي كركميش عاصمة لها. وكانت هذه الدويلة تثير القلاقل والاضطرابات في المناطق الخاضعة للنفوذ الآشوري على طول نهر الخابور واعالي نهر الفرات مما اضطر آشور ناصربال الى توجيه ضربة قوية وحاسمة عليها قضى فيها على رؤوس التمرد وقتلهم شر قتلة وغنم منهم اموالاً كثيرة وقد ضمنت تلك الاجراءات القاسية والسريعة الأمن والسلام في المنطقة لمدة خمس سنوات تالية.[2]

---

(1) Luckenbill, D.D, Ancient Records of Assyria. andBabylonia, Chicago, 1927, p.128 ff.

(٢) ساكز، عظمة بابل، ص١١١.

وبعد ان تمت السيطرة على المنطقة اتسع الطريق امام آشور ناصربال للتوجه بجيشه نحو سواحل البحر المتوسط ، وتقدم لنا حوليات الملك تفاصيل الحملة التي قادها الملك بنفسه في السنة التالية بحيث اصبح بمقدورنا متابعة مسيرتها يوماً بيوم[1] .

وفي بلاد بابل حيث قامت احدى القبائل الآرامية بالتمرد ضد السلطة الآشورية ، وجهت اليها حملة عسكرية سريعة الحقت بالعصاة الهزيمة في معركة استمرت مدة يومين فقط . وفي السنة التالية واثر تمرد بعض المدن الآرامية للمرة الثانية ، قام الجيش الآشوري بحملة عسكرية وصل بها الى الساحل السوري ووصل جنوباً الى صور حيث فرضت الجزية على جميع المدن الواقعة على الطريق. وفي اواخر عصر آشور ناصربال ، تمتعت الامبراطورية بسلام نسبي واستقرار عام حيث لم يرد ذكر حملات عسكرية سوى حملة واحدة وجهت الى حدود دولة اورارتو.

واذا تركنا النشاطات العسكرية جانباً ، فقد كان آشور ناصربال معماراً من الطراز الأول . فعلى الرغم من انه اتخذ عدة مدن قواعد لانطلاقه في حملاته العسكرية ومقرات ادارية ، مثل اربيل ونينوى فضلاً عن العاصمة الرسمية آشور ، ومدنا اخرى مثل مدينة تشخان ، الا انه اولى اهتماماً خاصاً لبناء عاصمته الجديدة كلخو (نمرود) التي كانت في عهده عبارة عن انقاض ترقى بتأريخها الى عهد شيلمنصر الأول في القرن الثالث عشر قبل الميلاد . وقد كان لهذه المدينة اهميتها الستراتيجية الخاصة وذلك لوقوعها في الزاوية التي يصب فيها الزاب الأعلى في نهر دجلة ، اضافة الى سيطرتها على المنطقة الى الشمال من العاصمة آشور. وبعد ان انهى المعابد والقصور وتعميرها وتجديدها ، مما استغرق خمس سنوات كاملة ، تم افتتاح وتدشين المدينة في احتفال كبير دعا اليه مايقرب من سبعين الف شخص ، حسب ادعاء آشور ناصربال ، وذلك عام ٨٧٩ ق . م . وقد وضعت لنا المسلة المكتشفة في قصر الملك نفسه تفاصيل ذلك كما سيشار الى ذلك فيما بعد .

أما شيلمنصر الثالث (٨٥٨ – ٨٣٤ ق . م) خليفة آشور ناصربال ، فلقد اثبت بأنه كان جديراً بحكم الامبراطورية الواسعة التي ورثها عن ابيه بل انه لم يكتف بالمحافظة عليها وانما وسّع من حدودها حتى غدت تضم جميع المناطق الممتدة من الخليج العربي الى جبال ارمينيا ومن تخوم الأراضي الميدية شمال غرب ايران الى سواحل البحر الأبيض المتوسط . وفي مجال البناء والتعمير زخر حكمه بنشاطات واسعة في العواصم الآشورية الثلاث . وقد حول

---

(١) جورج رو، العراق القديم ، ص٣٩٠.

شيلمنصر العديد من المدن الآشورية المهمة الى حصون ومعسكرات ، وكشفت التنقيبات في كلخو عن بناية ضخمة اطلق عليها المنقبون اسم حصن شيلمنصر.

كانت نشاطات شيلمنصر العسكرية الاولى موجهة الى الجبهة الغربية ، وقضى على مملكة بيت- اديني التي تمردت ضد السلطة الآشورية والحقت اراضيها بالدولة الآشورية وضمن امن وسلامة الطرق التجارية على طول نهر الفرات ووسع حدود الدولة باتجاه الشمال وقد كان من نتائج هذا التوسع ان سارعت الدويلات السورية الى تشكيل حلف عسكري لمواجهة قوة الآشوريين وتزعمت الحلف مملكة دمشق الآرامية ، واصطدمت قوات الحلف بالجيش الآشوري قرب قرقر على نهر العاصي ، وادعى الآشوريون انهم اوقعوا خسائر فادحة بقوات الحلف وان عدد القتلى بلغ اربعة عشر الفاً من مجموع سبعين الفاً من المقاتلين[1] ، الا ان الاحداث التالية لاتؤيد هذا الادعاء حيث تجدد الصدام بين الطرفين بعد فترة مما يشير الى ان الآشوريين لم يحققوا انتصاراً حاسماً.

وتزودنا مسلة شيلمنصر السوداء المعروضة في المتحف البريطاني بمعلومات وافية عن نشاطات شيلمنصر العسكرية وبصورة خاصة في الجبهة الغربية[2] . وفي بلاد بابل ، حدث انقسام في البلاط البابلي بسبب تأييد الملك البابلي للسياسة الآشورية ، وايدت القبائل الكلدية الحزب المناوئ لهذه السياسة ، وكانت هذه القبائل قد استقرت في اقصى الجنوب وفي شرقي دجلة ، فجهز شيلمنصر عليها حملتين متتاليتين وصلت قواتها الى سواحل الخليج العربي .[3]

وفي عام ٨٤٩ ق.م. توجه شيلمنصر ثانية الى الجبهة الغربية والشمالية الغربية والحق مملكة كركميش ، وهي آخر الدويلات المستقلة في اعالي الفرات ، بالحدود الآشورية . ومع ذلك ، ظلت الاضطرابات في الجبهة الغربية وظلت مملكة دمشق تغذي تلك الاضطرابات مما دفع شيلمنصر الى تجهيز حملة جديدة الى المنطقة احرز خلالها انتصارات باهرة على دويلة اسرائيل وعلى مدن صور وصيدا ومملكة دمشق ودفعت جميعها الجزية وهي صاغرة في حين اظهرت مصر الود والصداقة وسارعت الى ارسال الهدايا الى الملك الآشوري.

---

(١) ساكز، عظمة بابل ، ١١٤.

(٢) حول ترجمة نص المسلة انظر Luckenbill, op.cit., p.211 ff.

(٣) جورج رو، العراق القديم ص٢٩٩.

وتمثلت نشاطات الملك في الجبهة الشرقية والشمالية الشرقية بارسال عدد من الحملات العسكرية التأديبية الى المنطقة للحد من نشاطات القبائل والأقوام الجبلية ، وكانت الاقوام القاطنة الى الشرق من جبال طوروس قد تجمعت وكونت لها دولة كان لها اثرها في سياسة الآشوريين في الفترة التالية عرفت بدولة اورارتو وكان مركزها عند بحيرة وان ثم اتجهت بنفوذها غرباً الى بلاد الأناضول وشمال سوريا ونافست آشور في السيطرة على الطرق التجارية ، كما كانت القبائل الميدية الفارسية تقطن الى الشرق من ذلك وتهدد حدود الدولة الآشورية الشرقية .

ويبدو ان السياسة العسكرية التي اتبعها شيلمنصر لم تلق التأييد الكامل في داخل بلاد آشور نفسها ، حيث حدثت مؤامرة داخلية تزعمها احد ابنائه بعد ان ضمن تأييد عدد من المدن الآشورية الرئيسة ، ولأن شيلمنصر كان شيخاً مسناً ، فقد تولى ابنه وولي عهده شمشي- ادد (الخامس) مهمة القضاء على المؤامرة التي اجتاحت بلاد آشور واستمرت لمدة اربع سنوات توفي خلالها الملك ونصب شمشي- ادد ملكاً على بلاد آشور وذلك عام ٨٢٣ ق.م. واستمر حكمه لمدة اثنتي عشرة سنة اخمد خلالها الاضطرابات الداخلية وثبت مركزه في الداخل معتمداً على مساعدة الملك البابلي الذي عقد معه معاهدة اعترف بموجبها الملك الآشوري بسيادة ملك بابل مقابل تأييده له. وكان من نتائج ذلك ان تزعزعت السلطة المركزية وتمردت الاقاليم الحدودية وازداد ضغط القبائل والأقوام المناوئة للآشوريين مما اضطر الملك الى تجهيز عدة حملات عسكرية. أما ملك بابل، خليفة الملك الذي عقد المعاهدة مع آشور، فقد تحالف مع مملكة عيلام ومملكة نامري (شمال بلاد عيلام) والقبائل الكلدية ضد الدولة الآشورية فجهز شمشي- ادد حملة عسكرية عليه قضى خلالها على قوات الحلف ودخل بابل عام ٨١١ ق.م.[1]

توفي شمشي- ادد وكان ابنه وولي عهده ادد- نراري (الثالث) صغير السن ، ويظن ان والدته شمو رامات التي ورد اسمها في المصادر الاغريقية على هيئة سميراميس ، اصبحت وصية على ابنها لمدة خمس سنوات ، وقد تناقلت الروايات والحكايات قصصاً واساطير كثيرة عن شخصية سميراميس وعن فترة حكمها كوصية على ابنها ، وكان اقدم ماذكر عنها رواية هيرودتس (القرن الخامس قبل الميلاد) ، وقد وصفت بأنها كانت شخصية بارزة في البناء والتعمير وفائقة الجمال والحكمة وذات قابلية عسكرية وادارية متميزة ، ونسبت اليها

---

(١) حول تفاصيل هذه الاحداث انظر Grayson, A.K., Assyria in. Cambnidge Ancient History, 1982, p. 266 ff.

القصص والأساطير اعمالاً كثيرة منها بناء مدينة بابل وغيرها من المدن واقامة جنائنها المعلّقة وبناء السدود ومشاريع الري وفتح بلاد مصر والهند وغير ذلك من المنجزات الكبرى. وعلى الرغم من عدم دقة ماورد عن سميراميس من اخبار مبالغ فيها فإنها لابد ان تعكس بعض الحقائق، فقد كشف في آشور عن مسلة خاصة بها وضعت مع مسلات الملوك والملكات كما كشف عن تمثال في كلخو مكرّس لحياتها مما يؤكد انها كانت تتمتع بمركز مرموق، الا ان الكتاب الاغريقيين قدنسجوا حولها الكثير من القصص والأساطير الخيالية لأسباب لاتزال غير معروفة.[1]

شهد حكم ادد تراري الثالث (٨٤٠– ٧٨٣ ق.م) وحكم ابنه شيلمنصر الرابع (٧٨٢– ٧٧٢ ق.م) تزايد ضغوط دولة اوراتو واعادة تشكيل الحلف العسكري المضاد لآشور مما اضطر الملك الآشوري الى ارسال عدة حملات عسكرية لمواجهة قوات الحلف، ومع ذلك، انكمشت قوة الدولة الآشورية وتقلّص نفوذها في شمال سوريا وقاست كثيراً خلال عهود الملوك الذين تعاقبوا على العرش الآشوري بعد ذلك فتمكنت اورارتو من السيطرة الكاملة على الطرق التجارية القادمة من ايران والطرق المؤدية الى الساحل السوري وبذلك تسببت بنشوء ازمات اقتصادية مما اثرعلى نشاط آشور العسكري ولم يعد لها سوى موقف الدفاع عن سيادتها ضد الأقوام التي انتهزت فرصة تردّي الأوضاع. واستمر الوضع كذلك في عهد آشور دان الثالث (٧٧١– ٧٥٤ ق.م) خاصة بعد ان حلّ وباء في بلاد آشور فتك بالسكان وان اهم ماحدث في عهد هذا الملك هوكسوف الشمس الذي ذكرته اثبات الليمو والذي افادنا في تثبيت حكم الملوك الآشوريين بالنسبة للوقت الحاضر كما سبق واشير الى ذلك. وفي عام ٧٤٦ ق.م. اندلعت ثورة عارمة في المدن الآشورية اغتيل خلالها الملك وجميع افراد اسرته ونصب بدلاً منه تجلاتبليزر الثالث الذي عدّ عهده بداية عهد امبراطوري جديد.[2]

---

(١) انظر تفصيل ذلك: سامي سعيد الأحمد، سميراميس، بغداد، ١٩٨٨.

(٢) انظر عامر سليمان، منطقة الموصل في النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد، موسوعة الموصل الحضارية، موصل ١٩٩١، ٩٢– ٩٤.

ملوك الامبراطورية الآشورية الثانية :

اعتلى تجلاتبليزر الثالث العرش الاشوري وبلاد آشور اكثر ماتكون تمزقاً واضطراباً ، وكان على الملك الذي نصبته الثورة ان يستوعب الأوضاع العامة وان يبادر الى معالجتها ويضع الحلول الناجحة لها . وقد اثبت تجلاتبليزر انه كان حقاً سياسياً قديراً وإدارياً ناجحاً وقائداً عسكرياً استطاع خلال سني حكمه الذي استمر مايزيد عن عشرين عاماً (٧٤٥ – ٧٢٣ ق.م) ان يقضي على الفوضى السياسية والارتباك الاقتصادي الذي عم بلاد آشور وان يعيد للدولة سابق هيبتها وسلطانها ويوفّر لها الاستقرار ويزيد من نفوذها ويوسع حدودها . وكما اشرنا ، لم تكن العمليات العسكرية التي قام بها تجلاتبليزر ومن جاء بعده من الملوك لتؤتي ثمارها وتحقق اهدافها بالشكل المطلوب لولا الاصلاحات الجذرية في جهاز الدولة الاداري والتنظيمات الجديدة التي اعيد بموجبها اصلاح الج .ن والسياسة الواضحة التي اتبعت تجاه الدول والممالك التابعة ، وقد عدَّ كثير من الباحثين عهد تجلاتبليزر بداية عصر امبراطوري جديد في تأريخ الآشوريين.[1]

وحيث كانت سياسة الملك البابلي حينئذ موالية للسياسة الآشورية ، فقد امكن ضمان أمن الحدود الجنوبية ، كما ان ذلك قطع الطريق على مملكة عيلام للتدخل في شؤون بلاد بابل ، لذا تمكن تجلاتبليزر ان يتوجه الى الجبهة الشمالية الشرقية حيث كانت دولة اورارتو تزيد من ضغوطها على حدود الدولة الآشورية وتهدد بقطع طرق مواصلاتها فجهزت حملة اليها انذرت ملكها بالخطر فسارع الى تشكيل حلف مضاد للآشوريين جمع فيه الأمراء الحثيين والآراميين في شمال سوريا فجهزت حملة آشورية ثانية اوقعت بقوات الحلف هزيمة نكراء وقع فيها مايناهز ثلاثة وسبعين الفاً من الاعداء ، كما تذكر المصادر الآشورية ، وهرب الملك ساردر ليلاً . وفي عام ٧٣٤ ق.م. حدثت اضطرابات في جنوبي فلسطين واعيد تشكيل حلف شمال سوريا الذي ضم عدداً من الدويلات السورية ودويلة اسرائيل فوجهت حملة آشورية الى المنطقة اعادت سيطرة الآشوريين عليها وفرضت عليها الجزية . وقد قام بتجهيز حملة اخرى الى بلاد بابل بعد ان تمردت القبائل الكلدية واعلنت عصيانها ، وقد دخل تجلاتبليزر بابل ونصب نفسه ملكاً عليها وعرف باسم پول .

---

(١) انظر: ساكز، عظمة بابل، ص١٩٧.

وفي عهد شيلمنصر الخامس (٧٢٧- ٧٢٢ ق.م) تغير الموقف في الجبهة الغربية حيث امتنع كل من ملك اسرائيل وملك صور عن دفع الجزية مما دفع الملك الآشوري الى ارسال حملة عسكرية استولت على صور اولاً ومن ثم اعادت سلطتها على دويلة اسرائيل وفرضت الجزية عليها. غير ان هذه العمليات لم ترق للملك اسرائيل فامتنع ثانية عن دفع الجزية، وربما كان ذلك بتشجيع ودعم من فرعون مصر، فارسلت حملة اخرى على دويلة اسرائيل وحوصرت مدينة السامرة حتى استسلمت للملك الآشوري، وربما كان سرجون، الملك الذي اعتلى العرش بعد ذلك، قائداً للجيش الآشوري في تلك الحملة حيث انه ادعى بأنه هو الذي قضى على ملك اسرائيل. اما بالنسبة الى بلاد بابل، فقد توج شيلمنصر نفسه ملكاً عليها كما فعل ابوه من قبل.

اعتلى سرجون (شرّوكين= الملك الصادق او الثابت) العرش الآشوري عام ٧٢١ ق.م، ولاتعرف علاقته بسلفة وربما كان غاصباً للعرش، كما لايعرف اسمه الحقيقي ويبدو انه تسمى بسرجون عند او بعد اعتلائه العرش مباشرة، وكان على رأس سلالة ملكية جديدة حكم فيها اربعة من اشهر ملوك العراق القديم واغزرهم من حيث المخلفات المادية.

تشير المصادر المسمارية الى ان الأوضاع العامة في بلاد آشور كانت مرتبكة عندما تولى سرجون الحكم، فقد استغلّت بعض المقاطعات الحدودية فرصة انتقال الحكم، ربما بشكل غير شرعي، واعلنت التمرد والعصيان ضد السلطة المركزية.

أما بالنسبة للأوضاع الدولية، فيبدو ان انتصارات تجلاتبليزر الساحقة في الجبهتين الشرقية والغربية قد اثارت كلا من مملكة عيلام والمملكة المصرية ودفعت بها الى اتخاذ الاجراءات الاحترازية للحد من نشاط الدولة الآشورية والعمل على تقويض سلطانها حيث كان من نتائج سيطرة الآشوريين على بلاد الشام وموانيء البحر المتوسط ان تأثرت علاقة مصر بهذه المنطقة وانقطعت تجارتها معها وتوقف تزويدها بما تحتاجه من مواد خام، ولاسيما الأخشاب، في حين نتج عن سيطرة الدولة الآشورية على الجبهة الشرقية قطع طرق المواصلات المارّة بايران، لذا بدأت مصر بتقديم العون والمساعدة الى الدويلات السورية في الوقت الذي كانت فيه عيلام تغذّي حركة التمرد والعصيان في الأقاليم المحلية التابعة للدولة الآشورية وتمنّي شيوخ القبائل الكلدية القاطنة في جنوبي بلاد بابل بتقديم العون المادي والعسكري لها. ويبدو ان عيلام وجدت اذانا صاغية عند مردوك- ابلا- ادينّا (مردوخ بلادن في التوراة)،وهو زعيم قبيلة بيت-ياكيني ،الذي نصّب نفسه ملكاً على بلاد بابل سنة اعتلاء سرجون العرش الآشوري معتمداً على اسناد مملكة عيلام. وقد جهز

سرجون حملة عسكرية على بلاد بابل وعيلام ادعى انه انتصر فيها الاّ أن المصادر البابلية تشير الى انه خسر المعركة او انسحب بقواته قبل حسم المعركة ربما بسبب ماحدث في الجبهة الغربية من اضطرابات ، ويبدو ان سرجوناً قد ترك الأوضاع في بلاد بابل دون تغيير جذري لمدة عشر سنوات ظل خلالها مردوك – ابلا – ادينّا ملكاً على بلاد بابل ، وقاست المدن البابلية كثيراً في هذه الفترة حيث تردّت الأوضاع الاقتصادية وتحكمت القبائل الكلدية والعيلامية بالأوضاع الداخلية مما دفع بالمدن البابلية ان تستنجد بالملك الآشوري لتخليصها من تلك الأوضاع . ويبدو ان سرجون قد توجه نحو بلاد بابل ثانية وذلك عام ٧١٠ ق . م . واعدّ لذلك حملة عسكرية قوية اعاد بعدها سيطرته على مدن بلاد بابل الا أنه عاد ونصّب زعيم الكلديين نفسه زعيماً على قبيلته بعد ان قدّم له الخضوع والولاء .

اما في الجبهة الغربية فقد تمردت بعض المدن السورية والفلسطينية ضد الحكم الآشوري مستغلّة اعتلاء سرجون العرش وتزعمت حماة حلفاً عسكرياً لمواجهة الآشوريين مما اضطر سرجون الى ترك المشكلة البابلية والتوجه بحملة مستعجلة الى سوريا لمواجهة قوات الحلف عند قرقر وقد تمكن من القضاء عليها واخضعت حماة للادارة الآشورية المباشرة واتجه الجيش الآشوري جنوباً الى غزة ، وبعد خمس سنوات قام بحملة ثانية الى المنطقة ذاتها ووصلت القوات الآشورية هذه المرة الى العريش على حدود مصر . كما قام سرجون بحملة اخرى على ايران وضم عدداً من مدنها الى الحدود الآشورية . [1]

الا أن المشكلة الرئيسة التي واجهها سرجون كانت في الجبهة الشمالية والشمالية الشرقية حيث كانت قد تأسست مملكة قوية باسم زكرتو شرقي بحيرة اورميا ، واتفق ثلاثة من زعماء الميديين مع ملك اورارتو للوقوف ايضاً ضد الآشوريين مما اضطر سرجون الى ارسال عدة حملات تأديبية الى المنطقة غير ان تدخلات اورارتو استمرت لذلك كان لابد من القيام بحملة عسكرية قوية عليها ووضعت الخطط اللازمة لتلك الحملة وبدأت تقارير الاستخبارات الآشورية والجواسيس تنهال على الملك الآشوري مشجعة اياه للبدء بالحملة وبدأت فعلاً الحملة التي قادها سرجون بنفسه عام ٧١٤ ق . م وكانت من اقوى الحملات العسكرية على المنطقة وقد امكن التعرف على تفاصيلها من رسالة كان سرجون قد وجهها الى الاله آشور يبين فيها منجزاته العسكرية ، وقد عرفت الحملة لدى الباحثين بحملة

(١) طه باقر، المقدمة ، ص ٥١٣ .

سرجون الثامنة وقد حقق سرجون في هذه الحملة انتصاراً حاسماً وكبيراً على دولة اورارتو وجميع الأقوام المتعاونة معها.[1]

وفضلاً عن ذلك ، ارسل سرجون حملة الى مملكة كركميش في الشمال وحملات اخرى الى اسيا الصغرى فرضت الهيمنة الآشورية على المنطقة.

وكان سرجون كذلك معماراً من الطراز الاول قام بنشاطات معمارية واسعة في المدن المختلفة وتوج اعماله ببناء عاصمة جديدة له اختار لها موقعاً قريباً من نينوى وعرفت باسمه "دور شرّوكين" اي "حصن سرجون" وكان سرجون قد اتخذ من مدينة آشور عاصمة له ثم انتقل الى نينوى في حين اتخذ مدينة كلحو قاعدة عسكرية ثم باشر ببناء العاصمة الجديدة والذي استمر العمل فيها حتى السنة الاخيرة من حياته حيث انتقل اليها عام ٧٠٦ق.م. وربما انتقل اليها من قبل ان يكمل بناء جميع ابنيتها ، وبعد وفاته عام ٧٠٥ق.م ، هجرت المدينة.

اعتلى سنحاريب العرش الاشوري وكانت الدولة الآشورية قد وصلت الى اقصى حدودها باستثناء مصر التي لم تكن قد ضمت اليها بعد ، كما كانت الحضارة الاشورية قد وصلت الى اوج ازدهارها. وكان سنحاريب من الشخصيات البارزة القليلة التي عرفها التاريخ القديم ، وكان قد تدرب على اساليب الحكم والادارة وقيادة الجيش قبل توليه الحكم حيث كان قد شغل عدداً من المناصب الادارية وربما قاد الجيش في عهد والده فضلاً عن تدربه في بيت ولاية العهد. وكانت نشاطات سنحاريب العمرانية واسعة جداً وقد شملت جميع المدن الآشورية ، الا انها تركزت في مدينة نينوى التي اعاد بناءها وبناء قصورها ومعابدها واسوارها وبواباتها وأقام فيها البساتين والحدائق وجلب اليها المياه من مناطق بعيدة. اما نشاطاته العسكرية ، فقد شغلت معظم سني حكمه وكانت مركزة على جبهتين الغربية والجنوبية الشرقية. اما الجبهة الشمالية والشمالية الشرقية ، فيبدو ان العمليات العسكرية الواسعة التي قام بها سرجون قد ضمنت للدولة الاشورية استقراراً نسبياً في المنطقة لمدة من الزمن.

ففي الجبهة الغربية ، تمردت المدن والدويلات السورية والفلسطينية بعد وفاة سرجون مباشرة ربما بدعم وتحريض من مصر فوجهت اليها حملة عسكرية عام (٧٠١ق.م).

---

(٢) ساكز، عظمة بابل ، ص ١٤٧.

فرضت السيطرة ثانية على المدن الساحلية والفلسطينية وقد واجهت الحملة القوات المصرية التي جاءت لمساعدة المدن الفلسطينية ضد الآشوريين. وهزمت القوات المصرية واسر ابناء الفرعون المصري ، واعترفت جميع الممالك والمدن بالنفوذ الآشوري وفرضت عليها الجزية.

اما بالنسبة لبلاد بابل ، فكانت سياسة سنحاريب ، كغيرة من الملوك الآشوريين البارزين ، تقضي بالمحافظة على وحدة بلاد وادي الرافدين ، اي وحدة بلاد بابل وآشور، واتخاذ جميع الاجراءات من اجل تحقيق ذلك ، فأولى سنحاريب اهتماماً خاصاً لحل المشكلة البابلية وذلك من خلال القضاء على مملكة عيلام التي كانت لاتنفك تثير الفتن والاضطرابات في بلاد بابل وتستميل بعض القبائل الكلدية وتمدها بالعون المادي والعسكري من اجل التمرد ضد الآشوريين ، وقد ساءت الاوضاع في جنوبي بلاد بابل بعد وفاة سرجون واستغل مردوك- ابلا- ادنا ، زعيم الكلديين ، ذلك وعاد يطالب بعرش بابل تسنده في ذلك مملكة عيلام ، وكان سنحاريب قد نصب ملكاً موالياً للسياسة الآشورية على بلاد بابل ، فتوجه زعيم الكلديين الى بابل وخلع هذا الملك واعلن نفسه ملكاً على بلاد بابل فسارع سنحاريب وجهز حملة عسكرية ضده واجهت قواته وقوات العيلاميين التي كانت قد خفّت لمساعدته وقد امدتنا نصوص سنحاريب التذكارية بتفاصيل هذه الحملة وكيفية القضاء على القوات العيلامية والبابلية ومع ذلك ، عادت بابل وتمردت ثانية ، فوجهت اليها حملة عسكرية اخرى قضت على رؤوس التمرد وقرر سنحاريب مهاجمة مملكة عيلام التي كانت وراء كل ذلك في عقر دارها وبنى لذلك اسطولاً من السفن النهرية استخدمه للعبور الى بلاد عيلام وادعى سنحاريب بانه حقق انتصاراً حاسماً على العيلاميين ، الا ان الاخبار المضادة تشير الى ان العيلاميين قاموا بهجوم مضاد على بلاد بابل فانسحب الجيش الآشوري دون حسم المعركة. ثم عاود سنحاريب هجومه على بابل وعيلام وكان انتصاره حاسماً هذه المرة. كما قام سنحاريب بعدد من الحملات الى الجبهة الشمالية والشمالية الشرقية احكم خلالها سيطرته على المنطقة الجبلية.

انتهى حكم سنحاريب نهاية محزنة حيث اغتيل إثر تمرد تزعمه اثنان من ابنائه وقد تمكن اسرحدون ، ولي العهد الشرعي ، من القضاء على التمرد وتولي العهد الاشوري عام ٦٨١ ق.م وقد اتبع اسرحدون سياسة جديدة في معالجة المشكلة البابلية اتصفت باللين وترضية السكان ، ومع ذلك قامت بعض القبائل الكلدية بالتمرد ضده مما اضطره الى اصدار اوامره للقضاء عليها وعلى زعيمها الذي هرب ثم قتل. وقد لاقت سياسة اسرحدون ترحيباً شعبياً في بلاد بابل واستقرت المنطقة طوال حكمه.

وفي الشمال والشمال الغربي ، اقام اسرحدون علاقات صداقة مع الاقوام الاسكيثية في حين وجه حملات تاديبية الى القبائل الكمرية وعقد عدداً من المعاهدات مع الامراء الميديين، فكانت سياسته في المنطقة تجمع بين القوة العسكرية والعلاقات الدبلوماسية الودية.

وفي الغرب ، وجه اسرحدون حملة عسكرية الى المدن الفينيقية وعلى راسها صيدا وقضى على تمردها واقام حصناً عسكرياً آشورياً افتتحه بحضور اثنين وعشرين ملكاً من الملوك المحليين.

وحيث ان فرعون مصر كان وراء الفتن والاضطرابات التي قامت بها المدن الفينيقية ولاسيما صور والفلسطينية ، فقد قرر اسرحدون القضاء على الفرعون المصري وبدأ بالاعداد لذلك من خلال اقامة علاقات دبلوماسية مع حكام المدن الواقعة على الطريق وتجهيز حملات عسكرية صغيرة الى بعضها لضمان سلامة الطريق الى مصر وتحييد بعض المدن والقبائل وفي عام ٦٧٥ ق.م عبر اسرحدون الحدود المصرية غير انه توقف ربما بسبب العواصف الرملية ، فاعاد الكرة عام ٦٧١ ق.م والتقى بجيش تهراقا المصري وهزمه وحاصر مدينة منفس ، فهرب الفرعون المصري وسارع بقية الامراء بالاعتراف بسيادة اسرحدون الذي عين الموظفين الاشوريين لرعاية المصالح الآشورية في مصر واعلن نفسه ملكاً على مصر العليا والسفلى واثيوبيا غير ان تهراقا تمكن من تجميع عدد من الامراء حوله لمقاومة السيطرة الاشورية واستعاد مدينة منفس ، فقام اسرحدون عام ٦٦٩ بتجهيز حملة جديدة الى مصر الا انه توفي وهو في طريقه الى مصر، فقام باكمال المهمة ابنه اشور بانيبال.

وكان اسرحدون قد وضع الترتيبات الدقيقة الخاصة بولاية العهد واعتلاء العرش من بعده ، ربما كرد فعل طبيعي لما عاناه من مشكلات إثر مقتل والده ، ففي عام ٦٧٢ ق.م. اعلن في اجتماع كبير في العاصمة نينوى حضره حكام المقاطعات وقادة الجيش وكبار الموظفين ، فضلاً عن الامراء والملوك التابعين والموالين ، عن تعيين ابنه آشور بانيبال ولياً للعهد على عرش بلاد بابل وتثبيت ابنه الآخر شمش- شوم- اوكن ولياً للعهد على عرش بابل وذلك بعدما اجريت جميع الطقوس الدينية والمراسيم الخاصة بذلك وابرمت سلسلة من المعاهدات مع الامراء التابعين ، ومنهم الامراء الميديون ، واخذت منهم المواثيق على ضمان تنفيذ وصية الملك هذه ، وحددت العقوبات واللعنات القاسية التي ستنزلها الالهة بكل من يخالف الترتيبات التي وضعها الملك ويحنث باليمين الذي اقسمه او

يتلكأ او يتباطأ في تنفيذ ماجاء في المعاهدة. وقد تم الكشف مؤخراً عن عدد من هذه المعاهدات وكان اكملها المعاهدة التي عقدت مع رمتايا حاكم احدى المدن الميدية[1].

بعد وفاة اسرحدون اعتلى اشور بانيبال عرش آشور عام ٦٦٩ ق.م واعتلى اخوه عرش بابل في السنة التالية، وسارت الامور الداخلية والعلاقات بين الاخوين بسلام لمدة ليست بالقصيرة ثم بدأت المشاكل بينهما بتحريض من مملكة عيلام.

كان اشور بانيبال من الشخصيات اللامعة حيث جمع بين شخصية القائد الشجاع والمقاتل العنيد والسياسي المحنّك وبين شخصية الملك المثقف المولع بطلب العلم والمعرفة والمهتم بجمع علوم ومعارف الاجيال الماضية، وكان قد تربّى في قصر ولاية العهد (بيت ريدوتي) في مدينة تريبصُ من قبل ان يعتلي العرش. وبعد ان اعتلى العرش الآشوري بدأ بنشاطاته العسكرية بحملة الى المنطقة الجبلية المحاذية لبلاد عيلام وفرضت السيطرة الآشورية على المدن المتمردة. اما بالنسبة لمصر التي كان ابوه قد دخلها من قبل الا ان الفرعون تهراقا تمرد على الآشوريين، فقد اعدَّ لها حملة كبيرة جمع فيها قوات اثنين وعشرين ملكاً من الملوك التابعين في سوريا وفلسطين وقبرص وتقدم الجيش الآشوري الى مصر وحاصر ممفيس حيث هزم تهراقا وانسحب الى طيبة في الجنوب فلاحقه الجيش الآشوري حتى دخل طيبة وبذلك اصبحت جميع مصر تحت النفوذ الآشوري، وقد اعتمد اشور بانيبال السياسة نفسها التي وضعها ابوه فاعتمد على الأمراء المحليين في ادارة شؤون مصر وزودهم بحاميات عسكرية اشورية، الا ان تهراقا بدأ يحرض الأمراء المحليين بعد ان انسحب الجيش الآشوري فالقي القبض على جميع الأمراء المتعاونين معه وارسلوا الى نينوى الا ان اشور بانيبال اكرمهم واعادهم الى مناصبهم محملين بالهدايا ولابد وانه ربطهم بمعاهدات ومواثيق تؤكد ولائهم للعرش الآشوري. ومع ذلك، حدثت اضطرابات وفتن جديدة في مصر اضطرت الملك الآشوري الى ارسال الجيش ثانية وذلك عام ٦٦٣ ق.م. وقد تمكن المناوئون للآشوريين في مصر من اخراج الجيش الآشوري في الفترة الواقعة بين ٦٥٨ و ٦٥١ ق.م. وكان على رأسهم الفرعون بسماتيك، الا ان النصوص الآشورية كعادتها لاتشير الى الانسحاب او الى وقوع اي خسائر في الجيش الآشوري. وكما اشرنا، يبدو ان العلاقات الآشورية – المصرية بعد ذلك كانت علاقات طيبة حيث سارع

---

(١) : انظر: Wiseman, D.J., The Vassal – Treaties of Esarhaddon, London 1958.

الفرعون المصري الى ارسال المساعدات العسكرية للآشوريين عندما تعرّضوا لهجوم الميديين والكلديين.

وفي الجبهة الشرقية والشمالية الشرقية كانت حشود الكمريين والسكيثين تهدد طرق التجارة الآشورية وكذلك كانت مملكة ميديا، مما دفع الآشوريين الى توجيه عدة حملات عسكرية الى المنطقة اعادوا خلالها سيطرتهم على المنطقة. الا ان المشكلة الرئيسية التي واجهت آشور بانيبال بعد مشكلة مصر هي مشكلة بلاد بابل ومن ورائها مملكة عيلام، فقد حاولت عيلام والقبائل الكلدية المناوئة للآشوريين التفريق بين الاخوين، ملك بابل وملك آشور، وزيادة شقة الخلاف بينها الى درجة اندلعت الحرب بينها فجهز آشور بانيبال حملة عسكرية ضد بلاد عيلام، الا ان ذلك لم ينهِ المشكلة حيث استمرت عيلام تعمل ضد النفوذ الاشوري وتحرض القبائل الكلدية وتوغر صدر ملك بابل، فجهز آشور بانيبال حملته الثانية عليها وذلك عام ٦٤٢ وتمكن اخيراً من القضاء على مملكة عيلام عام ٦٣٩ ق.م في حين انتحر اخوه وهو في قصره.

اما نشاطات آشور بانيبال العمرانية والثقافية فقد كشفت عنها التنقيبات التي اجريت في مدينة نينوى وكان من جملة ما كشف قصره الملكي ومكتبته التي ضمت اكثر من ٢٥ الف رقيم طيني والتي تعد من اثمن ماتم الكشف عنه من آثار آشورية حتى الآن.

ويكتنف القسم الاخير من عهد آشور بانيبال الغموض حيث تنقطع المعلومات عن الملك وعن منجزاته من بعد تحقيقه انتصارات عسكرية حاسمة ضد مملكة عيلام اعقب ذلك القضاء على جميع المناوئين في بلاد بابل والمتعاونين معهم، وبدت الأمور وكأنها قد استتبت للملك الآشوري، ظاهرياً في اقل تقدير، غير ان الاحداث الجسام التي وقعت في الثلاثين سنة التالية تؤكد انه كان هناك عوامل عدة تنخر في جسم الدولة من الداخل والخارج وتعمل على تقويضها، ومن هذه العوامل مايمكن للباحث المعاصر تشخيصها ومنها مايبقى خافياً، ففي عام ٦٣٩ تتوقف حوليات الملك الآشورية لاسباب غير معروفة، وربما اجتاحت البلاد اضطرابات داخلية ونكسات عسكرية لم تدون اصلاً. وهناك بعض الاشارات من نصوص معاصرة ومتأخرة تشير الى ان الحكم انتقل الى ابن آشور بانيبال في حدود عام ٦٣٠ ربما بسبب شيخوخة آشور بانيبال، وفي عام ٦٢٧ او ٦٢٦ توفي آشوربانيبال وتحولت الاضطرابات الداخلية الى ثورات فعلية . ففي بلاد بابل ازيح الملك البابلي الموالي للآشوريين واعلن نبوبلاصر، زعيم قبيلة كلدو، نفسه ملكاً على بلاد بابل وذلك في عام ٦٢٦ ق.م. اي في السنة التي توفي فيها آشور بانيبال، وعمل على تثبيت

نفوذه على القسم الجنوبي من العراق ومد سلطانه شمالاً مستغلاً الاوضاع المرتبكة في بلاد آشور. اما بالنسبة الى الاوضاع الخارجية فيشير هيرودوتس الى ان ملك الميديين كان قد اغار على الحدود الآشورية عام ٦٥٣ الا انه لقي حتفه في المعركة فتولى ابنه كي– اخسار الحكم، بيد انه لم يتمكن من مواصلة الهجوم على الآشوريين. وبعد ذلك تمكن كي–اخسار من تجميع قواته وتوحيد القبائل الميدية في مملكة واحدة سيطرت على المنطقة الواقعة بين بحيرة اورميا وحتى طهران وبلاد فارس واتخذ من اكباتانا (قرب همدان) عاصمة له، بدأ ثانية بالتحرش بالدولة الآشورية. ففي عام ٦١٥ قام بالزحف على منطقة ارّابخا (كركوك) وسيطر عليها، وفي العام التالي توجه الى مدينة آشور وحاصرها ثم فتحها عنوة ونهب وسلب قصورها ومعابدها. ويبدو ان نبوبلانصر كان قد توجه هو الاخر نحو آشور الا انه وصل متأخراً حيث كان الميديون قد احتلّوا آشور، وازاء هذا الوضع الجديد اضطر نبوبلانصر، كما يبدو، الى عقد اتفاق مع الملك الميدي اختتم بمعاهدة سياسية تزوج بموجبها نبوخذ نصر، ولي العهد الكلدي، من اميرة ميدية، وفي السنة نفسها توجه الجيش الميدي الى مدينة تربيص الاشورية الواقعة بالقرب من مدينة نينوى وسيطر عليها[1]. وفي هذه الاثناء طلب الملك الآشوري العون من الملك المصري بسماتيك، وفي السنة التالية وقعت نينوى تحت الحصار لمدة ثلاثة اشهر فقط سقطت بعدها نينوى واضرمت فيها النيران[2] ونهبت وسلبت قصورها ومعابدها، وتنسب بعض المصادر اسباب سرعة سقوط نينوى الى حدوث فيضان، ربما في نهر الخوصر، ساعد على فتح ثغرة في اسوارها، الا ان نينوى سقطت في شهر آب وانه من غير المحتمل ان يحدث فيضان في دجلة او الخوصر في مثل هذا الشهر[3].

---

(١) انظر: عامر سليمان، الكتابة المسمارية والحرف العربي، موصل، ١٩٨٢، وانظر كذلك الفصل الاخير من الجزء الثاني من هذا الكتاب.

(٢) حول هذه التفاصيل انظر: جورج رو: العراق القديم، ص ٥٠٠–٥٠١، طه باقر، المقدمة، ص ٥٢٥–٥٢٦، ومن الجدير بالاشارة الى ان هيئة تنقيبات جامعة الموصل في سور نينوى كشفت عن بقايا حريق وتدمير في بوابة ادد في سور نينوى يظن انه الحريق الذي اصاب المدينة عند سقوطها: انظر عامر سليمان، نتائج تنقيبات جامعة الموصل في اسوار نينوى، آداب الرافدين، ١ (١٩٧١)، ص ٤٥–٩٨ وحول سقوط نينوى انظر: سامي سعيد الاحمد، لماذا سقطت الدولة الآشورية، سومر، ٢٧ (١٩٧١)، ص، ١٠٩–١٢٨.

(٣) See Wiseman, D.J.Chronides of Chaldean Kings London, 1961, PP. 59–60 L– 38–43.

ويظهر ان الملك الآشوري كان قد مات او قتل في اثناء الحصار، ولم يعد للآشوريين كيان سياسي في نينوى، الا ان بعض القطعات الآشورية اتجهت نحو الغرب واستقرت في مدينة حرّان ، وربما كانت تلك القطعات اصلاً في الجهات الغربية ، ونصبت عليها ملكاً ينتسب الى الاسرة المالكة الآشورية، وكانت بانتظار المساعدات المصرية، الا ان الجيش الكلدي وجموع الاماندا هجمت على حرّان فانسحب الجيش الاشوري الى كركميش وكانت المساعدات المصرية قد وصلت آنذاك، الا ان الجيش المصري - الآشوري اندحر امام قوة الجيش الكلدي بقيادة نبوخذنصر وكانت المعركة التي وقعت عند كركميش حاسمة حيث انسحبت القوات المصرية ولم نعد نسمع بفلول الجيش الآشوري، فكانت نهاية كيان الآشوريين السياسية والعسكرية في الداخل والخارج. وغدت بلاد آشور بعد ذلك جزءاً من حدود الامبراطورية الكلدية (البابلية الحديثة) التي اسسها نبوبلاصر وثبت اركانها نبوخذنصر كما سيأتي تفصيل ذلك.



١١ العصر البابلي الامبراطوري

تمثل الامبراطورية البابلية الحديثة الكلدية، آخر عهود الحكم الوطني في العراق القديم. وقد استمر حكم الامبراطورية فترة قصيرة لم تتجاوز القرن الواحد (٦٢٦–٥٣٩ ق.م)، ومع ذلك ، كان عهدها بحق من العهود الزاهرة في تاريخ العراق القديم من الناحيتين السياسية والحضارية. فأما من الناحية السياسية فقد ورثت الدولة البابلية الحديثة الامبراطورية الآشورية وحلّت محلها فضمت جميع انحاء العراق تحت سلطانها وامتدت بنفوذها حتى وصلت الى سواحل البحر المتوسط شمالاً كما امتدت سيطرتها الى سواحل الخليج العربي جنوباً. اما من الناحية الحضارية فقد وصلت بلاد بابل، وبصورة خاصة مدينة بابل، قمة مجدها وازدهارها الحضاري وغدت اروع واوسع مدن العالم القديم قاطبة ففاقت بسعتها وعظمتها وشهرتها جميع العواصم الآشورية، كما فاقت مدينة اثينا وروما والاسكندرية وغيرها وغدا اسمها يطلق على العراق باسره قديماً وحديثاً، وكانت جميع الآثار المكتشفة في مدينة بابل من بقايا معمارية وغيرها من العصر البابلي الحديث.

اطلق على المملكة التي اسسها نبوبلاصر عام ٦٢٦ ق.م. اسم الدولة او الامبراطورية البابلية الحديثة[١] نسبة الى العاصمة بابل في حين سميت احياناً بالدولة الكلدية نسبة الى اسم القبيلة التي ينتمي اليها نبوبلاصر مؤسس الدولة وهي قبيلة كلدو او كشدو[٢] كما جاءت في النصوص المسمارية.

الكلديون:

الكلديون من القبائل الجزرية التي قدمت اصلاً من شبه الجزيرة العربية وحلّت في القسم الجنوبي من العراق منذ مطلع الالف الاول قبل الميلاد على اقل تقدير. وقد اندمجت القبائل الكلدية بسكان البلاد المحليين وبحضارتهم ، سيما وانها تنتمي الى الاصل نفسه الذي تنتمي اليه غالبية سكان بلاد بابل من اموريين وغيرهم، واستخدمت اللغة الاكدية الدارجة كما استخدمت الكتابة المسمارية وسارت على العادات والتقاليد والمعتقدات التي كانت سائدة في البلاد شأنها في ذلك شأن القبائل الامورية عندما حلّت في بلاد بابل في مطلع الالف الثاني قبل الميلاد.

ومع ان الباحثين يتفقون على ان الكلديين هم من الاقوام الجزرية فان اراءهم اختلفت بشأن الطريق الذي سلكته تلك القبائل في هجرتها الى وادي الرافدين وبالاصول التي تحدرت عنها. فنهم من يرى انهم من جملة القبائل الارامية اصلاً[٣] في حين يرى آخرون انهم من القبائل العربية التي نزحت من جنوب الجزيرة العربية وانتشرت في سواحل الخليج العربي والاقسام الجنوبية من العراق، وقد يكونوا من جنوبي شرقي او جنوبي غربي شبه الجزيرة العربية[٤] ومهما كان اصل وطريق هجرة القبائل الكلدية، فقد حلّت في جنوبي العراق وتغلغلت بين السكان وانتشرت في ارجاء المنطقة حتى سميت المنطقة التي حلّوا فيها باسمهم اي بلاد كلدوا mat Kaldu[٥]. ويبدوا ان القبائل الكلدية كانت على هيئة مشيخات كل منها سميت باسم زعيمها او رئيسها، وقد ورد ذكر هذه المشيخات في حوليات عدد من الملوك الآشوريين المتأخرين ابتداء من عهد شيلمنصر الثالث، وكان من

---

(١) انظر مثلاً ساكز، عظمة بابل، ص ١٧٠.

(٢) وهي التسمية الاكثر شيوعاً وقبولاً الان: انظر حياة ابراهيم محمد، نبوخذنصر الثاني، بغداد ١٩٨٢، ص ٢٢. ومن الجدير بالاشارة ان الكتب القديمة تسمى نسبياً تسمى الكلديين وفق الصيغة التوراتية كلدانيين (طه باقر، المقدمة، ج١، ط٢، ص٢٠٣)، كما سميت السلالة الكلدية الحاكمة بسلالة بابل الحادية عشر ايضاً.

(٣) طه باقر، المقدمة، ص ٢٠١.

(٤) حياة ابراهيم محمد ، نبوخذنصر الثاني، ص ٣٢-٣٤.

(٥) ARAB, vol. I, mo 525

بين هذه القبائل او المشيخات بيت داكوري وبيت اموكاني وبيت ياقين وبيت عديني وغيرها[1]. وكان يطلق على زعيم كل مشيخة لقب ملك احياناً او امير[2].

ومنذ ان حلّت هذه القبائل في القسم الجنوبي من العراق كان بعض زعمائها يحاولون توحيدها للوقوف ضد السلطة الآشورية من خلال تأسيس مملكة محلية تحكم بلاد بابل، وغالباً ما كانت تتفق مع القبائل الاخرى في المنطقة لتؤلف حلفاً قوياً ضد الآشوريين، وكانت مملكة عيلام تستغل ذلك، كما سبق ان أشرنا مراراً، فتقدم لها العون المادي والعسكري وتوفر لها الملجأ عند الحاجة في سبيل الحد من نفوذ الآشوريين ثم السيطرة على بلاد بابل. وكان الملوك الآشوريون يقومون بدورهم بتجهيز الحملات العسكرية المتتالية على المنطقة للقضاء على اي حلف مناوئ وكثيراً ما وجّهوا حملاتهم الى بلاد عيلام نفسها، كما فعل ذلك الملك سنحاريب والملك اشور بانيبال، للقضاء على المملكة الحاكمة فيها والتي كانت تحرّض القبائل الكلدية دوماً ضدهم. وقد عرفت المنطقة التي استقرت فيها القبائل الكلدية في اقصى جنوب العراق باسم «بلاد البحر» او «القطر البحري»، وكان من ابرز الزعماء الكلديين الذي ثاروا ضد الآشوريين، وتمرّدوا عليهم وتزعّموا الحركة الانفصالية عن الدولة الاشورية مردوك - ابلا - ادينّا (الصيغة الواردة في العهد القديم مردوخ بلادن) الذي عاصر ثلاثة من الملوك الآشوريين، وهم كل من تجلاتبليزر الثالث وسرجون الثاني وسنحاريب[3]، وقد اقلق الآشوريين لفترة من الزمن ونصب نفسه ملكاً على بلاد بابل ولاسيما في السنوات الاولى من حكم الملك سرجون، وكان اخر الزعماء الكلديين الذين تزعموا حركة الانفصال نبوبلاصر الذي تمكن اخيراً من تأسيس الدولة البابلية الحديثة، الكلدية، موضوع هذا الفصل.

نبوبلاصر مؤسس الدولة البابلية الحديثة:

كان نبوبلاصر احد الزعماء الكلديين الثائرين على السلطة الآشورية ونفوذها على بلاد بابل، وكان الملك الآشوري قد عيّنه حاكماً على منطقة القطر البحري في اقصى جنوبي العراق، الا انه استغل فرصة الارتباك السياسي الذي حلّ بالمملكة الآشورية، ربما في اعقاب وفاة الملك آشور بانيبال عام ٦٢٦ ق.م. فاعلن نفسه ملكاً على بلاد بابل في السنة نفسها واستقل عن الدولة الآشورية وقد عمل في السنوات الاولى من حكمه على

---

(١) عامر سليمان، الكتابة المسمارية والحرف العربي، ص ٧٩ ومابعدها.

(٢) حياة فهد، نبوخذنصر الثاني ، ص ٣٥.

(٣) عامر سليمان ، الكتابة المسمارية ، ص ٦٩ وما بعدها.

تثبيت مركزه ملكاً على بلاد بابل وتوحيد القبائل الكلدية وغيرها من القبائل الآرامية القاطنة في المنطقة ، كما قام بعدد من الحملات العسكرية على طول نهر الفرات. وبسط سيطرته على المنطقة وحاول ان يسيطر على مدينة آشور نفسها عام ٦١٥ ق.م. الا انه لم يتمكن من ذلك. وكما سبق ان اشرنا، فقد قام الملك الميدي كي- اخسار في السنة التالية بهجوم كاسح على مدينة آشور وتمكن فعلاً من هدم اسوارها ونهب قصورها ومعابدها، ويبدو ان نبوبلاصر لم يشترك في ذلك الهجوم حيث ان الجيش البابلي وصل الى مدينة آشور بعد ان كان الميديون قد احتلوا المدينة ونهبوا قصورها ومعابدها، فعقد اتفاق بين الملك الميدي والملك البابلي على التعاون فيما بينهما. وتشير كثير من المصادر ان الاتفاق ختم بمصاهرة سياسية تزوج بموجبها ولي العهد البابلي نبوخذنصر من ابنة الملك الميدي كي- اخسار. وفي عام ٦١٢ ق.م. توجه نبوبلاصر على رأس الجيش البابلي وكي اخسار على رأس جيش الميديين نحو نينوى التي حوصرت لمدة ثلاثة اشهر الى ان تم فتح بواباتها واضرام النيران فيها واكتساح اسوارها وانهاء كيانها السياسي.

لم يتوقف نبوبلاصر في نشاطاته العسكرية بل اتجه بجيشه نحو الشمال الغربي وتعقب فلول الجيش الاشوري الذي انسحب الى بلاد الشام منتظراً القوات المصرية التي كانت في طريقها لمساعدة الآشوريين، وقد خاض الجيش البابلي عدة معارك عسكرية مع الجيش الآشوري والمصري الى ان تمكن من تحقيق الانتصار الحاسم وبسط سيطرته على بلاد الشام بكاملها في حين اكتفى الميديون بسلب ونهب القصور والمعابد واخذ الغنائم ثم الانسحاب. وفي عام ٦٠٥ ق.م تولى قيادة الجيش البابلي ولي العهد نبوخذنصر الذي اتجه نحو بلاد الشام ثانية واصطدم عند كركميش بالجيش المصري وهزمه ثم توجه بعد ذلك نحو الحدود المصرية ربما بهدف التوغل في الاراضي المصرية الا ان سماعه لوفاة والده حالت دون استمراره بالتقدم فقفل راجعاً الى بابل ليتوج ملكاً. ويبدو ان اهداف نبوبلاصر الرئيسة في حملاته العسكرية باتجاه الغرب والشمال الغربي كانت السيطرة على الطرق التجارية الموصلة الى موانئ البحر المتوسط والى مصادر المواد الخام وفي الوقت نفسه الحيلولة دون تغلغل المصريين في المنطقة[1].

(١) طه باقر، المقدمة ، ص ٥٤٦.

نبوخذنصر الثاني[1] (٦٠٥-٥٦٢ق.م) ومنجزاته :

حظيَّ نبوخذنصر (الثاني) بشهرة واسعة في العصور القديمة والحديثة على حد سواء، فقد ذكرته المصادر الكلاسيكية وكتب المؤرخين العرب، وكشفت عن اثاره المعمارية التنقيبات الاثرية التي اجريت في مدينة بابل وغيرها من المدن، فكانت بحق اروع ما كشف عنه في بابل. وهو ابن نبوبلاصر مؤسس الدولة الكلدية وولي عهده، كان يقود الجيش البابلي في بلاد الشام وربما كان في طريقه الى الحدود المصرية عندما سمع بوفاة والدة الملك، وكان شيخاً كبيراً، فعاد مسرعاً الى بابل ليتصب بعدها ملكاً عليها وذلك عام ٦٠٥ق.م. وكان انذاك في العقد الثالث من عمره، وقد استمر حكمه اكثر من اربعين سنة، اي الى عام ٥٦٢ ق.م.

اثبتت الاحداث التي وقعت في عهد نبوخذنصر واسلوب معالجته لها سواء الداخلية منها ام الخارجية بانه كان بحق من القادة البارزين الذين جمعوا بين الكفاءة الادارية وحسن التصرف وبين حنكة السياسة الخارجية وقيادة الجيش. وفي خلال فترة قصيرة من توليه الحكم تمكن من تثبيت سلطانه على جميع انحاء الامبراطورية التي خلفها له ابوه وامتد الى ماوراء الحدود التي كان قد وصلها ابوه من قبل. وفضلاً عن ذلك، كان نبوخذنصر معماراً من الطراز الأول اولى اهتماماً خاصاً لبناء وتعمير المعابد والقصور- والاسوار والبوابات في مختلف المدن البابلية الا ان اعماله العمرانية تركزت في العاصمة بابل فارتفع شأن مدينة بابل حتى غدت اشهر مدن العالم القديم وان معظم ماتم الكشف عنه في مدينة بابل منذ مطلع القرن الحالي وحتى الان يرق بتأريخه الى عهد هذا الملك. وكسياسي محنك ودبلوماسي له تأثير على البلدان والاقوام الاخرى، توسط عام ٥٨٥ق.م. في عقد معاهدة صداقة بين مملكة لسيديا والميديين حيث ارسل ممثلاً عنه هو قائده نبونائيد للقيام بهذه المهمة[2].

---

(١) ورد اسم نبوخذنصر في كتاب العهد القديم بصيغة مقاربة وذلك على هيئة نبوخذناصر اونبوخذراصر في حين سماه الكتاب العرب بختنصر وفسر اسمه تفسيرات لاعلاقة لها بالمعنى الاصلي الذي يحمله الاسم في اللغة الاكدية. ويلفظ الاسم في اللغة الاكدية على هيئة نبوكودوري اوصر Nabu – kudurri – ussur بمعنى الاله نبو يحمي الحدود، او الاله نبو يحمي الابن البكر، حول الصيغ التي ورد فيها الاسم والصيغ اليونانية له ومعانيها انظر: حياة ابراهيم، نبوخذنصر الثاني، ص ٥٣-٥٤.

(٢) انظر: جورج رو، العراق القديم، ص ٥١٠.

تركزت نشاطات نبوخذنصر العسكرية ، كما اشرنا ، في بلاد الشام رغبة منه في تثبيت اركان الامبراطورية الحديثة وضمان امن وسلامة الطرق التجارية الموصلة الى مصادر المواد الخام وضمان حدود الامبراطورية الشمالية والشمالية الشرقية ايضاً اضافة الى الجبهة الشمالية الغربية والغربية مما استدعى قيامه بعدد من الحملات العسكرية المتتالية الى بلاد الشام لاحكام السيطرة عليها وقمع التمردات وحركات العصيان التي قامت بها بعض دول المدن ضد النفوذ البابلي عليها بتحريض من الفرعون المصري الذي تأثرت تجارته مع بلاد الشام وفقدت سيطرته على الموانيء السورية ونفوذه على بعض دويلات المدن مثل دويلة يهوذا مما دفعه للقيام بتحريض تلك الدول والممالك لمناوئة النفوذ البابلي والتمرد عليه ومدها بالمساعدات المادية والعسكرية من اجل تحقيق ذلك. وهكذا كانت بلاد الشام المسرح الذي اصطدمت فيه القوات البابلية مع القوات المصرية. وقد تمكن الفرعون المصري من تحريض ملك دويلة يهوذا التي كانت معترفة بسيادة نبو خذنصر ومستمرة على دفع الجزية المفروضة عليها فثار ضد الملك البابلي واعلن عصيانه وحنث بالعهد الذي كان قد قطعه على نفسه مع الملك البابلي مما اضطر نبوخذنصر الى تجهيز حملة عسكرية الى المنطقة وحاصر اورشليم مات خلال ذلك ملك يهوذا يهوياكيم ، ومن ثم فتحت اورشليم عام ٥٩٧ ق. م. واجلي عدد من القادة والموظفين ، ومنهم يهوياكين ابن الملك وبقية افراد الأسرة المالكة ، واخذوا اسرى الى بلاد بابل وعين صدقيا ملكاً على يهوذا . الا ان مصر لم تتوقف عن تحريض يهوذا على التمرد ومدّها بالعون ، وقد نجحت محاولاتها في السيطرة على عدد من المدن الفلسطينية نجاحاً محدوداً ومؤقتاً مما دفع صدقيا لاعلان تمرده ضد الملك البابلي على الرغم من التحذيرات التي حذره اياها نبي اليهود ارميا فاضطرت الحاميات العسكرية البابلية الى الانسحاب فقام نبوخذنصر بتجهيز حملة جديدة اجتاحت المنطقة وهزمت القطعات المصرية وحاصرت اورشليم ثانية ولمدة سنة ونصف السنة الى ان تم فتحها وذلك عام ٥٨٦ ق. م وعوقب رؤوس التمرد والعصيان واجلي عدد من السكان الى بلاد بابل ، ولم يكتف الجيش البابلي بذلك بل توجه نحو المدن السورية الاخرى التي تمردت على البابليين وبصورة خاصة المدن الساحلية مثل صور وصيدا ، فاحكمت السيطرة عليها بعد ان حوصر بعضها ، مثل مدينة صور، سنوات طويلة. حيث يروى ان حصارها دام ثلاثة عشر عاماً الى ان استسلمت للجيش البابلي عام ٥٧١ ق. م.

وتشير الاخبار البابلية الى ان الجيش البابلي قام بحملات صغيرة اخرى الى المنطقة كما قام بحملة الى الجهات الجنوبية الشرقية عند حدود بلاد عيلام التي عادت تحرض بعض القبائل للتمرد ضد الحكم البابلي هذه المرة وبمجرد ان توجه الجيش البابلي نحوها ، هدأت الاوضاع ولم يكن هناك اي تدخل عيلامي بعد ذلك.

ولم تكن منجزات نبوخذنصر مقصورة على النشاطات العسكرية بل انه كان معماراً من الطراز الاول كما سبق ان اشرنا ، وقدتركزت اعماله العمرانية في مدينة بابل كما انه قام بنشاطات معمارية كثيرة في معظم المدن البابلية.

نبونائيد ونهاية الحكم الوطني في العراق

تعاقب على الحكم في بلاد بابل من بعد نبوخذنصر، الملك القوي ، ثلاثة من الملوك قليلي الشأن. فقد تولى العرش البابلي بعد نبوخذنصر مباشرة ابنه اميل–مردوخ الذي ورد ذكره في اسفار العهد القديم ولم يحكم سوى عامين لايعرف عنها سوى امور طفيفة جداً ، ويذكر العهد القديم انه احسن معاملة ملك يهوذا الذي كان قد جلبه ابوه نبوخذنصر اسيراً الى بلاد بابل ، وهو يهويا كين الذي ورد ذكره في احد النصوص المسمارية الخاصة بتوزيع الجرايات والارزاق[1]. الا ان اميل–مردوخ قتل في انقلاب داخلي دبره الكهنة فتولى العرش نرجال–شار–اوصر (٥٦٠–٥٥٦ ق.م) ، صهر نبوخذنصر، الذي لايعرف عنه سوى بعض النشاطات العمرانية وقد اعقبه في الحكم ابنه لباشي–مردوخ الذي لم يحكم سوى بضعة اشهر قتل بعدها في انقلاب او ثورة داخلية ونصب بدلاً منه نبونائيد الذي ورد اسمه في المصادر الاغريقية على هيئة نبونيدس ، وكان انذاك في العقد السادس من عمره[2]. وكان نبونائيد من الشخصيات البابلية البارزة حيث تشير النصوص المسمارية انه قام بدور الوسيط لتسوية الخلاف بين الميديين ومملكة ليديا في عهد نبوخذنصر، وكان ابوه احد وجهاء مدينة حرّان في حين كانت امه تشغل وظيفة الكاهنة العليا في معبد الاله سين، اله مدينة حرّان ، وربما كانت من اسرة اشورية ارستقراطية او انها من العائلة الملكية الاشورية حيث ان احد النصوص المسمارية يشير الى انها كانت قدولدت في منتصف عهد اشوربانيبال ، ومن المعروف انه في تلك الفترة كانت كهانة المعابد الرئيسة تعهد عادة الى

---

(١) يذكر هذا النص : "الى يهو–كينا ملك بلاد يهودو، لابناء ملك بلاد يهودو الخمسة (و) ثمانية يهود ، كل منهم $\frac{1}{2}$ سيلا من الحبوب" (ساكز، عظمة بابل ، ١٧٤).

(٢) انظر جورج رو، العراق القديم ٥١١.

امراء واميرات العائلة المالكة[1] . كما يشير النص الى انها عاشت عمراً طويلاً ، ١٠٤ سنة ، وعاصرت عدداً من الملوك الاشوريين والبابليين وتوفيت في عهد ابنها نوبنائيد حيث اقيمت لها مراسيم تشييع ودفن مهيبة . وكان نبونائيد شديد التأثر بامه فورث عنها الاهتمام بالشؤون الدينية وبشكل خاص الاهتمام بعبادةالاله سين الذي خدمته طوال حياتها مما اثار عليه سخط كهنة الاله مردوخ في بابل . وقد افادنا النص الذي دون عن وفاة ام نبونائيد فائدة كبيرة في معرفة تسلسل الاحداث في السنوات الاخيرة من عهد الدولة الاشورية ، حيث جاء فيه :

"من السنة العشرين من حكم اشور بانيبال ، ملك اشور- عندما ولدت- الى السنة الثانية والاربعين من (حكم) اشور بانيبال ، والسنة الثالثة من (حكم) ابنه اشور- اطلي- ايلي ، والسنة الحادية والعشرين من (حكم) نبوبلاصر ، والسنة الثالثة والاربعين من (حكم) نبوخذ نصر ، والسنة الثانية من (حكم) اميل- مردوخ ، والسنة الرابعة من (حكم) نرجال شار اوصر خلال خمس وتسعون سنة[2] .

وكان الاعتقاد السائد لدى الباحثين أن شخصية نبونائيد كانت شخصيته ضعيفة ومهزوزة حيث كان همه الاول الاهتمام بالماضي والبحث عن اثاره وجمع النصوص القديمة واستنساخها حتى عده الباحثون اول اثاري في العراق ، غير ان نشر بعض النصوص الجديدة مؤخراً قد بينت انه فضلاً عن انه كان ملكاً ذو ثقافة عالية فانه كان رجل سياسة ذا قابلية فائقة وانه شعر بالمشكلات التي كانت تهدد كيان الدولة البابلية وبالاخطار الجسيمة التي كانت تحيط بها فعمل جاهداً لتخليص البلاد من مشاكلها وايجاد الحلول الناجحة لذلك ، وان كانت محاولاته هذه قد فشلت الا انها تدل على انه لم يترك الامور تسير وفق اهواء الاعداء والمتربصين به وبالحكم في بلاد بابل .

لقد واجه نبونائيد عند اعتلائه العرش اثر الانقلاب الذي جاء به الى العرش البابلي مشكلتين رئيستين كان عليه ان يضع الحلول الناجعة لها ، وهما المشكلة الدينية والمشكلة الاقتصادية .

فكما هو معروف ان المعتقدات الدينية العراقية القديمة ارتكزت على مبدأ الشرك ، اي تعدد الالهة ، وقد احتل الاله مردوخ ، اله بابل القومي ، مكان الصدارة الى درجة حورت جميع القصص والاساطير الدينية لتضعه في مقدمة الالهة وتجعل منه بطلاً لها كما سياتي ذكر ذلك ، الا ان احتكاك البابليين باقوام اجنبية تعتقد بمعتقدات اخرى مختلفة قد خلق

(١) ساكز، عظمة بابل ، ١٧٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٦٥ .

نوعاً من البلبلة والاضطراب ولاسيما المعتقدات التي جاء بها الميديون من جهة ومعتقدات اليهود الذين جاء بهم بنوخذنصر الى بلاد بابل والذين اعتمدت ديانتهم اساساً على مبدأ التوحيد من جهة اخرى. اضافة الى ذلك، فقد كانت عبادة الاله مردوخ عبادة محلية مرتبطة ببلاد بابل بالدرجة الاولى لذا فانها لم تلق التأييد والترحيب في ارجاء الامبراطورية البابلية الواسعة التي ضمت اقواماً مختلفة من حيث المعتقدات الدينية. وقد كان للمعبد وكهنته في العصر البابلي الحديث بصورة عامة اهمية كبيرة تضاهي ما كان له من اهمية في عصر فجر السلالات قبل ذلك باكثر من الفي سنة، فبعد ان تقلص نفوذ المعبد وكهنته وتعاظمت سلطة الملك والقصر منذ بداية العصر البابلي القديم، عاد المعبد ليحتل مركزه الاول في العصر البابلي الحديث ولاسيما في مدينة الوركاء، فازدادت املاكه واتسعت اراضيه وزاد نشاط كهنته الاقتصادي حتى غدا بؤرة النشاط الديني والاقتصادي في المدينة ويتمتع باستقلال شبه كامل عن القصر الملكي يقابل ذلك بالطبع تقلص وانكماش في السلطة المركزية الى درجة اصبح المعبد ينافس سلطة الملك نفسه وربما كان ذلك من الاسباب التي دفعت نبونائيد لاجراء تغييرات جذرية في المعتقدات الدينية السائدة وكذلك الى تدخله المباشر في شؤون المعبد من خلال تعيين موظفين ملكيين في المعابد الرئيسة مما زاد من سخط كهنة المعابد، ولاسيما كهنة معبد الاله مردوخ، على الملك وموظفيه. ورغبة في التوفيق بين المعتقدات الدينية في ارجاء الامبراطورية مترامية الاطراف وتقليص نفوذ كهنة الاله مردوخ، كما يبدو، فقد اتخذ نبونائيد من الاله سين، اله القمر والاله الحامي لمدينة اور في جنوبي العراق ومدينة حرّان في الحدود السورية، الهاً اعلى في ارجاء الامبراطورية مع الاعتراف بالالهة الاخرى. فالاله القمر من الالهة التي كانت تعبدها مختلف الاقوام التي دخلت تحت راية الامبراطورية البابلية ولكن باسماء مختلفة في حين كانت عبادة الاله مردوخ، اله مدينة بابل، عبادة محلية غير معروفة خارج حدود بلاد بابل واشور. وفضلاً عن ذلك، فقد كان نبونائيد متأثراً الى درجة كبيرة بعبادة هذا الاله الذي خدمه كل من امه وابيه لفترة طويلة حيث كانا يعملان في خدمة معبده في مدينة حران. وقد ينظر الى هذه التغيير في المعتقدات البابلية الذي جاء به نبونائيد بانه

دعوة شبه توحيدية تحد من الشرك وتعدد الالهة ويمكن مقارنتها مع دعوة اخناتون في مصر الذي دعا الى عبادة قرص الشمس اتون، الا ان نبونائيد لم يحرّم عبادة بقية الالهة وظل يعتقد بتعدد الالهة. وتنفيذاً لهذه السياسة الدينية الجديدة، فقد عمل نبونائيد اول الامر على تخليص مدينة حران، مركز عبادة الاله القمر، من ايدي المحتلين من الاماندا ثم

باشر باعادة بناء وترميم معبد الاله القمر فيها . وكعادة الاقوام القديمة في بيان اسباب قيامهم باعمال معينة ، فقد ادعى نبونائيد بانه رأى حلماً امره فيه الاله سين ، اله القمر، بانه يخرج الامانمندا من حران ويعمر معبده فيها ، وقد كان اهتمام نبونائيد بالاله سين مثار سخط كهنة الاله مردوخ وغيره من الالهة البابلية حيث عُدًّا ذلك خروجاً عن المعتقدات الدينية السائدة ، فاثاروا الناس ضد ملكهم وضد العبادة الجديدة وتسببوا في فوضى سياسية وعصيان لاوامر الدولة الى درجة ان احد النصوص يذكر:

نسي ابناء بابل وبورسبا ونيبور واور واور ك ولارسا وسكان المدن الدينية في أكد... واجباتهم وتحدّثوا عن الخيانة وليس عن الطاعة".

ولم يكتف نبونائيد بتعمير معبد الاله القمر في حرّان بل قام بتعمير معبد سين في مدينة اور ايضاً واعاد تعيين ادارات جديدة في المعابد الرئيسة في الوركاء وغيرها من المدن البابلية مما يشير الى ادخاله نوعاً من الاصلاحات الدينية . وقد استغلت الاسر اليهودية التي كانت تعيش بسلام في بلاد بابل المشكلة الدينية هذه والخلاف الذي كان موجوداً بين نبونائيد وكهنة المعابد ، فزادت في شقة الخلاف وحرّضت كهنة الاله مردوخ على الملك ونشرت الدعايات المغرضة هذه واتهمته بالهرطقة والكفر والخروج عن المعتقدات الدينية السائدة .

اما المشكلة الرئيسة الثانية التي واجهها نبونائيد ، فهي الازمة الاقتصادية التي حلّت ببلاد بابل وادّت الى ارتفاع الاسعار وزيادة التضخم وقلة المواد الغذائية الاساسية الى درجة تضاعفت الاسعار وحلّت بالبلاد مجاعة وقد نسب نبونائيد ذلك الى عدم تقوى الناس ، وتشير بعض العقود القانونية المكتشفة الى ان بعض الناس من الفقراء اضطروا الى بيع اولادهم او تقديمهم ، على اقل تقدير، الى المعابد تخلصاً من نفقات عيشهم ، كما لجأوا الى الاقتراض من المصارف والبيوتات المالية ومن اصحاب رؤوس الاموال من المرابين وبفوائد عالية ، وربما كان اليهود المسيطرون على تلك المصارف والبيوتات والمستغلين لحاجة الناس ، فزادوا في نسبة الفوائد زيادة كبيرة . ولقد كانت هناك عوامل عدة عملت على خلق الازمة الاقتصادية منها النشاطات العمرانية الواسعة التي اضطلع بها نبوخذ نصر في مدينة بابل وغيرها من المدن التي كان لها آثار سلبية على الناحية الاقتصادية نظراً لانها ارهقت خزينة الدولة من جهة وسحبت اعداداً كبيرة من الايدي العاملة للعمل في مشاريع غير منتجة ، كما كان للحملات العسكرية المتكررة ومشاركة عدد كبير من الايدي العاملة فيها عاملاً آخر في تردّي الاوضاع الاقتصادية . من جهة اخرى ، سيطر الميديون الايرانيون على طرق المواصلات التجارية المتجهة شرقاً وشمالاً في حين كان للثورات التي

قامت في بلاد الشام ضد النفوذ البابلي اثرها في قطع طرق المواصلات المؤدية الى موانئ البحر المتوسط فبدأت الموانئ الاغريقية على السواحل الغربية من البحر المتوسط تستغل ذلك وتنافس الموانئ الفينيقية على السواحل الشرقية. وهكذا تفاقمت الازمة الاقتصادية وزادت حدّتها مما دفع نبونائيد الى اتخاذ التدابير اللازمة لمواجهة ذلك فحاول نقل مركز ثقل الامبراطورية الى الغرب لضمان الطرق التجارية القادمة من جنوبي الجزيرة العربية فقرر ان يتوجه الى شمال شبه الجزيرة العربية وعين ابنه بيل - شار - اوصر، وصّيا على عرش بابل وقاد هو حملة عسكرية باتجاه الغرب مارّاً بسوريا حتى وصل الى واحة تيماء (تيما في النصوص المسمارية ايضاً) حيث قضى على الملك المحلي فيها واتخذ المدينة قاعدة عسكرية له حيث اقام فيها في السنوات العشر التالية، ثم اندفع بعد ذلك نحو الجنوب الى ان وصل الى يتريبو، اي يثرب، وترك له حاميات عسكرية في ست من الواحات التي ذكر لنا اسماءها منها ادومة، وهي دومة الجندل. ومما يلاحظ ان خمساً من تلك الواحات الست التي ذكرها نبونائيد وترك فيها حاميات عسكرية كانت مسكونة من قبل اليهود في عهد النبي محمد صلى الله عليه وسلّم مما يشير الى أن نبونائيد ربما كان قد اخذ معه جماعات من اليهود الذين كانوا يعيشون في بلاد بابل فاسكنهم في تلك المناطق الجديدة وان لم يكن لدينا ادلة تؤكد ذلك.

لقد كان لغياب نبونائيد مدة عشر سنوات كاملة في شبه الجزيرة العربية وتركه بابل تحت امرة ابنه ووصيه على العرش اثره الكبير في تردّي الاوضاع السياسية والاقتصادية في بلاد بابل، كما كان القسم الجنوبي من العراق معرضاً دائماً لغارات مملكة عيلام من الشرق كلما كانت الفرصة سانحة وكلما ضعفت الحكومة المركزية، وقد حدث ذلك فعلاً عام ٥٤٦ ق.م، وربما عاد نبونائيد في تلك السنة الى بلاد بابل ليشارك في الدفاع عن بلاده ويقوّي من جبهته الداخلية وليقوم ايضاً ببعض المشاريع العمرانية، وكان نبونائيد عند عودته الى بابل شيخاً كبيراً ارهقته الاحداث والمشكلات وكانت محاولاته في ايجاد مخرج لازمته الاقتصادية قد فشلت في وقت كان كورش الفارسي الاخميني يخطط لغزو بلاد بابل ويعمل على تنفيذ سياسته التوسعية. وكان الاخمينيون من الاقوام الفارسية التي دخلت ايران من جهة الشمال في بداية الالف الاول قبل الميلاد واقامت لها مملكة صغيرة في اقليم فارس في القسم الجنوبي الغربي من ايران ثم مالبثت ان توسعت وقضت على المملكة الميدية في الشمال الغربي من ايران، كما سيأتي ذكر ذلك، وتنفيذا لسياسة التوسع التي انتهجها كورش ملك الاخمينين، فقد نقض العهد الذي كان بينه وبين الملك البابلي واستولى على بعض الاراضي التابعة للدولة البابلية، ثم قضى على مملكة ليديا، واتجه بعد

ذلك نحو بلاد بابل مستغلاً الازمة الاقتصادية التي عمت بلاد بابل واربكت اوضاعها السياسية ومستفيداً من الاسر اليهودية التي كانت تعيش في بلاد بابل في نشر الدعايات المضللة ضد الملك البابلي نبونائيد من جهة والتي تمجّد بالملك الفارسي وتعده المسيح المنتظر الذي سينقذ البلاد من الهلاك من جهة اخرى. وبعد ان تهيآت الامور لغزو بلاد بابل تقدم الجيش الاخميني نحو بلاد بابل فتصدى له الجيش البابلي عند مدينة اوبس على نهر دجلة الا ان القائد البابلي قتل في المعركة، فاتجه كورش الذي كان يقود الجيش الفارس نحو مدينة سپار ومن ثم الى مدينة بابل. وينسب هيرددتس اسباب سقوط بابل على ايدي الغزاة الاخمينين الى خدعة فارسية تضمنت كسر نهر الفرات الذي كان يؤلف جانباً من دفاعات مدينة بابل فانخفضت مناسيب المياه فيه واصبح من الممكن عبوره، الا ان سقوط المدينة كان بالدرجة الرئيسة بسبب وجود رتل خامس في داخل بابل يتزعمه ويوجهه اليهود. وهكذا دخل كورش بابل في ١٣ تشرين الثاني من عام ٥٣٩ ق.م، واسر الملك البابلي نبونائيد وربما قتل، وكان ذلك نهاية السلالة الكلدية ونهاية للحكم الوطني في بلاد بابل وآشور حيث وقع العراق بعدها تحت وطأة الاحتلال الاجنبي ولفترة طويلة حتى تم تحريره في معركة القادسية الاولى عام ٦٣٧ م.

	بابل	العصر الآشوري الحديث
	سلالات محلية غير مهمة	ادد – نراري الثاني
		٩١١ – ٨٩١
٩٠٠		توكلتي – تنورتا الثاني
		٨٩٠ – ٨٨٤
		اشور ناصربال الثاني
٨٥٠		٨٨٣ – ٨٥٩
		شيلمنصر الثالث
		٨٥٨ – ٨٢٤
٨٠٠		شمشي – أدد الخامس
		٨٢٣ – ٨١١
		اشوردان الثالث
		٧٧١ – ٧٣٤

	نبو- ناصر	
٧٥٠	٧٤٦- ٧٣٤	
	تجلا تبليزر الثالث	تجلا تبليزر الثالث
		٧٤٥- ٧٢٧
	شيلمنصر الخامس	شيلمنصر الخامس
		٧٢٦- ٧٢٢
		سرجون الثاني
	سرجون	٧٢١- ٧٠٥
٧٠٠	بيل- ابني	سنحاريب
		٧٠٤- ٦٨١
	اسرحدون	اسرحدون
٦٥٠		٦٨٠- ٦٦٩
	شمشي- شوم- اوكن	اشور بانيبال
	٦٦٨- ٦٤٨	٦٦٨- ٦٢٦
	حرب اهلية	
	قندلانو	
	٦٤٧- ٦٢٦	
	نبوبلاصر	سقوط نينوى
	٦٢٦- ٦٠٥	٦١٢
	نبوخذنصر	
٦٠٠	٦٠٤- ٥٦٢	
	اميل- مردوخ	
	نرجال شلر- اوصر	
	نبونائيد	
	سقوط بابل	
	٥٣٩	
	الغزو الاخميني	الغزو الاخميني

واحتلال بلاد بابل واشور





انتهى الحكم الوطني في العراق مع نهاية سلالة بابل الحديثة عام ٥٣٩ ق. م. اثر غزو الجيش الفارسي الاخميني، ووقع العراق بعدها تحت وطأة الاحتلال الاجنبي لمدة طويلة جداً جاوزت الالف سنة، تتابع على حكم العراق خلالها كل من الفرس الاخمينيين (٥٣٩– ٣٣١ ق. م) والاسكندر المقدوني (٣٣١– ٣٢٣ ق. م) وخلفائه السلوقين (٣٢٣– ١٢٦ او ١٣٨ ق.م) ثم احتل العراق الفرثيون (١٢٦ او ١٣٨– ق. م – ٢٢٧ ب. م) واخيراً الفرس الساسانيون (٢٢٧– ٦٣٧ م.) وفي معركة القادسية تم تحرير العراق ودخوله تحت راية الاسلام وبذلك انتهى التاريخ القديم بالنسبة للعراق.

العراق تحت وطأة الاحتلال الاخميني
(٥٣٩- ٣٣١ ق. م)

سبق أن اشرنا كيف ان كورش الاخميني تمكن من غزو بلاد بابل عام ٥٣٩ ق . م. وانهاء سلالتها الحاكمة والقضاء على آخر ملوكها واصبحت بعد ذلك بلاد بابل واشور ولاية تابعة للدولة الاخمينية.

والفرس الاخمينيون ، وكذلك الميديون ، من الاقوام الهندية- الاوربية التي وفدت الى ايران منذ مطلع الالف الاول قبل الميلاد ، وبعبارة اخرى ، انه لم يكن للفرس وجود في ايران قبل هذا التأريخ. وكانت القبائل الميدية (او الماذية) قد استقرت في القسم الشمالي الغربي من ايران واتخذت مدينة اكبتانا (همدان) عاصمة لها واقامت لها كياناً سياسياً قوياً وقامت بالهجوم على بلاد اشور، كما سبق واشرنا واقتحمت اشور ثم نينوى.[1]

اما الاخمينيون ، فقد سموا بهذا الاسم نسبة الى مؤسس السلالة اخامانيش ، وقد استقروا اول الامر في القسم الشمالي الشرقي من ايران ثم نزحوا الى القسم الجنوبي الغربي المجاور للخليج العربي في المنطقة التي عرفت فيما بعد ببلاد فارس ، وقد عرفت المنطقة باسم القبيلة التي ينتمون اليها. وكان يجاورهم العيلاميون ، غير ان العيلامين في هذه الفترة ، القرن السابع قبل الميلاد ، كانوا يمرون بفترة ضعف واضمحلال نتيجة الهجمات المتكررة التي وجهها اليهم الاشوريون في اواخر عهدهم ففسح ذلك المجال امام الاخمينين لتثبيت سلطتهم على المنطقة واقامة دولتهم التي اخذت بالنمو تدريجياً واتبعت سياسة التوسع العسكري ، وهكذا تمكن كورش الثاني (٥٥٨- ٥٣٠ ق. م) الذي يعد المؤسس الحقيقي للدولة الاخمينية من توسيع سلطانه والقضاء على مملكة ميديا وضم اراضيها الى حدود مملكته واتخذ من اكبتانا (همدان حاليا) عاصمة له/وكان هدف كورش ومن تبعه من الملوك الاخمينين السيطرة على جميع الاقاليم والبلدان المجاورة لهم ، فدخلوا في حرب سجال مع بلاد اليونان وكان العداء بينهم مستفحلاً. وبدأ كورش بتنفيذ مخططاته التوسعية وقام بتجهيز جيش قوي قاده بنفسه وغزا بلاد الشام وسيطر عليها ومن ثم توجه الى

---

(١) كان اول ذكر للقبيلتين الفارسية والمادية وردت في النصوص المسمارية من عهد شيلمنصر الثالث (٨٥٨- ٨٢٤ ق. م) حيث اصطدمت الجيوش الآشورية بالقبائل الايرانية وكان من بينها قبيلة مادا او مادي وقبيلة برسوا او برصا (فارس) انظر طه باقر، المقدمة ، ٥٧٣

بلاد بابل حيث غزا مدينة بابل عام ٥٣٩ق. م. بعد ان مّهد لذلك بحملة دعائية واسعة ساعده على نشرها في بلاد بابل نفسها اليهود الذين كان قد جلبهم نبوخذنصر اسرى يعيشون في بابل وماحولها ربما مقابل وعود قطعها كورش على نفسه بالسماح لهم بالعودة الى فلسطين، كما تؤكد ذلك مجريات الاحداث التالية. وقد استمر كورش بحروبه التوسعية شرقاً وغرباً حتى غدت امبراطوريته الواسعة تمتد من تخوم الهند شرقاً وحتى وادي النيل وسواحل اسيا الصغرى الغربية والمدن الايونية في بحر ايجة غرباً.

اصبحت بلاد بابل وآشور منذ عهد كورش ولاية من ولايات الدولة الاخمينية وكانت السياسة التي اتبعها الملوك الاخمينيون في ادارة الولايات التابعة، ومنها بلاد بابل واشور، ان يعين في كل ولاية حاكم فارسي من بين افراد الاسرة المالكة او احد المقربين اليها، يدعى ستراب، وكان المسؤول المباشر امام الملك عن شؤون ولايته. وكان على كل حاكم ان يدفع ضريبة سنوية معينة الى القصر الملكي، وكانت الضريبة المفروضة على بلاد بابل واشور عالية جداً ولاتضاهيها الا الضريبة المفروضة على الهند[1]، وكان للوالي ان يفرض الضرائب التي يراها مناسبة على السكان لسد الضريبة السنوية وسد النفقات الاخرى اللازمة لادارة الولاية وادارة شؤون قصر الحاكم. كما كان من سياسة الملوك الاخمينين ترك الولايات التابعة وشأنها فيما له علاقة بمعتقداتها الدينية وعاداتها وتقاليدها واسلوب ادارة شؤونها طالما كان الحكام الفرس مستعدون لتقديم الضريبة السنوية المفروضة على الولاية في وقتها المحدد وقد منحت الاسر الفارسية جميع الحقوق والامتيازات واعفوا من الضرائب والالتزامات التي كانت تفرض على غيرهم من السكان بهدف تشجيع الفرس للاستيطان في بلاد بابل واشور، كما شجع الحكام الكهنة المجوس للاستيطان في بلاد بابل واشور ونشر معتقداتهم الدينية بين الناس، كما اشارت بعض النصوص ان الملك احشويرش قد فرض عبادة الهالاخمينين القومي اهورمزدا الا انه لايعرف الى اي مدى كان امره نافذاً.

على الرغم من قوة الدولة الاخمينية وسعة نفوذها وشدتها وقسوتها في قمع الثورات وحركات العصيان التي اندلعت من عهد دارا الاول في مختلف البلدان والاقاليم التي اخضعتها بالقوة، فلقد كانت بلاد بابل تتحين الفرص للثورة ضد الحكم الاجنبي واعلان العصيان على الحاكم الفارسي بشتى الوسائل. فبعد وفاة قمبيز ابن كورش مباشرة

(١) كانت الضريبة السنوية المفروضة على الهند تساوي ٤٦٨٠ وزنة من الفضة اما الضريبة التي فرضت على ولاية بابل واشور فكانت تساوي الف وزنه اضافة الى تجهيز جيش الملك المؤن لمدة اربعة اشهر، وكانت الضريبة على مصر تساوي ٧٠٠ وزنه من الفضة (طه باقر، المقدمة، ص ٣٧٧)

ثارت بلاد بابل بزعامة نبوخذنصر الثالث الذي ادعى انه من السلالة الكلدية ، وقد اشار الى ذلك دارا في نصه الثلاثي المنقوش على حجر بهستون حيث يذكر كيف " ان شخصاً " من بابل يدعى " لندنتوبعل " قد جهز جيشاً بعد ان ادعى بانه " نبوخذنصر بن نبونيدس " واستلم عرش بابل. فزحف عليه داريوس بنفسه. وسحق الجيش البابلي على دجلة والفرات وطارد الثائر حتى عاصمته حيث القي القبض عليه واعدم. [1] وفي السنة نفسها ثارت بابل ثانية وقضي عليها ونكل بالثوار. وفي عهد دارا ايضاً ثارت بابل ثانية وثالثة ، الا ان دارا اتبع مع الثوار ابشع اساليب القمع قساوة ووحشية ومع ذلك ظلت بابل تقوم بالثورات ضد الاخمينين وفي عهد ابن دار قتل الحاكم الفارسي فقام الملك الاخميني بتجهيز حملة عسكرية قوية الى بلاد بابل دمّر خلالها معظم المدن البابلية ونهبها وسلبها [2] .

وكان طبيعياً ان ينتاب الدولة الاخمينية الضعف والاضمحلال بعد فترة من الزمن وذلك لوجود عوامل ضعف كانت تنخر في جسم الدولة تدريجياً. فلقد كانت الثورات المتكررة في مختلف الاقاليم والبلدان ، ولاسيما بلاد بابل ، تقلق الحكومة المركزية وتشغلها كثيراً الى درجة كانت الحملات العسكرية توجه اليها للقضاء على الثوار كما اشرنا. كما كان للمؤامرات والدسائس الداخلية اثرها في اضعاف الدولة حيث اصبح من السمات البارزة في عهد الدولة الاخمينية قتل الملك لبعض افراد اسرته ، ولاسيما اخوته ، من الذين يتوقع تمردهم على السلطة ومحاولتهم الاستحواذ على العرش ، وهذا مافعلة قمبيز الاول عندما قتل اخاه وارتحششتا الاول الذي قتل جميع اخوته (٤٦٥ - ٤٢٤ ق.م) واحشويرش الثاني الذي اغتاله اخوه (٤٢٤ ق. م) وارتحششتا الثالث الذي قتل جميع اخوته واخواته [3] وغيرهم. كما كانت الحروب الفارسية اليونانية المستمرة تعمل عملها في اضعاف الدولة واستنزاف اموالها. اضافة الى ذلك ، فلقد سيطرت الدولة الاخمينية وبسرعة فائقة وبقوة السلاح على بلدان وشعوب كثيرة ومتباينة وذات حضارات عريقة تمتد بجذورها الى الاف السنين وكان لهذه البلدان شخصياتها ونظمها وتقاليدها الخاصة ، كبلاد بابل واشور وبلاد

---

(١) جورج رو، العراق القديم ٥٤٦

(٢) جورج رو، العراق القديم، ٥٤٨

(٣) انظر طه باقر، المقدمة، ٥٧٩

مصر وبلاد الشام والهند، في حين لم يكن الاخمينيون ذوو حضارة ناضجة او متطورة بل كانوا على العكس من ذلك تماماً حديثي عهد بالسياسة والادارة مقارنة مع البلدان التي سيطروا عليها. وكان من نتائج ذلك ان اهتم الملوك الاخمينيون بجمع الاموال فحسب وترك تلك البلدان والشعوب تسير كل منها وفق نظمها وتقاليدها فتكدّست الاموال في خزائن القصر الملكي وعم الفساد والترف في القصور، ومن الطريف ذكره ان الاسكندر عندما فتح بلاد فارس وجد أكداساً من الاموال المخزونة في قصور الملوك الاخمينيين وعندما اعاد توزيعها وصرفها تسبب في ازمة مالية وتضخم نقدي فانخفضت اسعار النقود انخفاضاً كبيراً.

وعلى الرغم من سيادة الاخمينيين السياسية والعسكرية، فإن بلاد بابل وآشور ظلت تعيش في ظل الحضارة العراقية القديمة بمختلف مظاهرها [١]، فظلت اللغة الاكدية بخطها المسماري مستخدمة، ولكن على نطاق محدود الى جانب اللغة الفارسية التي غدت اللغة الرسمية في البلاد، ويؤكد ذلك ان من النقوش المهمة التي تركها دارا هو النقش المعروف باسم حجر بهستون والذي دون اعمال دارا وانتصاراته باللغة الفارسية واللغة العيلامية واللغة الاكدية بخطها المسماري

وكان من عوامل الضعف التي كانت تنخر في جسم الدولة الاخمينية تردي الاوضاع الاقتصادية فيها حيث كانت النفقات التي تنفقها الدولة على تجهيز الجيوش ولاسيما في حربها مع بلاد اليونان باهضة جداً يقابل ذلك اهمال في مشاريع الري وتحول في طرق التجارة الذي ادى بدوره الى قلّة الموارد الزراعية والتجارية مما دفع الملوك الاخمينيين الى زيادةالضرائب المفروضة على السكان. وهكذا كانت الازمة الاقتصادية في بلاد بابل واشور على اشدها مما اضطر الافراد الى الاقتراض بفوائد عالية جداً وظهرت بعض الاسر اليهودية التي كانت تدير مصارف خاصة بها لاقراض الناس الاموال مقابل فوائد عالية [٢]. ومن الجدير بالاشارة هنا ان الاخمينين ومن عهد دارا، بدأوا باصدار الدينار الذهبي (الداري) الذي انتشر استخدامه منذ ذلك الحين. ومما زاد في حدة الازمة الاقتصادية ان الاموال التي كانت تجبى من الولايات المختلفة كانت تكّدس وتخزن في خزائن القصر فكان ذلك من معوقات نمو التعامل النقدي وقلة السيولة النقدية.

---

(١) انظر جورج رو، العراق القديم، ٥٤٤.

(٢) طه باقر، المقدمة، ص ٥٨٣.

وقد ظلت اللغة الاكدية تحتفظ بمركز مهم حتى شاع استخدام اللغة الارامية بخطها الابجدي البسيط. حيث كانت ظروف الامبراطورية الاخمينية وطبيعة تركيبها السكاني يقتضي وجود وسيلة مشتركة للتفاهم، فانتشر استخدام اللغة الآرامية واتخذها الملوك لغة رسمية الى جانب اللغة الفارسية القديمة واللغة الاكدية (البابلية الحديثة) وما يقال عن اللغة ينطبق على مختلف المظاهر الحضارية الاخرى مثل علم الفلك والرياضيات، كما نستدل على ذلك من النصوص الفلكية المهمة التي وصلت الينا من هذا العصر وغيرها من العلوم والمعارف والنظم والقوانين والاعراف والتقاليد التي ظلت سائدة وشائعة بل ومؤثرة في الاقوام الاخرى. بل يمكن القول ان الاحتلال الفارسي لبلاد بابل وآشور قد ساعد بنحو غير مباشر على نقل المقومات الحضارية العراقية القديمة الى بلاد فارس نفسها والى غيرها من البلدان التابعة لها وهذا مايلاحظ جلياً في الاساليب والنظم الادارية[١] والاقتصادية[٢] ونظام البريد[٣] والتي ترجع باصولها الى النظم الاشورية والبابلية.

ومن الجدير بالاشارة هنا ان زينفون قائد الحملة التي عرفت بحملة العشرة الاف جندي عاش في هذه الفترة. فتشير المعلومات المتوفرة ان كورش الصغير حاكم اسيا الصغرى ثار على اخيه الملك الاخميني وقاد جيشاً جراراً من المرتزقة اليونان عبر بلاد اشور وبابل باتجاه بلاد فارس، الا ان كورش الصغير قتل في الطريق واندحر جيشه فقاد فلول الجيش عند عودته وانسحابه الى اسيا الصغرى احد افراده وهو زينفون وذلك عام ٤٠١ ق. م وقد تمكن زينفون من قيادة فلول الجيش الذي كان عدده كما يبدو عشرة الاف جندي، وعاد به الى اسيا الصغرى عبر الطريق نفسه، وقد خلد زينفون رحلته الصعبة هذه بكتابة مذكرات تفصيلية عن تلك الرحلة ذكر فيها كل مكان او موضع مر به وما سمع وما لاحظ من أمور فكانت عوناً لنا في معرفة الكثير من احوال بلاد بابل وآشور في اواخر القرن الخامس قبل الميلاد.

---

(١) لقد عمل الملك داراً على اعادة تنظيم الامبراطورية الاخمينية مستفيداً كما يبدو من التراث الاشوري والبابلي في اسلوب ادارة الامبراطورية حيث قسم الامبراطورية الى عشرين ولاية يحكم في كل منها والٍ يعينه الملك اسمه ستراب اي المحافظ ويعاونهم في ادارة الولايات قادة عسكريين الا أنهم مستقلين ادارياً عنهم اضافة الى تعيين الجباة والمفتشين (طه باقر، المقدمة، ٥٧٦) وكانت بلاد بابل تمثل الولاية الحادية عشرة.

(٢) كان من جملة التنظيمات الاقتصادية استخدام النقود المسكوكة حيث صار الدينار الذهبي الداري هو واسطة التعامل. ومن المعروف ان الاشوريين كانوا قد استخدموا قطع الفضة الصغيرة التي كانت تزن نصف شيقل وعليها شعار الالهة عشتار كواسطة للتعامل، اي انهم استخدموا تلك القطع كما تستخدم النقود الا انهم لم يصدروا النقود بشكل رسمي وكان اول من اصدر النقود هي مملكة ليديا في القرن السابع قبل الميلاد. (انظر الجزء الثاني من هذا الكتاب).

(٣) اقتبس الاخمينيون نظام البريد الذي نسب اليهم خطأً من الاشوريين كما سبق واشرنا (ساكز، عظمة بابل، ص٢٨٩).

غزو الاسكندر المقدوني بلاد بابل وآشور

(٣٣١- ٣٢٣ق.م)

شاءت الاقدار ان تكون نهاية الامبراطورية الاخمينية الفارسية التي بسطت سيطرتها على معظم بلدان الشرق الادنى القديم في بلاد بابل وآشور وان تكون هزيمة الملك الاخميني نفسه وجيشه الجرار الذي ناهز عدد افراده المليون مقاتل[١] في معركة وقعت قريباً من مدينة الموصل على الطريق المؤدية الى اربيل في موقع يسمى گوگميلة وذلك على ايدي الاسكندر المقدوني[٢] ..

فالمعروف ان حرباً سجالاً كانت تدور بين الاخمينيين والمدن اليونانية استمرت سنين طويلة وكانت بلاد اليونان تقف دائماً موقف المدافع عن حدودها ومدنها ، وكانت قد حققت انتصاراً حاسماً في صد هجوم الاخمينيين عليها في معركة مراثون . وعندما تولى الاسكندر المقدوني زعامة بلاد اليونان ومقدونيا بعد وفاة والده فيليب ، تغير موقف اليونانيين وبادروا الاخمينيين بالهجوم عليهم في عقر دارهم . فبعد ان وحّد الاسكندر بلاد مقدونيا والمدن اليونانية وقضى على التمردات التي وقعت في عدد من المدن بعد توليه الحكم ، قاد جيشه الذي ضم نحواً من اربعين الفاً من المشاة وسبعة آلاف من الفرسان ، باتجاه الشرق بهدف مبادرة الاخمينيين بالهجوم عليهم في البلدان والاقاليم التي كانوا يحتلونها ، وكان جيش الاسكندر على الرغم من قلّة عدده مقارنة بالجيش الاخميني الذي وصل عدد افراده الى المليون مقاتل ، يتميز بقيادة جيدة وتنظيم وتدريب جديد واسلحة فاعلة . ومعنويات عالية . وقد حقق الاسكندر انتصارات حاسمة في اسيا الصغرى ثم توجه

(١) طه باقر ، المقدمة ، ص٥٨٩ .
(٢) نسبة الى بلاد مقدونيا التي تتمثل بالجزء الوسطي من شبه جزيرة البلقان شمالي بلاد اليونان انظر: ا . يري ، تاريخ الاغريق وادبهم واثارهم ، ترجمة . يونيل يوسف عزيز ، وكذلك هارولد لامب ، الاسكندر المقدوني ، ترجمة عبد الجبار المطلبي ومحمد ناصر الصائغ .

بعد ذلك الى بلاد الشام ومصر وسيطر عليها وقضى على الحاميات الاخمينية فيها عاد بعدها لمواجهة الملك الاخميني دارا الثالث ، وكان ذلك في المعركة التي عرفت باسم معركة اربيلا التي دارت رحاها في موقع گوگميلة وذلك عام ٣٣١[١] ق.م. وقد هزم الملك الاخميني وترك ساحة المعركة هارباً الى داخل ايران حيث قبض عليه بعض اتباعه وقتلوه. اما الاسكندر فبعد ان دخل بابل في العام نفسه وقضى على الحامية العسكرية الفارسية فيها ، اتجه الى ايران[٥] ومنها واصل زحفه شرقاً الى بلاد البخت والصفد وغيرهما من اقاليم ماوراء النهر واواسط اسيا ثم عاد بعد عدة سنوات الى بابل ثانية بعد ان كان قد بسط نفوذه على بلدان واقاليم واسعة جداً وبادر الى وضع الخطط اللازمة لادارة تلك البلدان والاقاليم واراد ان يجعل من مدينة بابل مركزاً تدار منه الاجزاء الشرقية من امبراطورية مترامية الاطراف ومن مدينة الاسكندرية في مصر مركزاً ثانياً لادارة الاجزاء الغربية من الامبراطورية .

وقد نهج الاسكندر سياسة جديدة بالنسبة الى البلدان والأقاليم التي سيطر عليها وذلك بأن اظهر احتراماً لمعتقدات السكان المحليين وزار المعابد الرئيسة في مصر وبلاد الشام وبابل كما انه انشأ عدداً من المدن التي سمّاها باسمه في كل بلد سيطر عليه وكان يضع الخطط لتأسيس امبراطورية قوية واسعة تديرها حكومة مركزية واحدة لذلك كان يعمل على ان يصل بين مركزي الامبراطورية ، بابل والاسكندرية ، عن طريق البحر حول الجزيرة العربية ، وقد باشر فعلاً في تنفيذ مخططاته[٣] الا ان مرضه المفاجئ وهو في بابل ووفاته حال دون اكمال تلك المخططات ، ومات الاسكندر وهو في قصر نبوخذنصر في بابل وذلك عام ٣٢٣ ق.م وكان عمره انذاك اثنين وثلاثين سنة .

---

(١) انظر:

A. Stein. Notes on Alexander's Grossing of the Tigris and the Battle of Arbela, Geographical Journal, 1942.

(٢) طه باقر، المقدمة ، ٥٩٠ - ٥٩١ .

(٣) لقد كانت من خطط الاسكندر تطهير نهر الفرات لجعله صالحاً للملاحة الى الخليج واستكشاف المحيط الهندي الذي يربط الاجزاء الشرقية من امبراطوريته بالاجزاء الغربية ووضع الخطط لانشاء ميناء ضخم في مدينة بابل وميناء آخر في اسافل نهر الفرات عند مصبه في البحر واعادة بناء بابل لتكون العاصمة الشرقية للامبراطورية وقد عهد الى احد قادته بتنفيذ هذا المخطط .

فترة السيطرة السلوقية (٣١١- ١٢٦ق.م)

توفي الاسكندر المقدوني عام ٣٢٣ق.م. وهو في مدينة بابل من غير ان يترك وريثاً للعرش قادراً على تسلم زمام حكم امبراطورية واسعة جداً ضمت معظم العالم القديم شرقاً وغرباً ، فنصب اخاه فيليب ذا العقلية المتخلفة ، ملكاً على بلاد مقدونيا ، مركز الامبراطورية الاولى ، فاضطربت الاحوال وعمت الفتن وقامت ثورات الانفصال في

الاقاليم المختلفة وتقلّصت سلطة الملك المقدوني وغدت سلطته اسمية فحسب في حين انتقلت السلطة الفعلية الى ايدي عدد من القادة الكبار الذين عرفوا باسم ديا دوكي ، اي الخلفاء ، الذين تنافسوا على اقتسام السلطة وحاول كل منهم الانسلاخ عن جسم الامبراطورية بالاقليم الذي يحكم فيه ، وهكذا عم الاضطراب والصراع الدموي العنيف بين هؤلاء القادة لمدة جاوزت الاربعين سنة شهدت خلالها بلاد بابل وآشور الويلات ، ونهبت وخّربت القصور والمعابد مرات عديدة ، فكانت فترة صعبة مرت على العراق تناقلت فيها السلطة ايادي عديدة وحلّ بالبلاد الدمار والخراب الى ان آلت الاجزاء الشرقية من الامبراطورية التي اسسها الاسكندر، والتي ضمت بلاد بابل وآشور وبلاد الشام وايران والاجزاء الشرقية من اسيا الصغرى اضافة الى الاقاليم الشرقية الواقعة الى ماوراء ايران ، الى قائد الاسكندر سلوقس الذي اسس المملكة السلوقية[1] في حين اسس القائد بطليموس مملكة البطالسة في مصر. اما بلاد اليونان وبلاد مقدونيا والاجزاء الغربية من اسيا الصغرى ، فكانت من حصة القائد انتيغوس.

كانت المملكة التي اسسها سلوقس اهم اجزاء الامبراطورية التي كان قد اسسها الاسكندر واكثرها مساحة واتساعاً ، حيث امتدت من تخوم الهند شرقاً الى حدود مصر غرباً ومن البحر الاسود شمالاً الى الخليج العربي جنوباً ، وقد ضمت بلداناً واقاليم متباينة وغير متجانسة ، الا ان بعضها ذات حضارات عريقة اصيلة راسخة ، كبلاد بابل وآشور، وكان عدم التجانس هذا عاملاً فاعلاً في تفتيت المملكة وتفككها منذ بداية تكوينها ، وبعد ان اغتيل سلوقس الاول مؤسس المملكة ، تعاقب على الحكم فيها ثمانية عشر ملكاً ، حمل معظمهم اسم سلوقس او انطيوخس ، كانت غالبيتهم من الملوك الضعفاء الذين لم يتمكنوا من تثبيت سلطاتهم والسيطرة على الاقاليم والبلدان المختلفة الواقعة تحت حكمهم ،

فكان ان بدأت الاقاليم الواقعة الى الشرق من سلسلة جبال طوروس وزاجروس بالانفصال عن جسم المملكة السلوقية والاستقلال عنها ، فتقلصت حدودها حتى اقتصرت على بلاد بابل وآشور وبلاد الشام. كما انقسمت المملكة فعلياً وادارياً الى قسمين ضم القسم الاول منها، وهو القسم الغربي من المملكة ، بلاد الشام وبعض الاجزاء الغربية من اسيا الصغرى ، اما القسم الشرقي فقد ضم بلاد بابل وآشور، واسست في كل قسم عاصمة جديدة ، تأسست مدينة انطاكية العاصي في بلاد الشام، وسلوقية دجلة ، مقابل طيسفون ، في بلاد بابل وذلك في حدود عام ٣٠٠ ق . م .

ومنذ مطلع القرن الثاني قبل الميلاد ، دبَّ الضعف في جسم المملكة السلوقية وبدأ التدهور والانهيار الفعلي ، وانفصلت الولايات الشرقية منها لتقع تحت نفوذ المملكة الفرثية التي كانت قد اسست في ايران في حدود عام ٢٥٠ ق . م . ودخل السلوقيون هذه المرة في صراع عنيف مع الفرثيين ، او الارشاقيين كما يسمّون نسبة الى مؤسس السلالة ارشاق ، الى ان تمكن الفرثيون من السيطرة على بلاد بابل وآشور في الفترة الواقعة بين عام ١٣٩ و١٢٦ ق . م .

كانت الفترة التي وقع فيها العراق تحت حكم الاسكندر المقدوني ومن بعده حكم السلوقيين ، والتي امتدت لاكثر من مائتي سنة ، ذات اهمية خاصة من الناحية الحضارية . فالمتتبع لتطور الاحداث التي مرّت على بلاد وادي الرافدين منذ اقدم العصور التاريخية وحتى غزو الاسكندر المقدوني لبلاد بابل يلاحظ دون عناء كبير ان العراق قد تعرض خلال ذلك التاريخ الطويل الى غزو عدد من الاقوام القادمة من الشرق من المناطق الجبلية وما وراءها ، كالقبائل الكوتية والاقوام الكشية والحورية وغيرها ، كما تعرض لهجرة القبائل البدوية الجزرية القادمة من الغرب والشمال الغربي . وكانت جميع الاقوام الغازية وتلك المهاجرة اقل حضارة بصورة عامة من سكان بلاد بابل وآشور الاصليين ، بل كان بعضها ، كالاقوام الكوتية ، اقوام رعوية همجية ، دمّرت وخرّبت المدن والقرى التي تمكنت من السيطرة عليها .

وفي احسن الاحوال اندمجت القبائل الغازية والمهاجرة بالسكان المحليين وعاشت في ظل الحضارة القائمة في بلاد بابل وآشور والراسخة فيها ولم تؤثر فيها حضارياً الا بقدر محدود. اما غزو الاسكندر المقدوني وخلفائه السلوقيين فقد ترك آثاراً واضحة وبصمات بينة على المنطقة كلّها حيث كان غزواً حضارياً فضلاً عن كونه غزواً سياسياً وعسكرياً. فقد عمل

الاسكندر، وخلفاؤه من بعده، جاهدين على نقل ونشر الحضارة الهلّينية (اليونانية) الى جميع الاقطار والبلدان التي وقعت تحت سيطرتهم، وفي وادي النيل وبلاد الشام وبلاد بابل وآشور وغيرها، فأسست مدن جديدة على غرار المدن اليونانية حملت اسماء القادة والملوك اليونانيين، مثل الاسكندرية وانطاكية وسلوقية وغيرها، ونشطت الثقافة اليونانية وغدت اللغة والثقافة اليونانية من سمات الطبقة الحاكمة والمتنفذة وشاعت الطرز الفنية والمعمارية اليونانية، وكان تشجيع الطبقة الحاكمة لذلك كبيراً، فقد كان هناك صراع حضاري قوي بين الحضارة الهلّينية من جهة وبين حضارات الشرق القديم المتمثلة بحضارة وادي النيل وحضارة وادي الرافدين، وكلتاهما من الحضارات الاصيلة اللتان تمتدان بجذورهما في عمق التاريخ لآلاف السنين، وحضارة بلاد الشام من الجهة الثانية. ولم يكن من السهل على الحضارة الهلّينية ان تطغى على تلك الحضارات او ان تقضي عليها الا انها اثّرت فيها وامتزجت معها ونتج عن تفاعل الحضارات الشرقية مع الحضارة الهلّينية الوافدة ماعرف لدى الباحثين بالحضارة الهلنستية، اي الحضارة الشبيهة بالهلّينية، وهي تسمية اوربية بالطبع تنم عن رغبة الاوربيين في التركيز على تأثير الحضارة الهلّينية الغربية على حضاراتنا الشرقية. ان دراسة آثار الفترة التي سيطر فيها الاسكندر المقدوني وخلفاؤه على الشرق الادنى القديم تشير الى ان تأثير الحضارة الهلّينية على الحضارة العراقية والمصرية والسورية القديمة لم يكن بالعمق والدرجة التي صوّرها لنا الباحثون الاوربيون بل إن الملاحظ ان هذه الفترة كانت تعتمد في جميع مقومات حضارتها الاساسية على الأسس الشرقية وان اكتسبت مسحة هلّينية برزت في بعض الطرز المعمارية والفنية الاخرى في حين ظلت بلدان الشرق القديم تسير وفق الاسس العامة التي كانت تسير عليها في العصور السابقة لغزو الاسكندر وغيره من الغزاة الذين سيطروا على المنطقة. وفي الوقت نفسه كان من نتائج الصراع الحضاري بين الحضارة الهلّينية والحضارات المصرية والعراقية القديمة ان تأثر الهلّينيون بالكثير من المقومات والعناصر الحضارية الشرقية وكانوا الجسر الذي عبرت من خلاله تلك المقومات والعناصر الى الغرب، فكانت الأساس المتين الذي قامت عليه العلوم والمعارف اليونانية من بعدها. وقد اسهم اليونان، ومن بعدهم الرومان، في تطوير العلوم والمعارف التي اقتبسوها من حضارة مصر والعراق. ووضعوها بقالب يوناني جديد حتى خالها الكثيرون انها يونانية الاصل فنسبت اصولها اليهم خطأً، الا ان دراسة تاريخ الحضارات الشرقية القديمة في ضوء المكتشفات الآثارية الاخيرة، ولاسيما في العراق، تشير الى اصول تلك العلوم والمعارف الشرقية ولاسيما علم الفلك والرياضيات والطب والهندسة والكيمياء

وفي القانون ونظام الحكم والنظم الاقتصادية والمالية وغيرها، بل ان تأثير الحضارة العراقية القديمة على بلاد اليونان والرومان قد امتد حتى الى المعتقدات الدينية والتآليف الادبية والمفردات اللغوية.

وكان للفترة التي سيطر فيها السلوقيون على بلاد بابل وآشور اهمية خاصة من حيث المخلفات المادية التي جاءتنا منها والمتمثلة، على قلّتها، بمجموعة مهمة من النصوص المسمارية المهمة ضمت وثائق اقتصادية ونصوصاً ادبية وبعض النصوص الثنائية اللغة والنصوص التاريخية، الا ان اهم النصوص المكتشفة والتي ترقى بتاريخها الى هذه الفترة هي النصوص الرياضية والفلكية. وتؤكد هذه النصوص التقدم الكبير الذي كان قد حققه العراقيون القدماء في مجال العلوم كافة.

ومما يلاحظ في هذه الفترة ايضاً استخدام اللغة الارامية بخطها الابجدي البسيط الى جانب اللغة اليونانية في حين تقلص استخدام اللغة الاكدية وخطها المسماري.

ولابد من الاشارة هنا الى ان فترة السيطرة السلوقية شهدت تأسيس عدد من المدن الجديدة التي انتشرت في انحاء المملكة كان من اهمها مدينة سلوقية دجلة وانطاكية العاصي ومدينة كراكس على الخليج العربي. كما قامت في هذه الفترة وفي القسم الجنوبي من العراق عند ساحل الخليج العربي دويلة اسمها كراكينه، وهي التي ورد اسمها في المصادر الارامية (السريانية) والعبرية والعربية باسم ميسان وفي الفارسية ميشون، وقد نالت استقلالها وانفصلت عن تبعيتها للمملكة السلوقية في بداية القرن الثاني قبل الميلاد وغدت في الفترة التي سيطر فيها الفرثيون على بلاد بابل وآشور من الدويلات المهمة. وكان جل سكانها من الاراميين[١].

اما المدن البابلية والاشورية فقد اضمحل مركز بعض منها، مثل مدينة بابل ونينوى بعد ان انتقلت العاصمة الى سلوقية وانتعش بعضها الاخر لوقوعها على الطرق التجارية مثل كلخو (نمرود) وماري (تل الحريري) والوركاء.

---

(١) انظر، طه باقر، المقدمة، ٥٩٨.

بلاد بابل وآشور تحت وطأة السيطرة الفرثية [1]

(١٢٦ ق.م. – ٢٢٧ ب.م.)

يعد الباحثون عام ١٢٦ قبل الميلاد بداية السيطرة الفرثية الفعلية على بلاد بابل وآشور ونهاية لحكم السلوقيين فيها. وقد استمرت السيطرة الفرثية على العراق حتى عام ٢٢٧ بعد الميلاد عندما وقع العراق تحت وطأة السيطرة الساسانية، وبذلك يكون الحكم الفرثي للعراق قد دام اكثر من ثلاثة قرون ونصف، وهي فترة طويلة جداً شهدت خلالها بلاد بابل وآشور الويلات من الحروب الطاحنة التي احتدمت بين الفرثيين والسلوقيين في بداية الامر ومن ثم بين الفرثيين والرومان. ومع ذلك فقد نشطت الحركة التجارية في هذه الفترة وانتعشت نسبياً بعض المدن البابلية والآشورية التي كانت قد هجرت في فترة السيطرة السلوقية.

والفرثيون من الاقوام الهندية – الاوربية ويمتون بصلة الى الاشكوزيين او السكيثين Scythian الذين سبق أن احتكوا بالآشوريين في آخر عهودهم، وكان الفرثيون قد قدموا الى ايران من السهوب الممتدة بين بحر قزوين وبحر ارال واستولوا على الاقليم الايراني الذي كان يعرف باسم بارتوا، الذي يقابل اقليم خراسان تقريباً، وذلك في اواسط القرن الثالث قبل الميلاد، وقد سمي الفرثيون نسبة الى اسم الاقليم الذي حلّوا فيه. اما لغتهم فيبدو انهم تكلموا باحدى اللهجات الايرانية القديمة المسماة بهلويك (البهلوي الفرثي) وهي قريبة الصلة بالفارسية الساسانية، واستخدموا الخط الارامي الابجدي الذي كان قد انتشر آنذاك في العراق وايران لتدوين لغتهم، الا انهم دونوا لغتهم على الرقوق بالدرجة الاولى مما اضاع علينا مدوناتهم لسرعة تلفها. وقد عرف الفرثيون بالارشاقيين ايضاً نسبة الى مؤسس سلالتهم ارشاق الاول. وكان ارشاق قد تمكن مع اخيه من السيطرة على بعض الاقاليم الشرقية من المملكة السلوقية ومن قتل الحاكم السلوقي في ايران وذلك عام ٢٤٧ ق.م. وكان ذلك بداية للحكم الفرثي في ايران، الا ان الحروب بين الفرثيين والسلوقيين استمرت لاكثر من مائة سنة توالى خلالها على الحكم في ايران عدد من الملوك الفرثيين وكانت الحروب سجالاً بين الطرفين وكانت الكفة الرابحة دائماً للفرثيين سيما وان السلوقيين كانوا

---

(١) حول تاريخ الفرثيين انظر: Delevaige, A politcal History of Parthia, 1938; Girshman, Iran, 1954, P.247 Rf.

مشغولين بحروبهم مع البطالسة والرومان، تلك الحروب التي انهكت جميع الاطراف المتحاربة وكان المستفيد الاول منها هم الفرثيون الذين تمكنوا في حدود ١٢٦ ق.م. من احكام سيطرتهم على العراق وضمه الى حدود مملكتهم التي كانت عاصمتها طيسفون قبالة سلوقية دجلة.

واستمرت الحروب بين الفرثيين والرومان، وكان شمالي العراق ميداناً لكثير من المعارك التي نشبت بين الطرفين. ففي عام ٩٢ ق.م. ورغبة من الفرثيين في اقامة علاقات ودية مع الرومان لضمان خطوط تجارتهم الى سواحل البحر المتوسط، فقد ارسلوا وفداً للتفاوض مع الرومان، وكان الجيش الروماني انذاك يعتزم خوض حرب ضد مملكة الارمن ومملكة بنتس (اقليم البحر الاسود)، الا ان الرومان لم يعترفوا بالفرثيين قوة لها شأن فاحتقروا وفدهم ورفضوا مقترحاتهم مما اغاض الملك الفرثي ودفعه الى التحالف مع مملكة الارمن. ومملكة بنتس اعداء الرومان، وهجم الفرثيون على الجيش الروماني والحقوا به خسائر فادحة وذلك في معركة حران الشهيرة التي وقعت عام ٥٣ ق.م. وكان ذلك في عهد الامبراطور الروماني يوليوس قيصر. ولم يتمكن يوليس قيصر من ان يثأر لبلاده حيث اغتيل هو الاخر، فاستغل الفرثيون الفرصة ووسعوا نفوذهم باتجاه الغرب وسيطروا على سوريا مما دفع القائد الروماني مارك انطونيو الذي كان في مصر ان يبعث بحملة عسكرية لمواجهة الزحف الفرثي، وقد احرز بعض الانتصارات الا انه اندحر في نهاية المطاف وفضل راجعاً الى احضان كليوباطرة في الاسكندرية. وتوقف النزاع بين الطرفين لفترة قصيرة وعقدت معاهدة سلم. وكانت هذه الفترة التي بدأت من العهد الميلادي فترة مظلمة في تاريخ الفرثيين بوجه عام وتاريخ العراق بوجه خاص ضعفت خلالها الدولة الفرثية بسبب المؤمرات الكثيرة في البلاط.

اتبع الرومان سياسة جديدة للحد من نشاط الفرثيين وحماية حدودهم معهم حيث عملوا على اقامة دول وممالك صغيرة حاجزة بينهم وبين الفرثيين. واستأنفت الحرب ثانية بين الطرفين في عهد الامبراطور الروماني تراجان (٩٨-١١٧م) الذي عاصر الملك الفرثي خسرو. وقد قاد جيشه نحو بلاد بابل باتجاه طيسفون وذلك عام ١١٥ م. وفتح المدن الواقعة على الطريق وسيطر على منطقة الموصل (اقليم حدياب) وحاصر الحضر، المدينة المحصنة المنيعة، ولم يستطع فتحها لمقاومتها الشديدة ومناعة اسوارها وشجاعة مدافعيها، فتركها واتجه نحو بابل وطيسفون فدخلها وسلب كنوزهما واستمر بجيشه جنوباً حتى وصل الخليج العربي عندما جاءته الاخبار ان الملك الفرثي استعاد جميع المدن والاقاليم التي وقعت تحت السيطرة الرومانية مما اضطر تراجان الى العودة شمالاً في حر الصيف الشديد

محاطاً بجيوش الاعداء فاعطى خسائر فادحة ومات وهو في الطريق مما اضطر خليفته للتنازل عن جميع الاقاليم التي كان تراجان قد سيطر عليها.

وتكرر الغزو الروماني للعراق في فترة السيطرة الفرثية، وكان آخر ذلك ماقام به الامبراطور الروماني كراكلا (٢١١-٢١٧م) الذي اوقع الفرثيين في خدعة وقتل منهم خلق كثير فاغتاله الفرثيون انتقاماً. وهكذا فشل الرومان في السيطرة على العراق وايران بالرغم من محاولاتهم المستمرة، الا ان حروبهم مع الفرثيين اضعفت الفرثيين حتى انهاروا امام السلالة الساسانية الجديدة وذلك في عام ٢٢٧م.

وعلى الرغم من وقوع العراق تحت الاحتلال الفرثي لفترة طويلة، وسيطرة الفرثيين المحكمة على مقاليد الحكم فيه، فإنه شهد بعض النشاط التجاري والانتعاش الاقتصادي كما قامت حركة عمرانية واسعة في مختلف المدن القديمة البابلية والآشورية وقد ابانت التنقيبات الاثرية التي اجريت في تلك المدن آثار ذلك ولاسيما في مدينة آشور ونينوى وبابل وكيش ونفر والوركاء وغيرها. وقد شمل العمران في المدن القوية تجديد ابنية المعابد القديمة مما يشير الى ان الفرثيين مع انهم ادخلوا دياناتهم الى بلاد بابل وآشور الا انهم سمحوا للسكان المحليين باتباع طقوسهم وشعائرهم الدينية الخاصة الى درجة اننا نجد في المدينة الواحدة معابد بابلية او آشورية واخرى اغريقية وآرامية الى جانب الكنائس اليهودية والنصرانية، فكان هناك تمازجاً حضارياً بين هذه الفئات كما كان التمازج بين السكان الاصليين، من بابليين وآشوريين، مع المستوطنين الجدد من اغريق وفرثيين وغيرهم.

مدينة الحضر:

تعد مدينة الحضر من ابرز المدن العراقية القديمة وأروعها من حيث آثارها الباقية ومبانيها الشاخصة، كما انها كانت من ابرز المدن التي ازدهرت في فترة السيطرة الفرثية على العراق وقاومت حصار اثنين من اباطرة الرومان واقلقت راحة الملوك الفرس الى ان تمكن الملك الساساني سابور الأول من فتح ثغرة في اسوارها المنيعة والسيطرة عليها وذلك عام ٢٤١ ميلادية.

تقع الحضر في منطقة منعزلة على بعد ١١٠ كيلومتراً جنوب غربي الموصل على يمين الطريق المؤدية الى بغداد من الموصل في وسط بادية تكاد تنعدم فيها الحياة لقلة مياهها وزرعها. ومع ذلك، فقد نشأت الحضر ونمت وازدهرت في ظروف خاصة املتها طبيعة العلاقات الدولية بين الرومان والفرثيين كما اشير الى ذلك.

يمتد تأريخ نشوء المدينة الى عصور قديمة لايمكن تحديدها ، غير ان موقعها في وسط بادية جرداء قليلة المياه ، باستثناء موضع الحضر الذي تتجمع فيه مياه الامطار المنسابة من المنحدرات الشمالية ، يرجح الرأي بأنها كانت مستوطنة صغيرة منذ الأزمنة الآشورية.

وبتدفق القبائل العربية في القرون القليلة السابقة للميلاد ، نمت الحضر وغدت مركزا ريفياً مهماً واتخذت عاصمة لبلاد عربايا ، اي بلاد العرب ، واقيم فيها بيت خاص للاصنام كانت تحج اليه القبائل العربية. وفي فترة السيطرة السلوقية توسعت الحضر وارتفع شأنها وانشيء فيها عدد من المعابد. وازدادت اهمية الحضر في فترة السيطرة الفرثية على العراق وصارت عاصمة لمملكة عربية واسعة يحدها النهران دجلة والفرات من الشرق والغرب وتحدها جبال سنجار من الشمال ومشارف المدائن من الجنوب وامتد نفوذها الى ماوراء حدودها. واشتهر سكان الحضر بتمرسهم بمختلف فنون الحرب ، وكانت مدينتهم احد اشهر الحصن العسكرية المنيعة التي قاومت الجيوش الرومانية والفرثية اكثر من مرة واثبتت امكاناتها العسكرية وفرضت شخصيتها على الدول الكبرى انذاك.

ويقسم الباحثون تاريخ الحضر السياسي الى ثلاثة ادوار رئيسة ، الاول هو دور التكوين ويبدأ من نشوء اول مستوطن في الموقع ويواكب نمو الحضر عبر القرون وينتهي في منتصف القرن الاول الميلادي حيث يبدأ الدور الثاني ، وهو دور السادة وذلك لان حكام الحضر كانوا يلقبون انفسهم بلقب " مريا " بمعنى " السيد " واستمر هذا الدور حتى عام ١١٧م ، وهو العام الذي قاومت فيه الحضر حملة الامبراطور الروماني تراجان. اما الدور الثالث والاخير فهو دور الملوك الذي ينتهي مع نهاية الحضر في عام ٢٤١ م.

كان غالبية سكان الحضر من الاقوام العربية ، وكان هناك بعض العناصر الاخرى مثل الآراميين الذين اندمجوا معهم. واستخدم سكان الحضر اللغة الآرامية بخطها الابجدي في التدوين او التفاهم مع الاقوام الاخرى وربما استخدموا احدى اللهجات العربية للتفاهم المحلي.

واثار الحضر ذات طابع خاص امتزجت فيها العناصر الحضارية العراقية القديمة ، الاشورية والبابلية ، والعناصر الحضارية العربية البحتة والارامية فضلاً عن المؤثرات الاجنبية اليونانية والرومانية والفرثية. وسنتناول في مكان آخر الحديث عن اهم آثار الحضر الباقية. [١]

---

(١) حول تاريخ الحضر واهم الاثار المكتشفة فيها ينظر.

فؤاد سفر ومحمد علي مصطفى ، الحضر مدينة الشمس ، بغداد ، ١٩٧٤ ماجد الشمس ، الحضر مدينة الشمس ، بغداد ، ١٩٦٨.

العراق في ظل الاحتلال الساساني

(٢٢٦- ٦٣٧م)

انتهت السيطرة الفرثية على العراق ليقع تحت سيطرة أجنبية اخرى هي سيطرة السلالة الفارسية الساسانية. ففي عام ٢٢٦م دخل الملك الساساني اردشير طيسفون (المدائن) عاصمة الفرثيين في العراق بعد ان قضى على الملك الفرثي واعلن نفسه ملكاً على بلاد بابل وآشور.

وينتسب الساسانيون الى جدهم الأعلى ساسان الذي كان كاهناً اعلى في معبد آلهة النار اناهيتا في مدينة برسيبوليس (اصطخر) ثم خلفه ابنه بابك في هذه الوظيفة، ويعد المؤرخون بابك المؤسس الحقيقي للسلالة الساسانية. وقد نصب اردشير بن بابك نفسه ملكاً على بلاد فارس، ثم بدأ يوسع حدود مملكته الى خارج حدود ايران فاستولى على ولاية ميسان عند مصب نهر دجلة ثم واجه الملك الفرثي نفسه وخاض عدة معارك عسكرية ضده سقط في آخرها الملك الفرثي وانتهى بمقتله حكم السلالة الفرثية، وفي عام ٢٢٦م اعلن اردشير نفسه ملكاً على جميع بلاد ايران والعراق. والساسانيون من الأقوام الفارسية التي ينتمي اليها الاخمينيون ايضاً. وكان اول قدوم القبائل الفارسية الى ايران في مطلع الالف الاول قبل الميلاد، كما سبق ان اشرنا، وكانت السلالة الاخمينية اول سلالة فارسية حاكمة. وقد حاول الساسانيون تجديد الحضارة الفارسية والسيطرة على جميع الاقوام الايرانية. وحكم الساسانيون فترة طويلة ومهمة في تأريخ الشرق الأدنى القديم، ومنها العراق، حيث امتدت الى ظهور الاسلام الذي قضى على الامبراطورية الساسانية واعاد الحكم الوطني الى العراق بعد معركة القادسية عام ٦٣٧م.

لقد تخللت فترة السيطرة الساسانية سلسلة من الحروب والصراعات السياسية بين الملوك الساسانيين من جهة واباطرة الرومان وحكام وملوك البلدان الاخرى من جهة ثانية. وبرزت في هذه الفترة عدة ممالك عربية قاومت الرومان والفرس مثل مملكة تدمر في سوريا والحضر في بادية العراق ومملكة الحيرة غربي العراق. كما ظهرت في هذه الفترة حركات فكرية ودينية كان لها اثرها في المنطقة منها الحركة المانوية والمزدكية، كما تغلغلت المسيحية بين صفوف الساسانيين، وانقسم المسيحيون على انفسهم الى طائفتين هما طائفة النساطرة وطائفة اليعاقبة، وذلك في النصف الثاني من القرن الخامس الميلادي. ومع اهمية هذه

الفترة القصوى في تأريخ العراق القديم وتأثيراتها الواضحة عليه وازدحام احداثها السياسية الا ان ماسيقدم عنها هو نبذة مختصرة جداً عن اهم الاحداث التي وقعت خلالها.

لم تكن نهاية السلالة الفرثية ومقتل الملك الفرثي نهاية فعلية للأخطار التي واجهها الملك الساساني اردشير، حيث قام اتحاد قوي ضم الممالك المجاورة تزعمتها مملكة ارمينيا ضد الدولة الساسانية الجديدة، وقدمت روما لهذا الاتحاد المساعدات اللازمة بهدف المحافظة على مصالحها في الشرق والحد من اتساع نفوذ الساسانيين. غير ان اردشير تمكن من القضاء على هذا الاتحاد في سلسلة من المعارك القوية الطاحنة فثبت بذلك حكمه الذي استمر مايقرب من نصف قرن.

كما دخلت الدولة الساسانية في عهد خليفة اردشير في حرب سجال مع الامبراطورية الرومانية، وصادف في هذه الفترة تعاظم قوة مملكة تدمر العربية في سوريا ووقوفها ضد تقدم الساسانيين وايقاعها الرعب والفزع في صفوف الجيش الساساني بعد ان استهان الملك الساساني بوفد اذينة ملك تدمر. وازاء ذلك حاول الرومان كسب جانب مملكة تدمر ولقبوا اذينة بحاكم الشرق، وبعد وفاة اذينة اصبحت زنّوبية (او الزباء) ملكة على تدمر، وكانت ملكة ذات طموح كبير تحدت الامبراطورية الرومانية ووسّعت من حدود مملكتها على حساب الرومان وامتد نفوذها الى مصر ودمرت جيشاً رومانياً ونصبت ابنها الصغير ملكاً على مصر كما حاربت الساسانيين ودمرت جيش شابور مرتين، واوشكت ان تدخل العاصمة طيسفون. وخوفاً من تعاظم قوتها اكثر قام الامبراطور الروماني اورليان بهجوم كاسح على مملكة تدمر ودمّرها بعد حصار شديد واسر ملكتها.

واستمرت الحروب بين الساسانيين والرومان ومنذ بداية القرن الخامس الميلادي بدأ الضعف يدب في اوصال الدولة الساسانية وبدأ الصراع على اعتلاء العرش وزاد تدخل الكهنة الزرادشتيين في الحكم كما ظهر الصراع الديني بين الزرادشتية والمسيحية. وفي هذه الفترة انقسمت الامبراطورية الرومانية على نفسها الى قسمين شرقي ومركزه بيزنطية وغربي ومركزه روما. وزادت الاحوال سوءاً بتدهور الاوضاع الاقتصادية وظهرت حركات دينية جديدة مثل المزدكية مما زاد في ضعف الدولة. ثم عادت وانتعشت الدولة الساسانية في عهد كسرى انوشروان (٥٣١ – ٥٧٩ م) ولكن لفترة حكم هذا الملك فقط حيث ساءت الاحوال ثانية بعد وفاته وقامت الثورات وتألب الاعداء على الملك الساساني وزاد تدخل البيزنطيين في شؤون الساسانيين الداخلية. وفي عهد كسرى الثاني (٥٩٠ – ٦٢٨ م) ارسل النبي محمد صلى الله عليه وسلّم وفداً الى البلاط الساساني يعرض عليه الدخول في

الاسلام ، دين الحق الجديد ، غير ان كسرى تجاهل هذه الرسالة وصاحبها ولم يدر بخلده ان امبراطورية الفرس ستنهار على ايدي العرب المسلمين بعد اربع عشرة سنة فقط من ذلك التأريخ ، فقد كانت فعلاً نهاية الساسانيين على ايدي الجيوش العربية التي حملت راية الاسلام عالياً في معركة القادسية بقيادة سعد بن ابي وقّاص وذلك عام ٦٣٧ م التي حقق فيها العرب المسلمون انتصاراً ساحقاً وحاسماً على الفرس الساسانيين تخلّص بعدها العراق من الحكم الأجنبي والسيطرة الساسانية.

الحيرة : [١]

في بداية القرن الثالث للميلاد وفدت بعض القبائل العربية من عرب اليمن الى منطقة الفرات ، وكانت تلك القبائل تسمي نفسها باسم تنوخ ، وفي هذه الفترة كان الاضطراب يعم ارجاء المنطقة مابعد سقوط الدولة الفرثية وقيام الدولة الساسانية تحولت المخيمات التي كان يسكنها العرب الى مدينة مهمة عرفت باسم الحيرة وتقع على بعد ثلاثة اميال جنوبي الكوفة . وقد ورد ذكر الحيرة في المصادر السريانية باسم (الحيرة مدينة العرب) كما عرفت باسم بعض ملوكها مثل النعمان . وقامت في الحيرة مملكة عربية كان لها شأن في سياسة الدولة الساسانية وكان من اشهر ملوكها امرؤ القيس والنعمان الأول الملقب بالأعور (٤٠٠ – ٤١٨ م) الذي ينسب اليه بناء الخورنق والسدير ، والمنذر الاول بن النعمان (٤١٨ – ٤٦٢ م) الذي عظم في عهده شأن الحيرة حتى انه تدخل في قضية اعتلاء العرش الساساني ، وكان له دور كبير في تنصيب بهرام الذي التزم جانبه ضد مدع العرش الساساني . كما حكم في الحيرة المنذر الثاني (٥٠٥ – ٥٥٤ م) الذي سماه العرب باسم ابن ماء السماء وكان اشهر ملوك الحيرة وقد اقلق الامبراطورية الرومانية وازعجها في بلاد الشام حيث وصل بجيشه الى انطاكية .

وكان آخر ملوك الحيرة هو النعمان الثالث (٥٨٠ – ٦٠٢ م) ، صاحب النابغة الذبياني ، الذي اعتنق النصرانية ، وكان الملك الوحيد الذي تنصر من بين ملوك الحيرة . وفي عام ٦٣٣ انحاز اهل الحيرة الى خالد بن الوليد عند فتحه العراق .

---

(١) حول تفصيل تأريخ مملكة الحيرة انظر : جواد علي ، تأريخ العرب قبل الاسلام ، بغداد ، ١٩٥٥ ، ج ٤ ، ص ٥ – ١٨ .

	الغزو الاخميني ٥٣٩ - ٣٣١
٥٠٠	
٤٠٠	
	الاسكندر المقدوني ٣٣١- ٣٢٣
	السيطرة السلوقية
٣٠٠	٣١١- ١٢٦
٢٠٠	
	السيطرة الفرثية
١٠٠	١٢٦ ق.م - ٢٢٧ م
ـــــ	
١٠٠ م	
٢٠٠ م	
	الاحتلال الساساني ٢٢٧ م - ٦٣٧ م
٣٠٠ م	
٤٠٠ م	
٥٠٠ م	
٦٠٠ م	
٦٣٧	التحرير العربي الاسلامي في معركة القادسية

اهم المصادر

شهدت السنوات الاخيرة حركة واسعة ونشطة في مجال تأليف الكتب الخاصة بتأريخ العراق القديم وتأريخ حضارته رافقتها حركة مماثلة في ترجمة أهم الكتب والدراسات الاجنبية ذات العلاقة. وقد ساهم في تأليف بعض الكتب ذات الطابع الموسوعي عدد كبير من اساتذة الجامعات العراقية وغيرهم من المتخصصين في مختلف فروع التأريخ القديم. وحيث اننا سنلحق بكل فصل من فصول الجزء الثاني من هذا الكتاب قائمة منتخبة تتضمن اهم الكتب والدراسات والبحوث المؤلفة والمترجمة والاجنبية ذات العلاقة بموضوع الفصل الحضاري ليتسنى للقارئ والباحث الرجوع اليها والاطلاع على المزيد من التفاصيل، نكتفي هنا بتقديم قائمة منتخبة باهم الكتب والدراسات ذات الطابع العام وكذلك الخاصة بتأريخ العراق القديم السياسي، مع مجموعة محددة من الكتب الاجنبية، مسلسلة ابجدياً.

ابراهيم ، حياة محمد : نبوخذ نصر الثاني ، بغداد ، ١٩٨٣
الاحمد ، سامي سعيد : كتابة التأريخ عند الآشوريين في العصر السرجوني ، سومر ٢٥ (٩٦٩) ٤٥- ٨٠.
العراق في كتابات اليونان والرومان ، سومر ٢٦ (٩٧٠) ، ١١٣- ١٤٢.
لماذا سقطت الدولة الآشورية ، سومر ٢٧ (٩٧١) ١٠٩- ١٢٨.
السومريون وتراثهم الحضاري ، بغداد ، ١٩٧٥ :
المدخل الى تأريخ العالم القديم : العراق القديم ج١ ، ١٩٧٨ ج٢ ١٩٨٣ بغداد.
فترة العصر الكشي ، سومر ٣٩ (١٩٨٣) ١٣٤- ١٥٦
ورضا الهاشمي : تأريخ الشرق الادنى القديم ، ايران والاناضول ، بغداد.
احمد ، جمال رشيد : دراسات كردية في بلاد سوبارتو ، بغداد ، ١٩٨٤.
ادامز ، روبرت ماك : اطراف بغداد ، شيكاغو ١٩٦٥ ، ترجمة صالح العلي وعلي المياح وعامر سليمان
الامين ، محمود حسين : رحلة نيبور في العراق في القرن الثامن عشر ، بغداد ، ١٩٥٤ ، معرّبة.
اوبنهايم ليو : بلاد مابين النهرين ، شيكاغو ١٩٦٤ ترجمة سعدي فيضي
اوتس ، ديفيد وجون : نشوء الحضارة ، ترجمة لطفي الخوري ، بغداد ، ١٩٨٨
اوتس ، جون : بابل - تأريخ مصور ترجمة سمير عبدالرحيم الجلبي ، بغداد ، ١٩٩٠
باقر ، طه : علاقة العراق القديم وبلدان الشرق الادنى ، سومر ٤ (١٩٤٨) ٨٦- ١٠٢
مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة ، ج١ : تأريخ العراق القديم ، ط٢ ، بغداد ١٩٥٥
مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة ، ج١ ط٣ : الوجيز في تاريخ حضارة وادي الرافدين ، بغداد ٩٧٣.
وعبدالعزيز حميد : طرق البحث العلمي في التأريخ والآثار ، بغداد ، ٩٨٠.

وفاضل عبدالواحد وعامر سليمان : تأريخ العراق القديم ج[1] و ج[2] ، بغداد ، ١٩٨٠ .

بصمة جي ، فرج : الاختام الاسطوانية في المتحف العراقي ، ٢ (٩٤٦) ١٥٥- ١٦٤.

الاناء النذري في الوركاء ٣ (٩٤٧) ، ١٩٣- ٢٠١

بحث في الفخار، سومر ٤ (٩٤٨) ، ١٥- ٥٥ .

الوركاء ، ١١ (٩٥٥) ٤٧- ٦١ .

العصور الحجرية في العراق في ضوء المكتشفات الحديثة ، ١١ (٩٥٥) ، ١١١- ١٢٦ .

بوترو، جين ، ارثر ادزارد وادام فلكنشتاين : الشرق الادنى - الحضارات المبكرة ، ترجمة عامر سليمان

توينبي ، ارنولد : دراسة التأريخ ، ترجمة طه باقر القاهرة ١٩٦٦ :

جامعة الموصل : موسوعة الموصل الحضارية ، موصل ، ١٩٩١

جماعة من علماء الآثار السوفيت : العراق القديم ، ترجمة سليم طه التكريتي ، بغداد ، ١٩٧٦ .

الراوي ، شيبان ثابت ، اشور ناصر بال الثاني ، سيرته واعماله ، رسالة ماجستير غير منشورة ، بغداد ، ١٩٨٧

رو، جورج : العراق القديم ، ترجمة حسين علوان حسين ، بغداد ، ١٩٨٤

الرويشدي ، سعدي : الكهوف في الشرق الادنى ، سومر، ٢٥ (٩٦٩) .

الجاسم ، صباح عبود : مرحلة الانتقال من جمع القوت الى انتاج القوت في العراق وجنوب غرب اسيا ، رسالة ماجستير غير منشورة ، بغداد ، ١٩٧٥

الحائك ، البير رشيد ، تعيين تأريخ المواد الأثرية بواسطة قياس الاشعاع الذري ، سومر ٢٠ (٩٦٤)

حبيب ، طالب منعم : سنحاريب سيرته ومنجزاته ، رسالة ماجستير غير منشورة ، بغداد ، ٩٨٦

دانيال ، كلين : موسوعة علم الآثار، ترجمة ليون يوسف، ١٩٩١ وما بعدها.
الدباغ ، تقي : الفخار القديم ، سومر ٢٠ (٩٦٤) ٨٧ – ١٠٠
: البحث عن الآثار، مجلة كلية الآداب ، ١١ (٩٦٨)
ووليد الجادر واحمد مالك : طرق التنقيبات الأثرية ، بغداد ، ١٩٨٣
: الوطن العربي في العصور الحجرية ، بغداد ، ١٩٨٨
دلابورت ، ل : بلاد مابين النهرين ، حضارة بابل وآشور، ١٩٢٥ ترجمة مارون الخوري ١٩٧١
دوبونت : الاراميون ، ترجمة البيرابونا ، سومر ١٩٦٣
دوري ، رياض عبدالرحمن ، اشور بانيبال ، سيرته ومنجزاته ، رسالة ماجستير غير منشورة ، بغداد ، ١٩٨٦
زيباري – اكرم : علاقات اقطار الشرق الادنى القديم في الالف الثاني ق.م. مجلة كلية الآداب ، بغداد ،
الزرقي ، عبد المحسن : العدوان الفارسي على العراق في العهد الاخميني ، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة الى كلية الاداب جامعة الموصل ، ١٩٨٩.
ساكز، هاري : عظمة بابل ، لندن ، ١٩٦٢ ترجمة عامر سليمان ، موصل ، ١٩٨٢
سفر، فؤاد : البيئة الطبيعية القديمة في العراق – سومر ٣٠ (٩٧٤) ، ١ – ٩.
سليمان ، عامر: القانون في العراق القديم موصل ١٩٧٧
واحمد مالك الفتيان : محاضرات في التأريخ القديم ، موصل ١٩٧٨.
وفاضل عبدالواحد : عادات وتقاليد الشعوب القديمة – موصل ١٩٧٩.
الكتابة المسمارية والحرف العرب ، موصل ، ١٩٨٢
: بلاد عيلام وعلاقتها بتأريخ العراق القديم ، آداب الرافدين ، ١٠ (١٩٨٢)
: اللغة الاكدية – البابلية – الآشورية ، موصل ١٩٩١
سوسة ، احمد : وادي الفرات. مشروع بحيرة الحبانية ، بغداد ، ١٩٤٢
فيضانات بغداد في التأريخ ، بغداد ، ١٩٦٣.
الري والحضارة في وادي الرافدين ، بغداد ، ١٩٦٨.

حضارة وادي الرافدين بين الساميين والسومريين، بغداد، ١٩٨٠
مفصل العرب واليهود في التأريخ، بغداد، ١٩٨١
تأريخ حضارة وادي الرافدين، ج١ وج٢، بغداد، ١٩٨٦.

شريف، ابراهيم: الموقع الجغرافي للعراق واثره في تأريخه العام حتى الفتح الاسلامي، بغداد، ١٩٤٧
الشيخلي، عبدالقادر عبدالجبار: المدخل الى تأريخ الحضارات القديمة القسم الاول: الوجيز في تاريخ العراق القديم بغداد، ١٩٨٠
ظاظا، حسن، الساميون ولغاتهم، ١٩٧١
عبدالوهاب، لطفي: العرب في العصور القديمة، ١٩٧٨
علي، فاضل عبدالواحد: اقدم حرب للتحرير عرفها التأريخ، سومر ٣٠ (١٩٧٤)
: الاكديون طلائع على الجبهة الشرقية، افاق عربية ١٩٨٠، ١٩٨٤.
الفتيان، احمد مالك: العهد الفرثي في العراق، بغداد، ١٩٧٥ (رسالة ماجستير غير منشورة)
فرانكفورت، هنري: ماقبل الفلسفة، ترجمة جبرا ابراهيم جبرا بغداد، ١٩٦٠
فجر الحضارة في الشرق الادنى ترجمة ميخائيل خوري، بيروت، ١٩٥٩

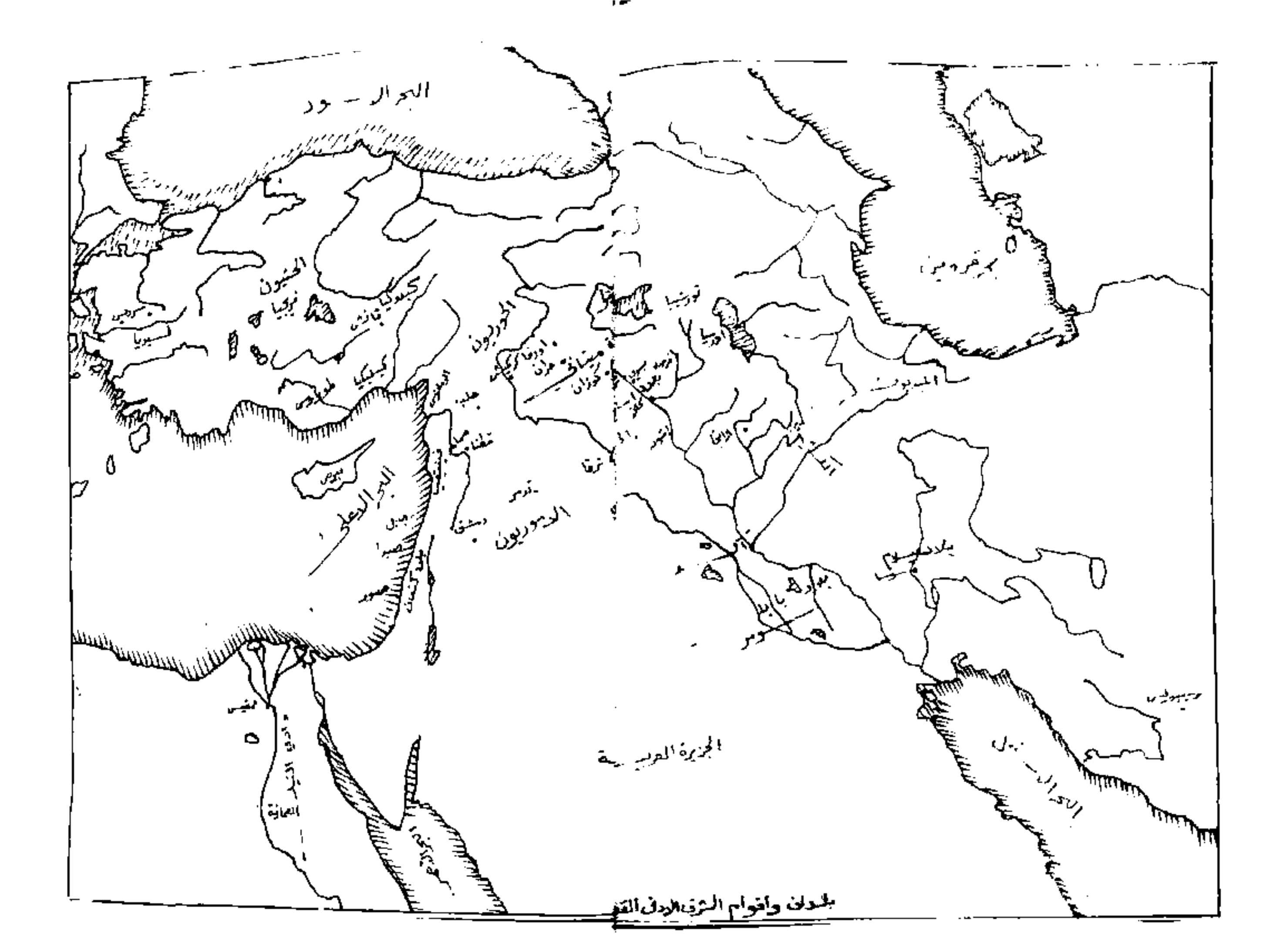
فياض، محمد محمد: التقاويم، القاهرة ١٩٥٨
القيل، محمد رشيد: حضارة العصر الحجري القديم الاسفل، مجلة كلية الاداب، ٨ (١٩٦٥)
كاسان، ايلينا: مفهوم الزمان والمكان في وادي الرافدين القديم، ترجمة وليد الجادر سومر ٣١ (٩٧٥) ٣٢٧ - ٣٤٣
كريمر، صموئيل نوح: من الواح سومر، شيكاغو، ١٩٥٦، ترجمة طه باقر
: السومريون، شيكاغو، ١٩٦٤، ترجمة فيصل الوائلي.

كلنغل، هورست : حمورابي ملك بابل وعصره ، ترجمة غازي شريف بغداد ، ٩٨٧
كونتينو، جورج : الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور، ترجمة سليم التكريتي وبرهان التكريتي ، بغداد ، ١٩٧٩ .
كيلها مر: حل رموز الكتابة المسمارية ترجمة محمود الامين، سومر ١٢ (٩٥٦) ٩٠-١٠٠
كييرا ، الدارد : كتبوا على الطين ، شيكاغو ١٩٥٩ ترجمة محمود الامين بغداد ، ١٩٦٤
لمبرت ، موريس : عصر ماقبل سرجون ، سومر، ٨ (٩٥٢) ترجمة فرج بصمة چي .
لويد ، سيتون : آثار بلاد الرافدين ، ترجمة سامي سعيد الاحمد
نخبة من الباحثين : العراق في التأريخ ، وزارة الثقافة والاعلام ، بغداد ١٩٨٣
الصراع العراقي الفارسي ، وزارة الثقافة والاعلام ، بغداد ١٩٨٣
حضارة العراق ١٣ مجلد ، وزارة الثقافة والاعلام ، بغداد ١٩٨٥
الجيش والسلاح ٥ مجلدات ، وزارة الثقافة والاعلام ، بغداد ١٩٨٥
العراق في موكب الحضارة ٣ مجلدات ، وزارة الثقافة والاعلام ، بغداد ١٩٨٨
المدينة والحياة المدنية ٣ مجلدات ، وزارة الثقافة والاعلام ، بغداد ١٩٨٨
العراق في مواجهة التحديات ، ٤ مجلدات ، وزارة الثقافة والاعلام ، بغداد ١٩٨٨
ياسين ، غسان طه : العصر الحجري القديم الاوسط في الشرق الادنى ، رسالة ماجستير بغداد ، ١٩٧٦

اهم المصادر الأجنبية العامة

Beek, M, Atlas of Mesopotamia, London, 1962
Bury, J.B., and others, (editors) The Cambridge Ancient History, vol. I–III, 3rd. edition.
Diringer, D., Writing, London, 1962
Dirver, G.R., Semitic Writing from Pictograph to Alphabet sec. edition, Oxford 1954, third ed. 1976.
Finklstein, J.J., Mesopotamia, Journal of Near Eastern Studies, 21 (1962),

Girshman, Iran, 1954
Grayson, A.K., Assyrian and Babylonian Chronicles, Texts from Cuneiform Sources, vol.v., New York, 1975.
Jacobsen, Th., The Sumerian King – Lists, Chicago, 1973.
Lees and Falcon, The Geographical History of the Mesopotamian Plains, Geographical Journal, 1962, pp.24–29.
Luckenbill, D.D., Ancient Records of Assyria and Babylonia, Chicago, 1927.
Mallawan, M.E.L., Twenty–Five years of Mesopotamian discovery, London, 1956.
Meissner, B., Babylonian and Assyrian, Two vol., Heidelberg, 1920/1925
Pritchard, J.B., (editor), Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament, New Jersy, 3rd ed. 1969.
Saggs. H.W.F., The Might that was Assyria, London, 1984.
Waterman, L.,Royal Correspondance of theAssyrian Empire,An Arber, 1930.
Wiseman, D.J., Chronicles of Chaldean Kings, London, 1961.



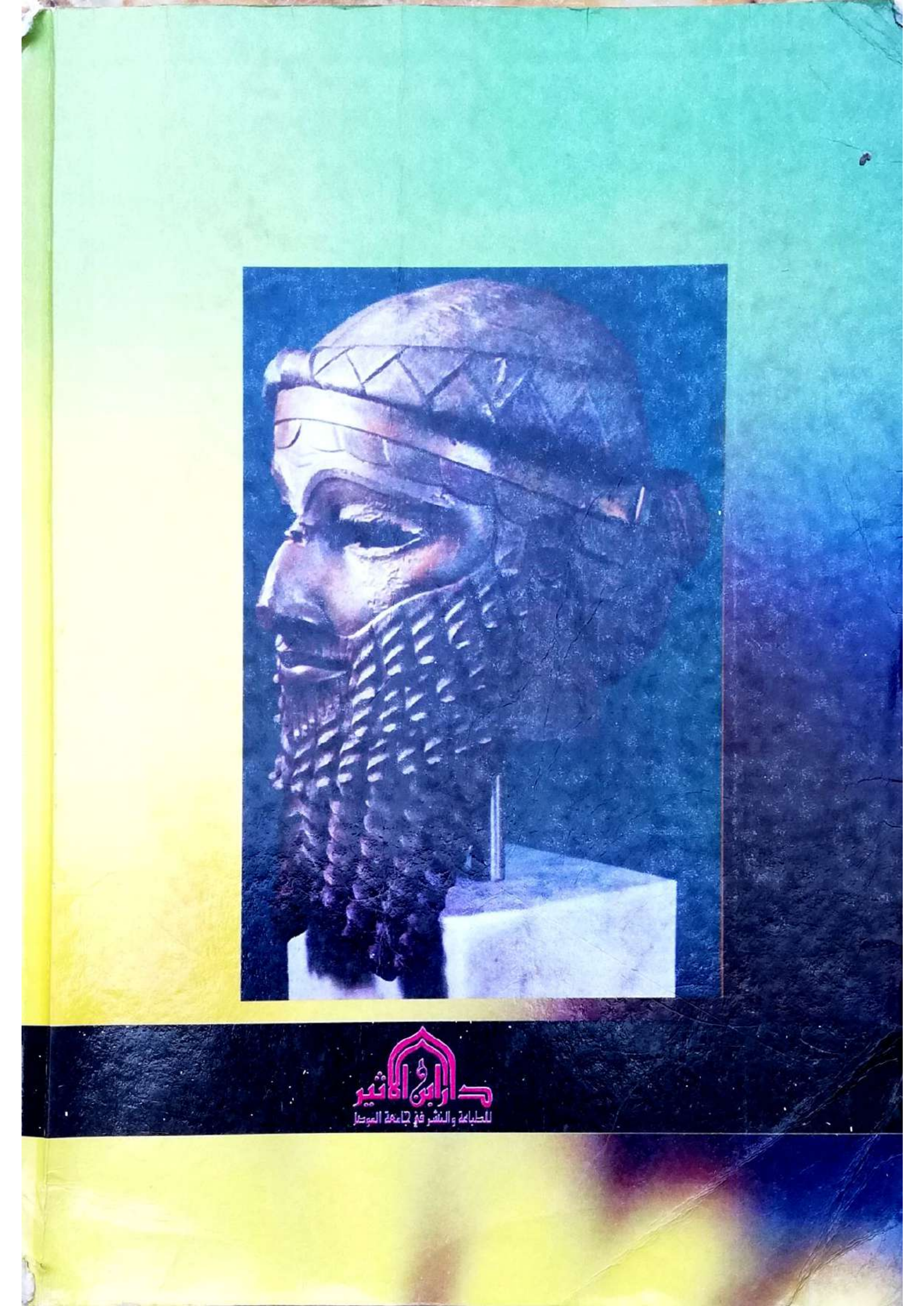
بلدان وأقوام الشرق الأدنى القديم

٩٣٥
ع ٢٨٤ عامر سليمان
العراق في التأريخ القديم / عامر سليمان. - الموصل :
دار الكتب للطباعة والنشر، ١٩٩٢.
جـ١ (ص) ؛ ٢٦ سم
يتضمن: جـ١ موجز التاريخ السياسي
١- العراق - تاريخ قديم
٢- العراق - الاحوال السياسية
آ. العنوان

م.و
١٩٩٢/٣٥٢

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ٣٥٢ لسنة ١٩٩٢

دار ابن الاثير للطباعة والنشر
جامعة الموصل


دار ابن الأثير
للطباعة والنشر في جامعة الموصل